الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة البليدة 2 لونيسي علي

مخبر اللغة العربية وآدابها

مجلة مخبر اللغة العربية وآدابها في

الصَّوتيات

مجلة علمية دولية محكمة

المجلد العشرون (20) العدد الأول (01) جمادى الأولى 1439 . جانفي 2018

ISSN : 1112 - 6426

مجلة مخبر اللغة العربية وآدابها في

الصوتيات

المجلد العشرون (20) العدد الأول (01) جمادى الأولى 1439 جانفي 2018

رئيس التحرير

أ.د عمار ساسي

مدير المخبر

هيئة التحرير

أ.موسى دريهم **د. عواطف قاسمي الحسني**

سكرتير التحرير

كمال حسايني

الهيئة الاستشارية العلمية للمجلة

- أ.د/ عبد الرحمان الحاج صالح – الجزائر 2.
- أ.د/ عمر لحسن – عنابة.
-أ.د/ محمد العيد رتيمة – الجزائر2 .
-أ.د/ نصرالدين بوحساين – البليدة 2
-أ.د/ بوعبدالله لعبيدي – البليدة 2.
-أ.د/ عبد العزيز محي الدين – البليدة 2
-أ.د/ مكي دّرار – وهران .
-أ.د/ نادية صام - البليدة 2
- أ.د/ جيلالي بن يشو – مستغانم.
-أ.د/ نعيمة بوزيدي – البليدة 2
-أ.د/ يحي بعيطيش – قسنطينة.
- أ.د/ ناصر الدين خليل – وهران .
-أ.د/ عبد الحفيظ ملواني – البليدة 2
-أ.د/ يوسف مقران – تيبازة
- أ.د/ جمال معتوق – البليدة 2.
-د/ علي حميداتو – البليدة 2
-د/ سيد على صحراوي – البليدة 2.

- أ.د/ فهد بن مسعد بن محمد اللّهيبي – السعودية
- أ.د/ أحمد نعيمي – الأردن
– أ.د/ محمد لهلال - المغرب
أ.د/ فيصل حسين غوادرة – فلسطين
- أ.د/ عمر إسحاق أوغلو – تركيا.
- أ.د/ خلف الخريشة – الأردن .
- أ.د/ الطيب بوقرة – فرنسا .
- أ.د/ عبد الرزاق بن عمر – تونس
-أ.د/ عبد الغاني أبوالعزم – المغرب.
- أ.د/ هادي نهر - الأردن.
- أ.د/ خالد يعبودي - المغرب
- أ.د/ محمد لهلال - المغرب

التدقيق اللغوي

بن شرقي عتابي

ترسل البحوث إلى مجلة **الصوتيات** .البوابة الجزائرية للمجلات العلمية

https://www.asjp.cerist.dz

قواعد النشر العلمي في مجلة الصوتيات

التي تصدر عن مخبر اللغة العربية وآدابها بجامعة البليدة2

تنشر المجلة مختلف الإسهامات البحثية لجميع الأكاديميين وأساتذة الجامعات والباحثين المتخصصين في مجالات اللّغة العربية وآدابها واللّغات الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والاسبانية) والعلوم الإنسانية والاجتماعية والقانونية والسياسية والعلوم الإقتصادية والتسيير، على أن تتوفر الشروط التالية في البحث أو الدراسة:

- لا يكون البحث المقدم للنشر قد نشر أو قدم للنشر في مجلات أو دوريات أخرى أو قدم و نشر في دوريات لمؤتمرات أو ندوات (يقدم الباحث تعهد مكتوب يؤكد فيه ذلك).
- تختصر المادة العلمية المكتوبة فيه قدر المكان بحيث تقدم معلومات مفيدة، ومركزة.
- أن يكونَ البحثُ خاليًا مِنَ الأخطاءِ اللغوية والنَحوية والإملائيَّة.
- أن يكون البحث مطبوعا على برنامج الوورد (.Word Doc) ،
- تقع المسئولية على صاحب البحث في الحصول على تصريح باستخدام مادة علمية لها حق الطبع، وهذا يشمل النسخ المصورة من مواد نشرها من قبل.
- لا يزيد حجم الصور عن 20% من حجم البحث، و تقدم في ملف منفصل عند تقديم البحث للنشر.
- يُذكر مرة واحدة في البحث المصطلح العلمي باللغة العربية وبجانبه المصطلح باللغة الإنجليزية أو الفرنسية عند وروده أول مرة، ويُكتفى بعد ذلك بكتابته باللغة العربية (بالنسبة للبحوث العربية) .
- أن يكون البحث مكتوبا بلغة سليمة، ويكون مرفقا بتقرير من مدقق لغوي سواء باللغة العربية أو الفرنسية.
- يطلب من الباحث أن يتقيد بترتيب محتوى البحث كالآتي (المقدمة، المشكلة، الأهداف، الأهمية، تحديد مصطلحات الدراسة، حدود الدراسة، الدراسات السابقة، فرضيات الدراسة، إجراءات الدراسة الميدانية: منهج الدراسة، مجتمع الدراسة، عينة الدراسة،أدوات الدراسة،عرض النتائج ، مناقشة وتفسير النتائج ،التوصيات،البحوث المقترحة، الخاتمة، قائمة المراجع، قائمة الملاحق). وهذا في حالة البحوث الميدانية.
- ترقم الجداول والرسوم التوضيحية والأشكال وغيرها حسب ورودها في البحث، كما توثق المنقولة منها بالمصادر الأصلية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث أو الدراسة عن (25) صفحة بما فيها الملاحق والمراجع وضرورة إرسال النسخة الالكترونية على العنوان الالكتروني لرئيس التحرير.

ثانيا: إجراءات تحكيم البحوث:

- يتم إشعار الباحث بإستلام بحثه خلال مدة لا تتجاوز أسبوعين من تاريخ الاستلام.
- تقوم هيئة التحرير باختيار محكمين اثنين للبحث الواحد. وتخضع البحوث للتحكيم السري لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- بعد قبول البحث للنشر في المجلة، يقدِّم الباحث نسخةً من البحث بشكله النهائي، ويحصل على خطاب بقبول بحثه للنشر في المجلة.

- تعتبر القرارات المتعلقة بالبحوث نهائية، ولا يمكن إعادة النظر فيها.
- عند صدور قرار قبول نشر البحث، لا يحق للباحث أن يقدمه للنشر في أي مكان آخر.
- لا تُعاد الأبحاث إلى أصحابها سواء قُبِلت للنشر أمْ لمْ تُقبل. وعلى الباحث متابعة بحثه خاصة فيما يتعلق بالتعديلات.
- يصبح البحث المنشور ملكًا للمجلة ولا يحق إعادة نشره في أماكن أخرى .
- تعبر الأفكار المنشورة بالمجلة عن آراء أصحابها، ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر المجلة.

ثالثا: طريقة كتابة الهوامش والمراجع:

- الهوامش العربية

توضع جميع الهوامش بصورة متسلسلة في نهاية الدراسة.

الكتب : إسم المؤلف، عنوان الكتاب (مكان النشر: إسم الناشر، سنة النشر)، رقم الصفحة.

مثال: عبد الحفيظ مقدم، الإحصاء في التربية وعلم النفس، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الأولى، 1998)، ص 33.

البحوث المنشورة في الكتب: إسم المؤلف، "عنوان البحث "، في: محرر الكتاب، عنوان الكتاب (مكان النشر: اسم الناشر، سنة النشر)، رقم الصفحة.

مثال: صلاح الادين محمود علام، "أساسيات التقويم التربوي" :، في: أحمد عكاشة (محرر)، التقويم في حياتنا اليومية (القاهرة: دار المعرفة للنشر، الطبعة الأولى، 1988)، ص 88-96.

المجلات والدورات العلمية: إسم المؤلف، "عنوان البحث" إسم الدورية، رقم العدد (مكان النشر: إسم الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

مثال: محمد إبراهيم السقا، "تحولات العمال من الدولة العربية النفطية وخيارات السياسة"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 88 (الكويت: 1999)، ص135.

أوراق العمل المقدمة في المؤتمرات: إسم المؤلف، "عنوان الورقة"، في مؤتمر: عنوان المؤتمر، الجهة المنظمة للمؤتمر، مكان أنعقاده، تاريخ إنعقاده، الصفحة.

مثال: أرسي كلايجوغلو، "السياسة الخارجية التركية والامن الإقليمي والتعاون في الشرق الأوسط" في ندوة: الحوار العربي – التركي، منتدى الفكر العربي، عمان، الأردن، 18-19 مارس 1996، ص23.

الرسائل الجامعية: إسم المؤلف، "عنوان الرسالة"، طبيعة الرسالة (ماجستير أو دكتورة)، وإذا كانت منشورة أولا، الجامعة المقدمة إليها، مكان الجامعة، السنة الإجازة، الصفحة.

مثال: عبد الوهاب عليلي، "واقع تطبيق التصميم التجريبي في البحوث النفسية" رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البليدة 2، البليدة، الجزائر، 2014، ص10.

الموسوعات : إسم مؤلف البحث المنشور داخل الموسوعة، "عنوان البحث"، في: إسم المشرف على الموسوعة، إسم الموسوعة (مكان النشر: إسم الناشر، سنة النشر)، رقم الصفحة.

مثال: خيرية قاسمية، "المذكرات والسير الذاتية الفلسطينية" ، في: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني: الدراسات الخاصة، المجلد الثالث (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1990)، ص751.

التقارير الرسمية: اسم الجهة التي أصدرت التقرير، عنوان التقرير (مكان النشر: تاريخ النشر)، الصفحة.

مثال: صندوق النقد العربي وآخرون، التقرير الإقتصادي العربي الموحد 1997 (أبو ظبي: سبتمبر 1997)، ص100.

الوثائق الرسمية : " إسم الوثيقة"، مصدرها، تاريخها. وإذا تم الإستناد إلى وثيقة رسمية منشورة في كتاب، تجب الإشارة إلى ذلك مع ذكر جميع البيانات التوثيقية للكتاب.

مثال: "الجريدة الرسمية" الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1988،العدد 34، السنة 2013، ص214.

المصادر الإلكترونية: يوثق المرجع المنقول عن شبكة "الإنترنت" بذكر بيانات المرجع كاملة، أن وجدت (إسم المؤلف، وعنوان المرجع، ومكان النشر، ودار النشر، وتاريخ النشر، اليوم، الشهر، السنة)، والرابط أو الصلة الإلكترونية الكاملة على " الإنترنت" URL، وتاريخ زيارة الموقع.

مثال: الأمم المتحدة، تقرير الهجرة الدولية لعام 2002 (نيويورك: منشورات الأمم المتحدة، 12/ مارس،2002)، ص 20؛ في:

(www.org/esa/population/publication/ittmigrep 2002arab.doc. febrruary 5, 2006.

إذا تكرر الإستناد إلى المرجع في البحث، فيذكر في المرة الأولى كاملا، ثم يذكر تاليا كما يلي: إسم المؤلف، الشطر الأساسي من عنوان الكتاب أو البحث، مرجع سابق، رقم الصفحة. وفي حال تكرار الإستناد مباشرة، يذكر كما يلي: المرجع سابق، رقم الصفحة.

- قائمة المصادر والمراجع العربية:

ترتب المراجع إلفبائيا طبقا لأسماء المؤلفين، أو الجهات المسؤولة عن التأليف (البدء بالاسم الأخير للمؤلف). بالنسبة إلى البحوث المنشورة في الكتب، فإنه لا يذكر في قائمة المراجع عناوين تلك البحوث، ولا أسماء مؤلفيها، بل يذكر عنوان الكتاب، واسم محرره. لا توضع أرقام الصفحات للمراجع في قائمة المصادر.

الكتب : الإسم الأخير، الاسم الأول، عنوان الكتاب (مكان النشر: إسم الناشر، سنة النشر).

مثال: عبد الحفيظ مقدم، الإحصاء في التربية وعلم النفس، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الأولى، 1998).

الدوريات العلمية: الاسم الأخير، الإسم الأول. "عنوان البحث" اسم الدورية، رقم العدد (مكان النشر: إسم الناشر، تاريخ النشر).

مثال: محمد إبراهيم السقا، "تحولات العمال من الدولة العربية النفطية وخيارات السياسة"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 88 (الكويت: 1999).

الصحف: الاسم الأخير، الاسم الأول . "عنوان المقال أو التقرير" إسم الصحيفة، (مكان النشر: تاريخ النشر).

مثال: عبد الحق درواش، "العرب في الغرب: ثنائية الإندماج والمحافظة على الهوية"، الخبر (الجزائر، 6 مارس 2013).

الرسائل الجامعية : الاسم الأخير، الاسم الأول . "عنوان الرسالة"، طبيعة الرسالة (ماجستير أو دكتورة)، وإذا كانت منشورة أولا، الجامعة المقدمة إليها، مكان الجامعة، السنة الإجازة.

مثال: مثال: عبد الوهاب عليلي، "واقع تطبيق التصميم التجريبي في البحوث النفسية"رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البليدة 2، البليدة، الجزائر، 2014، ص10.

الموسوعات : الاسم الأخير، الاسم الأول . (للمشرف على الموسوعة). اسم الموسوعة (مكان النشر: اسم الناشر، سنة النشر).

مثال: خيرية قاسمية، "المذكرات والسير الذاتية الفلسطينية"، في: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني: الدراسات الخاصة، المجلد الثالث (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1990).

التقارير الرسمية: اسم الجهة التي أصدرت التقرير، عنوان التقري (مكان النشر: تاريخ النشر).

مثال: صندوق النقد العربي وآخرون، التقرير الإقتصادي العربي الموحد 1997 (أبو ظبي: سبتمبر 1997).

الوثائق الرسمية : "اسم الوثيقة"، مصدرها، تاريخها. وإذا تم الإستناد إلى وثيقة رسمية منشورة في كتاب، تجب الإشارة إلى ذلك مع ذكر جميع البيانات التوثيقية للكتاب.

مثال: "الجريدة الرسمية" الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1988،العدد 34، السنة 2013.

المصادر الإلكترونية: يوثق المرجع المنقول عن شبكة "الإنترنت" بذكر بيانات المرجع كاملة، أن وجدت (إسم المؤلف، وعنوان المرجع، ومكان النشر، ودار النشر، وتاريخ النشر)، والرابط أو الصلة الإلكترونية الكاملة على "الإنترنت" URL.

مثال: الأمم المتحدة، تقرير الهجرة الدولية لعام 2002 (نيويورك: منشورات الأمم المتحدة، 2002)؛ في:

www.org/esa/population/publication/ittmigrep 2002arab.doc

فهرس المجلد 20 العدد 01

	المقال	المؤلف	الصفحة
1	الصوتيات الرياضية في اللسانيات العربية –مفهوم الكم المتصل والمنفصل كمفهوم ثنائي إجرائي في الدراسة	عواطف قاسمي الحسني	32-11
2	الدراسة التطبيقيّة للمُستوى الـصَّوتِـي فِي سُورة الـزّلـزلـة _أثـر الصّوت فـي توجيه الـمعنى وتأكيده	أسماء بوكرايدي	54-33
3	مباحث صوتية لدى جلال الدّين السيوطي (ت 911هـ) من خلال كتابه الإتقان في علوم القرآن في ضوء الدّرس الصوتي الحديث	محمد سحواج	82-55
4	لغات العرب في كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلاّم	محمد إسماعيل	102-83
5	أدب السخرية من اللغة إلى الرسالة - وصف وتحليل مجمع الأمثال للميداني أنموذجا	عمار ساسي	124-103
6	الدّلالة المعجميّة في درّة الغوّاص في أوهام الخواص للحريري _دراسة وصفية_	لرزقي ياقوتة	144-125
7	إِشْكَالِيَّةُ الفِعْلِ النَّاقِصِ بَيْنَ القُدَامَـــى والمُحْـدَثِيــن	عبد العزيز بن محمد الحكمي	178-145
8	لُغَةُ الجَسَدِ وَدَوْرُهَا فِي تَكْوِينِ الخِطَابِ النَّحْوِيِّ الحَذْفُ عِنْدَ سيبويهِ أُنْمُوذَجًا	عصام محمد ناصر العصام	218-179
9	النقل والعقل اللّغويّان عند أبي القاسم السُهيْلِي (508هـ-581هـ)	جلال تقي الدين	234-219
10	سيمياء الاستشراق: من البنائية إلى التفكيك	محمد مكيد	254-235
11	دور محمد البشير الإبراهيمي في الدفاع عن اللغة العربية في الجزائر من خلال مؤلفاته – بين المحافظة والإحياء –	علي حميداتو	268-255
12	مدعمات التعلم الذاتي وفق المنحى المعرفي	أم هاني رحماني	290-269
13	واقع التّعليم المكيّف في إطار إصلاح المنظومة التّربوية. ولاية البويرة نموذجا	محمد عليوات	309-291

الافتتاحية

حين يظن الإنسان أن الليل يبقى سرمدا إلى أجل غير مسمى يأتي النهار لكسر القيد وبعث الحياة و حين تغيب عين الشمس في الكون ،فلا بد من طلوع من مشرقها وحين تموت الأرض، فلا بد لها من إحياء و حياة الكون عنصرها الماء،(وجعلنا من الماء كل شيء حيا)(الأنبياء).

فإذا كان الماء عنصر الحياة كلها في الدنيا،فإن العلم و المعرفة و الأفكار الناعمة هي مصدر حياة الأمة و الإنسانية جمعاء،في كل زمان و مكان هي تاريخها الحافظ و هي قلبها النابض، و هي طاقتها الفاعلة، و هي عينها المبصرة، و هي اقتصادها..و هي قوتها القاهرة، و هي حكمتها البالغة، و هي خلقها الكريم و هي سيادتها الحكيمة ن و هي سياستها الرشيدة، التي تعلو بنا إلى السؤدد.

و قد هيأ الله تعالى لحولية الصوتيات المحكمة عوامل طيعة و أجواء طبيعية مبشرة غيثا نافعا مسح أرض البلاد كلها، أراه أشبه بمطر البشارة و النصرة الذي نزل ببدر قبل المعركة الكبرى الفاصلة بين الحق و الباطل، حين قال تعالى (إذ يغشكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من الماء ماء ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان، و ليربط على قلوبكم و يثبت به الأقدام) .(الأنفال).

و أجواء اجتماعية تشتد مبلغة (و قل اعملوا) ليحصل النماء و يقوي الاقتصاد فينجح الرخاء، و تنتهي العسرة و تحل مكانها في المجتمع الميسرة.

و أجواء تربوية تضطرب، و تنتظر حوارا يفتحها لمستقبل أبناء جميل و أجواء علمية متقلبة تترقب استلام مفتاح حوار راع للأبناء و حافظ لاستقرار البلاد.

و جامعة البليدة2 التي حظيت برئيس جديد منها باحث نشط ثقة كله.. من اجل تفعيل المشروع العلمي و توصيله بالمحيط الاقتصادي و الاجتماعي و ضبط دور لجان الجامعة الخاصة بالجودة و اليقظة و آداب أخلاقيات المهنة ، التي أضحت تؤدي رسالتها بإخلاصها في خدمة استقرار الجامعة و نموها، من دون نسيان النشاطات العلمية المتتابعة بانتظام من ندوات و ملتقيات و أيام دراسية و معارض كتب تنظمها مخابر والكليات و الأقسام و النوادي الطلابية إيمانا منها بشعار الجامعة الثابت (رسالة العلم في خدمة المجتمع).

تجسد ذلك من خلال دورياته المنتظمة على كليات الجامعة لتفعيل حركيتها العلمية والتعليمية و حل مشاكلها عن قرب و هذا برأي العاقل سلوك حكيم في المؤسسة عامة تمثل عقل المجتمع و فكره الراشد.

و كما جاء هذا (المجلد 20 العدد 01) في ظروف محيطة خاصة فقد أتاكم في حلة جديدة، وهيئة مجيدة، و شكل محمود، و محتوى محدود، توافقا مع مقتضى الحال.

الجديد الذي ألزمت به وزارة التعليم العالي و البحث العلمي كل الدوريات العلمية والمجلات الوطنية التي تصدر عن المؤسسات العلمية بمرور الإصدار عبر الوزارة المنصة وبوابة الوزارة ، و هذه نقلة نوعية حسنة ترقى بها الجامعة الجزائرية إلى مصاف الجامعات الكبرى في العالم، في انتظار ما سيتبعها من نقلات علمية أخرى تقودها إلى الرقي.

و جديد العدد الأول من المجلد العشرين من حولية الصوتيات اللّباس القشيب و الحجم الطريب والمضمون العجيب و التحكيم المصيب.

رئيس التحرير

الصوتيات الرياضية في اللسانيات العربية مفهوم الكم المتصل والمنفصل كمفهوم ثنائي إجرائي في الدراسة الصوتية

Mathematical phonetics in Arabic linguistics

Connected quantum and discrete quantum concepts as a binary procedural concept in the phonetic study

قاسمي الحسني عواطف*

تاريخ تقديم البحث **2018/02/04** تاريخ القبول **2018/02/05**

ملخص

تعد الصوتيات الرياضية جزءا من التفكير الرياضي بشقيه التنظيري والتطبيقي، وهي فضاء رحب تلتقي فيه الصوتيات الفيزيائية والحاسوبية واللسانية، ومايعنينا هنا هو التفكير الرياضي في اللسانيات العربية الذي يجري في جميع المستويات اللغوية، بداية من النسق الصوتي إلى البناء الدلالي، إذ تعد اللغة العربية من أكثر اللغات ذات الدرجة الرياضية العالية، إلى الحد الذي أصبحت تعرف فيه باللغة الجبرية.

وكما تتعدد مستويات الظاهرة اللغوية، تتعدد أوجه التفكير الرياضي فيها، والمستوى الصوتي كغيره من المستويات اللسانية غني بمنطقه الرياضي، الأمر الذي خول له المرونة العالية للمعالجة الآلية، ومن أوجه التفكير الرياضي في البناء الصوتي نجد: مفهوم البنية، مفهوم المتوالية، مفهوم الثابت والمتغير، ومفهوم الدوال، ومفهوم الزمر، وغيرها من المفاهيم التي لا تقف عند حدود نظرية الاحتمالات، كما لا يقف المفهوم الكمي الرياضي في اللسانيات عند حدود المفهوم العددي، وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه في هذا البحث، منطلقين من المفهوم القاعدي للكم رياضيا محاولين الكشف عنه بنوعيه المتصل والمنفصل كمفهوم ثنائي إجرائي في الدراسة الصوتية للغة العربية.

الكلمات الدالة: النسق الصوتي، المنطق الرياضي، الكم، الكم المتصل، الكم المنفصل.

Abstract

Mathematical phonetics are part of mathematical thinking in both theory and applied sides. They are a welcoming space where physical, computer and linguistic phonetics converge. What is more important in this study is the mathematical thinking in Arabic linguistics that takes place in all linguistic levels beginning from phonetic structure to semantic construction. As Arabic language is one of the most highly-level mathematical languages, to the limit of its "Algebraic Language" appellation.

As levels of linguistic phenomenon vary, aspects of mathematical thinking within vary too. Phonetic level, like other linguistic levels, contains mathematical logic: which allows the high flexibility of automatic processing.

From mathematical thinking aspects in the construction of the sound, all structure, function, constant, variable, or group concepts interconnect, but do not stand within the limits of the probability theory, as well as quantitative mathematical concept in linguistics does not stand within the limits of the numerical concept.

This is what this research will try to highlight, starting from the mathematically fundamental quantitative concept with its two forms, connected quantum and discrete quantum concepts as a binary procedural concept in the phonetic study in Arabic language. .

Keyboard: Phonetic structure, mathematical thinking, mathematical logic, connected quantum, discrete quantum.

* قسم اللغة العربة وآدابها ، كلية الآداب اللغات ، جامعة الدكتور يحيى فارس المدية، الجزائر

مقدمة

إن المفهوم الكمي في الدراسات اللسانية مفهوم يخص المنهج والرؤية؛ منهج الدراسة والرؤية العلمية للظاهرة اللغوية، فالوحدات اللغوية في الأنظمة اللسانية تتحرك وفق المبدأ الثنائي للكم ونعني بذلك الكم المتصل والكم المنفصل، وإذا كانت الوحدات اللسانية تتحقق كوحدات متصلة في مقابل وحدات منفصلة، فلا بد من معرفة أن هذا النظام الكمي في الظاهرة اللسانية يسري وفق نظام تزاوجي، بمعنى أن الظاهرة اللغوية ذات بناء كمي متصل منفصل في ذات الوقت، ومع أن الكم كمفهوم رياضي منطقي في الرياضيات الكلاسيكية تندرج تحته ظواهرعديدة في بعديه المتصل والمنفصل، على أساس أن الكميات في الفكر الرياضي الكلاسيكي إما متصلة موضوع علم الهندسة، وإما منفصلة موضوع الحساب، فإن التطورالفكري للرياضيات في العصر الحديث وقبله في الرياضيات العربية مزج بين المفهوم الكمي المنفصل مع المفهوم الكمي المتصل وذلك في الهندسة التحليلية عند ديكارت في القرن السادس عشر، وقبلها على يد العلماء العرب على رأسهم الخيام وشرف الدين الطوسي، يقول الدكتور رشدي راشد في موسوعة تاريخ العلوم العربية: ﴿...هكذا، إذن، نرى أن نظرة المعادلات لم تعد تقتصر على فصل من فصول الجبر، لكنها تتضمن مجالا أوسع بكثير. فهذا الرياضي يجمع ضمن هذه النظرية، الدراسة الهندسية للمعادلات وحلها العددي. إنه يطرح، ومن ثم يحل مسألة وجود الحل لكل المعادلات، **مما يقوده إلى اختراع الدراسة الموضعية للمنحنيات التي يستخدمها**، وخاصة إلى دراسة منهجية للنهاية العظمى لحدوديات من الدرجة الثالثة عن طريق معادلة المشتق، ... **إن هذا يدل على مستوى رياضي متقدم جدا بالنسبة إلى عصره**، والجدير بالذكر هنا أن هذا المستوى بدأ ببلوغ أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه بحث رياضي لا يتمتع بنظام رمزي فعال. فلقد قام الطوسي بكل أبحاثه مستعينا فقط باللغة الطبيعية من دون أيه رمزية " سوى رمزية اللوحات التي جعلت هذه الأخيرة في غاية التعقيد".. ومن المعقول جدا أن يكون خلفاء الطوسي قد اصطدموا بهذا العائق إلى أن تعرض الترميز الرياضي لتحولاته الكبرى وانطلاقا من ديكارت على وجه الخصوص﴾.[1] فإن﴿ مَثَل الطوسي يكفي ليبرهن أن نظرية المعادلات لم تتعرض فقط للتحولات منذ الخيام، بل إنها استمرت تبتعد ابتعادا متزايدا

عن ميدان البحث عن الحلول بواسطة الجذور فقد اتجهت لتطال مجالا واسعا من الأبحاث التي انتهت فيما بعد إلى **الهندسة التحليلية**، أو ما يعرف **بالتحليل الرياضي**».[2]

وإذا كان العلماء العرب في الرياضيات قد سبقوا الفكر الغربي الحديث والمعاصر في الوحدة الثنائية لمفهوم الكم، فإننا نجد العلماء الأولين في الدراسات العربية يسبقون أهل الرياضيات أنفسهم في الرؤية الكمية المزدوجة للظاهرة من ناحيتين الكم المتصل والكم المنفصل .لكن بمنطق الظاهرة التي يدرسونها وبمنطق علمهم الذي كان رياضي الأبعاد في كثير من أوجهه . وخير دليل على ذلك الرؤية العلمية الدقيقة للخليل في تحليل ووصف النظام الصوتي للغة العربية، ترى كيف كان ذلك؟ هذا ما سنجيب عنه في الأسطر الموالية؛ إذ سنوضح في هذا البحث آلية تشكل الوحدات اللغوية الصوتية في إطارها المتصل كوحدات لا فراغات بينها في مقابل تشكلها كوحدات يقع فيها الانقطاع أي كوحدات منفصلة وذلك في ذات السلسة الصوتية، مبيّنين كيف كانت نظرة الأولين نظرة رياضية للظاهرة الصوتية، إذ يعد مفهوم الكم عنوان الرياضيات، فلقد كانت الرياضيات ومازالت تعرف في الأوساط العامة بأنها لغة الكم، فما هو الكم؟ وهل تندرج اللغة وفق هذا المنظور الكمي؟ وهل كان الكم من المفاهيم والأدوات المنهجية التي اعتمدها الأولون في دراسة البنية الصوتية؟

1 .الإطار النظري: مفهوم الكم المتصل والمنفصل":

يقول الفارابي:« ***الكم هو كل شيء أمكن أن يقدر جميعه بجزء منه*** ، مثل **العدد** والخط .. ومثل الزمان، ومثل الألفاظ والأقاويل، ***فإنه إذا أخذ أي عدد اتفق وجد له جزء يقدره أو ما هو مساوٍ لجزء منه*** ، كمثل الخمسة فإن الواحد يقدره خمس مرات ومثل العشرة فإن الاثنين يقدره خمس مرات، وكل عدد إما أن يقدره الواحد فقط، مثل الخمسة والسبعة وما أشبهها، وإما أن يقدره الواحد وعدد آخر، مثل الستة فإن الواحد يقدره ست مرات، ويقدره الاثنان ثلاث مرات، والثلاثة مرتين، وكذلك *الخط فإن الذراع يقدره*، وذلك *إما جزء منه وإما مساوٍ لجزء منه*... وكذلك الزمان فإنك تأخذ الساعة الواحدة فتقدر بها النهار والليل وتأخذ اليوم فتقدر به الشهر والشهر فتقدر به السنة ».[3]

و يواصل قوله:« ***والألفاظ أيضا من الكم، لأنه يمكن في كل واحد منها أن يقدر جميعه بجزء منه*** ، وذلك أن في الألفاظ أشياء منزلتها منها منزلة الأذرع من الأطوال، فإن الألفاظ تأتلف من الحروف، والحروف منها مُصوّت ومنها غير مُصوّت، فالمُصوّت مثل الألف والواو والياء، ومثل الفتحة والضمة والكسرة، وغير المُصوّت الحروف الباقية، مثل النون والميم

واللام وغيرها، فالمُصوّت منه ممدود مثل الألف والواو والياء، ومنه مقصور كالفتحة والضمة والكسرة، والمركب من حرف مصوت وغير مصوت فليُسمَّ ***المقطع***، والمقطع منه ممدود ومنه مقصور، فالمقطع الممدود هو الذي مصوته ممدود مثل لا أو لو أو لي، والمقصورهو الذي مصوته مقصور مثل لَ أو لُ أولِ، والمقاطع المقصورة متى ردفتها حروف غير مصوتة مثل لَن ولُن ولِن، أجريت مجرى المقاطع الممدودة إذا كان زمان النطق بها سواء.... وقد يمكن أن تركب هذه المقاطع ضروبا من التركيبات، وتركب هذه بعضها إلى بعض فتحدث أشياء أخرى أعظم مما تقدم ***وأصغر ما تقدر به الألفاظ هي المقاطع***». [4]

فالكم هو المقدار الذي تتكون فيه ماهية الشيء أو المفهوم على أساس الجزء من الكل أوالبعض من الكل، بحيث يقدر الكل بالجزء، وتتشكل الأجزاء فتكوّن الكل، وليس كل الأشياء تقدر وفق منظور كمي مع أنها ماهيات وكليات؛ فما يندرج تحت مفهوم الكم رياضيا كل ما له مقدار، والمقدار رياضيا كل ما يمكن أن يوصف به الكل انطلاقا من منطق البعض أو الجزء، بحيث يكون الجزء المعيار الذي نقدر به الكل؛ فالمشاعر مثلا والأحاسيس هي ماهيات وكليات تقوم على أجزاء لكن لا يمكن أن تقدر الأحاسيس كماهيات بمقدار جزئي يكون معيارا لتقدير الكل، فليس للأحاسيس مقادير تقدربها وفق منطق عددي يصاغ صياغة رياضية. في حين أن الظاهرة اللغوية في جميع الألسنة البشرية تندرج وفق هذا *المنظور الكمي* لأنه يمكننا تقديرها وفق **معيار البعضية أومعيار الكمية**: البعض من الجزء، سواء قدرنا المدونات اللغوية بالنصوص والخطابات، والنصوص والخطابات بالجمل، والجمل بالكلمات، والكلمات بالمقاطع، والمقاطع بالحروف، بمعنى أن اللغة تقدر وحداتها ببعضها البعض، وهذا هو المفهوم الكمي الرياضي، تقدير الكل بالجزء، وفق قاعدة البعض من الكل.

واندراج الظاهرة اللغوية وفق المنظور الكمي: ناتج عن البناء اللفظي الذي يجعلها في منطقها المادي تتحرك كظاهرة كمية كما نجد ذلك في الأطوال وفي الوحدات الزمنية. ولا نعني بذلك أن ما يندرج تحت المفهوم الكمي هو المادة دون المفهوم لكن البناء اللفظي ساعد في تشكل الألسنة البشرية و تكونها ككم لفظي أو ككم مجرد مختزن في ذهن المجموع. ولو تأملنا في السلسلة اللفظية التي تقوم عليها الظاهرة اللغوية لفظا، لأدركنا أننا يمكن تقدير النص بالجمل وتقدير الجمل بالكلمات وتقديرالكلمات المركبة بالمورفيمات،وتقديرالمورفيمات بالمقاطع الصوتية، وتقدير المقاطع الصوتية بالأصوات سواء أكانت صوامت أم صوائت.

وعندما يقول الفارابي أن الألفاظ يمكن أن تقدر بوحدات إفرادية أووحدات ثنائية أوثلاثية مثلما نجد ذلك في الأعداد والأطوال، فذلك بحسب البنية اللغوية التي ندرسها،

فالخطاب غير الجملة والجملة غير الكلمة، والكلمة البسيطة غير الكلمة المركبة، مثلما أن العدد 2 لا يمكن تقديره إلا بالواحد، في حين أن العدد ستة يمكن تقديره بالواحد ست مرات أوباثنين ثلاث مرات أو بالعدد ثلاثة مرتين، فعلى حسب البناء والظاهرة تتحدد المقادير الكمية لها؛ فإذا كانت الكلمة البسيطة لا تقدر إلا بالحروف فالكلمات المركبة تقدربالمقاطع المورفيمية، والجملة تقدر بالأصوات وبالمقاطع الصوتية وبالكلمات وبالمورفيمات، وتتحدد المورفيمات بالفونيمات، والفونيمات بالسمات الفونولوجية، فاللسان البشري ظاهرة يمكن اعتبارها ظاهرة كمية لأن الكل فيها يقدر بالجزء، أوبتعبير الفارابي ***لأن في الألفاظ أشياء منزلتها منها منزلة الأذراع من الأطوال***.

يقول الفارابي:﴿ وكثير من الأقاويل يقدر بواحد من هذه فيستغرق جميعه، وكثير منها لا يستغرق الواحد من هذه جميعه، بل تحتاج إلى أن يقدر باثنين من هذه أو أكثر، على مثال ما توجد عليه الأطوال، فإن منها ما يقدره ذراع واحد فيستغرقه، ومنها ما لا يستغرقه ذراع واحد بل يحتاج إلى تقديره إلى ذراعين مختلفين، ***وهذا الذي ذكرناه يوجد في جميع الألسنة وقد يمكنك أن تأخذ مثال ذلك في ما يوجد في اللسان العربي***، فإن أهل العلم به يسمون المقاطع المقصورة الحروف المتحركة، والمقاطع الممدودة وما يجري مجراها ***الأسباب*** وما يمكن أن يتركب في لسانهم من صنفي المقاطع يسمونه **الأوتاد**، ثم يركبون بعض هذه إلى بعض، *فيجعلون منها مقادير أعظم من هذه*، يقدرون بها ألفاظهم وأقاويلهم الموزونة، مثل ***فعولن ومفاعيلن ومستفعلن***، فإن كان كذلك، وكل لفظ فإنه يمكن أن يقدر بمقطع ممدود أو مقصور أو المركب منها، فالمقاطع هي أصغر الأجزاء التي يمكن أن تقدر بها الألفاظ والمركب منها أعظم منها، فهذه الأشياء في الألفاظ مثل الأذرع في الأطوال﴾. [5]

يواصل الفارابي شرحه وتوضيحه لمفهوم الكم؛ متخذا من الظاهرة اللغوية مثالا نموذجيا في مقابل مفهوم العدد ومفهوم الزمان كنماذج تطبيقية تمثيلية يبيّن لنا من خلالها كيف تتشكل الظاهرة باعتبارها ظاهرة كمية تخضع إلى نظام المقدار القائم على قانون تقدير الكل بالجزء أو ما هو مساوٍ لجزء منه، مبينا أن جميع الألسنة البشرية هي ظواهر كمية، تخضع إلى نظام المقادير، انطلاقا من تقديرها وفق مقاطع صوتية ومجموعات مورفيمية ومتوالية تركيبية من الجمل، وكل وحدة لغوية يمكن التعبيرعنها كميا انطلاقا من الأجزاء التي تضمها والتي تكون المعيار الذي تقدر بها باعتبارها وحدات كلية، مقدما ***اللسان العربي*** كمثال على هذه الظواهر اللغوية باعتبارها ظواهر كمية؛ موضحا كيف نظر الأولون للسان العربي وفق هذا المنظور الكمي، مقدما تحليل الأولين للبنية الصوتية وللبنية الإيقاعية الشعرية للغة

العربية، حيث توصل أهل علم اللسان العربي إلى التعبير الكمي للغة عن طريق البنية التحتية التي تقوم عليها مثلما يقوم العدد على الواحد، ونعني بها الصوت، إذا يمكن أن تحلل اللغة إلى مجموعة من الأصوات، محددا الفارابي أن أصغر وحدة يقوم عليها اللفظ هي المقطع، على أساس أن لا كلمة عربية تقوم على صوت واحد أو إنما أصغر وحدة هي المقطع، فالمقطع قد يكون مقصورا أي قصيرا قائما على حرف ساكن وحركة، وقد يكون ممدودا قائما على حرف ساكن وحركة طويلة، منتقلا بعد ذلك إلى علم آخر في اللسانيات العربية وهو علم العروض، مبينا لنا كيف فكك الأولون البنية الإيقاعية للشعر انطلاقا من نظامها الصوتي إلى بنية كمية يعبر فيها عن الكل بالجزء، حيث يعبر عن الأوزان بوحداتها الصغرى القائمة عليها ونعني بها الأسباب والأوتاد، فلكل بنية لغوية مقاديرها الصغرى الدالة عليها، والبنية الصغرى للنظام العروضي للسان العربي هي ***هذه الأسباب والأوتاد*** باعتبارها مقاطع صوتية قد تكون بسيطة ونعني بها الأسباب وقد تكون مركبة و نعني بها الأوتاد، وعملية ضم هذه المقاطع مع بعضها تقودنا إلى ما هو أعظم .وذلك بتعبير الفارابي .ويعني بذلك ***التفعيلة*** ومجموع التفعيلات يقودنا إلى ما هو أعظم منها أي ***الوزن الشعري***.

فهاهوذا الفارابي يزيح النقاب عن هذا المفهوم الرياضي الكلاسيكي في الفكر الرياضي، وآلية حضوره في الدرس اللساني عند العلماء الأولين، موضحا لنا أولا: كيف يمكننا أن ننظر للظاهرة اللغوية باعتبارها ظاهرة كمية وفق المنطق الرياضي، وكاشفا لنا ثانيا: كيف كان تصور الأولين للغة العربية تصورا رياضيا انطلاقا من هذا المنظور الكمي، الذي كان نواة التفكير الرياضي الكلاسيكي، وموضحا أبجديات تحليل الأولين للمقادير اللغوية التي تقوم عليها نظام اللغة العربية، صوتيا وإفراديا وتركيبيا وإيقاعيا، مستخلصين من أقواله كيف كان الكم من أبجديات تصورهم المنهجي لنظام اللغة العربية، وليس ***النظام العاملي*** الذي اخترعه الخليل في نظرية الاحتمالات إلا وجها دالا على المنظور الكمي للغة من طرف العلماء الأولين.

يقول ابن جني في كتابه" ***سر صناعة الإعراب":*** ﴿ اعلم أن ***الحركات أبعاض حروف المد واللين***، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة. وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة﴾.[6] و﴿يدلك على ***أن الحركات أبعاض لهذه الحروف***، أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها ***الحرف الذي هي بعضه***، وذلك نحو فتحة عين " عَمَر"، فإنك إن أشبعتها حدثت بعدها ألف، فقلت عامَر، وكذلك في

كسرة عين "عِنَب" إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة، وذلك قولك: "عِيْنَب". وكذلك ضمة عين "عُمُر" لو أشبعتها لأنشأت بعدها واوا ساكنة، وذلك قولك: عُوْمَر. فلولا أن ***الحركات أبعاض لهذه الحروف*** وأوائل لها لما نشأت عنها، ولا كانت تابعة لها﴾[7]، فإذا ﴿***جاز ذلك فلسيت تسمية الحركات حروفا صغارا بأبعد في القياس منه***﴾.[8]

فهاهي ذي نصوص الأولين تشهد بالمنظور الكمي كما نجده في الفكر الرياضي الكلاسيكي؛ فإذا كان الفارابي قد وضح لنا كيف تتشكل الألفاظ من المقاطع باعتبار المقطع الصوتي هو المقدار الكمي اللفظي الذي يجعل من اللفظ **كما لغويا** وفق المنظور الرياضي، *فإن نصوص ابن جني تدلنا على منظور كمي أكثر تفكيكا من المقطع الصوتي في النظام اللغوي العادي، ومن ثنائية الأسباب والأوتاد باعتبارها بنية تحتية للبنية الإيقاعية الشعرية*، إن ابن جني يقدم لنا الإطار الصوتي في نظام اللغة العربية وتحديدا نظام الصوائت ***وفق منطق رياضي كمي***، فيكشف لنا كيف تعد الحركات باعتبارها حروفا صغيرة المقدار الكمي الذي توصف به الصوائت الطويلة أو ما يعرف بحروف اللين، فإذا كانت الحركات أبعاض حروف اللين:﴿الألف، الواو، الياء﴾ فإنه يجوز لنا قياسا اعتبار تلك الحروف حركات طويلة، واعتبار الحركات القصيرة حروفا صغيرة، فيالها من صياغة كمية للبنية الصوتية، فبعدما كنا نقول أن اللغة تقوم على 29 حرفا أبجديا، باعتبار الحرف البناء الصوتي الذي يعد معيارا للمقدار الكمي للغة باعتباره جزءا من الكل، إذ بهذه الحروف تقوم في حد ذاتها على أساس كمي دقيق فيما يخص نظام صوائتها.

ويؤكد ابن جني أن ما يدلنا على هذا المعيار الكمي للصوائت في نظام اللغة العربية، هوأننا إذا أشبعنا تلك الحركات أي إذا أطلناها لانقلبت إلى الحروف التي هي منها، وبتعبير آخر التي هي بعض منها، مبينا لنا ابن جني أن هذا المفهوم الرياضي الكمي للصوائت هو مفهوم متجذر ومتأصل في علوم العربية عند النحاة الأوائل؛ فقد كانوا يسمون ***الفتحة الألف الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة***، **والكسرة الياء الصغيرة**، لذا فإنه يجوز قياسا القول بأن تلك الحركات حروف صغيرة، وتلك الحروف حركات طويلة.إذ﴿ أن الحركات والحروف تتفق في كل شيء مع فارق واحد هو الطول والقصر، ثم إن إشارة ابن جني إلى متقدمي النحويين تذكرنا بأن هؤلاء أدركوا ما وضحه وهذا ما نلاحظه إذا نظرنا في صنيع الخليل حين اخترع علامات الضبط التي ما نزال نستعملها إلى اليوم﴾[9] فلقد أخذ الخليل من ﴿ ***حروف المد صورها المصغرة للدلالة عليها، فالضمة واو صغيرة، في أعلى الحرف لئلا تلتبس بالواو المكتوبة والكسرة ياء متصلة تحت حرف، والفتحة ألف مبطوحة فوقه***﴾.[10]

وإذا كان العلم الحديث يؤكد اليوم على هذا المفهوم الكمي لنظام الصوائت العربية، حيث تعد الحركات باعتبارها صوائت قصيرة أبعاضا من حروف اللين باعتبارها صوائت طويلة، فإن ابن جني قد سبق مجريات التكنولوجيا في الحكم على هذا المنظور الكمي الرياضي للحروف وأبعاضها عند العلماء الأولين، بقوله أن طريق الأولين في هذا التحديد الكمي ***لأبعاض الحروف*** . أي للحركات القصيرة انطلاقا من الحركات الطويلة أو من الحروف الصغيرة انطلاقا من الحروف الكبيرة . كانت طريقا مستقيمة، وسنأتي لذكر رؤية العلم الحديث لهذه القضية عند حديثنا عن الكم المتصل.

فالكم في الفكر الرياضي ينقسم إلى قسمين: كم متصل وكم منفصل، ***فالكم المتصل*** ما لا توجد بين وحداته فراغات، بحيث لا ينقطع الاتصال بين الوحدات، في حين أن ***الكم المنفصل*** هو ما توجد بين وحداته فراغات، مما يقطع الاتصال ويحقق الانفصال نحو الرقم 1 والرقم 2 بينهما وحدات جزئية تفصل بينهما، ويعد [**المكان**] كمفهوم رياضي هوالكيان المعادل لمفهوم الكم المتصل في الرياضيات الكلاسيكية، وحدته الدالة عليه هي الخط، باعتباره متوالية من النقاط المتصلة فيما بينها، في حين يمثل [**العدد**] المفهوم المعادل للكم المنفصل في الرياضيات الكلاسيكية.

وتجدر الإشارة هنا؛ إلى أن مفهوم الكم أكبر من حصره في ظاهرة المكان والعدد، فكثيرة هي الظواهرالتي تندرج وفق معيار الكمية، كما وضح لنا ذلك الفارابي وذلك مثل الزمان ومثل الظاهرة اللغوية، ومنه فالكم المتصل لا يعادل في مفهومه الكلي مفهوم المكان، بل المكان كمفهوم رياضي كان موضوع الهندسة في الرياضيات القديمة باعتباره كما متصلا، والأمر عينه في ما يخص الكم المنفصل، فهو مفهوم أشمل من حصره في مفهوم العدد، وإنما العلم الرياضي حدد نماذج كمية معينة لدراستها في الرياضيات الكلاسيكية لينتقل الفكر الرياضي من الإطار الكمي إلى الإطار البنوي المتوغل في التجريد في الرياضيات الحديثة والمعاصرة.

يقول الفارابي:﴿ *والكم منه متصل ومنه منفصل؛ فالمتصل هوكل ما أمكن أن يفرض في وسطه حد ونهاية فليتئم عندها جزءاه اللذان عن الجنبين... مثل الخط، والمنفصل هوالذي لا يمكن أن يوجد في وسطه شيء منه حد يجعل نهاية مشتركة لجزئية الذين يكتنفانه، مثل العشرة فإن الخمسة والخمسة اللتين هما جزآها ليس يمكن أن توجد بينهما شيء خارج عن آحادهما يجعل نهاية مشتركة تلتقي عندها آحادهما كما يمكن في الخط*﴾.[11]

و تعريف الفارابي للكم ومنه للكم المتصل في مقابل الكم المنفصل، هو تعريف منطقي رياضي دقيق، لكن لا بد من الإشارة أن مفهوم الكم المتصل والمنفصل يتحدد وفق نماذجه

التطبيقية انطلاقا من خصائص الظواهر المدروسة، ومنه فنحن نميل إلى ما هو موجود في تعريفات الرياضية المتداولة اليوم في كون الكم المتصل ما لم نجد بين وحداته فجوات، والكم المنفصل ما وجدنا فجوات وفراغات بين وحداته، وكلاهما . أي الكم المتصل والكم المنفصل . يندرجان تحت المفهوم الأصيل للكم باعتباره المقدار الخاضع لمعيار الجزء من الكل، أو ما يعبر الجزء منه عن الكل.

2.الإطار التطبيقي:

. الكم المتصل والكم المنفصل كمفهوم إجرائي ثنائي في الدراسة الصوتية:

إن من أهم الأوجه الدالة في الدراسات اللسانية على حضور الكم المتصل المنفصل بالإضافة إلى العلاقة المتصلة المنفصلة بين المستويات اللغوية وبين الوحدات اللغوية فيما بينها داخل المستوى اللغوي الواحد، هو تصور العلماء الأولين للنظام الصوتي، وهذه نقطة مهمة لا بد من تسليط الضوء عليها، إذ لم ينظر العلماء العرب إلى التسلسل الصوتي في الكلام على أنه ﴿مجرد توال لمقاطع صوتية وأن كل مقطع .وهو أصغر ما يمكن أن ينطق به عندهم . يتكون من مصوت على الأقل أوصامت مع مصوت وغير ذلك، فإنهم قد لاحظوا أن للكلام مظهرين: مظهر يخص الكلام كأصوات ومظهر يخص حركيته وكيفية تسلسله فيجب أن لا يخلط الباحث عندهم بين ما هو راجع إلى الصوت كظاهرة تخص السمع، وبين الآليات التي ينبني عليها تسلسل الكلام، ولكل جانب قوانينه الخاصة به، هذا مع وجود علاقات بين القوة الاندفاعية للحركة المحدثة للصوت اللغوي وما يتصف به الصوت من قوة أو ضعف﴾.[12]

إذ ينبني النظام الصوتي عند العلماء الأولين على أساس الاتصال فالأصل في الكلام الوصل والفصل فرع عليه، وذلك على اعتبار أن التموجات الصوتية لا تقصد لذاتها إنما هي خط لفظي دال على منحى دلالي معين، فاللفظ خادم للمعنى، وعلى هذا الأساس فالأصل في الصوت الوصل، لأن الغاية ايصال المعنى الواحد، وهذا المنظور هو منظور بنوي علمي يربط بين اللفظ والدلالة، وبين المستويات اللغوية، بمعنى أن اعتبار الصوت كمادة كمية متصلة من هذه الزاوية، مرتبط بالاتصال مع باقي الوحدات اللغوية التي تتشكل منها اللغة، وهذا له انعكاس مادي خارجي هو الوصل بين الأصوات كمادة فيزيولوجية فيزيائية.

لكن النظرة الأعمق في تصورالأولين لهذا النظام الصوتي باعتباره كما متصلا، تتبلور وفق المنظور الفيزيولوجي الذي يؤكده العصر الحديث والتكنولوجيا الموظفة في ميدان الصوتيات الحديثة، تصور علمي أصيل من لبنات فكر الخليل، يخص الإنتاج الصوتي أي الجانب الثاني من التحليل اللساني الصوتي عند العرب الأولين؛ يقول الخليل:﴿الحروف 28

لكل حرف منها ***صرف وجرس***. وأما الجرس فهو ***فهم الصوت في سكون الحرف*** وأما ***الصرف*** فهو ***حركة الحرف***»[13] وقوله:« وأما الألف اللينة فلا صرف لها إنما هي جرس مدة بعد فتحة فإذا وقعت صروف الحركات عليها ضعفت عن احتمالها واستنابت إلى الهمزة أو الياء أو الواو كقولك:عصابة وعصائب، وكاهل وكواهل..»[14] وقال الرماني على إثر الخليل:« يتوصل بالحركة إلى النطق بالحرف ولا يتوصل بالحرف إلى النطق بالحرف»[15] وقال أيضا:« لأن الحركة تمكن من إخراج الحرف والسكون لا يمكن من ذلك»[16]وقال:«يقتضي الوصل التحرك لتمكين الحرف الذي بعده متحركا أو ساكنا»[17] وقوله:«إذا تحرك الحرف اقتضى الخروج منه إلى حرف آخر».[18]

إذ يميز العلماء الأولون على رأسهم الخليل بين الجانب النطقي الفيزيولوجي للصوت، وبين الجانب السمعي له، بين آلية الإنتاج وبين آلية الإدراك والسمع، فاللصوت هوية نطقية سمعية، ترتبط الهوية السمعية بالمستوى الفيزيولوجي كما ترتبط بالجانب الإدراكي، فالسمع هو البداية وإدراك الصوت كبصمة فيزيائية فيزيولوجية هو الطرف الثاني من هوية الصوت السمعية، وهي هوية ترتبط بالمستمع و تلقيه، تتمثل مدخلاتها في مخرجات العملية الأولية الخاصة بالمتكلم والمتعلق بالهوية النطقية للصوت، يسمي الخليل البصمة الصوتية السمعية ***بالجرس***« أي طابعه الصوتي كما تدركه الأذن »[19] في حين يطلق على البصمة الفيزيولوجية النطقية الخاصة بالمتكلم مصطلح ***الصرف*** وهو من التصرف والتشكل دلالة على الفعل والحدث، وهذا الصرف هو الذي يعكس لنا في منظور الأولين الصوت باعتباره ***كما متصلا وفق المنطق الرياضي البحت***.

فلقد كانت نظرة العلماء الأولين نظرة عميقة وكأنها نظرة ميكروسكوبية من العصر الحديث، إذ أدرك الأولون أن الأصوات أساسها الوصل، وأن الجهاز النطقي لا ينطق بالحرف الأول ثم بالحرف الثاني على أساس التتابع وإنما في اللحظة التي ينطق فيها بالصوت الأول يكون الجهاز النطقي في حالة تأهب واستعداد بالصوت الموالي، وهذا يعود طبعا إلى عمل عقلي فيزيولوجي، فالعقل المتحكم في عملية الإنتاج يدرك أن المقصود متوالية صوتية لا صوتا واحدا ومنه تكون قوة الدفع والحركة النطقية على مستوى جهاز النطق مستعدة لهكذا عمل نطقي تركيبي. يقول الرماني في شرحه لكتاب سيبويه:« لا يتكلم بحرف واحد حتى يوصل بغيره فالوصل هو الأصل في الكلام».[20] ويقول المبرد:«لا يجوز لحرف أن ينفصل بنفسه لأنه يستحيل».[21]

يدلنا هذان القولان على تشكل النظام الصوتي ككم متصل وفق وجهين: يتمثل الوجه الأول في عدم وجود صوت كقطعة مفردة في الكلام، بل لا توجد أصوات الكلام إلا وفق سلسلة نطقية، في حين يتمثل الوجه الثاني في البعد الأعمق لاعتبار الأصوات كميات متصلة، وهو العمق الذي يعكسه مصطلح ***الصرف*** عند الخليل، إذ تتجلى حركية الأصوات اللغوية وفق نسق خطي متوالي على مستوى الإنتاج والتلفظ. فالاتصال لا يكمن، فقط، في *التسلسل الصوتي* وإنما في *الإحداث الصوتي للحروف بدون انقطاع*، ففي اللحظة التي يرتفع فيها العضوعن حيز الحرف الأول أي اللحظة التي يتم فيها النطق بالحرف يكون الجهاز النطقي قد حرك العضو في الحيز الخاص بالحرف الموالي، فليست تنطق الحروف بالتوالي؛ بحيث بعد أن تنتهي عملية النطق بالحرف تبدأ الحركية العضوية للنطق بالحرف الثاني إنما الحركية العضوية للنطق بالأصوات هي حركية انسيابية متدفقة إلى أن تنتهي السلسة الصوتية المحدد نطقها فيحدث ما يعرف بالوقف أو الفصل، لتبدأ سلسلة نطقية جديدة تتشكل فيها الأصوات كنسق خطي ترتبط وحداته وفق اتصال محكم لا فجوات فيه كما يبدو في الظاهر، مثلما نجد ذلك في التتابع الخطي لنقاط المستقيم، إلا إذا اعترض عملية النطق عارض ما فيحدث القطع قبل وقته. وهذا ما يؤكده العلم الحديث، *فلقد تبيّن للعلماء الغربيين اليوم*﴿***أن التموجات الكلامية متصلة بعضها ببعض في تعاقبها بدون انقطاع ولا يتمثل هذا التعاقب على شكل اقتران أجزاء بأخرى بل على شكل سريان اهتزازي مستمر، وتعمق من جاء بعد روسلو ولا سيما بعد أن اخترع الراسم الإلكتروني للاهتزاز ثم المحلل الراسم لطيف الصوت فتمكنوا من المزاوجة بين هذين الجهازين بعد ذلك وبين ما يسمى بالراديولوجية السينمائية***﴾.[22]

وهذا ما كشف عنه الخليل والأولون إلى حد بعيد، بمنطق تفكيرهم بدون وجود راسم طيف ولا راسم إلكتروني للاهتزاز، مما يثير الدهشة والإعجاب! فعندما يقول الخليل لكل حرف *جرس وصرف*، موضحا أن الجرس هو فهم الحرف عند سكونه أي عند النطق به، فهي خاصية للصوت ترتبط بالمستمع بعد عملية إنتاج الصوت، في حين أن الصرف عنده هو حركة الحرف، فالصرف أسبق كعملية من الجرس، لأنه مرتبط بعملية إحداث الحرف وإنتاجه، ولا يقصد هنا بحركة الحرف الحركة كصوت، وإنما المقصود الحركة كفعل ***وحركة عضوية هوائية***، يتم فيها النطق بالحرف واستعداد الجهاز الصوتي بالنطق بالحرف الموالي في ذات اللحظة، فهي حركة عضوية هوائية تتولد من خلالها الأصوات اللغوية، وهي ***حركة تسلسلية آنية*** تشكل الأصوات اللغوية باعتبارها كما متصلا في الأصل والأساس الأول، هذه الحركة العضوية القائمة أولا على الإدراك العقلي بالنطق المتسلسل للأصوات، والقائمة ثانيا

على الدفع الهوائي في جهاز التصويت، والقائمة ثالثا على الاستعداد بالنطق بالحرف الموالي في نفس اللحظة التي يتم فيها النطق بحرف معين، ***هذه الحركة العضوية الهوائية هي التي يطلق عليها الخليل مصطلح الصرف***، وهي الحركة التي يعنيها، فهي حركة عضوية تمكن من نطق الحرف وفي ذات الوقت الانتقال الى النطق بالحرف الموالي، ومنه تتشكل الأصوات كمادة كمية متصلة لا فراغ بين وحداتها في السلسلة الصوتية الواحدة.

فلقد تأمل الأولون عملية الإنتاج الصوتي و أدركوا أن القانون الذي تسري عليه أصوات العربية حتى يتم الوصل بينها أي حتى تتشكل ككم متصل لا فجوات فيه، هو ***عامل صوتي هام***، وهو المحرك الحقيقي لهذا الوصل وبدونه يتحقق الفصل وتتشكل الأصوات كم منفصل لا متصل، وهذا العامل الصوتي هو الصائت، أو الحركة القصيرة[فتحة، ضمة، كسرة]، فالصرف باعتباره حركة الحرف لا يعني به الخليل الحركة كمصوت، وإنما يعني به الحركة العضوية التي يتم بها إحداث الحرف، وفي ذات الوقت الانتقال من مخرج هذا الحرف إلى مخرج حرف آخر موال له في النطق، هذا الانتقال الذي لا يتم في نظام اللغة العربية ***إلا وفق مصوت***، أي الحركة كصائت، فهذاهو﴿ ***سبب تسميتهم المصوت حركة لأن المقصود منه عند الخليل هو الحركة العضوية الهوائية التي تحدث الحرف من جهة، وتمكن الانتقال من مخرجه إلى مخرج حرف آخر ويرافقها في الغالب مصوت***﴾[23] ***فعبر الحركة كصائت يتحقق الصرف للحرف أي يتحقق الصرف كحركة عضوية هوائية صوتية يتم من خلالها الانتقال من موضع إلى موضع آخر بدون انقطاع أو حدوث فجوات.***

وهذه الحركة العضوية الهوائية التي يتم فيها الانتقال من الحرف إلى حرف آخر، والتي لا تتم كما لاحظه الأولون إلا بوجود المصوت كحركة هي الذي يطلق عليها الأولون ***مصطلح الإدراج***، *فالإدراج باعتباره جزءا من الظاهرة التي يطلق عليها الخليل مصطلح الصرف في النظام الصوتي وهو الظاهرة اللغوية التي تعكس لنا بدقة التركيب الصوتي في اللغة العربية باعتباره كما متصلا، لا فجوات ولا انقطاع فيه، يوضح لنا ذلك الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح قائلا:﴿ ثم إن للحركة التي يتم بها الإدراج تأثيرا كبيرا على الحرف الذي تحدثه لأنه" يتقوم بها" ... هذا هو التصور العربي للدينامية اللفظية الطبيعية: فاتصال الحروف يقتضي تهيؤ للنطق بالحرف التالي في الوقت الذي ينطق بما قبله، وهذا يحدث في أثناء النطق بالحركة أي في بداية الخروج من مخرج الحرف والانتقال إلى مخرج آخر،* ***فالحركة هنا مثل حركة الصور في الأفلام السينمائية فلا انقطاع فيها بين صورة وأخرى إطلاقا، فهذا هو الإدراج***، *وما أبعد هذه الرؤية من التصور اليوناني الذي يجعل من الكلام مجرد*

تعاقب للعناصر الصوتية تقترن بعضها ببعض دون أن يكون هناك إدراج للحركات المحدثة لها﴾.[24]

فإن للحركة كمصوت دورا كبيرا في نظام الصوتي للغة العربية، إذ لا يتمكن النطق بالحرف إلا بها، ومنه لا تتشكل السلسلة الصوتية كدفق انسيابي إلا بفضل هذه الصوائت القصيرة لما لها من دور كقوة صوتية محركة ودافعة للجهاز النطقي للانتقال من حيز صوتي إلى حيز صوتي آخر ومنه من مخرج إلى مخرج آخر فتتشكل الحروف ومنه تتشكل المتوالية الصوتية، إذ يقول الرماني:﴿ إذا تحرك الحرف اقتضى الخروج منه إلى حرف آخر.﴾[25] نفهم من هذا الكلام:﴿ أن للحركة دورين هامين جدا تنفرد بهم وحدها دون الحروف التوام " الجامدة منها واللينة" وهو تمكين الناطق من إحداث الحرف أولا، وتمكينه ثانيا من الانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر، وهذا الذي قاله الرماني مهم جدا لأن النظرية الصوتية العربية بنيت كلها عى هذه الرؤية الحركية، وبذلك نستطيع أن نفهم لماذا سميت الحركة حركة، ونفهم أيضا الكثير من الظواهر الصوتية﴾.[26]

موضحا لنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح كيف تتم هذه الظاهرة الصوتية باعتبارها كما متصلا لا فجوات بين وحداتها في قوله:﴿ **وهذا يحدث في أثناء النطق بالحركة أي في بداية الخروج من مخرج الحرف والانتقال إلى مخرج آخر**﴾[27] بمعنى أن الانتقال من حرف إلى حرف في النظام الصوتي المبني على توالي حرف متحرك يتبعه حرف ساكن، أو حرف متحرك يتبعه حرف متحرك، لا يتم بالمراحل، على أساس أنه بعد انتهاء عملية النطق بالحرف الأول تبدأ عملية النطق بالحرف الثاني، بل في اللحظة التي يتم فيها النطق بالحرف المتحرك يكون العضو الثاني في الاستعداد للنطق بالحرف الموالي، وهذا يحدث أثناء النطق بالمصوت أي بالحركة، مما يحقق الاتصال ويحقق تشكل المادة الصوتية ككم متصل مثل الوحدات الزمنية ومثل نقاط الخط، حيث لا توجد فجوات وفراغات بين وحدات الزمن أو بين وحدات الخط، فحدوث الحركة كمصوت تحدث بعد النطق بالحرف وقبل النطق بالحرف الموالي، وأثناء النطق بها يكون العضو انتقل إلى المخرج الثاني مما يحقق البناء الصوتي ككم متصل لا فجوات فيه﴿ فالحركة كمصوت فقط لا يمكن أن تحدث إلا بعد الحرف، وهذا الحرف لا يكون إلا جامدا أو شبيها به، مثل الواو والياء غير المدتين، وأما التحريك كعملية إطلاق الهواء والعضو فيحصل مع حدوث الحرف وبعد لأنه دفع وتزجية للصوت والعضو، ويحدث الحرف المتحرك بنبوة العضو في موضع الحرف والتهيؤ له، وهو يقع قبل الحرف المتحرك﴾.[28]

Revue **LA PHONETIQUE**, Volume 20 N° 01, jan 2018 – ISSN : 1112 - 6426

مؤكدا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أنه لا بد من التفريق بين الحركة كمصوت يتم به الإدراج وبين الحركة العضوية الهوائية التي تتم عبر هذا المصوت والتي يطلق عليها الخليل مصطلح الصرف، فالحركة العضوية الهوائية أعم من الحركة كمصوت، وذلك في قوله﴿ يستخلص مما سبق ذكره من التمييز بين الحركة المطلقة للهواء والعضو التي يمكن بها الانتقال إلى مخرج آخر من جهة، وبين المصوت الذي يرافقها من جهة أخرى وهو صوت حنجري النفس أو نفس يحدث معها وهو ذلك الهواء المطلق الصائت أوغير الصائت﴾.[29] وعلى هذا﴿ فالحركة في الحرف المتحرك أخص من الحركة العضوية الهوائية لأنها حركة إطلاق لا حركة حبس للعضو والهواء﴾.[30]

فظاهرة الصرف باعتبارها حركة عضوية هوائية تتم عبر مصوت أي عبر إدراج المصوت من أجل الانتقال من موضع إلى موضع آخر فيتحقق الحرف الأول ويتمكن الناطق من النطق بالحرف الثاني هي ظاهرة ترتبط ارتباطا جذريا بالمصوت، مع ضرورة التفريق بين الحركة كمصوت يتحقق بها الإدراج الصوتي أي الانتقال من حرف إلى حرف آخر وبين الصرف كحركة عضوية هوائية يعد المصوت كحركة جزء لا يتجزأ منها، فبهذه العملية يتشكل لنا البناءالصوتي ككم متصل لا فجوات فيه.

موضحا الدكتورعبد الرحمن الحاج صالح مفهوم الصرف كحركة عضوية هوائية عند العلماء الأولين وكيف يتقاطع منهج الخليل مع منهج الصوتيات التكنولوجية الحديثة بشكل مدهش للعقل، إذ يبين لنا الخليل بأن حرف الألف ومنه باقي حروف اللين لا صروف لها، وذلك لأن حروف اللين هي حركات قصيرة وقع فيها مد، هذا المد يجعل القوة الصوتية الهوائية في تناقص لا في تسارع، والصرف كحركة عضوية هوائية يتم من خلالها الانتقال من حيز إلى حيز آخر دون انقطاع، يحتاج إلى قوة دفع متزايدة يستطيع من خلالها الانتقال من موضع إلى آخربسرعة وبدون انقطاع، وهذا ما تحققة الصوائت القصيرة، فهي تجعل الحركة العضوية الهوائية في تسارع وتزايد مما يحقق الاتصال والانتقال من حيز صوتي إلى حيز صوت آخر. فإن﴿الحركة بما أنها حركة عضوية هوائية فإنها تقتضي أن يكون هناك قوة دافعة تحدثها بل وأن تكون هي نفسها ذات قوة حركية فيجب أن تكون متصاعدة القوة لأنها في الحقيقة اندفاع وبذلك تتمكن من الاستمرار والانتهاء إلى المخرج الموالي، وهذه القوة الحركية هي التي يسميها الخليل الصرف، ولهذا ليس لحروف المد صرف لأنها مدات تحصل بدفع الحركة وتكون قوتها الحركية متناقصة، وهذا ما تبينه بوضوح الاختبارات الآلية﴾.[31]

وهذا ما تؤكده الأبحاث الصوتية الآلية الحديثة، فقد عالجت موضوع ﴿المصوت القصير والمصوت الطويل الباحثة المتميزة M.Durand باللجوء إلى الاختبار أيضا، وقد سبقها في ذلك أحد مؤسسي الفونولوجية وهو تروبتسكويN.Trubetskoy إذ صرح بأن المصوت القصير ذو قسم واحد والمصوت الطويل ذو قسمين، لأن التلفظ بالمصوت الطويل يختلف في بدايته عن نهايته <u>كما وكيفا</u>، فبعد أن ذكرت الباحثة Durand هذا الكلام، وبيّنت باللجوء إلى الاختبار الآلي أن المصوت الطويل يتصف قسمه الأخير وهو الأطول بتناقص لقوة اللفظ وأما المصوت القصير فلا يكون إلا بتزايد هذه القوة، ونستنتج من ذلك أن بداية المصوت الطويل هو دائما متزايد القوة. وهذا يتفق مع ما قاله العلماء العرب، وخاصة حكمهم على حرف المد بأنه ساكن إلا أن السكون هنا هو غير السكون في الحروف الجوامد لأنه <u>يحصل بالتدريج</u>﴾. [32]

كما أكدت الأبحاث الصوتية في الاختبارات الآلية ما اصطلح عليه الخليل بمصطلح الصرف، فالسلسلة الصوتية عند العرب الأولين لا تقوم على مجرد التتابع، بل على الانتقال من حرف إلى حرف في ذات اللحظة التي يتم فيها النطق بالمصوت، وهذا نظيره في الصوتيات الحديثة مفهوم النقلة ﴿ **أما في زماننا فقد وجدنا المهندسين المهتمين بالعلاج الآلي للكلام " تركيبه الاصطناعي الآلي" يلتفتون أكثر إلى النقلة" Transition التي تصل الحرف بالحرف الذي يليه أي الفترة الحركية التي ينتقل فيها الناطق من مخرج إلى آخر وهي في الحقيقة الفترة التي تشغلها الحركة أوالسكون مع ابتداء حركة.**﴾[33] فلقد﴿ اكتشف الباحثون بأعمالهم على المطياف أن أهم شيء في عملية إحداث الكلام وإدراكه ليست الحروف " الفونيمات" في ذاتها ولا في صفاتها المميزة لها ... بل ما يحصل بين مخرج الحرف ومخرج حرف آخر أي في أثناء حصول حركة تمكن من إخراج الحرف والانتقال منه إلى حرف آخر كما قال علماؤنا، ففي داخل الحركة تقوم الأعضاء بأعمال تهيئة النطق بالحرف الآخر، وفي نفس الوقت القيام بإخراج المصوت الذي يرافق الحركة وما يقتضي ذلك من اشتراك عضوين أو ثلاثة: وهذه العمليات المتداخلة يظهر أثرها في تحول بواني المصوت " في التحليل الطيفي" أثناء حدوث الحركة بحيث يمكن أن يقرأ الطيف، وسموا الانتقال الذي تتحول فيه البواني Transition، و بنى على ذلكDelattre وأصحابه مناهج تركيب الكلام الصناعي، فاستخرجوا من آلاف الأطياف الكيفية التي تنحو نحوها البواني الأساسية للمصوت الذي يأتي بعد الصامت أو المصوت السابق﴾.[34]

ومنه نجد أن أبحاث العلم الحديث وفق المخابر والاختبارات الآلية تؤكد ما قاله الخليل منذ أكثر من ألف سنة، وعملية إدراج الحروف في اللفظ عبر الحركات كمصوتات

بحيث يتم الانتقال صوتيا من الحرف الأول إلى الحرف الثاني وذلك في الوقت الذي تتحقق فيه الحركة كصائت واقعيا في مدرج الكلام، هي عملية تحقق لنا السلسلة الصوتية وفق المنظور الكمي لها باعتبارها كما متصلا، **لكن كيف تتحقق التركيبة الصوتية باعتبارها كما منفصلا مشكلة الأصوات اللغوية كماهية مزدوجة أي كطابع كمي متصل منفصل ومنفصل متصل إلى غاية أن تنتهي السلسلة الصوتية ويحدث الوقف أوالقطع النهائي؟**

إن ذلك يحدث في السلسلة الصوتية .وفق منظور العلماء الأولين .عندما يتم الانتقال من الحرف المتحرك إلى الحرف الساكن ومن الحرف الساكن إلى الحرف المتحرك، فالإدراج ظاهرة تخص الحروف المتحركة، التي يتم فيها الانتقال من حرف إلى حرف دون انقطاع أو فاصل زمني مما يشكل لنا متوالية وسلسلة صوتية كخط إيقاعي يتقاطع مع الخط الزمني لها، في حين أن الحروف الساكنة لا إدراج لها، لأنها تخلو من الحركة كمصوت والتي يتم من خلالها الانتقال من حيز صوتي إلى حيز صوتي آخر في ذات اللحظة، يقول ابن جني:﴿ ***أصل الإدراج للمتحرك إذ كانت الحركة سببا له وعونا عليه*** *﴾.[35] فالمصوت هو الذي يعطي القوة والدافعية الأكبر للصوت باعطاء الدفع الأقوى لتلك الحركة العضوية الهوائية المحدثة للصوت، ومنه يحدث الاتصال، أما في غياب الحركة كمصوت فيحدث الانقطاع وتتحقق الفجوة النطقية بين الحرف الساكن والحرف الذي يأتي بعده، إذ تبدأ عملية وحركة عضوية هوائية جديدة قريبة للانطلاقة الأولى في تشكيل التركيب الصوتي، فعدم وجود حركة على الحرف الساكن، تعني عدم الانتقال الآني في ذات اللحظة من حرف إلى حرف دون انقطاع، ومنه فالحروف المتحركة مع الحروف التي تليها هي كميات متصلة في السلسلة الصوتية في حين أن الحروف الساكنة مع الحروف التي تليها هي كميات منفصلة تصنع الفراغات والفجوات في عملية النطق.*

إذ نستخلص مما سبق أن ﴿الخروج من حرف إلى حرف آخر كما يقول الرماني أوالانفصال من حيز إلى حيز آخر، كما يقول من جاء بعده، هي الميزة الحقيقية التي تميز الحرف المتحرك من الساكن، فإن الحركة في الأول ليست أي حركة عضوية وهوائية بل تلك التي يرتفع بها العضو وينتقل بها الهواء من موضع إلى موضع آخر، وهذا خلاف الحرف الساكن الذي يمتنع فيه العضو والهواء معه من الانتقال من الموضع ﴾[36] فالحرف الساكن تحدث بالضرورة حركة قبله، وبحبس هذه الحركة جزئيا أو كليا يحدث هذا الحرف، فالحركة هي حركة الحرف السابق، والمقصود بالحركة هنا الحركة العضوية الهوائية التي يتم بها الانتقال من الحرف المتحرك الذي يسبق الحرف الساكن إلى الحرف الساكن، الذي تهدأ العملية الصوتية عنده مؤقتا إذا كان في وسط السلسلة الصوتية، أما إذا كان في آخرها فيكون هناك

هدوء كلي، أي استقرار كلي للهواء، ويكون جهاز النطق في حالة الصفر، لأنه انتهى من عمله في بناء التركيبة والمتوالية الصوتية في سياق لغوي معين.

*ولقد شرح لنا ذلك العلماء القدامى انطلاقا من **رؤية صوتية كمية**؛ نلاحظ من خلالها كيف تتشكل الحروف المتحركة مع ما يلحقها من حروف ساكنة أم متحركة ككميات متصلة، إذ﴿ **يقتضي الوصل التحرك لتمكين الحرف الذي بعده متحركا كان أو ساكنا.**﴾[37] وفي ذات الوقت كيف تتشكل الحروف الساكنة مع ما يليها ككميات منفصلة، إذ لا يليها إلا المتحرك في نظام اللغة العربية، إذ يقول صاحب كتاب المحاذي:﴿ إن ذلك الحرف الذي يسمى حركة به انتقل الهواء وانقطع عن قراره... وتمكن النطق بما بعده.. أما وجوب سكون الحرف الموقوف عليه فلأنه لم يرد نقل الهواء عنه إلى حيز آخر﴾.[38] وقال أيضا: ﴿ فإن انتهى الصوت إلى حيز وقرع مخرجا من مخارج الحلق أو الفم أوالشفتين تموّج لذلك القرع فتكيف بكيفية هي الحرف... **فإن قر الهواء قرارا تاما ولم يضطرب فالحرف ساكن، وإن لم يتم قراره واضطرب عند الاعتماد كان الحرف متحركا لانفصاله عن الحيز بحركة .... تلك الحركة التي ينفصل بها الهواء عن مقطع خاص متنقلا إلى غيره**﴾.[39]*

فالهواء في الحرف الساكن يتم استقراره وقراره دلالة على تناقص القوة الحركية الهوائية، في حين أن الهواء في الحرف المتحرك يستقر في مخرج معين وفق اضطراب لا استقرار وهدوء وفي ذلك دلالة على القوة المتزايدة وعلى التوليد والإنتاج الصوتي القادم، فالحركة كمصوت تحقق الحرف الذي ترافقه وتشكل في ذات الوقت النقلة العضوية الهوائية التي يتحقق بها الحرف الموالي، وهذا في ذات الوقت الذي يتم فيه الخروج من موضع الحرف الأول وأثناء النطق بالحركة كمصوت في حد ذاتها مما يحقق الاتصال لا الانفصال الذي يتحقق بالحرف الساكن، وما حروف اللين التي وصفها الخليل بأنها حروف لا صروف لها إلا حروف سواكن، وصورة نموذجية لكل حرف ساكن داخل السلسلة الصوتية، لكنه يؤكد على حروف اللين لأنها تأتي في المطلق كأصوات لها أجراس لكن لا صروف لها، في حين أن باقي الحروف قد تأتي ساكنة كما قد تأتي متحركة.

ومنه فإن لمفهوم المتحرك والساكن أهمية كبيرة في بناء النظام الصوتي في اللغة العربية، لا على أساس أن الحرف المتحرك هو ما تتبعه الحركة، والحرف الساكن هو ما يخلو من الحركة، فقط، وإنما على أساس صوتي فيزيولوجي أعمق، وهو أن الحرف الساكن لا تتوفر فيها **النقلة الآنية** بين الأصوات التي تحقق الاتصال وعدم حدوث الانقطاع، أي عدم حدوث الفجوات، في حين أن الحرف المتحرك هو ما يحقق النقلة ويشكل السلسلة الصوتية كمتوالية

حقيقية، فلقد تبيّن للعلماء الغربيين اليوم ﴿أن التموجات الكلامية متصلة بعضها ببعض في تعاقبها بدون انقطاع ولا يتمثل هذا التعاقب على شكل اقتران أجزاء بأخرى بل على شكل سريان اهتزازي مستمر، وتعمق من جاء بعد روسلو ولا سيما بعد أن اخترع الراسم الإلكتروني للاهتزاز ثم المحلل الراسم لطيف الصوت فتمكنوا من المزاوجة بين هذين الجهازين بعد ذلك وبين ما يسمى بالراديولوجية السينمائية﴾.[40]

ومن أوجه المنظور الكمي للأصوات، التفريق بين الحرف الساكن الذي يعد جزءا من السلسلة الصوتية، والحرف الساكن الذي يعد نهاية السلسلة أي الحرف الذي يتم الوقف عليه، وكما نعرف أن العربية لا تبدأ إلا بمتحرك ولا تقف إلا عند ساكن، يقول ابن جني:﴿ الحرف الساكن ليست حاله إذا أدرجته إلى ما بعده كحاله لو وقفت عليه... وسبب ذلك عندي أنك **إذا وقفت ولم تتطاول إلى النطق** بحرف آخر من بعده تلبثت له ولم تسرع الانتقال... **فأما إذا تأهبت للنطق** فيما بعده وتهيأت له وتنشمت فيه فقد حال ذلك بينك وبين الوقفة﴾.[41]

الخاتمة:

انطلاقا مما تقدم ذكره؛ يتبيّن لنا أهمية المنظور الكمي في تحديد الصوائت القصيرة باعتبارها أبعاض حروف اللين، كما يتبيّن لنا أهمية المنظورالكمي في وصف السلسلة الصوتية، فهي تتحقق ككميات متصلة منفصلة إذ امتزجت فيها المتحركات والسواكن، فلا بد من إمعان النظر في ثنائية الحركة والسكون كثنائية محورية في البناء الصوتي العربي، والذي تحددت عليه البنية الإيقاعية العروضية، بل واستفاد أهل الموسيقى من عقل الخليل الرياضي في الإيقاع الموسيقي في كتابه الإيقاع و النغم، كما يتبيّن لنا تشكل الأصوات ككميات متصلة لا على أساس توالي الحروف في تركيبة صوتية معينة، بل الأمر أعمق وأدق كما كشف عنه الخليل وأكدته الصوتيات الحديثة والتكنولوجيا اللغوية بما يصيبنا بالدهشة والإعجاب بهذا العقل الرياضي الخليلي، فكشف لنا أن الأصوات ككميات متصلة هي كميات رياضية كما تعرفها الرياضيات، ففي اللخظة التي يتم فيها النطق بالحرف هي ذات اللحظة التي يتم فيها الاستعداد للنطق بالحرف الثاني، وأن هذا الاتصال يحدث لأن بين الموضع والموضع هناك مصوت يتم التلفظ به في الحالة التي يتم فيها انتقال العضو المصوت للنطق بالصوت الموالي مما يحدث اتصالا نطقيا وزمنيا، فليس هناك لحظة زمنية ينقطع فيها الامتداد الهوائي والعمل الصوتي أوتتوقف فيها الحركة العضوية الهوائية المحدثة للأصوات، وذلك بعكس الحروف الساكنة التي تتحقق هي وما يليها ككميات منفصلة إذ لا حركة تساعد في دفع الهواء للانتقال

المباشر إلى الحرف الذي يلي الحرف الساكن، مما يخلق فراغا زمنيا في عملية الانتقال من الصوت الساكن إلى الصوت الذي يليه سواء أكان الصوت الذي يليه صوتا متحركا أم صوتا ساكنا. وهذا ما يؤكده العلم الحديث، فمع أن ظاهر اللفظ واحد وهو توالي وتتابع المتحركات والسواكن في ذات السلسلة الصوتية وكأنها تشكل نسقا خطيا يشبه الخط ككم متصل في الرياضيات، إلا أن حقيقة الأمر أن داخل كل سلسلة صوتية متشكلة من المتحركات والسواكن هناك اتصالات وانفصالات واتصالات مما يشكل المادة الصوتية ككم رياضي مركب: كم متصل منفصل. وذلك وفق مفهوم النظرية العربية الخليلية في اللسانيات العربية.

وانطلاقا من هذه الرؤية الصوتية التي كشف عنها الخليل ووضحها لنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في أحسن شرح وتمثيل، نستطيع القول أننا لا نتفق مع الفارابي في رؤيته للظاهرة اللغوية باعتبارها كما منفصلا لا اتصال بين وحداته وذلك في قوله:﴿...والألفاظ أيضا كذلك، فإن الحروف لا يمكن أن توجد بينهما حد يجعل نهاية مشتركة لحرفين، ولا أن يجعل حرف واحد نهاية مشتركة لجزئي اللفظة، أو قول فإنك إن فعلت ذلك نقص من أحد جزئين حرف فتغير وصار شيئا آخر﴾.[42] في حين يعد الزمان كما متصلا﴿ وكذلك الزمان، فإنه يمكن أن يوجد فيه أيضا شيء ما قياسه إلى الزمان كقياس النقطة إلى الخط، وهو **الآن** فيكون حدا مشتركا بين زمانيين ماض ومستقبل﴾.[43]

فإذا انطلقنا من تحديده للزمان باعتباره كما متصلا يتبيّن لنا أن ذلك يعود إلى وجود نقطة مشتركة تحقق الاتصال الزمني هي **اللحظة الزمنية: الآن،** ومنه فلا انفصال بين وحدات الزمن فمن الماضي إلى المستقبل هناك اللحظة الآنية، والأمر عينه في السلسلة الصوتية فيما يخص الحرف المتحرك والحرف الذي يليه فلا نجد فيه انفصالا؛ فهناك لحظة زمنية راهنة هي لحظة النطق بالمصوت الذي يساعد في حدوث الحرف الأول وفي عملية إحداث الحرف الموالي بدون انقطاع لازمني ولا حركي، ففي اللحظة التي يتم فيها الخروج من الموضع الأول والنطق بالمصوت هي ذات اللحظة التي تصل فيها القوة الدافعية الهوائية إلى المخرج الثاني ويكون العضو في استعداد تام لاطلاق الصوت بمجرد أن ينتهي جهاز التصويت من تحقيق الحركة كمصوت. ومنه فكما تتشكل الوحدات اللغوية وفق البعد المنطوق للظاهرة اللغوية باعتبارها كما منفصلا تتشكل في اتجاه محوري ومقابل ككميات متصلة.

وانطلاقا من هذه الخاصية الثنائية لنظام الأصوات العربية، نجد المعالجة الآلية للغة في العصر الحديث تتم وفق نفس النظام الكمي للغة، فإن﴿ القدرة على تحويل المستمر

إلى المتقطع، والعكس، هي أحد المفاهيم الأساسية التي تستند إليها معالجة اللغة آليا، فالمعطيات اللغوية المستمرة يجب تحليلها وتقطيعها في صورة رموز منفصلة تهيئةً لمعالجتها آليا، أما مخرجات الحاسوب المتقطعة، ذات الطابع النبضي فيلزم دمجها وتنغيمها حتى تتجلى للمستخدم البشري في صورة مستمرة طبيعية ومقبولة». [44] ويمكننا توضيح آلية الحرف الساكن والحرف الذي بعده ككميات منفصلة، في مقابل تشكيل الحرف المتحرك والحرف الذي يليه في البنية الصوتية ككمية رياضية متصلة في المخطط التوضيحي التالي:

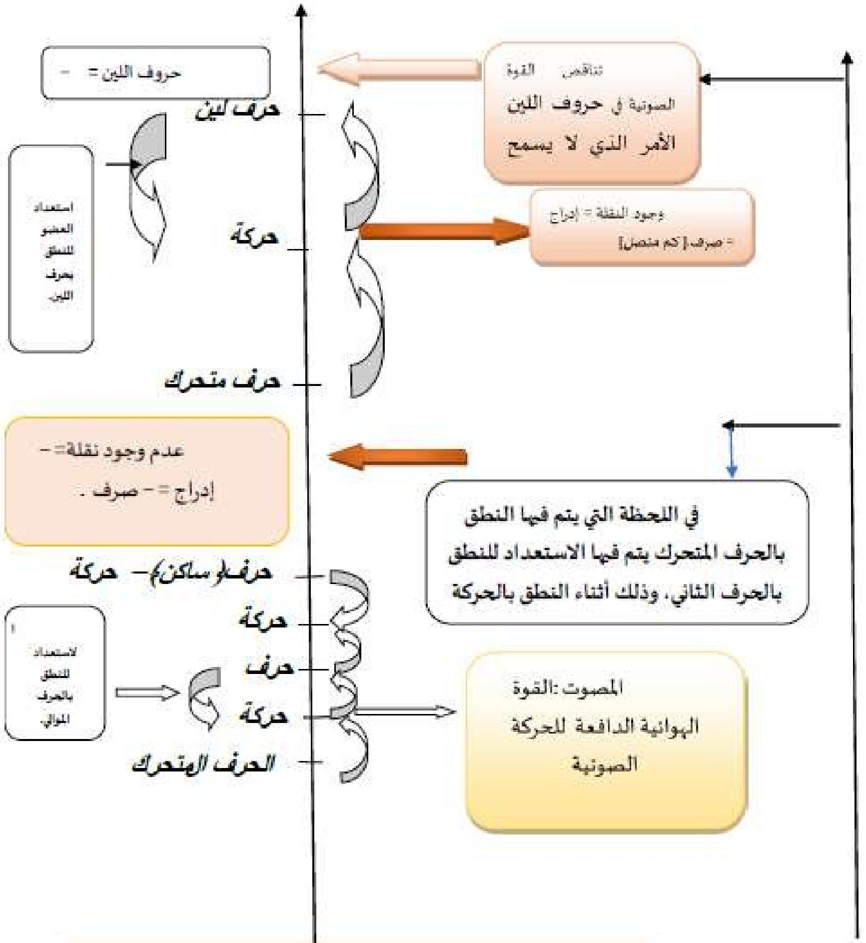

البنية الصوتية وفق نظام الكم المتصل والكم المنفصل.

هوامش البحث

1 موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف: رشدي راشدي، مركز دراسات الوحدة العربية، مؤسسة عبد الحميد شومان، سلسلة تاريخ العلوم العربية، لبنان، ط2 ،2005 م، 488/2.

2 موسوعة تاريخ العلوم العربية، رشدي راشد، 488/2.

3 المنطق عند الفارابي، أبو نصر الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق: رفيق العجم، دار المشرق، المكتبة الفلسفية، بيروت، لبنان، دط، 1985، 93/1.

4 المنطق عند الفارابي، أبو نصر الفارابي، 93/1ـ94.

5 المنطق عند الفارابي، أبو نصر الفارابي، 94/1ـ95.

6 سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق: حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، ط2 ،1993م، 17/1.

7 سر صناعة الإعراب، ابن جني، 18/1.

8 سر صناعة الإعراب، ابن جني، 18/1.

9 الصوتيات عند ابن جني،عبد الفتاح المصري، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 15ـ16، سنة 1984، ص247.

10 المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت، ص33.

11 المنطق عند الفارابي، أبو نصر الفارابي، 95/1.

12 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 2007، 64/2.

13 تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، راجعه : محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ط، د.ت، 46/1.

14 تهذيب اللغة، الازهري، 47/1ـ48.

15 شرح الكتاب، الرماني، معهد المخطوطات، رقم 88، 56/4.

16 شرح الكتاب، الرماني،15/5 ب.

17 شرح الكتاب، الرماني، 15/5 ب.

18 شرح الكتاب، الرماني،21/5 ب.

19 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 65/2.

20 شرح الكتاب، الرماني، 5/الورقة 23 ب.

21 المقتضب، المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة،عالم الكتب، بيروت، د.ت، 36/1.

22 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 191/2.

23 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 64/2.

24 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 182/2.

25 شرح الكتاب، الرماني، 21/5 ب.

26 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 180/2.

27 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمنالحاج صالح، 182/2.

28 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 188/2ـ189.

29 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 187/2.

30 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 185/2.

31 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 198/2.

32 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 194/2ـ195.

33 بحوث ودرسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 65/2.
34 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 196/2ـ197.
35 الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمدعلي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، د.ت، 58/1.
36 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 185/2.
37 شرح الكتاب، الرماني، 15/5.
38 المحاذي، محمد بن عبد السلام الفاسي، الورقة 29 ب، نقلا عن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،عبد الرحمن الحاج صالح، 184/2.
39 المحاذي، محمد بن عبد السلام الفاسي، ص55، نقلا عن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح،184/2.
40 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، 191/2.
41 الخصائص، ابن جني، 58/1.
42 المنطق عند الفارابي، أبو نصر الفارابي، 1/ 95ـ96.
43 المنطق عند الفارابي، أبو نصر الفارابي، 95/1ـ96.
44 اللغة العربية والحاسوب، نبيل علي، تقديم: أسامة الخولي، دار تعريب، شركة العربية، د. مكان نشر، د.ط، 1988م، ص57.

الدراسة التطبيقيّة للمُستوى الصَّوتِي فِي سُورة الزّلزلة _أثر الصّوت في توجيه المعنى وتأكيده_

Appleid study of the level of voice in surat al zelzalah_sound effect in the direction and confirmation of the meaning

أسماء بوكرايدي*

تاريخ تقديم البحث **2017/10/15** تاريخ القبول **2018/01/11**

ملخص

تبحث هذه الورقة اللغوية بحسب نوعها في المستوى الصّوتي لبنية النّص القرآني والمتمثّل في "سورة الزلزلة" من حيث بنيته الصوتية وتحديد أهمّ عناصره، وتوضيح مميزاتها وأنواعها ومختلف ظواهرها. فهي في مجملها تبحث عن كيفيةٍ ما إذا كان للصّوت دور في تصوير معاني السّورة داخل نفسية القارئ وهو في اتّصال مباشر مع بنية النص القرآني وهو يتلو آياته وألفاظها بتناسق أصواتها، مع تصوير لمشاهدها على الصعيد الذّهني، وتوجيه الدلالة انطلاقًا من مستوى الصوت قراءةً ونطقًا مع تسخير كلّ جوارحه في ذلك.

Abstract

This paper examines the language according to its type in the audio level of the structure of the quoranic text, which is surat al-zelzalah, in terms of sound structure, identify the most important elements, clarify the advantages and types and other varias phenomena. It'is in its entirety looking for how the vaice has a réle in partrayting the meanings of the sura withe in the psyche of the reader while he is in direct contact with the structure of the quranic text, reciting its verses and words in a coherrant meanner, withe a depiction of its vieus the mental level, and guide the significance from the sounde level, reading and speaking with the messing of all his lambs in it.

الكلمات الدالة: المستوى الصوتِي، الصوت اللغوِي،المقطع الصوتي.

Keyboard: audio level, linguistic sounds, sound track.

---

* قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة البليدة 2 ، الجزائر

مقدمة

لقد تشرَّفت اللغة العربيَّة بنُزُول آخر كتاب سماويّ على لسانها بالحقّ المبين، المعجز في صوته ولفظه ونظمه ومعناه، مِمَّا زادها من أسباب الجمال في خصائص تركيبها وبنيتها، فلا تزال تلك الأسرار الظاهرة على مرّ الزمان وتتواصل على رغم تطوّر الدّراسات اللغويَّة عبر العُصُور، وبالرَّغم من حداثتها فالنصّ القُرآنِي مُتواصِل في الكشف عن عجائبه بواسطة هذه اللغة التي تتميّز بديناميكيَّة عجيبة. زادتها معاني القرآن الكريم ودلالاته نُورًا خاصَّةً في المجال الصَّوتي من هذه الدّراسات، والذي هو بدوره مُتعلِّقٌ كلَّ التعلُّقِ بالقراءات، فهذا مصدر هامّ من مصادر توهّج مثل هذه الأبحاث على المستوى الصوتِي هذا من جهة، أمَّا من جهة أخرى باعتبار أنَّ الصَّوت اللغوِي أصغر وحدة مُكوِّنة لبِنية النصّ في القرآن الكريم، ومن هذا المنطلق أردنَا كشف تأثِير هذا الأخير على المعنى وتصويره لدلالة المشاهد، من خلال تركيبه وما يتمتَّعُ به من خصائص متنوّعة. فالقرآن الكريم مُعجَزٌ انطلاقًا من صوته وُصُولًا إلى بنية لفظه وكيفيَّة تركيبه ونظمه. وتحت هذا الإطار الفكري سُلِّطَ القلم والفكر على الجانب الصوتي فقط بُغيَة الإجابة على تساؤلات الإشكاليَّة والتي يمكن طرحها كالآتِي: ماهي البنية الصوتيَّة التي يتكوَّن منها نصّ سورة الزّلزلة؟ وكيف تَمَّ ذلك التناسق بين الأصوات وتجاورها والتحامها وتكاملها وعلاقة هذا البناء بقضيَّة تصوير المعانِي والمشاهد في ذهنيَّة القارئ وتوجيه الدّلالة بشكل دقيق ؟

***الجانب النظري : لمحة وجيزة متعلّقة بمفاهيم حول الصوت اللغوي في العربيّة.**

يُعَدُّ الصوت ظاهرة مهمَّة من ظواهر اللغة، والعُنصر الفعَّال من بين جُملة العنَاصِر التي تُكوِّنها، وأبرزها على الإطلاق باعتباره الجانب العِلْمِي للُّغة، وطريق الاتصال المشترك للإنسان، وتُعتبر دراسة الأصوات أوَّل خُطوة في الدراسات اللغوية لأنَّها:((تتناول أصغر وحدات اللغة، ونعني بها الصوت، الذي هو المادَّة الخَام للكلام الإنسَاني))[1].

1_ مفاهيم حول المستوى الصوتي(باعتباره أصغر مكوِّن في البنية): بأنَّ النِّظَام اللغَوِي يظهر على هيأة أنظِمة صُغرى يُؤَدِّي التَّفَاعُل بينها إلى تحريك جهاز اللغة. ويشمل النِّظَام اللُّغوي على ثلاثة مستويات أو أربع، على أننا تناولنا في بحثنا أصغرها والمتمثّل في "**المستَوَى الصَّوتي**" الَّذِي لَا يُوجد إلَّا مُجَسَّدًا في البنية الصَّوتيَّة للمفردات، ويَختصّ علم الأصوات اللغويَّة بدراسة مكوِّنَات تلك البنية الصَّوتية، ويرتبط بالمستوى الصَّوتي نظام الكتابة الَّذِي هو وسيلة لتسجيل هذا المستوى[2].

حيث أنَّ تمّام حسّان قد فرّق _في حديثه عن اللغة والكلام_ بين المستوى الصوتي والنِّظَام الصَّوتي، حيث قال:((الكلام لا يدرس منفصِلاً عن اللغة إلاَّ عند اعتباره عملا صوتيًّا بحتًا مقطوعِ الصِّلة بالمعنَى كما يحدث عند فحص المرضَى بالحصر والعيوب النطقيَّة والنَّفسيَّة الأخرى))[3] وهنا يقصد المستوى الصوتي، أمَّا بالنسبة للنِّظَام فإنَّ:((دراسة أصوات الكلام"المفيد الدَّال على معنى"إذا اقتصرت على ملاحظة المخارج والصفات وتسجيلها فحسب فهي مقدّمة لدراسة اللغة، ولا تتَّصِل باللغة إلَّا حين يتمُّ تنظيمها والربط بينها في نظام صوتي كامل تعرف فيه علاقات المخارج وعلاقات الصفات ايجابيًّا وسلبًا وتعرف فيه الظَّواهر الموقعيَّة التي يتطلَّبُها ورود هذه الأصوات المدروسة في السياق))[4].

فالمستوى الصوتي علم، يدرس الحروف من حيث هي أصوات، فيبحث في مخارجها، وصفاتها وطريقة نطقها، وقوانين تبديلها وتطورها، في كلّ لغة من اللغات القديمة والحديثة[5]. وهو نوعان:

أ-طبيعي: يتكوَّن من جانبين: جانب فيزيولوجي: يتعلَّق بالجانب النُّطقي(جهاز النُّطق) والجانب السَّمعِي (جهاز السَّمع). وجانب فيزيائِي: يتعلَّق بالأصوات في مظهرها الفيزيائِي؛أي عندما تتحوَّل الذَّبذبَات الصوتِيَّة إلى أمواج عبر الأثير.

ب-لُغَوِي: يتعلَّق بالأصوات اللغويَّة بوصفها الحامل المادِّي للأفكار والدَّلَالات أثناء الإنتاج الفعلي للكلام في الواقع اللغوي[6].

فالصوت اللغوي يصاحب في العادة كل نشاط إنساني يشترك فيه اثنان أو أكثر، وأنَّ العِلم الذِي يهتمُّ بدراسةِ الأصوات اللغويَّة هو عِلم الصَّوتيَّات[7]. كما يُعَرَّف كذلك على أنَّه: ((تلك الحركة النطقيَّة الملوَّنَة بألوانها الصوتيَّة الخاصَّة، ذو جانبين: أحدهما عضوي والآخر صوتي))[8].

وتتمُّ طبيعة تكوين النِّظام الصَّوتِي لأصوات اللغة العربيَّة:((بعد أن يكتمل وصف الأصوات الَّتِي تمَّت ملاحظتها وحصرها واستقراء القيم الخلافيَّة التي تفرق بين كلّ صوت منها وبين الصوت الآخر، ويمكن تقسيم هذه المخارج[الخاصَّة بهذه الأصوات] إلى أقسام، فيشترك كلّ قسم منها في مخرج خاصّ، وهنا يأتي دور الصِّفات الَّتِي تتَّصِف بها الأصوات والَّتي تعتبر الأساس السمعي للتفريق بينهما...فالمسألة إذًا مسألة تبويب والتبويب تفريق والتفريق رصد فروق قد تكون على أسس متعدِّدة، والفروق مقابلات، وهذه هي القيم

الخلافيَّة الَّتِي تعتبر عنصُرًا أساسيًّا من عناصر النِّظَام الصَّوتي، واختلاف الوظيفة التي تؤدِّيها كلّ وحدة من وحدات النظام وهي التي نطلق عليها النظام الوظيفي))[9].

ثمَّ أنَّ المعنى الوظيفي للنِّظام الصَّوتي يقوم بالتَّفريق بين طائفتين متباينتين من الأصوات إحداهما الصحاح وأخرى العلل، وتكمن وظائف الصحاح(ء،ب،ت،ث،ج، ح،خ،د،ذ،ر،ز،س، ش،ص،ض،ط، ظ،ع، غ،ف،ق،ك،ل،م،ن،ه،و،ي)فيمايلي:أولا أنَّها تكون أصولا للكلمات العربية من حيث الاشتقاق فتكون فاء الكلمة أو عينها أو لامها. ثانيا أنَّ الحروف الصَّحِيحة تكون بِداية للمقطع في اللغة العربيَّة ولا تكون العلل. وأنَّ تراكيب المقاطع العربيَّة هي:(ص/ص ح/ص م/ص ح ص/ص م ص/ص ح ص ص)على أنَّه سيتم التفصيل فيها في الجانب التطبيقي من الدراسة الصوتية ثالثا أنَّ الحروف الصَّحِيحة تقبل التحريك والإسكان. أمَّا رابعًا فيتم التفريق بين الصحيحين إذا وقع فيهما الجهر والهمس. خامسًا الحروف الصَّحِيحة إذا طالت دلَّت إمَّا على تعدُّد المقاطع أو على الوقف[10].

أمَّا بالنسبة لوظائف حروف العلة(الفتحة، الضمة، الكسرة، الألف، الواو، الياء)فهي مجملة باختصار على النَّحو التَّالي: أولًا أنَّ حروف العلَّة تؤدِّي خدمة جليلة في اللغة العربيَّة حيث تعتبر أساسًا لقُوَّة الإسماع. ثانيًا تعتبر مناطًا لتقليب صيغ الاشتقاق المختلفة في حدود المادَّة الواحدة. ثالثًا تعتبر مركزًا للمقطع العربي بما أنَّه لا يبدأ بها. رابعًا وأخيرًا أنَّ حرف العِلَّة(حركة أو مدّ) يصلُحُ بمفرده أن يكون علامة إعرابيَّة فيكون مفيدًا إيجابيًّا بالذِّكر وسلبًا بالحذف[11]. وفي رحاب هذه الطبيعة الثنائيَّة للظاهرة الصوتيَّة أوجد الفكر اللسَانِي المعاصِر منوَالين فرعيين لتناول هذه الظَّاهرة بِجَانِبَيهَا الطبيعي واللغوي، وهما مُتمثِّلان بـ:

_علم الأصوات العام(phonetique): موضُوعه الظاهرة الصوتيَّة بمظهريها الفيزيُولُوجي والفيزيائِي.

_علم الأصوات الوظيفي(phonologie):موضوعه الظاهرة الصوتية بمظهرها الوظيفي أثناء الإنجاز الفعلي للكلام في سياق لغوي معيَّن[12].

2_ في مفهوم الصوت اللغوي؛ والفرق بينه وبين الحرف: يُعرَّف الصوت اللغوي على أنَّه:((الأثر السمعيُّ الحاصل من احتكاك الهواء بنقطة ما من نقاط الجهاز الصوتي عندما يحدث في هذه النقطة انسداد كامل أو ناقص ليمنع الهواء الخارج من الجوف من حريَّة

المرور، مثل الباء التي هي نتيجة انسداد كامل في الشفتين، ومثل السين التي هي نتيجة انسداد ناقص في أطراف الأسنان))[13]. كما عرَّفهُ تمام حسان أنَّه:((عمليَّة حركيَّة يقوم بها الجهاز النطقي و تصحبها آثار سمعيَّة مُعيَّنة تأتي من تحريك الهواء فيما بين مصدر إرسال الصوت وهو الجهاز النطقي ومركز استقباله وهو الأذن))[14].

كما تجدر الإشارة في هذا المقام إلى ذكر قضيَّة التفريق بين الصوت اللغوي والحرف، وهي مسألة لطالما شغلت فكر الدَّارسين العلماء قَدِيمًا وحَدِيثًا، فقد عرَّف ابن جني الصوت قائلا:((اعلم أنَّ الصوت عَرَضٌ يخرج مع النَّفس مُستطِيلا مُتَّصِلًا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه على امتداده، واستطالته، فيُسمَّى المقطع أينما عرض له حرفا))[15]، كما عرَّف الحرف كذالك بأنَّه:((حد منقطع الصوت وغايته وطرفه))[16]. ويقول تمام حسان في تعريفه للحرف_بعدما عرف الصوت_على أنَّه:((وحدات فكرية تجريديَّة تقسِيميَّه لا جرس لها ولا تنطق))[17].

وممَّا سبق نُلاحِظُ أنَّ هُناك من القُدماء من كان يُفرِّق بين الصَّوت والحرف مثلما رأينا عند ابن جني_القرن الرَّابع الهجري_ومن خلال التَّعريفَات، فإنَّ الصوت أشمل من الحرف، والذي يهمُّنَا أنَّ أصوات اللغة العربيَّة مُقَسَّمة إلى أقسام، أي حُرُوف، أقلّ فِي العدد، وكلّ من الحُرُوف والأصوات تنقسم إلى قِسمين رئيسيَّيْن هُمَا:الصِّحاح والعلل[18]، أو بمفهوم آخر: الصَّوامت والعِلَل.

3_ المخارج والصفات بين العلماء القدامى والمُحدَثِين: أمَّا بالنّسبة للمخارج والصّفات، فقد اهتم بها اللغويّون منذ القديم، أين تضمَّنتها أعمالهم الصَّوتِيَّة وبقِيَ ذلك حتَّى العصر الحديث، حيث تتكوَّن لدينا نظرتين: نظرة العُلماء القُدَامى ونظرة المحدثِين منهم في المجال الصَّوتِي، وهي مبلورة ومختصرة فيمايلي:

أ -عند علماء العربيّة القُدَامى: اختلف علماء العربيَّة قَدِيمًا فِي تحدِيدِهم لمخارج الأصوات العربيَّة وصِفاتِها، فقد عالَجَ الخليل بن أحمد الفراهيدِي مخارج الأصوات بِطريقة تَفصِيليَّة، وأحصَاها بثمانية مخارج:الحلقِيَّة، واللهويَّة، والشجرِيَّة، والأسلِيَّة، والنَّطعِيَّة، واللثوِيَّة، والشفَوِيَّة، والهوائِيَّة[19]. ثمَّ جاء تلميذُه سيبويه الَّذِي خصَّصَ للدّراسة الصوتِيَّة مَوضِعًا في كِتَابه، وذلك في باب الإدغام، حيثُ رتَّبَ الأصوات العربِيَّة، وأحصَى مخارِجَها بسِتَّة عشر مخرجًا[20]. كما خطَى سيبويه خُطوة أخرى فِي تناوُلِه لأصوات العربيَّة حين فصَّل لِما سمَّاهُ"بِصِفات الحُرُوف"، مُوضِّحًا في ذلِكَ كيفِيَّة النُّطق بالصَّوت[21]. ثم بعد ذلك ابن

جني في كتابه"سرّ صناعة الإعراب"فإنَّه:((لا يكادُ يخرُج فيه عن كلام سيبويه، فِي تِعداد المخارِج، ووصف الحُرُوف، فكثِيرًا ما يقتبس نصّ العِبَارات التِي جاءت فِي كِتاب سيبويه ويقف عند حُدُودِها))[22].

ب -عند عُلماء العربيّة المُحدثِين: أمَّا رأي هذه الفئة من العلماء في مخارج الأصوات العربيَّة مؤسَّسًا على نتائج التَّجارب الصوتِيَّة هو:((الأصوات الشفوية:ب/م/و، الشفوية الأسنانية: ف، والأسنانية هي:ذ/ظ/ث، والأسنانية اللثوية:د/ض/ت/ط/ز/س/ص، واللثوية هي: ل/ر/ ن، والغارية: ش/ج/ى، والطبقية: ك/ غ/خ، واللهوية: ق، والحلقية:ع/ح، أمَّا الحنجرية:ء/ي))[23]. واختلف العلماء في عدد صفات الحروف فأنهاها بعضهم إلى أربع وأربعين صفة، وبعضهم إلى أربع وثلاثين صفة، وبعضهم أربع عشرة صفة، غير أن القول المشهور ما هو عند الجمهور (جمهور القراء) الذي يعدها سبعة عشر صفة[24]، وهي مفصلة على النَّحو التَّالي: المهموسة: وهي عشرة أحرف، مجموعة في القول (حثه شخص فسكت). المجهورة: وهي تسعة عشر حرفا الباقية – إلا المهموسة. الشديدة: ثمانية أحرف مجموعة في القول (أجدت طبقك). بين الشدة والرخاوة: وهي ثمانية أحرف مجموعة في القول (لم يروعنا). الرخوة: عددها ثلاثة عشر، وهي ما سوى النوعين السابقين – مباشرة على التوالي. المطبقة: أربعة حروف هي:"ض/ط/ص/ظ ". المنفتحة: خمسة وعشرون حرفا ما عدا الأربعة المطبقة. المستعلية: سبعة وهي الأربعة المطبقة إضافة إلى:"خ/غ/ق". المستقلة: اثنان وعشرون حرفا باستثناء حروف الاستعلاء. أصوات الصفير:"ز/س/ص". أصوات القلقة: خمسة وهي مجموعة في القول (قطب جد). المد واللين: الألف، الواو الساكنة بعد ضم، الياء الساكنة بعد كسر. الصوت المكرر: وهو"ر". المستطيل:وهو"ض". المتفشي:صفة خاصة بـ:"ش".الذلاقة: وهي:"ل/ر/ن/ف/ب/م". المصمتة: وهي اثنان وعشرون، جميع الحروف سوى المذلقة والألف خارجة عن المذلقة والمصمتة لأنها هواء[25].

4_ الصوت اللغوي وارتباطه بالمعنى المنشود له: إنَّ القول في مسألة علاقة الصوت بالمعنى مسألة قديمة وهي ليست بالجديدة أو المُستحدثة في الدَّرس اللُّغوي العربِي، فقد اهتمَّ العُلماء بها قَدِيمًا منذ قُرُون خَلَت، ولعلَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أوَّل من أشَار إلى هذه القضيَّة، ثم أقرَّها من بعده علماء كثيرين، أوَّلهم تلميذة سيبويه، وصولا إلى أبي الفتح عثمان بن جني في كتابة الخصائص، حيث ضمَّنه باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، يقول:((اعلم أنَّ هذا موضِع شريف لطيف، وقد نَبَّهَ عليه الخليل و سيبويه، وتلقَّتهُ الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته))[26]. حيث توسع ابن جني في هذه المسألة، واستَدَلَّ

على صحَّتِها وأمثِلتِها من اللغة العربيَّة، واستَخرَج أحكَامها وقواعِدها، مُبيّنًا لنا أنَّه:((كُلَّما ازدَادَت العبارة شبَهًا بالمعنى كانت أدَلَّ عليه، وأشهد بالغرض فيه)).[27] كما قرر بأن كل زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى، وقد أشار السيوطي إلى هذه المسألة في"المناسبة بين اللفظ ومدلوله"إلى شبه الإجماع الحاصل بين العلماء فقال:((وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني))[28]. حيث يرى "محمَّد المبارك":((للحرف في اللغة العربية إيحاء خاصا فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وإيحاء ويُشير في النفس جوا يهيئ لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي))[29].

***الجانب التطبيقيّ: دراسة تطبيقيّة صوتيّة لأصغر وحدة مُكَوِّنة لبنية سورة الزلزلة وبيان أثرها في المعنى.**

اهتمَّت الدِّرَاسَات اللغويَّة مُنذُ القَدِيم بالقُرآنِ الكريم، ولعلَّ أَبرز هذه الدِّراسَات ما اهتمَّت بلُغَتِه، قائِمة على مُستَوَيَات التَّحْلِيل الثَّلَاثة:المُستوى الصَّوتي والمُستَوى الصَّرفِي والمُستوَى التَّركِيبِي والنَّحوِي، المستوى الدلالي، والمستوى البلاغي، حيث سنسلط الضوء حول المستوى الصوتي باعتباره أصغر مكوّن للمعنى، والعنصر المتغيّر والمغيّر في دلالة الكلمات، من خلال كشف مناسبة أو تلاؤم صوت معين لمعنى معين دون غيره من الأصوات، عبر نموذج تطبيقيّ مختار ويتمثل في سورة الزلزلة، التي تحوي مشاهد دلاليّة على نوعين، منها ما يخصّ الإنسان ومنها ما يخصّ الطبيعة، في مشهد مصيريّ متعلّق بمقام الإنسان الدائم يوم القيامة.

1_ في رحاب سورة الزلزلة: وسنتطرق في هذا العنصر إلى تعريف وجيز للسورة المباركة من خلال تسميتها وترتيبها، كذلك تقديم الموضوع العام للسورة ودروسها الجزئيَّة.

أ-التّسمِيَة: ممَّا وَرَد عن أَسمَاء السُّورة الكَرِيمة، أنَّ لهَا اسْمَين تَوقِيفِيَّيْن واسْم اجْتِهَادي؛ فأما الأوَّلين فهما: "سُورة الزّلزلة"وبذلك كُتِبت في بعض المصاحف وكُتُب التَّفسِير.لافْتِتَاحِها بالإِخبَار عن حُدُوث الزّلزال قَبل يَوم القيامة[30]. كما وردت على صيغة "اسم المرّة" لأنَّ ذلك الزلزال العظيم يحدث مرّة واحدة فقط بتلك الشاكلة، وهو لا يشابه الزلزال الذي يحدث في الدّنيا. و"سورة إذا زلزلت"كمَا جَاءت فِي كَلَام النبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلّم وفِي كَلَام أَصْحَابه رِضوَان اللّه عليهم، فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلّم:((مَنْ قَرَأَ(إذا زُلْزِلَت)عَدِلَت لهُ بِنِصْفِ القُرآن..))[31]. وأمَّا الاجتهادي فهو:

"سُورة زُلزِلت" ذَكر الطَّاهر بن عَاشُور:((أنَّها سُمِّيَت في مصحف بخَطٍّ كُوفي قدِيم من مصَاحِف القَيْرَوَان(زلزلت)))[32].

ب-مُناسبة النزول وأسبَابه: ذُكِر في سبب نُزُولها أنَّ الكفَّار كانُوا كثيرًا مَا يَسْأَلون عن يوم الحسَاب، ومَتَى هو، فيقولون: أيَّانَ يوم القيامة؟ ويقُولُون: متَى هذا الوعدُ وما أشْبَه ذلك، فَذَكر لَهُم الخَالِق عزَّ وجلَّ في هذه السُّورة علامَات ذلك اليوم فقط، ليَعلَمُوا أنَّهُ لا سَبِيل إلى تَعيِينِ ذلك اليوم الَّذِي يَعرِض فيه النَّاُس على ربِّهم، ليجازى كلّ بِعملِه ويُعاقب المُذنِبِين ويُثِيب المُحسِنِين، وأنَّه تعالى سيُجَازِي عَلَى أصْغَر الأعمَال، إنْ خَيْرًا فخير وإنْ شرًّا فشر[33]. قال تعالى:((**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**)) [الزلزلة/7-8].

ج-عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها:هَذِهِ السُّورة مدنِيَّة في المُصْحَفِ وفي بعض الرِّوَايَات، ومَكِيَّة في بعض الرِّوايَات الأُخرَى[35]، حيث اخْتُلِفَ فِيها:فقال ابنُ عبَّاس وابنُ مَسْعُود ومُجَاهِد وعَطَاء والضحَّاك هِيَ مَكِيَّة. وقال قتادة ومقاتل مدَنِيَّة، والأصَحُّ أنَّها مَكِيَّة[36]. قال سيّد قُطب:((ونحن نُرجّحُ الرِّوَايَات الَّتِي تقُول بأنَّها مكِيَّة وأُسْلُوبها التَّعبِيرِي ومَوضُوعُها يُؤيِّدَان هذا))[37]. وَأمَّا بالنِّسبَة لعدد آيَات السُّورة فقَد اخْتلف العَدُّ في ذلك، بحيث ذَكر الطَّاهر بن عاشُور أنَّ:((عدد آيِها تسع عند جُمهُور أهل العدد، وعدَّها أهلُ الكُوفة ثمَانِي للاختلاف في قوله:((**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**)) [الزلزلة/6]، آيَتَان أو آيَة واحِدة))[38]. ويكمُنُ اختِلَافها فِي آية(أشتاتًا):أسقَطَها المَدَنِي الأوَّل والكُوفِي[39]. وفِيمَا يَخصُّ كلمَات سُورة الزلزلة وحرُوفها فإنَّ:((كلماتها خمس وثلاثون))[40]، ((وحروفها مائة وتسع وأربعون حرفا))[41].

د- الترتيب النزولي والترتيب المصحفي: يقول محمَّد الطاهر بن عاشور في الترتيب النزولي لسورة الزلزلة: ((وقد عُدَّت الرَّابِعة والتِّسعِين في عِدَاد نُزُول السُّور فيمَا رُوِي عن جابر بن زيد ونظمه الجعبري وهو بِنَاء على أنَّها مدنيَّة جعلَها بعد سُورة النِّسَاء وقَبْل سُورة الحديد))[42].أما التَّرتِيب المُصحَفِي فسورة الزلزلة هي السُّورة التَّاسِعة والتِّسعُون في ترتيب المُصحَفِ الشَّرِيف، وهي تقَعُ بعد سُورة البَيِّنَة مُبَاشرة، حيثُ سَبَقَهَا من القُرآن الكريم ثماني وتسعُون سُورة، ابتداءً بسُورة الفاتِحة إلى غايَة سُورة البيِّنَة، وبقِي بعدها من سُور القُرآن خمس عشرة سُورة، من سورة العادِيَات وانتهاءً بسورة النَّاس، وتُعدُّ واحدةً من سُور جُزْء عَمَّ المُبَارك. ووَرَدَ في أسْرَارِ ترتيب هذه السُّورة أنَّه:((لمَّا ذُكِر في آخر(لم يكن) أنَّ جَزَاء

الكَافِرِين جَهَنَّم، وجَزَاء المُؤمِنِين جنَّات، فكَأنَّه قِيل:متَى يكُون ذلك؟ فقيل:(**(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا)**) [الزلزلة/1]، أي حِين تكُون زَلزَلةُ الأرضِ))[43].

هـ -الموضوع العام والدروس الجزئية: إنَّ موضُوعُ السُّورة العام يتمثّل في مُعظَم مَقصُود السُّورة بيَان أحوَال القِيَامة وأهوَالِها، وذِكر جزَاء الطَّاعة، وعُقُوبة المَعصِيَة، وذِكر أوزَان الأَعمَال في مِيزان العَدْلِ في قوله:(**(فَمَنْ يَعْمَلْ)**) [الزلزلة/7] إلى آخره[44]. يقول سيّد قُطب عن السُّورة:((إنَّها هَزَّة عَنِيفة للقُلُوب الغَافِلة. هزَّة يشترك فيها الموضُوع والمشهَدُ والإِيقَاع اللَّفظِيّ. وصيْحَة قويَّة مُزلزِلة للأَرضِ ومَن عَليْها، فَمَا يَكَادُ يَفِيقُون حتَّى يُوَاجِهَهُم الحِسَابُ والوزن والجزاء))[45]. أمَّا الدروس الجزئيّة فتُخبِرُنَا سُورة الزَّلزلة عن أَهوَال يومِ القِيَامَة وشَدَائِدِه، وقد اشْتَمَلَت على مَقْصَدَيْن هُمَا: **أوَّلًا** بيان حُدُوث الزِّلزال والاضطراب الشَّدِيد للأرض يوم القِيَامة، فينْهَارُكلُّ من عَلَيها، ويخرج النَّاس الموتى من بطنِها من قُبُورِهم، وتشهد حينئذ على كلّ إنْسَان بمَا عَمِل على ظَهرِهَا. ثمَّ **ثانِيًا** الحديث عن ذهاب الخلائِق لمَوقِفِ العرضِ والحسابِ، ثُمَّ مُجازَاتِهم على أعْمَالِهم وقسمتهم فريقَين: سعيد إلى الجَنَّة، وشَقيّ إلى النَّار[46].

2_ الدّراسة التطبيقيّة للمستوى الصوتي في السّورة: جاء العمل التطبيقي ليُبيِّن العلاقة التي تتمّ على مستوى ذهن القارئ والمرتّل للقرآن الكريم من خلال هذه السورة الكريمة، وبربط العلاقة بين ما يُحدثه الصوت على مستوى أعضاء النطق به وبين المعنى الذي يتناوله الذهن لتصير تلك المشاهد العظيمة التي لا تخرج عن جوّ السورة العام أو الموضوع العام والتي تدور حوله أحداث معيّنة.

أ_ الطريقة المُتّبعة في الدّراسة والتحليل: اعتمدت في دراستي التطبيقية _ وفق ما سبق وماهو متعلق بالصوت اللغوي، إلى جانب عرض بعض الظواهر الصوتية_ الكيفية التالية:

-ذكر عدد الحروف في السورة بحسب مخارجها. ومن ثمَّ بحسب الصفات المتعلقة بها.(**جدول مع التَّحليل**).

-رصد بعض الظواهر الصوتية التي تتوفر عليها السورة.

ب_ في مخارج أصوات السورة وصفاتها(إحصاء- جداول- تحليل): جدول يُوَضِّحُ عدد حرُوف السُّورة حسب مخارِجِهَا:

المخارج	الهوائية	الحلقية	اللهويّة	الشجريّة	الأسلية	النطعية	الذلقية	اللثويّة	الشفويّة
عدد الحروف	**4**	**6**	**5**	**5**	**7**	**0**	**9**	**8**	**4**

ممَّا نلاحظ من خلال إحصاءنا لمخارج حروف السورة المباركة، أنَّ الحروف الهوائية لم تظهر جميعها في السورة سوى حرف الألف بأربعة عشر مخرجا، حيث بلغت عدد الحروف الحلقية_ فيما عدا حرف الغين فهو لم يتوفر في السورة_ستة عشر حرفًا، أمَّا الحروف اللهويَّة فقد وردت بخمسة أحرف فتساوت فيها مع الحروف الشجريَّة، في حين أنَّ الأسليَّة قد بلغَت سبعة أحرف، بالإضافة إلى عشرة أحرف نطعيَّة، أمَّا الذلقِيَّة فقد جَاءت بتِسعة وثلاثين مخرجًا، وقُدِّرت اللثويَّة بثمانية أحرف، وأربعة عشر حرفًا شفويًّا، وبهذا فقد طَغت الحُرُوف الذلقِيَّة والحلقيَّة على مُعظم السورة.

***جدول يُوضِّحُ الصفَات:**

الصفات	الجهر	الهمس	الشدَّة	التوسّط	الرَّخَاوة	الإطباق	الانفِتَاح
عدد الحروف	**88**	**30**	**19**	**52**	**48**	**03**	**114**

الاستعلاء	الاستِفَال	الصَّفير	القَلْقَلة	التَّفخِيم	التَّرقِيق	التَّكرِير	الاستِطالة
10	**108**	**07**	**11**	**42**	**68**	**15**	**02**

التفشِّي	الذَّلَاقة	الإصمَات	الانحراف	الغُنَّة
02	**53**	**64**	**32**	**17**

أمَّا بالنِّسبة لصفات الحروف، نُلاحظ بأنَّ الحُرُوف الانفتاحِيَّة تظهر بأكثر قَدْر تَليها مباشرة حروف الاستفال بفرق نسبيٍّ بينهما. ومن هنا عندما نربط هذه النتيجة بمعنى السورة الإجماليّ، نجد أنَّ أغلب حروف السورة اتَّصَفت بصفة الانفتاح لتُبيِّنَ لنا معنى

صورة الأرض يوم يحدث ذلك الزلزال وهي تُخْرِجِ ما في جَوْفِها، فصفة الانفتاح هي:((انفتاح ما بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف فلا ينحصر الصوت بينها ولذا سمي منفتحًا))[47]. وهذا ما يشابه تماما ما يحدث على مستوى مشهد الأرض.

أمَّا بالنسبة للصِّفة الثَّانِية في الترتيب_صفة الاستفال_ فجاءت تجسد تصويرًا للنَّفس الإنسانيَّة في ذلك اليوم وهي مُنكَسِرة، وهذا ما يدُلُ على الانخِفَاض والانْحِطاط، والرُّجُوع إلى الله سبحانه وتعالى، فصفة الاستفال:((انخفاض اللسان أو انحطاطه عن الحنك الأعلى عند النطق بالحرف فينخفض معه الصوت إلى قاع الفم))[48]. وهذا ما يشبه في معناه مشهد يتعلق بنفس الإنسان. كما نلاحظ أنَّ سورة الزلزلة قد احتَوَت على جميع أصوات اللغة العربيَّة، ما عدا ثلاثة منها هي: العين، والطاء، والظاء.

وانطلاقا ممَّا تقدَّم سنشرِع بتحليل بعض النماذج التي تستوقفنا عندها خصائصها الصوتيَّة، قال الله تعالى: **((إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا))** [الزلزلة/1]،نلاحظ لفظ (الزلزال) حيث تكرَّر فيه صوت "الزاي" وصوت "اللام"فظهرا في تركيبه مَرَّتَين. فأصل الزلزلة هو تلك الحركة العنيفة للأرض، يقول الطاهر بن عاشور:((وذلك من تكرّر الانفجارات الناشئة عن اضطرابٍ داخل طبقاتها وانقلاب أعاليها أسافل والعكس))[49]، ومنه فإنَّ صوت الزلزلة يظهَرُ قَوِيًّا في هذين الصوتين (زل).

فالمُتأمِّل في كلمة (الزلزلة) يرى تَمَازُج الصوتين تمَازُجًا له علاقة بمعنى الكلمة، فصوت "الزاي" من الحروف الأسليَّة أو الأسنانيَّة اللثويَّة:((وفيه يعتمد طرف اللسان على باطن الثنايا العليا، ومقدمه على اللثة))[50] فهذا الاعتماد القويّ على أعضاء النطق يَدُلُ على معنى تلك البداية القويَّة لحدُوث زلزال يوم القيامة، كما يَدُلُ على مدَى عُمْقه فيشمل جميع طبقات الأرض، حيث:((ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا، وتزلزل زلزالا))[51]. وقد ساعد على إبراز هذا المشهد العظيم، وتعميق دلالته المعنوية في النفس الإنسانية، صوت يجاوره ألا وهو صوت"اللام"، فهو من الأصوات الذلقية يلتقي وصوت"الزاي" في منطقة اللثة وفيها: ((يلتقي طرف اللسان باللثة فإن سمح للهواء بالانسياب على حافتي اللسان، أو إحداهما، حدث صوت اللام))[52]، ومن هنا تكتمل البداية القوية للزلزال مع صوت اللام، فحركة الهواء الانسيابيَّة عند النُّطق بهذا الصوت تَدُلُ على معنى صورة تموُّجَات الأرض حين يحدث، وبما يُعرَف في علم الجيوفيزياء_حديثًا_بالحركات التِّكْتُونيَّة للأرض، أو الارتدادات التي تصاحبه، فهذا الالتقاء بين الصوتين وحدوثهما معًا يُعمِّقَان معنَى

الصورة في النَّفس البشريَّة بشِدَّة وقُوَّة تلك الهزَّة الأرضيَّة العنِيفة. حيث يتجسَّد الهوْلُ على أنَّه:((مادِّي في مشاهد الطبيعة، وحسِّي داخل الحس الإنساني))[53].

وفي أثناء حدوث صوت اللام:((ينشأ عن التصاق إحدى اللسان بالحنك الأعلى))[54]، وهنا صورة ودلالة أخرى تتجسد مع هذا الصوت، ألا نلاحظ أنه يُبيِّن لنا من خلال هذه الحركة عند النطق به يوضِّحُ لنا كيف أنَّ الأرضَ تنهضُ من سُباتِها لسِنِين، لتُخرج ما فيها، ولتنفجر وتُعلِن نهاية هذا العالم الدُّنيَوِي، وبداية الآخرة ببداية يوم القيامة. والملاحظ في هذا الصوت أيضًا أنَّه يتَّصِف بصفة التوسُّط وهي بين الشدة والرخاوة، وهنا بَيَّن لنا معنى آخر مُتعَلِّق بالإنسان أنَّه بين شدَّة هوْل ذلك الزلزال، وتلك الأحوال، وبين ضعف الإنسان وجميع المخلوقات، وهذا لطبيعة مجرى الصوت والفرق بينه وبين صِفَتَي الشّدَّة والرَّخاوة بحيث هو قائِم ((على حسب جريان الصوت في الأولى [أي الشدة] وجريانه في الثالثة [أي الرخاوة] وعدم كمال جريانه في الثانية [أي التوسط]))[55]، ممَّا يدُلُّ على معنى عدم استقرار الإنسان، بعدَمَا يدرِك بأنَّ هذِه الزَلزلة إعلَان لِبِداية يوم القِيَامة. فتارةً يكُون مذهُولًا لِمَا يَراه من تَغَيُّرَات لم يَسبِق لَهُ أن رآهَا من قبلُ، وتَارةً مُندَهِش ومُتَوقِّف التَّفْكِير، ويتساءل ماذا يحدُثُ لهذه الأرض؟ ثُمَّ يُصِيبه الخَوف الشَّدِيد، لَا يعرِفُ له وِجهة، ولَا بَيَان مصِير وحَال، حيثُ يبقَى فِي هذه اللَّحظَات مَجهُول حتَّى يحكُم الله له، هذا الاضطِراب فِي صِفة الصَّوت مَا يَدُلُّ عليه من تَصوِيرٍ لاضْطِرَاب الإنسان فِي ذلِك اليوم.

ونقف بعد ذلك عند قوله تعالى:**((وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا))** [الزلزلة/02]، فالمتأمل في كلمة (أثقالها) نلاحظ تكرر صوت اللام، وكذلك في أغلب مفردات السورة الكريمة. فصوت"الثاء" المهموس، عند النطق به((تتقارب الثنايا السفلى من الثنايا العليا، ثم يأتي طرف اللسان ليكون بينهما))[56]، فهذا التقارب يَدُلُّ على معنى تماسُك الأرض وتراص أثقالها وشدَّتها وثبَاتها، بينما صفة الهَمس_التي تعني الخَفَاء[57]_ فهي توحي ما تُخْفِي الأرض من جهة في باطنها، ومن جهة أخرى تهمس بأنَّ هناك شيئًا ما سيقع في هذه الأرض فِي المُستقبل القريب أو البعِيد. وتتسارع الأحداث، بالانتقال إلى صوت"القاف"_وهو من الصوامت الانفجاريَّة_وفيه:((يحبس الهواء الخارج من الرِّئتين حبسًا كليًّا))[58] ومِمَّا نلاحظه خلال النطق بصوتي "الثاء"و"القاف" أنَّ المشهدَ متواصلٌ والأرضُ تستعِدُّ لرَمِيِ وإخْرَاج ما فيها، ويكتَملُ عند الاكتمال بالنطق به حيث تَتَحرَّرُ أعضاء النطق ((ثم يطلق مجرى الهواء بأن ينخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثا صوتًا انفجاريًا))[59] وهنا تكتمل الصورة المتعلقة بالأرض، بتحررها لما كانت تحمله، وطبيعة انفجار الهواء في صوت"القاف"

وكأنَّه يحاول أن يصور لنا قُوَّة انفجار الأرض، وقوة الصوت المصاحب لتلك الحركة الشَّدِيدة القويَّة المُنبَعِثة من بَاطِن الأرض. يقُول سيّد قُطب:((وتُزلزِلُ زِلزَالًا، وتَنفُضُ مَا فِي جوفِهَا نَفْضًا))[60].

ومن ذلك أيضا، قوله تعالى: **((يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ))** [الزلزلة/06] ، تستوقفنا في هذه الآية لفظة (أشتاتا) فهي تجسد لنا مشهدا آخر من مشاهد يوم القيامة، مُصوِّرة لنا حال الإنسان في ذلك اليوم، فإذا تأمَّلنا في طبيعة تركيب أصوات هذه الكلمة، نلمح أنَّها تبدأ بصوت "همزة القطع" الذِي يحدث عند النطق به((بأنْ تُسدَّ الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين وذلك بانطباق الوترين انطباقًا تامًّا))[61] وتوحي لنا هذه الحركة النطقيَّة أنَّه مهمَا يكن الإنسان في عمق الأرض فهو معنيٌّ بهذا الحدث. يَلِيه صوت"الشين"حيث عند النطق به: ((يلتقي مقدم اللسان وجزء من وسطه بمقدم الحنك الأعلى، فإذا كان الالتحام لا يمنع مرور الهواء حدث صوت الشين))[62] فإذا ربطنا الحركة النطقيَّة ومعنى الآية، تُبادر ذهننا صورة يتمثَّل فيها الهواء الصَّاعد من الرِّئتين النَّاس، والتقاء الأعضاء النطقية الأرض أو شقّ الأرض، ونتصور بداية البعث من القبور، حيث لا يمنع من خروجهم أي شيء، ولا يعترض سبيلهم في ذلك، مثل الهواء، وتكتمل صُورتهم_كما يُصوِّرُها لنا الله تعالى_عند النطق بالتاء، حيث:((ينفصل العضوان انفصالًا فجائيًّا محْدِثًا صوتًا انفجاريًّا))[63]. نفهم أنَّ الأُمُور تكُون فُجائِيَّة، والأحداثُ مُتتالية، وتكمل هنا صورة الشَّتَات، حيث انفتاح الأعضاء النطقيَّة يُوحِي بالبَعْث، وتِكرَار المقطع (تَا/تَا) يصِفُ لنا تأكِيد ذلك البعث وطريقته أو هيئته التي يكون عليها، فمعنى((أشْتَاتًا:مُتفرِّقِين))[64]وهو بهذَا يُعَبِّرُ عن قُوَّة انتِشَار النَّاس وتفرُّقِهِم فِي الأرض.

وصفه الرخاوة، التي يتصف بها الصوتين، تعني:اللين[65]، ممَّا توحي لنا عن دلالة أنَّ الأرض تكون طريَّة لَيِّنة رَخْوَة، تساعد على بعث الإنسان، وممَّا نُلاحظه كذلك بالنسبة لصفة التفشي والتي هي:((انتشار الريح في الفم عند النطق بالحرف))[66]،لعلَّها تصف لنا ذلك الانتشار الهائل للناس عند خروجهم مثل الهواء تماما، أمَّا صفة الشدة التي هي في صوت "التاء":إنما معناه يوحي عن ذلك الالتحام القوي لأعضاء النطق، كيف كان الإنسان متصلا بالأرض ومُتَحلِّلًا فيها، ثم فجأة يأتي ذلك الانتشار القوي للناس، وهذا ما يُعزِّزُ قُوَّة ذلك المشهد القويّ.

ج_ على هامش الظواهر الصوتيّة المُختلفة: أمَّا بالنسبة"للظواهر الصوتية" فقد توفَّرت السورة على مظاهر الإدغَام الثلاثة، وهي:"الإدغام المتماثل":حيث يضُمُّ صوتَين مُتمَاثِلَين في المخرج والصِّفة، أحدهما ساكن والآخر مُتحرِّك، وتمثَّلت صورة هذا الإدغام في الكلمات التالية:(تُحدِّث:تُحَدْدِثُ)–(رَبَّكَ:رَبْبَكَ)-(النَّاس: النْنَاس)-(ذرَّة: ذرْرَة). وكذلك"الإدغام المتجانس": وهو أن يدغم صوتان لهما نفس المخرج، ومختلفان في الصفة، ووقع في: (أَشْتَاتًا لِيُرَوْا)، فالنون واللام تَتَّفِقَان في المخرج، فهُما من الأصوات الذلقيَّة، حيث أُدغِما في النُّطق. أمَّا"الإدغام بالتقارب":إمَّا أن يكون الصوتان مُتَقارِبان مخرجًا أو صفة، فتَمثَّل هذا النوع من الإدغام في (يَصْدُرُ النَّاس)، فكلًا من صوت"الراء" و"النون"ينتهيان إلى مخرج الأصوات الذلقيَّة. وكذلِكَ بالنِّسبة للإدغَام بالتَّقَارُب بين صَوتَي الصَّاد والزَّاي فِي كَلِمة(يَصْدُرُ) حيث:((قَرَأَ بإشمَام الصَّاد الزَّاي حمزة والكسَائِي وخَلَف، وقرئ"يَزْدُرُ" بالزَّاي))[67].

وقرأت الصَّاد زَايًا لأنَّهُمَا مُتَّفِقَان مَخرجًا، ومُختلِفَتَان صِفَة لأنَّ الصَّاد فِيه إطبَاق:((النَّظِير المجهُور للصَّاد هو مُطبق الزَّاي، أي أنَّه يتكوَّن كما يتكوَّن الزَّاي إلَّا أنَّ فِيه إطبَاقًا))[68]، فلَهُمَا نفس المخرج إلَّا أنَّ الصَّاد أسبق من الزَّاي مَخرَجًا فأُدغِمت فِيه، والصَّاد:((يُصِيبها نوع من الجهر إذَا وقعت سَاكِنة قبل مجهُور فتُقلب عِند ذلِك إلى زاي مُطبقة))[69]. فالصَّادُ فِي كلمة(يصدُر) وقَعَت سَاكِنة قبل صوت"الدَّال"الَّذِي هو فِعْلًا صوت مجهُور.

د_ دراسة المقطع الصوتي مُرفقًا بتحليل حول النَّبر والتَّنغِيم:

1_المقطع الصَّوتِي: وفيمايلي توضِيحٌ لأنماط المقاطِع الصوتِيَّة المُتوفِّرة فِي السُّورة، مرفقة ببعض التحلِيلات.

* جدول يُوضِّحُ أنواع المقَاطِع الَّتِي توفَّرت فِي السُّورة:

أنواع المقاطِع	عدد مرَّات وُرُودِه فِي السُّورة
المقطع القصير(ص ح)	44
المقطع المتوسِّط المقفل(ص ح ص)	42
المقطع المتوسِّط المفتُوح(ص م)	17
المجمُوع	103

*نموذج للتَّحلِيل(الآية الأولى): (ءِ-ذَا-زُلْ-زِ-لَ-تِلْ-أَرْ-ضُ-زِلْ-زَا-لَ-هَاْ). (ص ح/ص م/ص ح ص/ص ح/ص ح/ص ح ص/ص ح ص/ص ح/ص ح ص/ص م /ص ح/ص م).

والمُلاحظ من خلال الجدول أنَّ عدد المقاطع في السورة هو مائة وثلاثة، يأتي فيها المقطع القصير(ص ح) في المرتبة الأولى بأربعة وأربعين مقطعًا، ثُمَّ يَليه في المرتبة الثانية المقطع المتوسط المقفل(ص ح ص) وهو يُقَارِبُه باثنين وأربعين مَقطَعًا، واحتلَّ المقطع المتوسط المفتوح (ص م) المرتبة الثالثة بسبعة عشر مقطعًا.

ونشير إلى ما لحظناه من خلال تقطيعنا للسورة في الجانب العملي الهامشي، بأنَّ الآيتان[8/7] قد تساوى فيها عدد المقاطع بأنواعها التي توفرت فيها، فقد احتوتَا على ثماني مقاطع متوسطة مقفلة(ص ح ص) وستة مقاطع قصيرة(ص ح) ومقطع واحد متوسط مقفل (ص م) في كلمة (مِثْقَالَ- مِثْ/قَا/لَ)، وهذا لأنَّ المدّ في الكلمة يُعطِي عند النطق بصوت القاف حركة عميقة للحنك الأسفل باتجاه أسفل الفم وكأنَّه يحمل بداخله شيئًا ثقيلًا، ممَّا يدُلُّ على أنَّ له وَزْنًا عند الله سبحانه وتعالى((فالمثقال ما يعرف به ثقل الشيء، وهو ما يقدر به الوزن كميزان زنة ومعنى))[70]، وإذا ربطنا سبب هذا التَّسَاوِي بمعنى السورة الإجمالي نفهم منه _والله أعلم_التساوي في الأجر والجزاء، فمهما كان العمل خيْرًا أم شَرًّا، صغيرًا أو كبِيرًا، فهو مَوزُونٌ عند الله ويُؤجَر أو يُجَازى صاحبه بالحسنات أو بالسيِّئات.

أمَّا بالنّسبة إلى قَضِيَّة الانتِقَال الصَّوتِي والتَّرتِيب بين المقاطِع، فإنَّ أغلب هذه الانتِقَالَات بين المقاطِع كانت:من المقطع القَصِير(ص ح)إلى المقطع المتوسِّط المُقفَل(ص ح ص) المُجاوِر له مُبَاشَرة، وبين المقطع المتوسط المقفل(ص ح ص)إلى المقطع المتوسّط المفتوح (ص م). كذلك بعضُ الانتِقَالَات مابين المقطع القَصِير(ص ح)والمقطع المتوسّط المفتُوح (ص م). فغَالِبًا ما جاء الانتقال الأوّل بين المقطع القصِير والمقطع المُتوسّط المفتُوح_وهو على كَثرَتِه_فِي مُعظَم الكلِمَات الَّتِي فِيهَا صَوت مُتحرّك ويَلِيه صَوتُ مُتحرِّك+صَوت ساكِن، وهذَا الانتِقَال الغَالِبُ فِي السُّورة نذكُرُ على سَبِيل المثال:(**(وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ)**) [الزلزلة/02]، فتقطِيعُهَا من الشَّكل:(وَ-أَخْ-رَ-جَ-تِلْ-أَرْ-ضُ)ومقاطِعُها(ص ح/ص ح ص/ص ح/ص ح/ص ح ص/ص ح ص/ ص ح). فهذَا الانتِقَال يجعَلُ القَارِئ يَشْعُر بِذبذبة حركة الأرضِ وهِي فِي تحرُّك واضطِرَاب، وذَلِكَ نَاتِجٌ من اضطِراب حركة النُّطق.

والانتِقَال بين المقطع المُتوسّط المقفل والمقطع المتوسّط المفتُوح، كَان فِي أغلبه وَاقِع فِي الكلمات الَّتِي بِهَا مدّ أو تنوِين، نأخُذُ على سبيل المِثَال كلمة:(**أَشْتَاتًا**) [الزلزلة/06]،

فتقطِيعها (أَشْ-تَاْ-تَنْ)ومَقَاطِعها(ص ح ص/ص م/ص ح ص)، فهذا الانتِقَالُ بين الانفِتَاح والإقفال ما يُجسِّدُ صُورة ذلِك التفرُّق للبعث، والتَّطَايُر الغَزِير. أمَّا النوع الثَّالِث من الانتِقَال الذِي هو بين المقطع القَصِير والمقطع المُتوسِّط المفتُوح فقد وقع غَالِبًا فِي بداية الآيات، التي تتوفَّرُ على صَوت مُتحرِّك يليه صوت مدّ، وهي:(إِذَا)و(وَقَالَ)، وتقطِيعها(ءِ-ذَا)،(وَ-قَاْ) ومقاطِعُها(ص ح/ ص م)،(ص ح/ص م)، ووقع في بداية السُّورة، مِمَّا يدلُّ على أنَّ الأحداث مُتَسَلسِلة مُرتَّبة. كَمَا نُلَاحِظُ لأنَّ الكلمات(زِلزَالَهَا-أَثْقَالَهَا-أَخْبَارَهَا)جاءت مُتَسَاوِية فِي المقطَع حيثُ هو(ص ح ص/ ص م/ص ح/ص م)لأنَّهُ بمعنى كلّ الأحداث المُتمثِّلة فِي الكلِمات مُتعلِّقة بالأرض.

وإذا تأمَّلنا المقاطع بصفة عامَّة، نُلاحظ أنَّ سورة الزلزلة احتوت على أكبر عدد من المقاطع القصيرة (ص ح)، ممَّا يدُلُّ دلالة على أنَّ زلزال يوم القيامة وجميع الأحداث المصاحبة له تكون بسرعة وفي وقت قصير، فتكون متتالية مترابط فيما بينها، وممَّا يَدُلُّ على ذلك نُلَاحظ وُجُود"واو"العطف في ربط تلك الأحداث، فمن شدتها وقوة وَقْعِها تَتَصَارع في ذهن الإنسان الذي يهرع هولًا وفزَعًا لا يعرف إلى أين يتوجَّه. ثم تأتي المقاطع المتوسط المقفلة(ص ح ص)لتشعرنا بقوة على أنَّ الإنسان مَحصُورٌ بتلك الأحداث، لَا مَهْرَب له من ذلك، ومَصِيره إلى الله تعالى.

2_ **النبر والتنغيم:** أمَّا بالنسبة للنَّبر، فكادت سورة الزلزلة تخلو من المقاطع المنْبُورة، ونبين مما جاء فيها: كلمة(أَرْضُ:ص ح ص+ص ح)، فالنبر وقع في المقطع الأول منها وهو(أَرْ:ص ح ص)الطويل. وفِي كلمة(يُرَوْ:ص ح+ص ح ص)، وقع النبر في المقطع الثاني(رَوْ:ص ح ص)الطويل. وأيضًا كلمة (يَرَهُ:ص ح+ص ح + ص ح)، فالنبر وقع على المقطع الأول(يَ:ص ح). وبعد معرفتنا للنبر، ومكان وقوعه في المقاطع، وأغلبها كلمات تدُلُّ على الأحداث التي تُغيِّر شكل الأرض، لذا نلاحظ أنَّها نبرات قويَّة صاحبتها نغمة متصاعدة، وانسجمت الألفاظ معها، كما انسجمت أصوات السورة مع نغمة التحذير الواعدة.

هـــ الفاصلة القرآنيّة (تحديدها- أنواعها- تحليل): وفِيما يلي جدول يوضِّحُ فواصِل السورة وكتابتها المقطعيَّة ورموزها:

الفاصِلة	الكتابة المقطعيّة	رُمُوزها
زِلْزَالَهَا	زِلْ-زَاْ-لَ-هَاْ	ص ح ص/ص ح م/ص ح/ص م.
أَثْقَالَهَا	أَثْ-قَاْ-لَ-هَاْ	ص ح ص/ص ح م/ص ح/ص م.
مَالَهَا	مَاْ-لَ-هَاْ	ص ح م/ص ح/ص م.
أَخْبَارَهَا	أَخْ-بَاْ-رَ-هَاْ	ص ح ص/ص ح م/ص ح/ص م.
لَهَا	لَ-هَاْ	ص ح/ص م.
أَعْمَاْلَهُمْ	أَعْ-مَاْ-لَ-هُمْ	ص ح ص/ص ح م/ص ح/ص ح ص.
يرَهُ	يَ-رَ-هُ	ص ح/ص ح/ص ح
يرَهُ	يَ-رَ-هُ	ص ح/ص ح/ص ح.

من خلال الجدول نلاحظ أن أنواع الفواصل التي اشتملت عليها السورة متمثلة في: الفواصل المتوازية، أي التي هي متفقة في البنية والحرف الأخير، فجاء بها الآيات التالية:(زلزالها_أثقالها_أخبارها)و(يره_يره). وأيضًا الفواصل المطرفة، أي المتفقة في الحرف والمختلفة في البنية وهي: (زلزالها_ أثقالها_ مالها_ أخبارها_لها) و(يره_يره). بينما خلت السورة من الفواصل المتوازنة أي التي هي متفقة في البنية والمختلفة في الحرف، فنقول في سبب ذالك إذا ربطناه بالمعنى الإجمالي للسورة أنَّه معروف من الزلزال إحداثه لأضرار عند وقوعه في بنية الأرض، فتكون غير متفقة في البنية حيث تظهر تشققات وانهيارات إلى غير ذلك، فيختل توازن الأرض، وهذا ما يحدثه زلزال يوم القيامة حيث تتغير بنيتها وشكلها.

أما بالنسبة للفواصل المتوازنة، فنلاحظ من خلال الربط بين بنية الفواصل والمعنى ما يلي: (زلزالها_أثقالها_أخبارها) فكل هذه الكلمات متعلقة بمشهد الأرض، فالأثقال متعلقة بالزلزال فهو الذي يجعل الأرض تتنفس وتخرج كل ما في باطنها، ثم تخبر ما يحدث لها من تغيرات. و(يره): فقد تكررت مرتين في مشهدين للإنسان متقابلين، فهما متفقتان بنية وحروف ومعنى، واستعملت هذه الكلمة في الخير والشر لتبين أنهما مثل الخطين المفترقين المتوازنين، ولكن لكل منهما نهاية مختلفة. فواحد في الجنة والآخر في النار. وكذلك بالنسبة للفواصل المطرفة، فنلاحظ اتفاقها في الحرف(وهو المد بالألف) حيث أن له دلالة خاصة بالنفس البشرية، فمعروف عنه أثناء النطق به يكون:((مرور الهواء من الفم حرا طليقا في أثناء النطق بها، دون عائق أو مانع))[71] فهو يُعطِي للقارئ راحة ومتنفَّسًا من بعد ما تشبَّع بدلالة الهول والفزع مِمَّا تعرضُه السُّورة، فهو أشبه بفاصل راحة يستعِيد فِيها نفسه لاستِقبال حدثٍ آخر يَلِي هذا الَّذِي تأمَّله، مُترقِّبًا له. وجاءت فواصل هذا النوع أيضا بحرف"الهاء"في آخر السورة، معبرا عن ذلك الموقف الرهيب للإنسان، فمعروف عن صوت

الهاء أنه:((صوت النفس الخالص الذي لا يلقي مروره اعتراضا في الفم، خلال الانفراج الواسع الناتج عن تباعد الوترين الصوتيين))(72) ومن الحركة النطقية لصوت"الهاء"ودقة موقعه الفاصلي، فهو يعبر عن المعنى الذي يدل على موقف هدوء النفس الإنسانية، وهي في ذهول تام، متصفة بالضعف، لأعمالها وهي في ميزان رب العالمين، ولا يستطيع أن تفعل أو تغير شيئا منها، فإن كانت خيرا فقد فازت، وإن كانت شرا فقد خسرت خسرانا مبينا.

و_ **الإيقاع في سورة الزلزلة:** ترتبِطُ الفاصِلة القُرآنيَّة بالإيقاع، وكلاهُما يرتبطُ بمعنى الآية والسُّورة ككلّ، فيأتِي الإيقاعُ مُتَّفِقًا لِفَوَاصِل السُّورة ومعنَاهَا. فالمتأمِّلُ فِي سُورة الزَّلزلة، يَجِدُ فِي نفسه _عند ترتِيلِها_تَجَاوُبًا من خِلَال إيقَاعِها لكُلّ فاصِلة يقف عندها، فهِي تحدث فِي النَّفس إيقَاعًا مُوسِيقِيًّا جَذَّابًا، يترك القارئَ فِي دهشة لِمَا يقرؤه من ألفاظ، وما يتشبَّع به من معانِي، وما يتصوَّره ذهنه من مَشَاهِد ليوم القِيَامة. فجاءت الكلمات(زِلزَالها/أثقَالها/مالها/أخبارها/لها)وهي فواصِل الآيات مُنتهية بحرف مدّ، والمعرُوف أنَّ حروف المدّ((تملكُ قوَّة إسماع عالية جِدًّا))(73) والمعروف عن صوت ألف المدّ أنَّه يمرُّ الهواء عند النُّطق به دون أيّ اعتِراض لطريقه، وهو بذلك يُؤثِّرُ فِي السَّامع والقارئ لِقُوَّته، وهو مُنَاسب لما يؤدِّيه من قوَّة هذه المعانِي الَّتِي تحدّثنا وتصوِّرُ لنا أحداث يوم القِيَامة_والله أعلم_ حيث أنَّ الصَّوت يمتدّ معه ويستمرُّ قلِيلًا، لِمَا يُثبِتُه فِي نفس القَارِئ من إيقاع للهول والفزع فِي حدِيثه عن البعث والزلزال والترهيب.

خـــاتـــمـــة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على رسُوله الكريم، وبعد؛

فمن خلال هذه الدراسة الصوتيَّة لسورة الزلزلة، تم التوصل إلى النتائج التالية:

-إنَّ دراسة الصوت في القرآن الكريم وأثره في تصوير بالمعنى بكل دقّة متناهية، كشفت لنا جانبا من جوانب إعجازه على المستوى الصوتي، وذلك في كيفية تصوير حركات الجهاز النطقي للإنسان في ذهنية القارئ المتصل مباشرة بمعنى وتلاوة وتطبيق المخارج في السورة ولمشاهد يوم القيامة وفق طبيعة النطق بالأصوات، كما رأينا كيف أنَّ لسورة الزلزلة أن تذهب بنا إلى مشهد ذلك الزلزال القوي وتلك الحركات التكتونيَّة الأرضيَّة والتموّجات من خلال النطق بأصوات الكلمات الدالة على ذلك المعنى، وكيف استطاعت أن تبين لنا مشهد الإنسان وهو في ذهول تام من هول أحوال البعث، ومن تقرير لمصيره منذ البداية.

-كذلك بالنّسبة لمخارج الأصوات وصفاتها ساهمت بشكل كبير في الكشف عن بعض الجوانب الدلالية لمعاني الألفاظ في السورة، مثل صفة الانفتاح وما وصفته وأشارت إلى دلالته ومعناه من خلال تصوير مشاهد الأرض في النفس البشرية وهي تتحرك وتتغير، ولأعمال الناس وهي توزن. إلى جانب صفة الاستفال التي لطالما صورت من خلال السورة ضعف النفس الإنسانية وخذولها وانحطاطها، إلى غير ذلك من المعاني المختلفة المزدوجة بين ماهو متعلّق بمشاهد الأرض والإنسان.

-كما نشير أيضًا إلى تأثير الصوت في النفس البشرية من خلال نبراته ونغماته، وهي في راحة واسترخاء عند امتلاءها بمعاني أهل الأعمال الصالحة وما سيلقونه من نعيم، مما يجعلها أكثر شوقا وتمنيا لذلك المقام، والعكس تماما بالنسبة لمعاني الخسران المبين لأهل الأعمال السيئة، وما سيلقونه من عذاب أليم تحقيقا لوعد الله سبحانه وتعالى في خطاب شديد اللهجة.

-ويستخدم القرآن الكريم المقاطع الصوتية بصفة فنية دقيقة، فكانت على الشكل التالي:(صح)،(ص ح ص)،(ص م)،(ص ح ص ص)، فالثلاثة المقاطع الأولى أكثر شيوعا، أما المقطع الرابع فقد ورد مرة واحدة. كذلك بالنسبة للآيات فاختلفت طولا وقصرا، لحقها اختلاف في بنيتها المقطعية. أما بالنسبة لأحرف الفواصل القرآنية في السورة، ففي سورة الزلزلة تمثلت أغلب فواصلها في بألف المد، وانتهت الثلاث آيات الأخيرة"بالميم" و"الهاء"، وهي أصوات ذات دلالة ساهمت بقدر معين في إبراز المعنى الإجمالي تحت ظل جوّ السورة العام وما يتعلّق به من إيحاءات ودلالة متناسبة في ذلك مع النفس البشريّة.

هـامـش الـــبـــحـــث:

1_البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة_ مصر، الطبعة السادسة، 1988م، ص:93.

2_ دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم، محمّد العيد رتيمة، دكتوراه، جامعة الجزائر،1993م/1999م، ص:24.

3_ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء_المغرب،(د ط)، 1994م، ص:23.

4_المرجع نفسه، ص:23.

5_مستويات اللغة العربية، نايف سليمان وعادل جابر وآخرون، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان_الأردن، ط1، 1420هـ/2000م، ص:10.

6 _دراسات في اللسانيات التطبيقيّة، أحمد حساني، ديوان المطبوعات الجامعية، ص:11.

7_دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة_مصر،(د ط)، 1418هـ/1997م، ص:14.

8_مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،(د ط)، 1990م، ص:63-64.
9_المرجع نفسه، ص:67-68.
10_مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مرجع سابق، ص:68-71.
11_اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، مرجع سابق، ص:71-72.
12_دراسات في اللسانيات التطبيقية، أحمد حساني، مرجع سابق، ص:11.
13_ المحيط في أصوات العربية ونحوهما وصرفها، محمّد الأنطاكي، دار الشَّرَوق، بيروت_لبنان، الطبعة الثَّالثة، (د ت)، (13/1).
14_اللغة العربيّة معناها ومبناها، تـمام حسان، مرجع سابق، ص:66.
15_ سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح بن عثمان ابن جنّي، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم دمشق، الطبعة الثانية، 1413هـ/1993م، (06/1).
16_المصدر نفسه، (14/1).
17_مناهج البحث في اللغة، تـمام حسان، مرجع سابق، ص:116.
18_المرجع نفسه، ص:116.
19 _ العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق:مهدي المخزومي وابراهيم السّامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، (58/1).
20_الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(سيبويه)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي_القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ/1988م، (431/4).
21_المصدر نفسه، (434/4-436).
22_ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التوّاب، مطبعة الخانجي_القاهرة، الطبعة الثالثة، 1417هـ/1997م، ص:16.
23_ المرجع نفسه، ص:30.
24_المرجع نفسه، ص:31.
25_ سرّ صناعة الإعراب، ابن جنّي، مصدر سابق، ص :60-67.
26 _ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمّد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د ط)، (152/2).
27_المرجع نفسه، ج2، ص:154.
28_ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق:محمّد أبو الفضل ابراهيم وآخرون، المكتبة العصريّة، بيروت-لبنان، (د ط)، 1986م، (47/1).
29 _ فقه اللغة وخصائص العربية، محمّد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت)، ص:261.
30_ أسماء القرآن وفضائلها، منيرة محمّد ناصر الدّوسري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع_الدمام، الطبعة الأولى، 1426هـ ص:580.
31_المرجع نفسه، ص:581.
جامع الترمذي، أبو عيسى محمّد بن سورة الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل إذا زلزلت،
حديث رقم2893، ص:462.

32 _ التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (د ط)، (د ت)، (489/30).
33 _ حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمّد الأمين بن عبد الله الأرمي، دار طوق النجاة_بيروت، الطبعة الأولى،1421هـ/2001م، (231/32).
34_ أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، عالم الكتب_بيروت، (د ط)، ص:340.
35 _في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشُّروق_القاهرة، الطبعة الثانية والثلاثون، 1423هـ/2003م، (3954/6).
36 _ التحرير والتنوير، محمّد الطَّاهر بن عاشور، مصدر سابق، (489/30).
37_في ظلال القرآن، سيد قطب، (3954/6).
38_التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور، (489/30).
39_جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي، تحقيق:علي حسن البواب، مكتبة التراث_مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1408هـ/1987م، (288/1).
40 _بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق:محمّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، 1416هـ/1996م، (535/1).
41 _اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، دار الكتب العلميّة_بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، (444/20).
42_التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، (490/30).
43 _ أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق:عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، 1398هـ/ 1978م، ص:155.
44_بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، مصدر سابق، (535/1).
45_في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، (3954/6).
46_ التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر_دمشق، الطبعة العاشرة، 1430هـ/2009م، (748/15).
47_ هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، عبد الفتاح السيد العجمي المرصفي، مكتبة طيبة_المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (د ت)، ص:82.
48_المرجع نفسه، ص:81.
49 _ التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، (491/30).
50_ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكي، مصدر سابق، (18/1).
51_ في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، (3954/6).
52_المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكي، مرجع سابق، (18/1).
53_ مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص:242.
54_ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكي، مصدر سابق، (17/1).
55_ هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، المرصفي، مرجع سابق، ص:81.
56_المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكي، مرجع سابق، (18/1).
57 _ هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، المرصفي، ص:79.
58 _ علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت_لبنان، (د ط)، (د ت)، ص:156.
59_المرجع نفسه، ص:156.

60_ في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، (3954/6).

61_علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، مرجع سابق، ص:157.

62_ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكي، مصدر سابق، (19/1).

63_ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، مرجع سابق، ص:155.

64_تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، محمّد علي طه الدرّة، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م، (692/10).

65_مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة(رخو).

66_ هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، المرصفي، مرجع سابق، (90/1).

67 _ معجم القراءات، عبد اللّطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م، (535/10).

68_ علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، محمود السعران، مرجع سابق، ص:176.

69_ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكي، مصدر سابق، (1/43-44).

70 _ التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، (494/30).

مباحث صوتية لدى جلال الدّين السيوطي (ت 911هـ) من خلال كتابه الإتقان في علوم القرآن في ضوء الدّرس الصوتي الحديث.

Phonetics studies for djalaoudine assoyouti (dead in 911h) in his book « the perfection in the coranic sciences » in the reference to the modern phonetic course.

محمد سحواج*

تاريخ تقديم البحث **2017/12/17** تاريخ القبول **2018/1/06**

ملخص

يبنى هذا البحث على دراسة وصفية تحليلية للمباحث الصّوتية في كتاب الإتقان في علوم القرآن – المجلد الأول – لجلال الدين السيوطي (ت 911هـ).

فظهر لنا أنّ القضايا الصّوتيّة التي تناولها السيوطي في مؤلفه السابق وردت ضمن علمي علم اللّغة، وعلم القراءات، وإن جاءت مسائلها مختلطة، فقد تناولناها بالتّوصيف والتّصنيف، وموازنتها بما جاء به الدّرس الصوتي الحديث.

ومنه، يمكننا أنّ نعتبر الإتقان في علوم القرآن لجلال الدّين السيوطي (ت 911هـ) مرجعا قيّما للباحث في ميادين علم الصرف، وعلم الأصوات، وعلم القراءات.

Abstract

This research is based on a descriptive and analytic study of the phonetic notions discussed in the djalaoudine assoyouti (dead in 911h) book titled :« the perfection in the coranic sciences ».

It clearley appeared the phonetic notions studied by assoyoti in his book were classiffied in two discipline the science of the language (linguistics) and the science of the recitations. Even if these notions came in the book in a scrambled order, we discribed and classified them all and compared them with modern phonetic course.

This we can consider « perfection in the coranic sciences » by djalaoudine assoyouti as a reference book for the searchers in the fields of morphology phonetics and coranic recitations.

الكلمات الدالة: الصّوت، السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الحرف، الحركة، علم القراءات.

Keyboard: Consonant – vowel- coranic recitations science phonetics- assoyouti- perfection in the coranic sciences

---

* قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الأداب واللغات ،جامعة الجزائر 2، الجزائر .

ملامح التفكيّر الصّوتي لدى العرب:

كان العرب من أسبق الأمم في الاهتمام بلغتهم لغة القرآن الراقية، ويكفيهم فخرًا ما أثبته بعض المستشرقين لهم هذا السبق من الاهتمام، ومنهم: برجشستر آسر (Bergstraser) الذّي يقول: "لم يسبق الغربييّن في هذا العلم إلا قومان من أقوام المشرق وهما: أهل الهند والعرب"[1]، وأما فيرث (Firth) حسب ما أورده كمال بشر، فيقول: "لقد نشأت الدّارسات الصّوتية ونمت في أحضان لغتين مقدستين العربيّة والسنسكرتية"[2].

واهتم الدارس العربي بالصّوت اللغوي مع بداية الدّرس اللّغوي عامة والعناية به، وكان من بواعث هذا الاهتمام ظاهرة اللّحن وارتباطها بقراءة القرآن، والّي كانت دافعًا آخر في ظهور الدّرس الصّوتي العربي مبكرًا فبرز علماء منهم:

أبو الأسود الدؤلي (ت: 69ه).

اختص عمل أبي الأسود الدؤلي (ت: 69ه) بوضع العلامة الصّوتية الاعرابيّة على أواخر الكلمات، وهي ما تعرف في الدّرس الصّوتي الحديث "بالحركات القصيرة " short vowels "، وخير دليل قصته مع كاتبه حينما وضع معايير لقراءة القرآن الكريم، إذ قال له: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه أعلاه، فإنّ ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإنّ كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإنّ اتبعت شيئًا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين"[3].

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 170ه).

تبوّأ الخليل أحمد الفراهيدي (ت: 170ه) منزلةً سامية في الفكر اللّغوي العربيّ القديم، حيث أخرج للبشرية أول معجم عربيّ مرتيبًا موادّه ترتيبًا على مخارج الأصوات، ولذا سمى معجمه "بالعين" نسبة إلى أول صوت حلقي حسب ترتيب الأصوات عنده.

وحدد الخليل عدد الحروف العربيّة بتسعة وعشرين حرفًا جامعًا بين الحروف الصّحيحة واللّينة، وفي ذلك يقول: "في العربية تسعة وعشرون حرفًا صحاحًا لها أحياز ومخارج، وأربعة هوائية، وهي: الواو والياء والألف اللّبنية والهمزة"[4].

وبالتّالي رّتب هاته الحروف حسب المخارج، فبدأ بجروف مخرجها الحلق ثمّ انتهى بالحروف التّي مخرجها الشفتيّن، وهذه الحروف هي: "ع ح ه خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ذ، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، فهذه الحروف الصحاح و ا ى ء، فهذه تسعة وعشرون حرفًا منها أبنية العرب"[5].

ومن ثمة وزع الخليل هذه الحروف العربيّة على الجهاز النطقي كالآتي:

- الأصوات الجوفيّة6 وتضم الهمزة وحروف اللّين (الألف والواو واليّاء).
- الأصوات الحلقية7 وتضم العين والحاء والهاء والخاء والغين.
- الأصوات اللّهوية8 وتضم القاف والكاف.
- الأصوات الشّجرية9 وتضم الجيم والشّين والضّاد.
- الأصوات الأسلية10 وهي: الصّاد والسّين والزّاي.
- الأصوات النّطعية11 وتضم الطّاء والتّاء والدّال.
- الأصوات اللّثوية12 وهي: الظاء والذّال والثّاء.
- الأصوات الذلقية13 وتضم الرّاء واللاّم والنّون.
- الأصوات الشّفوية14 وهي: الفاء والباء والميم.

وخلاصة القول إنّ الخليل اهتمّ بمخارج الأصوات ولم يهمل صفاتها، إلاّ انّه ركز بحثه على المخارج، باعتبارها الاجسام التي انتظمت وفقها مادة معجمه، وهدفه إحصاء كلام العرب المستعمل والمهمل منه.

ج- سيبويه (ت: 180هـ).

جاء بعد الخليل (ت: 170هـ) تلميذه سيبويه (ت 180هـ) الّذي ألف كتابًا جامعًا لعلوم اللغة، فضمّنه معلومات صوتيّة، أهمها:

1- مخارج الأصوات وجعلها ستة عشر مخرجًا، تتوزّع كالآتي:

- أقصى الحلق الهمزة والهاء والألف.
- أوسط الحلق مخرج العين والحاء.
- أدنى الحلق مخرج الغين والخاء.
- ومن أقصى اللّسان القاف.
- ومن أسفل اللّسان ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.
- ومن وسط اللّسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشّين واليّاء.
- ومن بين أوّل حافة اللّسان وما يليه من الأضراس، مخرج الضاد.
- ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الضاحك، والناب، والرباعية، والثنية مخرج اللاّم.
- ومن طرف اللّسان بينّه وبين الثّنايا مخرج النّون.

- ومن مخرج النون غيّر أنه أدخل في ظهر اللّسان قليلا مخرج الراء.
- وما بين طرف اللّسان وأصول الثنايا مخرج الطّاء، والدّال، التّاء.
- وما بين طرف اللّسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء، والذّال، والثّاء.
- ومن باطن الشفة السّفلى، وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء.
- وما بين الشفتين مخرج الباء، والميم، والواو.
- ومن الخياشيم مخرج النّون الخفيفة[15].

وتناول قضية عدد الحروف، وعدّها تسعة وعشرين حرفًا، فجعل لكل حرف منها صوت وصورة، وهي: "الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والعين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشّين، والياّء، واللاّم، والراء، والنّون، والطّاء، والدّال، والتّاء، والصّاد، والزّاي، والسّين، والظاء، والذّال، والثّاء، والفاء، والباء، والميم والواو"[16].

ولم يخرج سيبويه في ترتيبه للحروف عن التّرتيب الصّوتي الذي أقرّه الخليل، إلاّ أنّ خلافه في ترتيب بعض الحروف كالهمزة والألف والهاء والياء.

وتطرق أيضا إلى الحروف الفرعية السّماعية الشّفاهية، التي ليس لها صورة خطية، وتستحسن ويؤخذ بها في قراءة القرآن، والأشعار، وهي: النّون الخفيفة، بين بين، الألف الممالة إمالة شديدة، والشّين كالجيم والصاد القريبة من الزّاي وألف التفخيم[17].

وكذلك بيّن الحروف الفرعية المستهجنة، والتي لا تملك صورة خطيّة، وهي: "الكاف والتي بين الجيم والكاف، الجيم التي كالكاف، الجيم التي كالشّين، الضاد الضعيفة، الصّاد التي كالسّين والطاء التي كالتّاء، والظاء التي كالتّاء، الباء التّي كالفاء"[18].

وخلاصة القول إنّ سيبويه بيّن سمات كلّ صوت منفرد، من أجل إدراك مخرجه وصفته، ثمّ ضبط قوانين المجاورة الصّوتية، ممّا أدى به إلى معرفة الأصوات الفرعيّة المستحسنة والمستهجنة.

د- ابن جني (ت: 392ه):

تتبدى قيمة الفكر الصّوتي العربي القديم بصورة واضحة مع ابن جنّي في كتابه سر صناعة الاعراب، وهو الكتاب الذّي تضمن مباحث تناولت الصّوت من الناحيتين العضويّة والوظيفيّة.

وصف جهاز النّطق عند الانسان، فقال: "شبه بعضهم الحلق بالنّاي، فإنّ الصّوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجًا كما يجري الصّوت في الألف غفلاً يغير صنعة، فإذا وضع

الزّامر أنامله على حروف الناي المنسوقة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه"[19].

كما عرّف الصّوت بقوله: "عرض يخرج مع النّفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداداه واستطالته، فيسمّى المقطع أينما عرض له حرفا"[20].

وتناول أيضا قضايا مهمة في الدّرس الصّوتي وخاصة ما تعلق منها في باب أسماء الحروف، وأجناسها، ومخارجها، ومدارجها وفروعها المستحسنة وفروعها المستقبحة وذكر خلاف العلماء فيها مستقصيًا وشارحًا. ويتخلص هذا الباب في القضايا الآتية:

- الحركات الفتحة والكسرة والضمة) هي أبعاض حروف المدّ واللّين.
- حروف المدّو اللّين، هي الالف واليّاء والواو[21].
- أصول حروف المعجم عنده تسعة وعشرون حرفًا[22].
- اتبع ترتيب سيبويه لحروف المعجم، وقال ترتيب مذاقي[23].
- الحروف التي تلحق حروف الأصول، وعدّها أربعة عشر حرفًا، منها:

المستحسنة والمستقبحة، وهي حروف سماعية شفاهية، أي حروف التي ليس لها صورة خطية.

- مخارج الحروف ستة عشر مخرجًا[24].
- أجناس الحروف، ويقصد بها صفات الحروف، وذكر منها:

الثنائية كالجهر والهمس، والرخاوة، الإطباق، والانفتاح، الاستعلاء والانخفاض.

- تحدّث عن طريقة صوتية نعرّف من خلالها الكلمة الدّخيلة على اللغة العربيّة بقوله: "إذا رأيت كلمة رباعيّة او خماسية من غير ذي زوائد معراة حرفًا من حروف الذّلاقة، اللاّم، والرّاء، والنّون، والفاء، والباء، والميم، فاقض بأنّه دخيلة في كلام العرب"[25]، وضرب لننا أمثلة منها: الفرزدق.

وخلاصة القول إن علم الأصوات العربيّ قد نضج واستوى مع اين جنّي (ت: 392هـ).

ابن سينا (ت: 428هـ).

تتجلى عبقرية ابن سينا الدّرس الصّوتي من خلال رسالته "أسباب حدوث الحروف"، فهي رسالة موجزة، ومقسمة على ستة فصول كما أشار إلى ذلك مؤلفها في المقدّمة، تكلّم في الأول عن أسباب حدوث الصّوت، وفي الثاني عن أسباب حدوث الحروف، وخصص الثالث للحديث عن تشريح الحنجرة واللّسان، وأفرد الرابع للكلام على الأصوات العربيّة وكيفية

صدورها مبتدئًا بصوت الهمزة (الحنجرة) ومنتهيًا بأصوات المدّ، وجعل الفصل الخامس للكلام على الأصوات التي تشبه الأصوات العربيّة ولكنّها غير موجودة فيها، وتحدث في الفصل الأخير عن إمكانية سماع الأصوات اللّغوية من حركات وأسباب غير لغوية (الحركات الطبيعيّة).

والرّسالة على صغر حجمها، إلاّ أنّ عبارتها وردت مثقلة بمصطلحات صوتية، في مجملها مبتدعة لم يُسبق إليّها، نذكر منها: التّموج، والقرع، والقلع، والجرم، والحدّة، والثّقل، والمحبس، والصامتة، والمصوتة، والمفرد، والمركبة، والرطوبة، واليبس[26].

وتمّ تصنيف هذه المصطلحات وفق مجال استعمالها إلى ثلاثة مجالات[27] هي:

أ- المصطلحات ذات الطبيعة الفيزيائية.

ب- المصطلحات المتصلة بجهاز النّطق.

ج- المصطلحات الخاصة بمخارج الأصوات وصفاتها.

وتعرض أيضا إلى الفرق بين الصّوت في معناه العام فأطلق عليه مصطلح "الصّوت" واما الصّوت اللّغوي فستعمل فيه لفظ "الحرف"، والّذي يتجلى من خلال عنوان الرّسالة وعناوين فصولها.

الدّاني (ت: 444هـ).

تنحصر القضايا الصّوتية عند الدّاني في كتابه " التّيسير في القراءات"، والذي اشتمل على مباحث صوتيّة مهمّة أهمّها:

أ- باب مذهب أبي عمرو في الادغام، تناول فيه.

- تعريف الادغام لغة واصطلاحا وفائدته[28].
- أصول الحروف في العربيّة وحصرها في ثلاثين حرفا.
- عدد مخارج الحروف ستة عشر مخرجًا من الحلق إلى الخيشوم، وبذلك يكون قد اقتدى بما ذكره سيبويه في هذا المبحث.
- صفات الحروف، منها: الثّنائية والأحادية، فالثّنائية تتضمن الجهد والهمس الشّدة والرخاوة، الإطباق والانفتاح، الاستعلاء والانخفاض، واما الأحادية، فهي: الهوائية، والاستطالة، والتّفشي، والانحراف، والتّكرار، والصّفير، والغنة، واللّين، حيث اتبع ما قام به ابن جنّي فيما يخص صفات الحروف.

ب-باب ذكر المدّ والقصر29.

تعرض فيه إلى:

- حروف المدّ، وهي ثلاثة الالف، والواو السّاكنة بعد الضمة، والياء السّاكنة بعد الكسرة.
- المد المتّصل والمد المنفصل.

ج- باب الاظهار والادغام للحروف السواكن (الصوامت)30.

د- باب الفتح والامالة بين اللّفظين.

تطرق فيه إلى:

- تعريف الإمالة، فقال: "تقريب الفتحة من الكسرة، وتقريب الالف من اليّاء"، وعرفها أيضا بقوله: "أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو اليّاء"31.
- أورد أسماء للإمالة، ومنها: "الكسر، والبطح، والاضجاع.
- قرر بأنّ الإمالة فرع والفتح هو الأصل.
- ذكر الأصل في أسباب الإمالة (الكسرة، والياء).
- وذكر أيضا أسباب الإمالة وحصرها في عشرة.
- حدّد فائدة الإمالة، وتتمثل في سهولة اللّفظ، وذلك أنّ اللّسان يرتفع بالفتح، وينحدر بالإمالة والانحدار أخف على اللّسان من الارتفاع.

ابن الجزّري (ت: 833ه)

نحاول من خلال هذا العنوان انّ نسلط الضّوء على أهم المسائل الصّوتية التي تناولها ابن الجزّري في كتابة "النشر في القراءات العشر".

أ- مخارج الحروف:

يقول ابن الجزّري: "... المختار عندنا وعند من تقدمنا من المحققين كالخليل بن أحمد ومكي بن أبي طالب وأبي القاسم الهذّلي وأبي الحسن شريح وغيرهم سبعة عشر مخرجًا ... وهو الذي أثبته أبو علي بن سينا في مؤلف أفرده في مخارج الحروف وصفاتها ... وكثير من النحاة والقراء ستة عشر فأسقطوا مخرج الحروف الجوفية التي هي حروف المدّ واللّين وجعلوا مخرج "الألف" من أقصى الحلق و "الواو" من مخرج المتحركة وكذلك "اليّاء ..."32، ومن هذا القول نكتشف أنّ عدد مخارج الحروف عند ابن الجزري سبعة عشر مخرجًا وهي:

"الجوف، وأقصى الحلق، وسط الحلق، وأدنى الحلق إلى الفم، وأقصى اللّسان ما يلي الحلق وما فوقه من الحنك، وأقصى اللّسان من أسفله بقليل، وفي وسط اللّسان بينه وبين وسط الحنك، وأول حافة اللّسان وما يليه من الأضراس، من ادنى حافة اللسان إلى منتهى

طرفه، وفي طرف اللّسان بينه وبين ما فوق الثّنايا العليّا، ومن طرف اللّسان وأصول الثنايا العليا مصعدا إلى جهة الحنك، ومن بين طرف اللّسان فويق الثنايا السفلى، ومن طرف اللّسان وأطراف الثنايا العليا، ومن باطن الشفة واطراف الثنايا العليا، وما بين الشفتين، والخيشوم"[33].

ب- صفات الحروف[34].

بيّن ابن الجزريّ (ت: 833ه) صفات الحروف على النّحو الآتي:

- الجهر ضد الهمس، والهمس من صفات الضّعف، كما انّ الجهر ممن صفات القوة.
- والشّدة ضدّها الرّخاوة، والرّخاوة من صفات الضّعف، كما أنّ الشدّة من صفات القوة وهي ستة أحروف: "طبق أجد".
- أمّا التّوسط فهو بين الشّدة والرّخاوة وهي خمسة أحرف "لن عمر".
- والاستفال ضد الاستعلاء، والاستعلاء من صفات القوة وهي سبعة أحرف قظ خص ضغط.
- وأمّا الانفتاح فهو ضد الإطباق، والإطباق من صفات القوة، وهي أربعة: الصّاد، والضّاد، والطّاء، والظّاء.
- وحروف الصّفير ثلاثة، الصاد، والسّين، والزّاي.
- وأمّا حروف القلقلة فهي خمسة أحرف: "قطب جد".
- وحروف المدّ هي الحروف الجوفية وهي الهوائية: الالف، والواو، واليّاء.
- وامّا حرفا الانحراف فهما اللاّم والرّاء.
- وحرفا الغنّة هما النّون والميّم.
- وامّا الحرف المكرر فهو الرّاء.
- وحرف التّفشي هو الشّين.
- واما حرف الاستطالة فهو الضّاد.

ج- الإدغام[35].

عرف ابن الجزري (ت: 833ه) الإدغام، وقسمة إلى كبير وصغير، ثمّ بيّن أحكامهما.

د- المدّ والقصر[36].

عرف ابن الجزري المدّ والقصر، فالمدّ عنده هو: "عبارة عن زيادة مط في حرف المدّ على المدّ الطبيعي"، واما القصر فهو: "عبارة عن ترك تلك الزيادة وإبقاء المدّ الطبيعي"، ثمّ ينتقل ابن الجزري إلى توضيح أحكام المدّ والقصر بالتفصيل.

هـ- الإشمام والرّوم37.

ببيّن ابن الجزري ظاهرتي الرّوم والإشمام ، فقال الإشمام هو "إعمال العضو وتهيئته من غير صوت خارج على اللفظ فلا يقرع السّمع"، وأمّا الرّوم عنده، فهو "آكد في البيّان عن كيفية الحركة لأنّه يقرع السّمع" كما ذكر تنبيهات فيما يخص الإشمام والرّوم.

خلاصة القول إنّ ابن الجزري نهل تفاصيل القضايا الصّوتية-السابقة الذّكر- من الخليل، وسيبويه، وابن جني، والداني.

2- المخارج والصفات في كتاب الإتقان في علوم القرآن لجلال السيّوطي:

وفي هذا المبحث سوف نعرض السّمات التي يتسم بها الصّوت المجرّد في الإتقان في علوم القرآن "لجلال الدين لسيوطي، حيث نبيّن أنّ "لكل صوت مخرج وصفة تميّزه عن الأصوات الأخرى"38.

أ- مخارج الحروف في "الإتقان" لجلال الدّين السيّوطي39 في البداية استخلص السيّوطي مخرج الحرف من القراء، فقال: تحقيق مخرج الحرف بان تلفظه بهمزة الوصل وتأتي بالحرف بعده ساكنا او مشددًا فتبيّنه ثمّ تناول قضية مخارج الحروف، وعددها".

كما بيّنها ابن الجزري في مؤلفة "النشر في القراءات العشر، فعدّها سبعة عشر مخرجًا، هي كالآتي:

المخرج الأول: الجوف للألف، والواو والياء السّاكنتين بعد حركة تجانسهما.

الثاني: أقصى الحلق، للهمزة والهاء.

الثالث: وسطه، للعين والحاء المهملتين.

الرابع: أدنناه للفم، للغين والخاء.

الخامس: أقصاه اللّسان ممّا يلي الحلق، وما فوقه من الحنك للقاف.

السّادس: أقصاه من أسفل مخرج القاف قليلاً، وما يليه من الحنك للكاف.

السّابع: وسطه، بينه وبين وسط الحنك، الجيم والشّين والياء.

الثامن: للضاد المعجمة، من أوّل حافّة اللّسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر، وقيل: الأيمن.

التّاسع: اللاّم من حافة اللّسان من أدناها إلى منتهى طرفه، وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى.

العاشر: للنون من طرفه، أسفل اللاّم قليلاً.

الحادي عشر: للرّاء من مخرج النّون لكنها أدخل في ظهر اللّسان.

الثاني عشر: للطّاء والدّال والتّاء من طرف اللّسان وأصول الثنايا العليا مصعدًا إلى جهة الحنك.

الثالث عشر: الحرف الصّفير: الصّاد، والسّين، والزّاي، ومن بين طرف اللّسان وفُويق الثنايا السّفلى.

الرابع عشر، للظّاء، والثّاء، والذّال، من بين طرفه وأطراف الثنايا العليا.

الخامس عشر: للفاء في باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.

السابع عشر: الخيشوم للغنة في الإدغام والنّون والميم الساكنة.

وأمّا عند تتبعنا لمخارج الحروف عند المحدثيّن40، فهي عشرة مرتبة ترتيبًا تنازليا من الشفتين نزولا إلى الحنجرة، نوردها على النحو الآتي:

- الشفتان: الباء والميم والواو.
- الشفة والأسنان: الفاء.
- الأسنان واللّثة: الدّال والضّاد، والتّاء والزّاي والسّين والصّاد.
- الأسنان: الذّال والثاء والظاء.
- اللّثة: اللاّم والاّء والنّون.
- الطبق الصلب الغار: الشّين والجّيم والياّء.
- الطبق اللّين: الكاف والغين والخاء والواو.
- اللهاة: القاف.
- الحلق: العين والحاء.
- الحنجرة: الهاء والهمزة.

ومن هنا، لابدّ انّ نشير إلى الجوانب الصّوتية المشتركة بين ما أورده السّيوطي وما توصّل إليه الدّرس الصّوتي الحديث فيما يخصّ مبحث مخارج الحروف، حيث تتجلى هذه الجوانب الصوتية المشتركة بين السّيوطي والدرس الصوتي الحديث، في النقاط الآتية:

أ- أورد السيوطي صوت الهمزة في بداية مجموعة الأصوات الحلقية، وبهذا يتفق مع الدرس الصوتي الحديث في هذه القضية، إلاّ انّه يختلف معه في تسمية المخرج، فمخرج الهمزة عند السيوطي يسمى "أقصى الحلق" (Gorge Maximale) أما لدى المحدثين فهو الحنجرة (Larynx).

ب- تناول السّيوطي في "الإتقان" الأصوات ضمن مجموعة صوتيّة، أي وفق مخرج واحد مثل: أصوات الجيم والشّين واليّاء ومخرجها وسط اللّسان وبين وسط الحنك، واصوات الباء والميم والواو ومخرجها ما بين الشفتين. أما الدّرس الصّوتي الحديث فينسب مجموعة أصوات الجيم والشين والياء إلى المخرج الغاري، ، وأما مجموعة أصوات الضاء والثاءوالذال فينسبها إلى المخرج الأسناني، وأمّا مجموعة أصوات الباء والميم والواو فيصنفها ضمن المخرج الشفوي.

يتفق السّيوطي (ت: 911ه) مع الدرس الصوتي الحديث في التّرتيب الصّوتي والتصنيف المخرجي، وتختلف معه في تسميّة المصطلح، ومنها:

مخرج طرف اللّسان وما فوقه في الدّرس الصّوتي الحديث يسمّى المخرج الغاري(palatal) وأمّا مخرج طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا فيسمّى عند المحدثين بالمخرج الأسناني (Dental)، وأمّا مخرج ما بيّن الشفتيّن فيطلق عليه مصطلح المخرج الشفوي (Labial).

وخلاصة القول إنّ التصنيف المخرجي للأصوات في الإتقان للسيّوطي:

المقتبس من عند النحاة كالخليل، ومن عند القراء كابن الجزري، يتفق مع الدّرس الصوتي الحديث، ولنا مثال على ذلك: فمخرج الأصوات الحلقية الستّة في الإتقان موزعة حسب المخارج الآتية:

أقصى الحلق للهمزة والهاء، أمّا وسط الحلق فهو للغين والحاء، وأمّا أدنى الحلق فهو للغين والخاء، فهاته الأصوات الستّة وزعها المحدثون على ثلاثة مخارج تختلف في التّسمية فقط، فمخرج "الحنجرة" يقابل "أقصى الحلق" في الإتقان، أمّا مخرج "الحلق" فيقابل "أوسط الحلق" في الإتقان، وأما مخرج "الطبق" فيقابل في الإتقان مصطلح "أدنى الحلق".

ب- صفات الحروف في "الإتقان" لجلال الدّين السيّوطي:

وردت في "الإتقان" للسيّوطي في مبحث صفات الحروف في اللّغة العربيّة عبارة "قال في النشر"41، أي أنّ الحروف التي ذكرها في الإتقان اقتبسها من كتاب "النشر في القراءات

العشر" لابن الجزري (ت: 833هـ)، حيث بيّن ابن الجزري كل صفات الحروف في اللّغة العربية بالتفصيل42 إلاّ أنّ السيوطي تناولها بالخلط والاختصار، على الرّغم من هذا تتجلّى لنّا صفات الحروف من خلال النص الذّي أورده في الإتقان، يقول فيه: "قال في النشر: فالهمزة والهاء اشتركا مخرجًا وانفتاحًا واستيفالا، وانفردت الهمزة بالجهر والشّدة، والعين والحاء كذلك وانفردت الحاء بالهمس ... النطق بكل حرف على حدّته موفي حقّه"43.

ونستشف من هذا النّص بعض من صفات الحروف، وهي كالآتي:

- **الجهر(Sonority)**: وقد حصر السيّوطي عدد حروف بتسعة عشر حرفًا، وهي: الظّاء، والاّم، والقاف، والواو، والرّاء، والباء، والضاد، والهمزة، والذّال، الزّاي، والألف، والجيّم، والنّون، والدّال، والميّم، والطّاء، واليّاء، والعين، والغين، إلاّ أنّ الدّرس الصّوتي الحديث يقرّ بخمسة عشر صوتًا مجهورًا، مرتبة كالآتي: "الباء، والجيم، والدّال، والذّال، والرّاء، والزّاي، والضّاد، والظّاء، والعين، والغين، واللاّم، والميّم، والنّون، والواو، واليّاء"44.
- **الهمس(Voiceless)**: ذكره السيّوطي في الإتقان وحصره في عشرة حروف، هي:

السيّن، والتّاء، والشين، والحاء والثاء، والكاف، والخاء، والصّاد ولفاء، والهاء"45.

ولقد أضاف إبراهيم أنيس إلى هاته الأصوات المهموسة صوتي الطاء والقاف، ورتبها على النحو الآتي: التّاء، والثاء، والحاء، والخاء، والسيّن، والشيّن، والصّاد، والطّاء، والفاء، والقاف، والكاف، والهاء46.

وإذا قارن بين مجموعتين الأصوات المجهورة والمهموسة في "الإتقان" لدى السيّوطي، وما ذكره إبراهيم أنيس فيما يخص جهر وهمس الأصوات في اللغة العربيّة، نجده قد اختلف في بعض الأصوات التي عدّها مهموسة في حين أوردها السيوطي مجهورة، ومنها أصوات القاف والطّاء والهمزة.

وقدم إبراهيم أنيس47 تعليلات لوصف القدامى لصّوت "القاف" بالجهر، فقال: القاف "القديمة المجهورة تنطق".

أ- غينًا وهي القاف الشائعة في القبائل العربيّة في جنوب العراق، والسّودان.

ب- جيما قاهرية (g): وهي لغة البدو، وأهالي صعيد مصر في الوقت الحاضر.

وأما صوت الطاء فعبر رحلته الطويلة خضع للتّغييّر؛ هذا التّغيير يعكس بيئات انتقلت من صعوبة في العيش إلى رغد ورفاهية، هذا التحول المعيش، أثر بدوره على نطق بعض الأصوات، ومنها: الطاء.

***الشدة (Plosive):**

بيّن السيوطي في "الإتقان" حروف الشّدة وحصرها في ثمانية، هي: الهمزة، والجيم، والدّال، والباء، والكاف، والقاف، والطاء، والتاء.

أمّا الأصوات الشّديدة عند إبراهيم أنيس48 فهي كالآتي: "البّاء، والّال، والتّاء، والطاء، والضّاد، والكاف، والقاف".

ومن خلال هذا العرض الصّوتي لجلال الدّين السّيوطي وإبراهيم أنيس، يتجلى لنّا أنهّما اتّفقا في مسألة عدد الحروف الشديدة، واختلافا في تركيبة هذه الحروف الشديدة تجمع عند السيوطي في أجد قطبتك، أما عند هذا إبراهيم انيس فتجمع في أقض دك طبت.

ويبدو أنّ هذا الخلاف الصّوتي بيّن القدامى والمحدّثين، أو بيّن السيّوطي وإبراهيم أنيس حول صوت الجيم، يعود إلى عمليّة التطور الذّي مرّ بها هذا الصّوت على ألسنة الناطقين به في بيئاتهم المختلفة49.

وهناك خلاف آخر يتمثل في تسمية المصطلح، فمصطلح "الشّدة" في "الإتقان" لدى السيّوطي يقابله في الدّرس الصّوتي الحديث "الانفجار" أو "الانسداد".

***-الرخاوة (La fricative):**

وردت حروف الرّخاوة في "الإتقان" للسيّوطي نحو ثلاثة عشر حرفًا، هي "الهاء، والحاء، والغيّن، والخاء، والشيّن، والصّاد، والضاد، والزّاي، والسيّن، والظاء، والثّاء، والذّال، والفاء".

أما في المقابل فتجلت الأصوات الرخوة عند المحدثين50 على النحو التّالي:

"السّين، والزّاي، والصّاد، والشيّن، والذّال، والثّاء، والظاء، والفاء، والهاء، والحاء، والخاء، والغيّن".

وإذا تأملنا الأصوات الرخوة عند كل من السيّوطي والمحدثين، نجد انّ السيّوطي خالف المحدثين في تصنيف صوت "الضاد" فهو عنده "رخو" في حين يعدّه المحدثون من الأصوات الشّديدة أو الانفجارية.

وسبب الخلاف في تصنيف صوت "الضاد" بين المحدثين وما ورد في الإتقان، يمكن انّ نرجعه إلى السببيّن الآتييّن:

أ- لعل القدامى(النّحاة أو القراء) وضعوا صفات الضّاد المولدة، لا الضّاد العربيّة الأصليّة"51.

ب- الفرق في وصف الضّاد بما جاء به السيّوطي في "الإتقان" وما أثبتتّه الدّراسات الصّوتية الحديثة، يرجع هذا الفرق إلى التّغيير والتّطور الطبيع، والانتقال الجغرافي في بيئة صحراوية واسعة لبدوية متنقلة، وريفية متقدمة، إلى مدينة متحضرة، فلا بد أن يرافق هذا التّطور تطور في نطق لفونيم الضاد عبر السيّاق الكلامي في البيئات المختلفة، حيث تطوّر هذا الصّوت الرّخو إلى شديد يعكس بدوره صورة سليمة معبرة عن الواقع الجديد52.

وهناك اختلاف آخر يتمثل في تسمية المصطلح "الرخاوة" الذّي ورد في الإتقان للسيّوطي، يقابله مصطلح "الاحتكاك" في الدّرس الصّوتي الحديث.

***الإطباق (La Velarisation)**

وحروفه كما وردت في "الإتقان" للسّيوطي، فقال:"... والضّاد والظاء اشتركا جهراً ورخاوة واستعلاء وإطباقًا... وانفردت الطّاء بالإطباق والاستعلاء... وانفردت الصّاد بالإطباق والاستعلاء ..."53.

وفي المقابل عرض أحد مختار عمر الأصوات المطبقة، فقال:" فصل العرب، الأصوات المطبقة... وذكروا أنّها الضّاد، والصّاد، والطاء، والظّاء"54 من خلال هذا القول الذّي حدّد فيه أحمد مختار عمر الأصوات المطبقة، تتجلى لنّا صورة في التّوافق بينه وبين ما ورد في "الإتقان" للسيوطي.

***اللّين والمدّ(Diastole):**

ظاهرة صوتيّة أوردها السيّوطي في سياق كلامه عن مخرج الحروف الجوفيّة، فقال: "كثير من الفريقين، قالوا: ستّة عشر، فأسقطوا مخرج الحروف الجوفية، وهي حروف المدّ واللّين، وهي: الألف، والواو، واليّاء55، وقال أيضا: "التّحقيق وهو إعطاء كلّ حرف حقه من إشباع المدّ، وتحقيق الهمزة، وإتمام الحركات ... وببيان الحروف، وتفكيكها ..."56.

وانطلاقا من هذين القوليّن نستخلص ما يلي:

أ- أن الألف واليّاء والواو هي حروف مدّ ولين.

ب- الألف والياء والواو حروفٌ جوفيّةٌ.

ت- الحركات والحروف مصطلحين وردا عند السيّوطي وأما عند المحدثين فلا نعثر على خلاف في عدد أصوات المدّ وطبيعتها وبين ما ذكرهُ السيّوطي في الإتقان، وما ورد عند إبراهيم أنيس في قوله: "وأصوات الليّن في اللغة العربيّة هي ما اصطلح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة، وكسرة، وضمة، وكذلك ما سمّوه، بالألف اللّينة، واليّاء والليّنة، والواو اللّينة، وما عدا هذا فأصوات ساكنة"57.

اتفق إبراهيم أنيس مع ما جاء به السيّوطي في الإتقان فيما يخص حروف المدّ واللّين وعددها. إلاّ أنّ الباحثين العرب (إبراهيم أنيس وأحمد مختار عمر، وتمام وحسّان، وكمال بشر) اختلفوا معه في إعطاء المقابل، للمصطلح، يتجلّى من خلال الجدول الآتي:

الباحث	الحركات	الحروف
السيّوطي	الحركات وحروف المدّ واللّين	الحروف
إبراهيم أنيس	الحركات القصيرة V والحركات الطويلة VV	الأصوات السّاكنة C
أحمد مختار عمر	العللّ القصيرة (u) (a) (i) والطويلة (uu) (aa) (ii) أو الصوائت	السّواكن ص أو الصوامت ص
تمام حسان	العللّ القصيرة (ع) العللّ الطويلة (ع ع)	الصّحاح 'ص)
كمال بشر	الحركات القصيرة والحركات الطويلة أو الصوائت القصيرة والصوائت الطويلة	الأصوات الصّامتة أو الصوامت

من الجدول يمكننّا استخلاص ما يلي:

أ- اختلاف الباحثين المحدثين العرب في إعطاء المقابل للمصطلحين (الحركات) و(الحروف)، فعدد المصطلحات بعدد الباحثين تقريبًا.

ب- اعتماد الباحثين المحدثين العرب على المصطلح القديم أو على ترجمة المصطلح الغربيّ؛ مما يجعل المصطلح الغربيّ الواحد يقابل مصطلحات عربيّة في الوقت نفسه، ممّا أدى إلى فوضى في المنظومة الاصطلاحيّة الصّوتية العربية الحديثة.

3-من القضايا الصّوتية المتعلقة بالصّوائت (الحركات) في الإتقان لجلال الدّين السيّوطي (ت: 911هـ)

سنحاول في هذا المبحث أن ندرس التّلوينات الصّوتية المتعلقة بالصّوائت العربيّة في الإتقان لجلال الدّين السيّوطي (ت: 911هـ)، على النحو الآتي:

أ- المدّ.

ب- الإمالة.

ج- الإشمام .

د- الروم.

أ-المدّ في الإتقان لدى السيّوطي:

يعدّ المدّ ظاهرة صوتية عبر عنها السيّوطي، فقال المدّ هو: "عبارة عن زيادة مطٍّ في حرف المدّ على المدّ الطبيعي، وهو الذّي لا تقوم ذات حرف المدّ دونه (...) وحروفه الألف مطلقًا، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، واليّاء السّاكنة المكسور ما قبلها وسببه: لفظّي ومعنوي فاللفظي: إما همز أو سكون: فالهمز: يكون بعد حرف المدّ وقبله (...) فهو متّصل، نحو ﴿شاء الله﴾ أو ﴿السوءى﴾، أو منفصل، نحو: ﴿بما أنزل﴾، ﴿وقالوا آمنا﴾ (...) والسّكون: إمّا لازم: وهو الذّي لا يتغيّر في حاليه: نحو ﴿الضّالين﴾، أو عارض: وهو الذّي يعرض للوقف نحو: ﴿والحساب﴾﴿ويُوقِنُونَ﴾ ..."58.

نستنتج من هذا الكلام الذّي قدّمه السيّوطي ما يلي:

*أن المدّ هو مطّ الصّوت أو الزيادة أو الاكثار أو التّطويل؛ أي إطالة زمن جريان الصّوت بحرف من حروف المدّ الثلاثة صور صوتيّة خاصّة للمدّ ذكرها السيّوطي على النحو الآتي:

*مدّ الحجز: هو إدخال بين الهمزتين حاجزًا لتخفيف الاستثقال، في مثل قوله تعالى : ﴿ءَانذرتم﴾[البقرة: 06].

*مدّ العدل: يقوم مقام الحركة في الحجز بين السّاكنين، نحو﴿الضالين﴾.

*ومدّ التّمكين: هو مدّ يلي الهمزة، ويعمل على تحقيقها وإخراجها من مخرجها، نحو: ﴿أُوْلئكَ﴾.

*ومدّ الروّم: هو مدّ يستخدم لتّلييّن الهمزة، نحو: ﴿هأَنتُمْ﴾.

*ومدّ الفصل: يفصل به بيّن كلمتين متصلتين، نحو: ﴿بِمَا أُنزِلَ﴾.

*ومدّ الفرق: يفرق به بين الاستفهام والخبر.

ومدّ المبالغة: في قول: ﴿لاَ إله إلاَّ الله﴾.

*ومدّ البدل من الهمزة: في نحو ﴿ءَادَمَ﴾.

ومدّ الأصل في الأفعال الممدودة : في نحو جَآء وشآء.

*وحروف المدّ لدى السيّوطي ثلاثة هي:

الألف مطلقًا، والواو السّاكنة المضموم ما قبلها، واليّاء السّاكنة المكسور ما قبلها.

*وأقسام المدّ عنده، هي:

المدّ الطّبيعي، والمدّ غير الطبيّعي، وهو الذّي يليه همز أو سكون، ويتجلّى في صور نطقيّة، هي: المدّ المتصل، والمدّ المنفصل، والمدّ اللاّزم، والمدّ العارض.

ومن هنا، كلّ ما أوردهُ السيّوطي عن المدّ، فقد أخذه عن ابن الجزريّ في كتابة النشر في القراءات العشر59..

ويتفق السيّوطي مع الدّرس الصّوتي الحديث في تحديده لحروف المدّ، وهي ثلاثة، إذ يقول مكي درار: "المدّ، وهو الصّوت المضاعف للصائت القصير، المتمثل في الألف، والواو، والياء"60.

ويختلف معه في تسمية المصطلح، فمثلا مصطلح المد المتصل61، وهو مدّ يكون بعد، همز، نحو: شآء، أما عند مكي درار فيطلق عليه مصطلح المطل62.

ب-الإمالة (Inclination)في الإتقان لدى السيّوطي:

الإمالة لغة مشهورة، فاشية على ألسنة الفصحاء الذّين نزل القرآن بلغتهم؛ فالإمالة لغة عامة لأهل نجد من تميم وأسد وقيس، ويقال هي من الأحرف السّبعة، ومن لحون العرب وأصواتها.

وقد عالج السيّوطي ظاهرة الإمالة بقوله: "هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء كثيرًا، وهو المحض، ويقال له أيضا: الإضجاع والبطح63 والكسّر قليلاً، وهو بين اللّفظين، ويقال له أيضا: التّقليل والتّلطيف، وبين بين ..."64.

فالإمالة هي تقريب صوتيّ بيّن الفتّحة والكسرة وبين الألف واليّاء، أو تلوين صوتّي، يلبس الصّيغة الممال حركتها، فالإمالة إذا هي اقتصاد وانسجام وتلوين65.

يتفق السيّوطي مع الدّرس الصّوتي الحديث، إلى حد كبير في قضية أنّ الإمالة هي اقتصاد وانسجام وتلوين، فقد عبّر السيّوطي عن هذه المصطلحات بالألفاظ الآتية: التقليل والتّلطيف وبين بين.

ثم فصّل السيّوطي الحديث عن الإمالة وأصنافها وفائدتها، فأشار إلى أنّ فائدة الإمالة تتمثّل في تسهيل وتخفيف النطق باللفظ؛ وذلك أنّ اللّسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللّسان، من الارتفاع66.

كما ذكر حالات الإمالة67 التي أوردها القرّاء العشرة إلاّ ابن كثير، وهي على النحو الآتي:

*الألف المنقلبة عن اليّاء، حيث وقعت في القرآن في الاسم أو الفعل كالهدى، والهوى، والعمى، وأتى، وأبى، ويخشى.

*وألف التأنيث على (فعلى) بضم الفاء أو كسرها أو فتحها، نحو ضيزى، وطوبى، وموتى، والتّقوى.

*وما رسم في المصاحف باليّاء نحو (بلى).

*والواوي ما كسر أوّله أو ضم، وهو (الرَّابا).

*ورؤوس الآي من إحدى عشرة سورة (طه، والنّجم،...)

*ولكل راء بعدها ألف بأي وزن كان كذكرى وبشرى.

*وكلّ ألف بعدها راء متطرّفة مجرورة، نحو: الدّار، والنّار.

*والألف من عين الفعل الماضي من عشرة أفعال، وهي: زاد، وشاء، وجاء، وخاب، وران، وخاف، وزاغ، وطاب، وضاق، وخاق.

*هاء التأنيث وما قبلها وقفًا مطلقًا بعد خمسة عشر حرفًا يجمعها في قول: فجثت زينب لذود شمس".

نستنتج من الكلام الذّي قدّمه السيّوطي أنّ أصل الإمالة في الألف، وهي أن ينحو بها المتكلم نحو اليّاء أو الكسرة.

وبهذا تكون الإمالة عند السيّوطي وفق ما قرّره الدّرس الصّوتي الحديث، حيث يقول كمال بشر الإمالة هي: "الفتحة المشوبة بالكسّرة، وألف المدّ حين تمال، فتصبح مشوبه بنوع من الكسّر وهذا النّوع من الحركات أثر من آثار اللهجات المحليّة القديمة"68.

بعد أن بيّنّا الإمالة عند كمال بشر نود أنّ نقابل فائدة الإمالة عند إبراهيم أنيس بما ذكره السيّوطي، ثم نحاول الربط بينهما.

من فوائد الإمالة عند إبراهيم أنيس، هي: التماس الخفّة واليّسر في النطق، وهذا ما يعرف "بنظرية السّهولة التي نادى بها كثير من المحدثين، والتي تشير إلى أنّ الانسان في نطقة يميل إلى تلمّس الأصوات السّهلة التي لا تحتاج إلى جهد عضلي"69.

أما فائدة الإمالة عند السيّوطي فهي تسهيل اللّفظ، لأنّ اللّسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة والانحدار أخف على اللّسان من الارتفاع70.

وإذا حاولنا الرّبط بين فوائد الامالة عند إبراهيم أنيس، وبيّن فوائدها لدى السيّوطي، فإننّا نجدها تتقاطع بعضها مع بعض، في درء الثقل والمشقة، وفي طلب السّهولة واليسّر أثناء النطق.

وهذا ما يؤكّده الراجحي بقوله: "إن الغرض منها تناسب الأصوات وتقاربها في السيّاق، لأنّ النّطق باليّاء والكسرة انحدار وتسفل، بالفتحة والألف استعلاء وتصعّد"71.

ج-الإشمام في الإتقان لدى السيّوطي.

الإشمام سمة بصرية يدركها القارئ؛ أي نقطة توضح فوق الحرف من الكلمة سواء كانت في البداية، أو في الحشو، أو في المنتهى. وفيه قال السيوطي: " هو عبارة عن الإشارة إلأى الحركة من غير تصويت، وقيل: أنْ تجعل شفتيك على صورتها وكلاهما واحد ويختص بالضمة"72. ومن هنا يكون الإشمام مدركا بصريًا؛ أي يمكن رؤية وتبيين العضو المسؤول عن النّطق بالضّمة.

إنّ ما ذهب إليّه السيّوطي (ت: 911هـ) في تعريفه للإشمام، يتوافق مع ما ذكر الدّاني (ت: 444هـ) في "باب الوقف على أواخر الكلّم"، حيث يقول: "هو عبارة عن الإشارة إلى الحركة من غير تصويت، وقال بعضهم: أنّ تجعل شفتيك على صورتها إذا لفظت بالضّمة وكلاهما واحد، ولا تكون الإشارة إلاّ بعد سكون الحرف"73.

معنى هذا أنّ الإشمام هو الايماء إلى حركة الضّم المراد التّلفظ به من غيّر تصويت. وهو يختص بحركة الضمة فقط؛ لأن مخرجها من الشفتيّن، فيضّم المتكلّم شفتيه، فيرى السّامع ذلك، وأمّا الكسرة والفتحة فإنّ مخرجا لا يراهما السّامع، لأن مخرج الكسرة من وسط اللسان وهو عضو غائب عن البصر، وكذلك الفتحة لما كانت من مخرج الألف وأصلها من الحلق وهو عضو غائب، أيضا عن البصر74.

تحدث بعض المحدثين عن مفهوم الإشمام ، منهم: محمد الأنطاكي75، حيث تناول موضوع الإشمام وفق ما قدّمه القرّاء واللّغويون القدماء.

د-الرّوم في الإتقان لدى السيّوطي.

الرّوم علامة نطقية يدركها السّامع، وفيه قال السيّوطي: "هو عبارة عن النطق ببعض الحركة، وقال بعضهم: تضعيف الصّوت بالحركة حتّى يذهب معظمها (...) ويختصّ بالمرفوع والمجزوم والمضموم والمكسور، بخلاف المفتوح؛ لأنّ الفتحة خفيفة، إذ خرج بعضها خرج سائرها، فلا تقبل التبعيض"76.

وهذا الكلام اقتبسه السيّوطي من الدّاني (ت: 444هـ)، إذ يقول: "الرّوم فهو عند القراء عبارة عن النطق ببعض الحركة، وقال بعضهم: هو تضعيف الصّوت بالحركة حتّى يذهب معظمها وكلا القولين واحد، وهو عند النحاة عبارة عن النطق بصوت خفي"77.

ومعنى هذا أنّ الرّوم هو إضعاف الحركة، وهذا الاضعاف يكون بالانتقاض من مدّته الزّمنيّة. ويمكنّنا إنهاء الحديث عن هذا العنصر الهام في التّلوينات الصّوتية المتعلقة بالحركات، بتقديم جدولٍ بيّنا فيّه بعض الفوارق بيّن الإمالة، والرّوم، والإشمام .

الخصائص / التلوينات الصوتية	نسبة الكميّة الصّوتية	نوع الإدراك	علامته السميولوجية	المقابل للنظام المتري
الامالة	100% من الحركة	سمعي	نقطة تحت الحرف	المتر(م)
الرّوم	75% من الحركة	سمعي	خط فوق الحرف	الدّيسمتر(دسم)
الإشمام	50% من الحركة	بصّري	نقطة فوق الحرف	السّنتميتر(سم)

4- من التّلوينات الصّوتية للصوامت العربيّة لدى جلال الدّين السيّوطي.

يحتفظ الصّوت اللّغوي المجرد بملامحه المميّزة له، ولكنّه عندما يرد ضمن بنى لغوية وسياقات لغوية، تطرأ عليه تغيرات جراء تأثّره وتأثيره في الأصوات المجاورة له، فالأصوات سلسلة من اللّبنات التي يبنى نسيج اللّغة ولحمتها وعليه، سنحاول عرض ما جاء به السيوطي من التّشكيلات والتّلوينات الصّوتية الخاصّة بالصوامت، ومقارنتها مع ما جاء به الدّرس الصوتي الحديث ومن أهمّ هذه التلوينات الصوتية للصوامت العربيّة التي وردت في الإتقان، هي:

أ- تخفيف الهمز ويقابله في الدرس الصّوتي الحديث مصطلح تسهيل الهمزة أو بين بين.

ب- الادغام ويقابله في الدرس الصوتي الحديث المماثلة[78].

ج- الابدال ويقابله في الدّرس الصّوتي الحديث مصطلح المخالفة.

أ-تخفيف الهمز:

أشار علماء اللّغة العربيّة القدامى أنّ العرب استثقلت النّطق بالهمز في كلامها، وهذا ما بيّنه السيّوطي بقوله: "أعلمأنّ الهمز لما كان أثقل الحروف نطقًا، وأبعدها مخرجًا، تنوّع العرب في تخفيفه بأنواع التّخفيف، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم تخفيفًا؛ ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم، كابن كثير من رواية ابن فُليح، وكنافع من رواية وَرْش، وكأبي عمرو، فإنّ مادة قراءته عن أهل الحجاز"[79].

مضمون هذا النصّ واضح وجليّ، فهو يبرز لنا بوضوح علاقة تخفيف الهمز بثقل النطق به وبعدّه المخرجيّ.

وعلى هذا الأساس، وضع السيّوطي[80] أحكامًا لتّخفيف النطق بالهمز، وهي:

- نقل حركته إلى الساكن قبله فيسقط نحو: ﴿قَدَ أفلح﴾81 بفتح الدّال.
- الإبدال: بأنّ تُبدل الهمزة الساكنة حرف مد من جنس حركة ما قبلها وفتبدل ألفا بعد الفتح، نحو: ﴿قَدَ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾82 وواوًا بعد الضم نحو: ﴿يُومنون ﴾ وياءً بعد الكسر، نحو: ﴿جيت﴾83.
- التّسهيل بينها وبين حركتها.
- الاسقاط بلا نقل.

وبهذا يمكنّنا القول إنّ السيوطيّ يتّفق إلى حدّ ما مع الدّرس الصّوتي الحديث في مسألة عسر النطق بصوت الهمزة، والذّي يعدّ من أشقّ الأصوات نطقًا، وقد علل ذلك إبراهيم أنيس، بقوله: "ولا شك أنّ انحباس الهواء عند المزمار انحباسا تمامًا ثم انفراج المزمار فجأة، عمليّة تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، مما يجعلنا نعد الهمزة أشدّ الأصوات، ومما جعل للهمزة أحكامًا مختلفة في كتب القراءات ليس هنا مجال تفصيلها"84.

ويقول أيضا: "وإذا كانت الهمزة المفردة قد احتاجت إلى جهد عضلي جعل اللهجات العربيّة تفرّ منها بتسهيلها مرة، وسقوطها مرة أخرى فمما لا شكّ فيه أن توالى همزتين أشق ويحتاج إلى جهد عضلي أكثر في نطقهما"85.

وقد وضّح هذه الظاهرة عبد القادر عبد الجليل، بقوله: "تعدّ بعض حالات التسهيل لهذا الصّوت في اللّغة العربيّة مظهرًا لهجيًا، لكن الهمزة تعدّ فونيما من فونيماتها، وعلى هذا فإنها لا تعدّ من حروف المباني، أي لها وجود قيمي داخل البنية التّركيبية، ففي إثباتها أو إسقاطها، لا تطرأ على الوحدة اللّغوية تغيّرات في المسار الدّلالي، وهذا الأمر يكاد يقتصر عليها دون بقية فونيمات اللغة العربيّة"86.

وخلاصة القول إنّ ما قاله السيّوطي وما جاء به الدّرس الصّوتي الحديث فيما يخص تخفيف الهمز وتسهيله، يلتقيان في النّقاط الآتية:

- هو من قبيل اللّهجات.
- الاقتصاد في بذل الجهد العضلي.
- الخفّة في الكلام التي يجنح إليها الناطق العربيّ في بيئات متعدّدة.

ب-الإدغام Assimilation.

ورد تعريفٌ لمصطلح الإدغام في الإتقان عند السيّوطي أثناء حديثه عن الإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب، فقال: "الإدغام هو اللّفظ بحرفين حرفاً كالثاني مشدّداً،

وينقسم إلى كبير وصغير؛ فالكبير ما كان أو الحرفين فيه متحركاً؛ سواء كانا مثلين، أم جنسين، أم متقاربين. وسمّي كبيراً لكثرة وقوعه؛ إذ الحركة أكثر من سكون ... وقيل: لشموله نوعين المثلين والجنسين والمتقاربين. ووجهه طلب التّخفيف ... ونعني بالمتماثلين: ما اتفقا مخرجًا وصفة والمتجانسين: ما اتفقا مخرجا واختلفا صفة. والمتقاربين: ما تقاربا مخرجًا أو صفة ... أمّا الصّغير فهو إدغام حرف من كلمة في حروف متعدّدة من كلمات متفرّقة"87.

يتفق السيّوطي مع الدّرس الصّوتي الحديث في تعريف الإدغام، ولكن المحدثين يطلقون عليه مصطلح: المماثلة88 (Assimilation).

وقد عرّفه إبراهيم أنيس، فقال: "الإدغام هو عبارة عن فناء الصّوت الأول في الثّاني بحيث ينطق بالصّوتين صوتًا واحدًا كالثّاني"89، وعرّفه أيضا أحمد مختار عمر، بقوله: "على أنّه التعديلات التكييفية للصّوت بسبب مجاورته- ولا نقول ملاصقته- لأصواتٍ أخرى"90، ومن جهة ثانية يتّفق السيّوطي مع إبراهيم أنيس في بيان سبب الإدغام، حيث يقول هذا الأخير أنّه: "تيسيرٌ لعملية النطق، واقتصادٌ في الجهد العضليّ"91.

وتحدّث أحمد مختار عمر أيضا عن سبب الإدغام، فقال: "هو لتحقيق جد أدنى من الجهد عن طريق تجنّب الحركات النّطقية التي يمكن الاستغناء عنها"92.

يهدف الإدغام إلى تسهيل عمليّة النّطق، فبدلا من استخدام المخرج نفسه مرّتين في اللحظة نفسها.

يوظّفه مرّة واحدة، أي بجهد أقل في وقت أقل.

ومن نماذج تسهيل النّطق وتخفيف الكلام، ما أورده السيّوطي في باب الإدغام، فقال: "كلّ حرفين التقيا، أولهما ساكن، وكانا مثلين أو جنسين، وجب إدغام الأول منهما، لغة وقراءة ... والجنسان: نحو ﴿قالت طَّائفة﴾ [آل عمران، 72]"93، تجاور صوتان التّاء من قالت والطّاء من طائفة، فتأثر الصّوت الأول بالصّوت الثاني فأدغم فيّه؛ وهذا ما يسمى عند إبراهيم أنيس بالتأثير الرجعي94Regressive.

موضوع الإدغام، مكرور في مجمل أمّات المصادر النّحويّة، وكتب كتب علم القرآن ومنها كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للسيّوطي (ت: 911ه)، وهذا الأخير أفذنا منه وأحلنا عليّه، ولنّا مع موضوع الادغام، الذّي هو ملتقى المستويات اللّسانيّة، فوقفنا عند مستواه الصّوتي وانتقلنا إلى ما يليه، وهو: الإبدال.

جـ-الابدال(Disimilation) :

اختصر السّيوطي حديثه في الإتقان عن الابدال بهذه الفقرة، فقال: "ففي الاسم المنصوب المنّون، يوقف عليّه بالألف بدلاً من التنوين مثله (إذن) وفي الاسم المفرد المؤنّث بالتّاء، يوقف عليه بالهاء بدلا منها. وفيما آخره همزة متطرذفة بعد حركة أو ألف، فإنّه يوقف عليه عند حمزة بإبدالها (حرف مدّ) من جنس ما قبلها. ثمّ إن كان ألفًا جاز حذفها ثم يقدّم أمثلة من القرآن الكريم نحو: ﴿أقْرَءُوا﴾ [سورة العلق:01]، و﴿نّبيء ﴾[الحجر: 49]، و﴿يَبْدَؤُ﴾ا [سورة الروم: 11]، و ﴿من شاطئ﴾ [سورة القصص: 03]، و "مِن ﴿مَّآءٍ﴾ " [سورة النّور: 45]"95.

وفي هذا النّص يوضح السّيوطي بعض الحالات التّي يقع فيّها الإبدال، وهي:

- في الوقف على الاسم المنصوب المنّون.

يوقف عليّه بالألف بدلاً من التّنوين، أي أنّ الألف تبدل من التنّوين في حالة الوقف، ويقول الدّاني: "فأما المنصوب المنوّن فإنه يبدل منه في حال الوقف ألفًا لخفّته"96.

- في الوقف على التّاء في الاسم المفرد المؤنث.

ويوقف عليّها بالهاء بدلا منها، أي أنّ الهاء تبدل من التّاء في حالة الوقف.

- في الوقف على همزة المتطرّفة بعد حركة أو ألف. يوقف عليهما بحرف مدّ بدلاً منها؛ أي انّ حرف المدّ من جنس ما قبله يبدل من همزة متطرّفة بعد حركة أو ألف في حالة الوقف، ويجوز حذف حرف المدّ إنْ كان ألفًا.

نستشف من هذه الحالات الثّلاث في الإبدال أنّ السّيوطي عمل على تجاوز الثقل بإبدال التنوين بالألف، لتميّزه بالخفّة والاسترسال في النّطق، وسمي بالهاوي: لأنّه يهوي في الفمّ، فلا يعتمد اللّسان على شيء منها"97، وقال سيبويه أيضا: "وهذه الثّلاثة أخفّ لاتّساع مخرجها وأخفاهن، وأوسعهن مخرجًا الألف"98.

وأبدل أيضًا التّاء بحرف الهاء، ومسوغ هذا الإبدال هو خفّة وسرعة النّطق بالهاء، فالهاء رخو مهموس، والتّاء شديد مهموس.

وأما إبدال الهمزة المتّطرفة بحرف المدّ، فمسوغه السّهولة واليّسر أثناء التّلفظ، حيث إنّ الهمزة تتسم بثقل وصعوبة في النّطق، التّي أثبت لها هذه السّمات سيبويه في قوله: "نبرة في الصّدر تخرج باجتهاد"99 ويقول السّيوطي أيضا: "سمّي الهمز المهتوت من الهت، وهو عصر

الصّوت لأنّها معتصرة كالتّهوّع100 أو من الهتّ وهو الحطّم والكسر لأنّها يعرض لها الابدال كثيرًا فتنحطم وتنكسر"101.

يبدو أنّ المسوّغ الصّوتي لهذه تالحالات من الإبدال عند القدامى، يتدفق إلى حد ما مع المسوّغ الصّوتي لدى المحدّثين، حيث يعدّ إبراهيم أنيس "الألف" حرف مد هاوي ينتج حرًا طليقًا عن طريق مرور الهواء أثناء النّطق به. فتتيسر عمليّة التّلفظ، ويقتّصد الجهد العضلي102.

أما إبدال الهاء من التّاء – تاء التأنيث – في الاسم في حالة الوقف، فيعود ذلك إلى التّشابه الصّوتي الحاصل بينهما، فالتّاء تشبه الهاء في صفة الهمس، غير أنّ الهاء احتكاكيّة، والتّاء انفجارية، والاحتكاك أوضح في السّمع من الانفجار103.

وأما إبدال الألف من التنوين في الاسم المنصوب في حالة الوقف عند المحدثين، فهو إطالة للفتحة القصيرة، أي أنّ الفتحة القصيرة تتحول إلى فتحة طويلة يرمز لها ب (aa)، فيلتمس الناطق العربيّ الخفة في الوقف104.

لقد أضفى بنا البحث في هذا الموضوع إلى جملة من النتائج، هي:

أ- استفاد السيّوطي (ت: 911هـ) من خبرة اللّغويّين القدامى، إضافة إلى استفادته من مؤلفات علم القراءات ككتاب "النشر في القراءات العشر لابن الجزري (ت: 833هـ).

ب- درس السيّوطي في الإتقان حروف اللّغة العربيّة، بأن عدّدها ووصف مخارجها، وحدّد صفاتها.

ج- وصف التّغيرات التّركيبيّة التي تنحو فيها الأصوات نحو المماثلة والمخالقة (Assimilation Et Dissimilation)، تيسيرًا للنّطق واقتصادًا في الجهد العضلي.

د- توافق الدّرس الصّوتي عند السيّوطي في الإتقان مع الدراسات الصّوتية الحديثة في بعض الجوانب وتباين في جوانب أخرى.

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السّيوطي (ت: 911هـ) ضبطه وصححه: محمد هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.
2. أخبار النّحويين البصريّين، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السّيرافيّ، (ت: 368)، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة 01، 1955.
3. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة 04، 1971.

4. الأصوات اللّغوية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان، الأردن، 2005.
5. البحث اللّغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة 06، 1988.
6. البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة 06، 1988.
7. الدراسات في فقه اللّغة، محمد الأنطاكية، دار الشرق العربي للطباعة والنشر، الطبعة 04.
8. دراسة الصّوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة 03، 1985.
9. دراسة الصّوت اللّغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة 03، 1985.
10. رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا(ت 428هـ، مراجعة طه عبد الرؤوف سعيد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978.
11. سر صناعة الاعراب، ابن جني، (ت:392هـ)، دراسة وتحقيق: حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة02، 1993.
12. شرح الشافية، ابن الحاجب، رضى الدين محمد ابن الحسن الاستراباذي (ت: 686هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد وآخرون، دار الكتب العلمية، 1982.
13. شرح كتاب التّيسير للدّاني في القراءات، عبد الواحد بن علي بن أبي الشداد وأبي محمد المالكي المالقي، (ت: 705هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد عبد الموجود وعلي محمد المعوض وأحمد عيسى المعصراوي، منشورات محمد علي البيضون ودار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الطبعة 01، 2003.
14. علم الأصوات العربية، جواد النوري، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2007.
15. علم الأصوات، كمال البشر، دار غريب، القاهرة، 2000.
16. القاموس المحيط، ومجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت: 817هـ)، تحقيق: محمد نعيم العرقُسوسي، مؤسسة الرسالة، الطبعة 08، 2005.
17. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت:170هـ)، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 01، 2002.
18. الكتاب، سيبويه، (ت: 180هـ)، تعليق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999.
19. اللغة العر بيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدّار البيضاء، 2001.
20. مباحث في اللّسانيات، أحمد حساني، مطبوعات الديوان الجامع، ابن عكنون- الجزائر، 1994.
21. المجمل في المباحث الصّوتية من الآثار العربيّة، مكي درار، دار الأديب للنشر والتوزيع، السانيا، الجزائر.
22. المحكم في نقط المصحف، الدّاني (ت: 444هـ)، تحقيق: عزة حسن، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة 02، 1997.
23. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت: 833هـ)، تصحيح ومراجعة: علي محمد الضبّاع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
24. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيّوطي، (ت: 911هـ)، تحقيق: أحمد شمس الديّن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة 01، 1998.

الكتب المترجمة:

25. التطور النحوي للغة العربية، براجشسترسر(Bergastrasser)، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، الطبعة 2، 1994.

المقالات:

26. المصطلح الصّوتي عند ابن سينا، مولاي عبد الحفيظ طالب، دراسات أدبيَة، مركز البصرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، الجزائر، العدد 02، جانفي 2008.

الرسائل والأطاريح:

27. الدرس الصوتي عند علماء القرن الخامس الهجري، بوعناني سعاد آمنة، أطروحة لنيل درجة دكتوراه علوم، جامعة وهران 1، الجزائر، 2011.

هوامش البحث

---

[1]التطور اللغوي، برحشستر آسر، ص: 11.

[2]دراسات في علم اللغة كمال بشر، ص: 11.

[3]ينظر أخبار النّحويين البصريين، السّيرافي، ص: 12.

[4]العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج: 01، ص: 12.

[5]العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج: 01 ص 57.

[6]العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج: 01 ص: 57.

[7]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[8]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[9]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[10]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[11]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[12]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[13]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[14]المصدر نفسه، ج: 01، ص 65.

[15]ينظر، الكتاب، سيبويه (ت: 180هـ)، ج: 04، ص: 433، 434.

[16]الكتاب سيبويه، ج: 04، ص 434.

[17]المصدر نفسه، ج: 04، ص 432، 436.

[18]المصدر نفسه، ج: 04، ص 432.

[19]سر صناعة الاعراب، ابن جنّي، ج: 01، ص 1، 2.

[20]المصدر نفسه، ج: 01، ص 06.

[21]سر صناعة الاعراب، ابن جني، ج: 01، ص 28 – 29.

[22]المصدر نفسه، ج: 01 ص 39.

[23]المصدر نفسه، ابن جني، ج: 01 ص 43.

[24]المصدر نفسه، ابن جني، ج: 01 ص 43.

[25]المصدر نفسه، ابن جني، ج: 01، ص 60.

[26]أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص 56 – 89.

[27] ينظر المصطلح الصّوتي عند ابن سينا، مولاي عبد الحفيظ طالب، ص 78.
[28] ينظر الشرح كتاب التيسير للدّاني في قراءات، لمحمد المالكي، ص 274 – 279.
[29] المصدر نفسه، ص 313.
[30] المصدر نفسه، ص 296.
[31] المصدر نفسه، ص 296.
[32] النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ج: 01، ص 200.
[33] المصدر نفسه، ابن الجزري، ج: 01، ص 200 – 201.
[34] المصدر نفسه، ج: 01، ص 202 – 203.
[35] نشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ج: 01، ص 220.
[36] المصدر نفسه، ج: 01، ص 274.
[37] المصدر نفسه، ج: 01، ص 296.
[38] شرح الشافية، ج: 03، ص 250.
[39] الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيّوطي، مج: 01، ص 205 – 206.
[40] ينظر دراسة الصّوت اللّغوي، أحمد مختار عمر، ص 315.
ينظر مباحث في اللّسانيات، أحمد حساني، ص 81 – 82 – 83.
[41] ينظر، الاتقان في علوم القرآن، لسيوطي (ت: 911ه)، مج: 01، ص 206
[42] ينظر، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت: 833ه) ج: 01، ص 202 – 203 – 204، الفصل صفات الحروف "أما صفات الحرف فمنها المجهورة، وضدها المهموسة، والهمس صفات الضعف والحرف المستطيل هو الضاد لأنه استطال عن الفهم عند النطق".
[43] ينظر الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيّوطي، مج: 01، ص 206.
[44] ينظر الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيوطي، مج: 01، ص 206.
[45] المصدر نفسه، مج: 01، ص 206.
[46] الأصوات اللغوية، ص 22.
[47] المرجع نفسه، ص 73.
[48] الأصوات اللّغوية، ص 73.
[49] المرجع نفسه، ص 26.
[50] المرجع نفسه، ص 26.
[51] علم واللغة العام، الأصوات العربية، كمال البشر، ص 137.
[52] ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 122.
[53] الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيّوطي، مج: 01، ص 206.
[54] البحث اللّغوي عند العرب، ص 116.
[55] الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص 205.
[56] المصدر نفسه، مج: 01، ص 204.
[57] الأصوات اللغوية، ص 29.
[58] الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 197.
[59] ينظر: ص: 313 – 325.
[60] المجمل في المباحث الصّوتية في الآثار العربيّة، ص: 100.
[61] ينظر: الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 197.
[62] ينظر: المجمل في المباحث الصّوتية في الآثار العربيّة، ص: 102.
[63] "البح" و "الاضجاع" تقريب الفتحة من الكسرة والألف من اليّاء فكأنّك بطحت الفتحة والألف، أي رميتها وأضجعتها إلى الكسرة والياء.

[64]الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 184.
[65] ينظر المجمل في المباحث الصّوتية من الآثار العربيّة، مكي درار، ص: 113.
[66]ينظر الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 186.
[67]ينظر الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 186 – 187.
[68]علم اللغة العام الأصوات، ص: 192.
[69] الأصوات اللّغوية، إبراهيم أنيس، ص: 140.
[70]ينظر: الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 186.
[71]التّطبيق الصّوتي، ص: 18.
[72]الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 178.
[73] شرح كتاب التّسير للدّاني في قراءات، عبد الواحد بن علي بن أبي الشداد وأبي محمد المالكي المالقي، ص: 574.
[74]ينظر، المرجع نفسه، ص: 584.
[75]ينظر الوجيز في فقه اللّغة، ص: 240.
[76]الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص: 177.
[77]شرح كتاب التيسير للدّاني في قراءات، ص: 574.
[78]ينظر الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 106.
[79]الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص 201.
[80]المصدر نفسه، مج: 01، ص 201 – 202
[81]. سورة المؤمنون، الآية 01.
[82]سورة طه، الآية: 132.
[83]سورة البقرة، الآية 71.
[84]الأصوات اللّغوية ص 77.
[85] الأصوات اللّغوية، إبراهيم أنيس، ص 79.
[86] الأصوات اللّغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص 190.
[87]الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيّوطي، مج: 01، ص 189 – 192.
[88] دراسة الصّوت اللّغوي، أحمد مختار عمر، ص 378.
[89]الأصوات اللّغوية، ص 116.
[90]دراسة الصوت اللغوي، ص 372.
[91]الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ص 140.
[92]دراسة الصّوت اللّغوي، ص 387.
[93]الاتقان في علوم القرآن، مج: 01، ص 194.
[94]الأصوات اللّغوية، ص 106
[95]الاتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السّيوطي (ت: 911هـ)، مج: ص 178.
[96]المحكم، ص 60.
[97]همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيّوطي، ج: 03، ص 456.
[98]الكتاب، ج: 04، ص 436.
[99]المصدر نفسه، ج: 03، ص 548.
[100]التّهوع هو التقيؤ (القاموس، ج: 03، ص 104.
[101]همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج: 03 [فصل ألقاب الحروف]، ص: 235.
[102]ينظر: الأصوات اللّغوية، ص 132.
[103]ينظر: علم الأصوات العربية، جواد النوري، ص 235.
[104] الأصوات اللّغوية، إبراهيم أنيس، ص 132.

لغات العرب فيكتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلاّم

The languages of the Arabs in the book strange talk to Abu ObaidQasim bin Salam

إسماعيل محمد *

تاريخ تقديم البحث **2017/12/17** تاريخ القبول **2017/01/06**

ملخص

يتناول هذا البحث دراسة لغات العرب ولهجاتهم في كتاب غريب الحديث لأبي عبيد. وقد دفعني إلى الكتابة فيه مجموعة من الأسباب أهمها : شح الدراسات التي اهتمت بموضوع اللهجات في المصادر الحديثة، واحتواء كتاب أبي عبيد على ثروة لهجية لا بأس بها، إضافة إلى القيمة العلمية للكتاب في الدراسات اللغوية، فهو يعدّ بحق موسوعة علمية، تضمنت الكثير من الأبحاث الصوتية والنحوية والصرفية والدلالية والمعجمية.
والهدف منه هو استخراج اللهجات التي أوردها أبو عبيد في كتابه، وبيان قيمتها العلمية واللغوية، وتحديد أثرها في نشأة اللغة الفصحى، ومحاولة الكشف عن عناصر المنهج الذي سار عليه أبو عبيد في دراسة اللهجات.

الكلمات الدالة:اللغة، اللهجة، غريب الحديث.

Abstract

This research deals with the study of the languages of the Arabs and their dialects in a book strange to Abu Ubaid. It has prompted me to write a number of reasons, the mostimportant of which are: the scarcity of studies that have been concerned with dialects in modern sources, the containment of Abi Obeid's book has a considerable barbaric wealth, in addition to the scientific value of the book in linguistic studies, it is truly a scientific encyclopedia, Acoustic, grammatical, morphological, semantic and lexicographical.
The aim is to extract the dialects mentioned by Abu Obeid in his book, to indicate their scientific and linguistic value, and to determine their effect on the origin of the classical language, and to attempt to uncover the elements of the method followed by Abu Ubaid in the study of dialects.

Keyboard: Language, dialect, strange talk.

* قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الآداب واللغات ،جامعة البليدة 2، الجزائر.

مقدمة

الحمد لله القائل في كتابه (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه)، والصلاة والسلام على أشرف من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه الطيّبين الطّاهرين، وبعد:

فقد حظيت لغات العرب ولهجاتهم القديمة بعناية كثير من الباحثين واهتمامهم في الدرس اللغوي الحديث، فتعدّدت بذلك دراساتهم حولها وتنوّعت، ومن تلك الدراسات: دراسة لغة خاصّة بعينها، كلغة تميم، أو طيء، أو قريش، أو هذيل، أو أسد، أو غيرها من لغات العرب المشهورة، التي أثّرت بشكل أو بآخر في نشأة وتطوّر اللغة الفصحى، وقد نال هذا النّوع من الدراسات النصيب الأوفر، لما له من أهمية في الكشف عن خصائص تلك اللغات وأثرها في تطوّر اللغة العربية عبر الزمن ودراستها دراسة تاريخية.

وهناك دراسات أخرى اتّجهت إلى دراسة اللهجات التي وُصِفت بالصغيرة أو الغير المشهورة، كلهجة كنانة، أو لهجة بني عقيل، أو لهجة أهل المدينة، أو غيرها من لهجات العرب التي لم تشتهر. وقد درس الباحثون هذه اللهجات بنوعيها وتتبّعوها إمّا من خلال المدوّنة القرآنية (القرآن الكريم وقراءاته)، أو من خلال المصادر اللغوية والنحوية والأدبية المختلفة.

وقد لاحظ الباحث وهو يتتبّع تلك الدراسات، قلّة أو شحّ الأبحاث التي اهتمت بدراسة لهجات العرب في المدوّنة الحديثية (شروحا أو متونا)،على الرغم من أهميتها الكبيرة في الدراسات اللغوية المعاصرة، إذ يعدّ الحديث النبوي من أشرف العلوم الإسلامية مرتبة، وأعظمها منزلة، وأفضلها نفعا، وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن في البيان والفصاحة، وقد احتوى على مدوّنة ضخمة من لغات العرب ولهجاتهم.

ولمّا كان من الصعب جدّا دراسة لغات العرب في جميع المصادر الحديثية، نظرا لكثرتها وتنوّعها، فقد رأيت أن تكون الدراسة حول مصدر واحد من مصادر غريب الحديث، وهي الكتب التي تخصّصت في جمع وتدوين الألفاظ الغريبة الواردة في حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وآثار الصحابةوالتّابعين رضي الله عنهم جميعا، وفسّرتها تفسيرا لغويا ومعجميا. فقد حوت هذه المصادر ثروة كبيرة من اللهجات العربية، تستحق العناية والاهتمام.

ومن ثمّ أجمعت أمري على تتبّعها ودراستها عند عالم جليل من علماء غريب الحديث،ألا وهو الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاّم. وهذا من خلال كتابه(غريب الحديث)،

والذي جمع فيه كثيرا من لغات القبائل العربية، وتطرّق في أماكن متفرّقة من الكتابللحديث عن المسائل الصوتية والصرفية والنحوية المتعلقة بتلك اللغات، فهو يعدّ مصدرا مهما من مصادر لغات العرب الواردة في الحديث لكثير من الباحثين والدارسين. كلّ ذلك وغيره دفعني إلى اختيار هذا البحث.

وكانت أهدافي من ورائه هي دراسة هذا الكتاب، واستخراج ما تضمنه من نصوص لهجية، وبيان منهج صاحبه في دراستها، والتعرّف على اللغات التي ورد بها الحديث الشريف، والوقوف على أهميتها وقيمتها بالنسبة إلى العربية الفصحى، ومعرفة ما إذا كانت هناك شواهد شعرية أو نثرية تعضدها، أو قراءات قرآنية جاءت موافقة لتلك اللغات.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من كون جمع لغات العرب من مصادر الحديث العامّة أو المختصّة وتصنيفها، والتعرّف على الخصائص البارزة لها، سيضع أيدينا على بعض الحقائق أو المسائل العلمية الهامّة التي تتصل بالحديث، والتي كانت وما زالت مثار جدل كبير بين أهل العلم، كمسألة رفض الاحتجاج بالحديث في المسائل اللغوية والنحوية، وما تفرّع عنها من مسائل أخرى، مثل ورود اللحن في الحديث، ورواية الحديث بالمعنى، ومسألة مخاطبة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم القبائل العربية على اختلافها باللغة التي تفهمها كلّ قبيلة، وأيضا مسألة تأثير الحديث النبوي في اللغة العربية الفصحى.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدّمة وعنصرين وخاتمة، تناولت في العنصر الأوّل حياة أبي عبيد باختصار، ثمّ تحدّثت عن منهجه في وضع الكتاب، أمّا العنصر الثاني فتناولت فيه مفهوم اللغة واللهجة، والعلاقة القائمة بينهما،ثمّ تحدثت بشيء من التفصيل عن منهجه في دراسة اللغات، وانتهى البحث بخاتمة موجزة لأهمّ النتائج التي توصلت إليها، وقد سلكت في إعداد هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي.

هذا وأرجو أن أكون قد وفّقت في إعداد هذا البحث، والأمل يحدوني أن أعود إليه مرّة أخرى في بحث جديد أتناول من خلاله دراسة المستويات اللغوية (الصوتية والصرفية والنحوية) للغات واللهجات التي أوردها أبو عبيد في كتابه. والحمد لله أوّلا وآخرا .

نبذة موجزة عن حياة أبي عبيد وكتابه غريب الحديث :

أوّلا: حياة أبي عبيد:[1]

هو أبو عبيد القاسم بن سلاّم بن مسكين بن زيد الهروي، ولد بمدينة هراة سنة (154هـ)، وفيها تلقّى العلم على كبار علمائها، ثمّ رحل إلى البصرة والكوفة حاضرتي العلم، فجلس إلى العلماء هناك يأخذ عنهم علوم العربية والشريعة ويتأدب بأدبهم، ومن شيوخه في علوم اللغة : أبو عبيدة معمر بن المثنّى، والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، والكسائي، والفرّاء، وأبو عمرو الشيباني، واليزيدي، وغيرهم[2].

ثمّ تفرّغ للتدريس ونشر العلم الذي تعلمه، ولم يمنعه ذلك من مواصلة الرحلة في طلب العلم، فرحل إلى بغداد ومصر والشام ومكةالمكرمة، وقد استقرّ به المقام في هذه الأخيرة إلى أن وافته المنية سنة (224هـ)[3].

ويجمع العلماء على أنّ أبا عبيد رحمه الله كان إمام عصره وحجّة زمانه في علوم القرآن، والحديث، والفقه والأصول، واللغة والغريب، فقد تواترت نصوص العلماء في ذكر فضائله، وبيان مكانته ومنزلته، ووصف أخلاقه ومآثره [4].

ترك أبو عبيد مجموعة من المؤلفات النفيسة قاربت الثلاثين مصنّفا، وشملت موضوعاتها علوما ومعارف مختلفة،نذكر منها: كتاب (الغريب المصنّف)، و(الأمثال السائدة)، و(فضائلالقرآن)، و(الأموال)، وقد طبعت جميعها، وأشهر كتبه كتاب(غريب الحديث)[5].

ثانيا: منهج أبي عبيد في غريب الحديث :

غريب الحديث فنّ مهمّ وجليل من فنون مصطلح الحديث، وقد جعله ابن الصلاح في النوع الثاني والثلاثين من أنواع علوم الحديث، ثمّ عرّفه بقوله: " وهو عبارة عمّا وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة، البعيدة من الفهم، لقلّة استعمالها "[6].

وقد صنّف العلماء فيه مصنّفات كثيرة، ناهزت المائة[7]. وأوّل من يعزى إليه تأليف كتاب في ذلك، أبو عبيدة معمر بن المثنّى التيمي، إذ جمع " من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات "[8]. ثمّ تتابع التأليف في غريب الحديث بعده، وممّن ألّف في ذلك، النضر بن شميل، وأبو عمرو الشيباني، والأصمعي، وقطرب، والفرّاء، وأبو زيد

الأنصاري، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم، وابن قتيبة، والخطّابي، والزمخشري، وابن الأثير، وغيرهم .

وكتاب أبي عبيد من الكتب اللغوية الهامّة التي حظيت بقدر كبير من عناية العلماء، ونالت إعجابهم، فالكتاب كما يصفه أهل العلم، فريد في بابه، ورائد في موضوعه، فقد " أبدع فيه مادّة ومنهجا وتحقيقا، فكان بحقّ إماما فيه لكلّ من جاء بعده "(9)، لذلك اشتهر بين العلماء وعامّة النّاس أمره، وذاع في الأقطار صيته وذكره، فأثنوا عليه ثناء حسنا، وبيّنوا محاسنه ومزياه(10).

وقد سلك أبو عبيد في تأليف كتابه مسلكايختلف عمّن سبقوه، ويرسم من خلاله معالم منهج جديد سيحتذي به فيه من أتوا بعده، وألّفوا كتبا في الغريب مثله. وتبرز أهمّ عناصر هذا المنهج فيما يلي :

_ كان غرضه من تأليف الكتاب هو تتبّع الألفاظ الغريبة في أحاديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأحاديث الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، ثمّ بيان معانيها، وتفسير غريبها، وحلّ مشكلها(11).

_اختار أبو عبيد طريقة فريدة في ترتيب كتابه، وهي ترتيبه على الأسانيد،فقسّمه إلى أربعة أقسام، بدأ القسم الأوّل بأحاديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المرفوعة إليه بالسند المتّصل. ثمّ أتبعه بالقسم الثاني، ويتضمن الأحاديث الموقوفة عن الصحابة رضي الله عنهم، وقد ذكر أحاديث كلّ صحابي على حده. لينتقل بعد ذلك إلى القسم الثالث، ويتضمن أحاديث التّابعين، كلاّ على حده. وانتهى بالقسم الرّابع، وضمّنه أحاديث لا يُعرف أصحابها، وهي قليلة جدّا (12).

_ كانت طريقته في الكتاب أن يسرد الحديث كاملا أو جزءا منه، ثمّ يذكر سنده، وبعدها يشرع في شرح الألفاظ الغريبة الواردة فيه. مثال ذلك ما جاء في بداية الكتاب: " قال أبو عبيد في حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم (زويت لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها)، قال: حدّثناه إسماعيل بن إبراهيم، ثنا أيوب، عن أبي قلابة، أنّ رسول الله قال ذلك في حديث طويل. قال أبو عبيد: سمعت أبا عبيدة معمر بن المثنّى التيمي يقول: زويت: جمعت، ويقال: انزوى القوم بعضهم إلى بعض: إذا تدانوا، وتضامّوا، وانزوت الجلدة في النار: إذا انقبضت، واجتمعت... " (13).

_ استعان أبو عبيد في شرحه لمعاني الألفاظ الغريبة بكمّ هائل من الشواهد اللغوية، فاستشهد بالقرآن الكريم وقراءاته، كما استشهد بالحديث، وبالشعر، وبالأمثال وأقوال العرب الفصحاء. فجاء كتابه حافلا بالشواهد المختلفة والمتنوعة[14].

_ عرض أقوال العلماء الذين سبقوه، ونسبها في أمانة إلى أصحابها، وناقشها واختار منها ما رآه صوابا، وأحيانا كان يدلي برأيه فيما يراه مخالفا لما يعتقده. وقد حفل كتابه بأقوال كثير من اللغويين والنحويين، من أمثال أبي عبيدة، والأصمعي، والكسائي، والفرّاء، وأبو عمرو الشيباني، وأبو زيد الأنصاري، وغيرهم [15].

_ أورد في كتابه الكثير من القضايا اللغوية، وقد توزعت بين الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية[16].

_ كان في بعض الأحيانيذكر المسائل الفقهية المستنبطة من الأحاديث التي يشرحها، وينقل اختلاف الفقهاء حولها، وقد يرجّح رأيا من الآراء.[17].

اللهجات العربية في كتاب أبي عبيد ومنهجه في دراستها:

أوّلا: مفهوم اللغة واللهجة والفرق بينهما:

1_ مفهوم اللغة:

ترد مادّة (لغو) في كلام العرب بعدّة معانٍ، منها: الخطأ، والباطل، والفحش في القول، والنطق، واللّسن، والتكلّم، والصوت، واللّهج بالشيء، والولع به، وسقط الكلام وما لا يعتدّ به.

جاء في تاج العروس: " قال ابن سيده: اللغة: اللّسْن ... وهي فُعلة من: لغوت، أي: تكلّمت... واللّغو واللّغى، كالفتى: السّقط وما لا يعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع... وقال القاليّ: اللّغا، واللّغو: صوت الطائر، وكذلك كلّ صوت مختلط... وفيالصّحاح: لغا يلغو لغوا، أي: قال باطلا... ولغى في قوله _ كسعى، ودعا، ورضي _ يلغو لغوا، ويلغى... أي: أخطأ... وكلمة لاغية، أي: فاحشة... ولغي به، كرضي، لغا: إذا لهج به... وفي كتاب الجيم: لغي به لغاً: أُولِعَ به... وفي الأساس: وإذا أردت أن تسمع من الأعراب فاستلغهم، أي: استنطقهم " [18].

وفي الاصطلاح عرّفها ابن جنّي بأنّها: " أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم" [19]. وقد تابعه في هذا التّعريف الكثير من العلماء. ويعلّق حاتم الضامن على التعريف قائلا: " وهذا التعريف على إيجازه، يتضمن معظم الجوانب التي اتّفق عليها المحدثون في تعريف اللغة " [20].

2_ مفهوم اللهجة:

تذكر معاجم اللغة على أنّ اللهجة هي: اللّسان، أو طرفه، أو جرس الكلام، أو هي: الولع بالشيء ولزومه والاعتياد عليه.قال الخليل: " لَهِجَ فُلَان بكذا وكذا: أُولِعَ به... اللّهجة: طرف اللّسان، ويقال: جرس الكلام، ويقال: فصيح اللّهْجَة واللّهَجَة: وهي لغته التي جبل عليها فاعتادها، ونشأ عليها " [21].

وجاء في لسان العرب: " لَهِجَ بالأمر لَهَجًا، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ كلاهما: أُولِعَ به واعتاده، وألهجته به. ويقال: فلان مُلْهَج بهذا الأمر، أي مولع به،... واللّهج بالشيء: الولوع به. واللَّهْجَة واللَّهَجَة: طرف اللّسان. واللّهجة واللّهجة: جرس الكلام، والفتح أعلى " [22].

وفي الاصطلاح تعرّف بأنّها: " مجموعة من الصفات اللغوية، تنتمي إلى بيئة خاصّة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة "[23].

أو هي في تعريف آخر " الطريقة التي تتكلّم بها جماعة مّا لغة مّا، والتي تميّزها عن سواها من الجماعات التي تتكلّم اللغة نفسها " [24].

3_ العلاقة بين اللغة واللهجة:

يرى إبراهيم أنيس أنّ العلاقة القائمة بين اللغة واللهجة هي علاقة العام بالخاصّ، أو علاقة الأصل بالفرع، لأنّ " بيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل، تضمّ عدّة لهجات، لكلّ منها خصائصها، ولكنّها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية، التي تيسر اتّصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهما يتوقّف على قدر الرابطة، التي تربط بين هذه اللغات، وتلك البيئة الشاملة، التي تتألف من عدّة لهجات، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة.فاللغة تشتمل عادة على عدّة لهجات، لكلّ منها ما يميّزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلّف لغة مستقلّة عن غيرها من اللغات " [25].

ويرى أنيس فريحة_ بعد عرضه لآراء العلماء حول الفرق بين المصطلحين_ " أن لا فارق جوهري بين لهجة ولغة، إنّما الفارق هو أنّ لهجة ما، ولسبب خارجي، أو لظروف خاصّة، تعتبر لغة قومية رسمية، بينما لهجة أخرى، ربّما أفضل منها، لا يعترف بها " (26).

أمّامحمّد أحمد خاطر فيرى أنّ العلاقة بين المصطلحين يمكن بحثها من خلال أربع زوايا هي: المصطلح، العناصر والخصائص، المتكلّمون، المكان، ثمّ يفصّل الكلام حول هذه الزوايا مبيّنا أهمّ نقاط الاختلاف والاتّفاق بين اللغة واللهجة (27).

وخلاصة القول في هذه المسألة هي ما نقله رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه العربية) عن العالم اللغوي(ماريوباي) من أنّه يصعب في غالب الأحيان تتبّع ورسم خطوط فاصلة بين اللغة واللهجة(28).

ثانيا: منهج أبي عبيد في دراسة اللغات:

من خلال قراءتي وتتبّعي لموضوع اللهجات في كتاب غريب الحديث لأبي عبيد، أمكنني استنتاج عناصر المنهج الذي سار عليه في تناول لغات العرب، وقد تمثلت فيما يلي:

1_ نسبة اللهجات إلى قبائلها نسبة عامّة أو خاصّة:

اعتنى أبو عبيد بلغات العرب في كتابه غريب الحديث، وذكر منها قدرا لا بأس به، لكنه لم يعز منها إلاّ القليل، والعزو عنده أحيانا يكون عامّا، كأن يعز إلى أهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل اليمامة، وأهل العراق، وأهل الشام، مثلا(29)، وأحيانا يكون خاصّا، وهو أن يعز اللهجة إلى قبيلة بعينها، كتميم، أو جهينة، أو هذيل، أوطيء، أو حمير مثلا(30). ومن الأمثلة على ذلك:

قوله في تفسير (**النَّخَّة**): " والنَّخَّة الرقيق ... وقال الكسائي: هي النُّخَّة _ برفع النون_ هذا كلام أهل تلك النّاحية، كأنّه يعني أهل الحجاز وما وراءها إلى اليمن " (31). وقوله في شرح(**مسلوفة**): " قال الأصمعي: هي المستوية، أو المسوّاة، قال: وهذه لغة أهل اليمن، والطّائف، وتلك النّاحية " (32). وقال في تفسير(**المِرْبَد**): " والمربد بلغة أهل الحجاز، والجرين لهم أيضا، والأندر لأهل الشام، والبيدر لأهل العراق " (33).وقال في تفسير (**مَرَزَه**): " قال أبو

عمرو: لم أسمع هذه الكلمة، وإنّها لَتُشْبِهُ كلام العرب. فقال رجل عنده من أهل اليمامة: هذه كلمة معروفة عندنا باليمامة ... " (34).

وقوله في شرح(**كَفْرًا كَفْرًا**) الواردة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " يعني قرية قرية، وأكثر من يتكلّم بهذه الكلمة أهل الشام، يسمّون القرية: الكَفْر، ولهذا قالوا: كَفْرُ تُوثَى، وكَفْرُ تَعْقَابْ، وكفر بيا، وغير ذلك، إنّما هي قرى نسبت إلى رجال " (35). وقال في شرح (قَفْعَة)الواردة في حديث عمر رضي الله عنه: " القفعة شيء شبيه بالزبيل، وهو الذي يسمّيه النساء بالعراق: القُفَّة " (36). وقال أيضا في تفسير (العُسَب)الواردة في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: " والعسب واحدها: عَسيب، وهو سَعَفُ النخل، وأهل الحجاز يسمّونه الجريد أيضا " (37).

ومن أمثلة العزو إلى قبيلة بعينها: قوله في تفسير (**تَحْسِبُ عَنّي نَائِمَة**): " وقولها: تحسب عنّي نائمة، فإنّها أرادت: تحسب أنّي نائمة. وهي لغة بني تميم، قال ذو الرّمّة:

أَعَـن تَـرَسّـمتَ مـن خـرقاء مـنـزلــة   مــاء الصبـابــة مـن عينيك مـسجــوم

أراد أَأَنْ فجعل مكان الهمزة عينا " (38). وقوله في تفسير(**فَلَيُدَافِهِ**): " قال الأموي وأبو عمرو: قوله:فليدافّه: يعني ليجهز عليه ... وفيه لغة أخرى: فليدافه مخفّفة. يقال منه: دافتيه، وهو فيما يقال: لغة جهينة ... وفيه لغة ثالثة بالذال، يقال: ذَفَّفْتُ عليه تذفيفا: إذا أجهزت عليه " (39). وقال في شرح(قَفَيّ): " هي لغة طيء ... ويقال: إنّ طَيِّءَ لا تأخذ من لغة أحد، ويؤخذ من لغاتها " (40). وقال في تفسير(سَامِدين): " ... وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: سامدون، قال: الغناء في لغة حمير، أُسْمُدِي لنا، أي غنّي لنا " (41).

ثانيا: ترك نسبة اللغات إلى قبائلها:

كان أبو عبيد في أحيان كثيرة لا ينسب اللغات التي يذكرها إلى القبائل، وإنّما يكتفي بالقول: هذه لغة، أو يعدّد الأوجه التي يرد بها اللفظ قائلا: وفيه لغتان، وفيه ثلاث لغات، وأحيانا يشير إلى اللغة من غير أن يصرّح بها، مستعملا في ذلك صيغ مختلفة، كقوله مثلا: (يقال)، (وقد زعم بعض الناس)، (وبعضهم يقول)، (وقال غيره)،... إلى غير ذلك.

فمن أمثلة ما فيه لغة: قوله في شرح (**سِرَار**): "...وفيه لغة أخرى: سَرَرُ الشهر"(42). وقوله في شرح (**فَلَبَطَ**): " ... وفي هذا لغة أخرى ليست بالحديث، يقال: لبج بمعنى لبط سواء

" [43]. وقوله في شرح عبارة (**وغَمِطَ النَّاسَ**): " ... وفيه لغة أخرى في غير هذا الحديث: وغَمِصَ النّاس _ بالصاد_ وهو بمعنى غمط " [44]. وقال في (**نَحْفِدُ**): " ... وفيها لغة أخرى: أَحْفَدَ إِحْفَادًا " [45].

ومن أمثلة ما فيه لغتان: قوله في شرح (**الأَلُوَّة**): " ... وفيها لغتان، الأَلُوَّة والأُلُوَّة _ بفتح الألف وضمّها _ ويقال: الألوة خفيف " [46]. وقوله في شرح (**شِجْنَة**): " ... وفيه لغتان: شِجْنَة وشُجْنَة " [47]. وقوله في شرح (**تَعَزَّى**): " ... ويقال منه: عزوت الرّجل إلى أبيه، وأعزيته وعزّيته لغتان، إذا نسبته إليه " [48]. وقوله في شرح (**المَذي**): " وأمّا المذي ففيه لغتان: مذيتوأمذيت " [49].

ومن أمثلة ما فيه ثلاث لغات: قوله في شرح (**الدّد**): " الدد: هو اللعب واللهو. قال الأحمر: وفي الدّد ثلاث لغات، يقال: هذا دَدْ على مثال يَدْ ودَمْ، وهذا دَدًا على مثال قَفًا وعَصًا، وهذا دَدَنْ على مثال حَزَنْ ... " [50].

وقوله في شرح (**فَطَلَّهَا**): " ... وكان أبو عبيدة يقول: فيه ثلاث لغات: طَلَّ دَمُه، وطُلَّ دمه، وأُطَلَّ دمه " [51]. وقوله في شرح (**حَمْوَهَا**): " والحمو: أبو الزوج، قال الأصمعي: فيه ثلاث لغات: هو حَمَاهاَ مثل قَفَاهَا، وحَمُوهَا مثل أَبُوهَا، وحَمْؤُهَا مهموز مقصور" [52].

أمّا الأمثلة التي توضّح إشارة أبي عبيد إلى اللغات باستعمال صيغ مختلفة من غير أن يصرّح بها، فهي كثيرة في كتابه، نذكر منها: قوله في شرح (**يَصْدُق**): " يقال: صَدَاق وصِدَاق وصَدْقَة وصَدُقَة " [53]. وقوله في شرح (**صَلَق**): " قال الأصمعي: الصَّلْقُ _ بالصاد _ هو الصوت الشديد، وقال غيره بالسّين " [54]. وقوله في شرح (**الفِدَامْ**): " ... وبعضهم يقول: الفَدَامُ _ بالفتح _ ووجه الكلام بالفِدَام _ بكسر الفاء _ " [55]. وقوله في شرح (**حُلْوَان**): " الحلوان: الرُّشْوَةُ، والرِّشْوَة منها " [56]. وقوله في شرح (**ذَهَبَ حِبْرُهُ وسِبْرُهُ**): " في الحديث اختلاف وبعضهم لا يرفعه، قال الأصمعي: ذهب حِبْرُهُ وسِبْرُهُ: هو الجمال والبهاء ... وقال غيره: حَسَنُ الحَبْرِ والسَبْرِ بالفتح جميعا... وأمّا الحِبْر من قول الله تعالى :(من الأحبار والرّهبان)،[57] فإنّ الفقهاء يختلفون فيه، فبعضهم يقول: حَبْر، وبعضهم يقول: حِبْر... " [58].

ثالثا: المفاضلة بين اللغات وترجيح لغة على أخرى:

من الطرق التي اتّبعها أبو عبيد في ذكر اللغات، طريقة الموازنة بين لغة وأخرى من لغات العرب، والإشارة إلى الأفصح والأجود منها، موظفا في ذلك صيغا عديدة، ومستشهدا على اللغة التي يراها أجود.وأحيانا يعرض خلاف العلماء حولها، ثمّ يرجّح لغة على أخرى، أو يسوّي بينهما من غير ترجيح.

من أمثلة ذلك: قوله في شرح(**ذَوَى**): " يعني يبس، وفيه لغتان: ذَوَى يَذْوِي، وبعضهم يقول: ذَوِيَ يَذْوِي، والأوّل أجود، وهو عود ذاوٍ، وقال ذو الرّمّة :

كأنّما نفض الأحمال ذاوية   على جوانبه الفرصاد والعنب"[59]. وقوله في شرح (**شَمَّتَ**): " ... وفي هذا الحرف لغتان: سَمَّتَ وشَمَّتَ، والشين أعلى في كلامهم وأكثر " [60]. وقوله في تفسير لفظة (**كَلُّوب**): " هو الكُلاَّبُ، وهما لغتان: كُلاَّب وكَلُّوب، والفتح أجود في كَلُّوب، والجمع منها كلاليب " [61]. وقوله في شرح (**شَصُوصًا**): " قال الكسائي: الشصوص التي قد ذهب لبنها، وكذلك قال الأصمعي، واختلفا في الفعل من ذلك، فقال أحدهما: شَصَّتِ النّاقة تَشِصُّ وتَشُصُّ شُصُوصًا، وقال الآخر: أَشَصَّت تَشُصُّ إِشَاصًا، إذا ذهب لبنها، وهما لغتان، بالألف وبغير الألف " [62].وقال بعد عرض اختلاف العلماء في رفع أو فتح لفظتي(الحبر والسبر): " وهو عندي بالحَبْرِ أشبه؛ لأنّه مصدر من حَبَرْتُهُ حَبْرًا، أي: حسّنته " [63].

رابعا: الإشارة إلى تردّده وشكّه في قبول اللغة واستعماله صيغا مختلفة في ذلك:

من أمثلة ذلك ما ورد في شرح (أُنْهِج): " ... يقال منه: قد أَنْهَجْتُ أَنْهَجُ إِنْهَاجًا، **وأحسب** ونَهَجْتُ أَنْهَجُ نَهْجًا " [64]. وجاء في تفسيره للفظة (يُحْدِرُ) الواردة في حديث عمر رضي الله عنه : " يعني يورم ولا يشق، وقد اختلف الأصمعي وغيره في إعرابه، فقال بعضهم: يُحْدِرُ إِحْدَارًا من أَحْدَرْتُ، وقال بعضهم: يَحْدُرُ حُدُورًا من حَدَرْتُ، **وأظنّهما لغتين** إذا جعلت الفعل للضرب، فأمّا إذا كان الفعل للجلد نفسه أنّه الذي تورّم، فإنّهم يقولون: قد حَدَرَ جِلْدُهُ يَحْدُرُ حُدُورًا، لا اختلاف فيه أعلمه ... يقال: حدرت حُدُورا وحَدْرا _ بغير ألف _ **ولم أسمعه بالألف** أحدرت ... " [65].

وقال في تفسير (مُحْبَنْطِيًا) الواردة في حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: " قال أبو عبيدة: المحبنطي _بغير همز_ هو المتعضّبالمستبطئ للشيء، والمحبنطئ _بالهمز_ هو العظيم

البطن المنتفخ، قال: ومنه قيل للعظيم البطن: الحبنطأ. **وسألت عنه الأصمعي** فلم يقل شيئا... **وزعم الكسائي** أنّ احبنطيتواحبنطأت لغتان " [66].

خامسا: استشهاده على اللغات التي يذكرها والتمثيل لها:

فقد استشهد بالقرآن الكريم والشعر والحديث وأقوال العرب الفصحاء، وأقوال علماء اللغة على كثير من اللهجات التي أوردها في كتابه، ومن صور ذلك:

قوله في شرح (صَلَقَ): " قال الأصمعي: الصلق _بالصاد_ الصوت الشديد، وقال غيره: بالسّين. ومنه قوله تعالى: (سلقوكم بألسنة حداد)،[67] قال الأعشى يمدح قوما:

فيهم الخِصْبُ والسَّماحة والنَّجـ ـدة فيهم والخاطب السَّلاَّق"[68].

وقوله في تفسير(يَبْتَئِرْ): "... وفي الابتئار لغتان: يقال: ابتأرت الشيء وائتبرتابتئاراوائتبارا، قال القطّامي:

فإن لم تأتبر رشَدا قريش فليس لسائر النّاس ائتبارُ"[69].

وقوله في شرح (يُنَصْنِصُ) الواردة في حديث أبي بكر رضي الله عنه: " قال أبو عمرو: قوله: ينصنص، يعني يحرّكه ويقلقله... وفيه لغة أخرى ليست في الحديث بمعناه نَضْنَضْتُ _بالضاد معجمة_ ومنه قيل للحيّة: نضناض، وهو القلق الذي لا يثبت في مكانه لشرّته ونشاطه، وقال الرّاعي:

يبيت الحيّة النضناض منه مكان الحِبِّ يستمع السِّرارا

الحِبُّ: القُرط. قال: وأخبرني الأصمعي أنّه سأل أعرابيا أو أعرابية عن النضناض، قال: فأخرج لسانه فحرّكه لم يزده على هذا. وهذا كلّه يرجع إلى الحركة. وأمّا الحديث فبالصاد غير معجمة لا غير" [70]. وقوله في شرح (**فَجَهِشْنَا**): " ... وفيه لغة أخرى: أجهشت إجهاشا فأنا مجهش. قال أبو زيد والأصمعي والأموي وأبو عمرو: ومن ذلك قول لبيد:

قالت تشكّي إليّ النفس مجهشةوقد حملتك سبعا بعد سبعينا"[71].

سادسا: ربطه بين اللهجات العربية والقراءات القرآنية:

تُعدّ القراءات القرآنية مصدرا هامًّا من مصادر اللهجات العربية. وقد فسّر أبو عبيد حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم (نُزِّل القرآن على سبعة أحرف كلّها كافٍ شافٍ)، بأنّ المقصود من(سبعة أحرف): " يعني سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم يُسمع به قطّ. ولكن يقول: هذه اللغات السبع متفرّقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات. ومعانيها في كلّ هذا واحدة"[72].

وانطلاقا من ذلك فقد عني أبو عبيد بالقراءات المشهورة عناية كبيرة، فربط بينها وبين اللغات التي ورد بها الحيث، وجعلها مقياسا لقبول بعض اللهجات أو رفضها، ومن أمثلة ذلك:

قوله في شرح (قِبْصٌ): " ... والقَبْصَةُ في غير هذا بأطراف الأصابع دون القبضة، والقبضة بالكفّ كلّها. وكان الحسن يقرؤها: (فَقَبَصْتُ قَبْصَةً من أثر الرّسول)[73] بالصاد "[74]. وفي شرحه للفظة (الدُّرِّيّ) عرض أوجه قراءتها فقال: " وقرأ أبو عمرو والكسائي: دِرّيّ كسرًا وهمزًا، وأهل المدينة ضمّوا بغير همز، وأمّا قراءة حمزة فبالضمّ والهمز " [75].

وقال في(مَأْمُورَة): " وفيها لغتان: أمرها الله فهي مأمورة، وآمرها الله فهي مؤمرة، وقد قرأ بعضهم: (وإذا أردنا أن نهلك قرية امَرْنَا مترفيها)[76]_غير ممدود ... ومن قرأها آمرنا فمدّها فليس معناها إلاّ أكثرنا على قوله: فرس مأمورة، ومن قرأها أمَّرنا _مشددة_ فهو من التسليط ... " [77]. وقال في شرح (فَوَاقْ): " ... وفيه لغتان فَواق وفُواق، وكذلك يقرأ هذا الحرف (مَا لَهَا مِنْ فُوَاقْ)[78]، وفَوَاق بالفتح والضّمّ " [79].

سابعا: ايراده لبعض الصور اللهجية لتقرير قاعدة لغوية أو قياسا عند العرب:

من أمثلة ذلك: قوله في (بَيْدَ): " ... وفيه لغة أخرى (مَيْدَ) بالميم، والعرب تفعل هذا، تدخل الميم على الباء والباء على الميم، كقولك: أَغْمَطَت عليه الحمّى وأغبطت. وقوله: سمّد رأسه وسبّد رأسه، وهذا في الكلام كثير " [80]. وقال في شرح (إِرْثْ):" الإرث أصله من الميراث، إنّما هو ورث، فقلبت الواو ألفا مكسورة لكسرة الواو، كما قالوا للوسادة: إسادة، وللوشاح: إشاح،وللوكاف: إكاف، وقال الله عزّ وجلّ:(وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتَ)[81]، وأصلها من

الوقت، فجعلت الواو ألفا مضمومة لضمّة الواو،كما كسرت في تلك الأشياء لكسرة الواو"[82].وقال في شرح (**تلآن**) الواردة في حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: " قال الأموي: قوله: تلآن، يريد: الآن، وهيلغة معروفة، يزيدون التّاء في الآن وفي حين، فيقولون: تلآن وتحين، قال: ومنه قول الله تبارك وتعالى: (وَلَاتَ حِينَ مَنَاص)[83]، قال: إنّما هي: ولا حين مناص" [84].

وقال في (**أَغْبَطَتْ عَلَيْهِ الحُمَّى**): " قال الأموي: يعني لزمته وأقامت عليه، وقال الواقدي في هذا الحديث: أصابته حمّى مغمطة _بالميم في معنى الباء_ ، ... وهما لغتان قد سمعناهما جميعا بالباء والميم، وهذا مثل قولك: سبّد الرّجل رأسه وسمّده إذا استأصله، وأشباه ذلك كثيرة " [85]. وقوله في شرح لفظة (حُلأّن) الواردة في حديث عمر رضي الله عنه: " ... وفي الحُلأّن أيضا لغة أخرى: الحُلاَّم _ بالميم_ وربّما شبّهوا الميم بالنون حتّى جعلوهما في قافية، وأنشدني الأحمر:

يـا رُبَّ جَـعْـدٍ فـيـهـم لـو تَـدْرِيـن يَـضـرِبُ ضَـرْبَ السّـبْـط المَقَـادِيـم

فجمع بين النون والميم في قافية، وذلك لقرب مخرج أحدهما من الآخر، وهذا كقولهم: أغبطت عليه الحُمّى وأغمطت، قال مهلهل:

كــلُّ قَـتِـيـلٍ فـي كُـلـأَّبٍ حُـلـاَّمْ   حَـتَّـى يَـنَـالَ القَـتْـلُ آلَ هَـمَّــامْ[86].

ثامنا: عزوه اللهجات إلى العلماء الذين نقلت عنهم اللغة:

إنّ عزو النّصوص إلى أصحابها يعدّ سمة بارزة في المنهج الذي سار عليه أبو عبيد في كتابه، وطريقته في العزو تختلف من موضع إلى آخر، فأحيانا يذكر أسماء العلماء الذين نُقلت عنهم اللغة، كأبي عبيدة، والأموي، والكسائي، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، والفرّاء، وأبو عمرو، وغيرهم، ويكتفي بذلك من غير أن يقول شيئا، وأحيانا يشير إلى اختلافهم في بعض اللغات فينقد أقوالهم ويختار ما يراه صوابا، وقد يترك ذلك من غير تعليق أو نقد.

ومن أمثلة ذلك: قوله في(الدد): " قال الأحمر: وفي الدد ثلاث لغات..."[87]. وقوله في(سقط): " قال الأصمعي: السُّقْطُ والسِّقْطُ لغتان ... وعن أبي عبيدة: سِقْط وسُقْط وسَقْط، ولا أحد يقول بالفتح غيره " [88]. وقوله في(حبره وسبره): " في الحديث اختلاف وبعضهم لا يرفعه، قال الأصمعي ... وقال غيره ... وقال الفرّاء " [89]. وقوله في(فطلّها): " وكان

أبو عبيدة يقول: فيه ثلاث لغات " [90]. وقوله في(حموها): " قال الأصمعي: فيه ثلاث لغات ... " [91]. وقوله في(شصوصا): " قال الكسائي... وكذلك قال الأصمعي، واختلفا في الفعل من ذلك، فقال أحدهما... وقال الآخر... وهما لغتان بالألف وبغير الألف " [92].

الخاتمة:

1_ تبيّن من خلال هذا البحث عناية أبي عبيد بلغات العرب ولهجاتهم، تظهر هذه العناية في الكم الهائل من اللهجات التي ذكرها في كتابه. فقد أحصى الباحث ورودها في أكثر من ستّين موضعا إحصاء أوّليا وليس نهائيا.

2_ ورود بعض الأحاديث بلغات القبائل العربية، وهذا يثبت _ في حال صحّة هذه الأحاديث _ الحقيقة التي قررها بعض العلماء حول مخاطبة النبي صلّى الله عليه وسلّم قبائل العرب باللغة التي تفهمها كلّ قبيلة، وأحاديث الوفود خير شاهد على ذلك.

3_ إنّ اللهجات التي أوردها أبو عبيد في كتابه يمكنها أن تعطينا تفسيرا علميا مقبولا إن لم يكن صحيحا لمسألة ورود الألفاظ الغريبة في حديث النبي صلّى الله عليه وسلم، والأسباب التي تقف وراء ذلك، وهي كون اللفظ الغريب في أحد الأوجه المفسّرة لأسباب الغرابة، لهجة من لهجات العرب الفصيحة، أو الأقل فصاحة.

4_ لاحظ الباحث اهتمام أبي عبيد بتوثيق الكثير من اللهجات التي يذكرها، وللتوثيق عنده صور مختلفة منها: نسبة بعض اللهجات إلى أصحابها.ونسبة البعض الآخر إلى العلماء الذين نقلت عنهم اللغة، والاستشهاد على تلك اللغات بالشواهد اللغوية المختلفة. وأيضاذكر القراءات القرآنية التي وافقت بعض اللهجات. بالإضافة إلىذكره للقواعد اللغوية، أو النحوية، أو الصرفية التي وافقت هذه اللغات، وحكايته لمذهب العرب في الكلام واستعمال اللغة.

5_ ظهر للباحث أنّ الحديث النبوي (متونا وشروحا) قد حوى ثروة لغوية ولهجية معتبرة، وهي ثروة لا يمكن الاستغناء عنها أو إغفالها في دراسة اللهجات العربية القديمة.

6_ توصّل الباحث إلى أنّ توظيف أبي عبيد للغات واللهجات في كتابه جاء لأغراض مختلفة أهمّها:بيان معاني الألفاظ الحديثية الغريبة التي أوردها، وتحديد دلالات بعض

الألفاظ التي ترد في السياق القرآني أو الشعري. وكذا الترجيح بين الروايات المختلفة التي ترد بها ألفاظ الحديث. وتقديم الفائدة العلمية واللغوية.

7_ اتّضح للباحث أنّ غالبية اللهجات التي ذكرها أبو عبيد هي لهجات فصيحة، وهذا من خلال تخريجها على (معجم الفصيح من اللهجات العربية وما وافق منها القراءات القرآنية) لمؤلفه: محمّد أديب عبد الواحد جمران. وهذا سيفتح بابا واسعا للنقاش حول مسألة ورود اللحن في الحديث النبوي الشريف، وما تبعها من نتائج.

8_ ظهر للباحث من خلال رجوعه إلى مصادر ومراجع اللهجات، وتتبّعه الجزئي للمؤلفات حولها، عدم ذكر أصحابهاللمصادر الحديثية في دراسة اللهجات العربية القديمة، لذا فإنّه يلفت أنظار الباحثين والعلماء إلى اعتماد المدوّنة الحديثية (متونا وشروحا) كمصدر مكمّل إن لم يكن أساسيا في دراسة اللهجات العربية القديمة.

9_ لاحظ الباحث عدم ذكر أبي عبيد (في غالب ما أورده) القبائل التي تنتمي إليها اللهجات، واكتفاؤه بعبارات أخرى، مثل: وفيه لغة أخر، وفيه لغتان، وفيه ثلاث لغات، وهذا سيشكّل صعوبات جمّة للباحثين في التعرّف على لغات كلّ قبيلة، وتحديد الفوارق بينها في المستويات اللغوية، ورسم المنحنى الجغرافي لها، وأيضا معرفة أثرها في نشأة اللغة الفصحى.

قائمة المصادر والمراجع:

1_ إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د _ ت).

2 _ ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمّد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط01 (1963).

3 _ الأنباري، أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط01 (2011).

4_ أنيس فريحة، اللهجات وأسلوب دراستها، دار الجيل، بيروت، ط01 (1989).

5 _ ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمّد علي البجاوي، المكتبة العلمية، (د_ت).

6 _ جمران، محمّد أديب عبد الواحد، معجم الفصيح من اللهجات العربية وما وافق منها القراءات القرآنية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط01 (2000).

7_ حاتم الضامن، فقه اللغة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط01 (2007).

8 _ خاطر، محمّد أحمد، في اللهجات العربية، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، طبعة (1978).

9_ الخولي، محمّد علي، معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، القاهرة، ط01(1982).
10 _ رمضان، عبد التوّاب، فصول في فقه العربية، مكتبة المتنبّي، مكة، طبعة (1996).
11 _ الزبيدي، أبو بكر محمّد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (د ت).
12 _ الزبيدي، محمّد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستّار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، طبعة (1965).
13_ سائد بكداش، أبو عبيد القاسم بن سلاّم، دار القلم، دمشق، ط01 (1991).
14 _ السيد، الشرقاوي، معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط01 (2001).
15 _ السيوطي، جلال الدين، بغية الوعّاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط02 (1979).
16 _ ابن الصلاح، أبو عمرو، مقدّمة في علوم الحديث، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر، (د ت).
17 _ أبو عبيد، القاسم بن سلاّم، غريب الحديث، تحقيق: محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02 (2003).
_ ....، غريب الحديث، تحقيق: حسين محمّد محمّد شرف، ومصطفى حجازي، وعبد السلام هارون، مجمع اللغة العربية، القاهرة، طبعة (1993).
_ ....، الغريب المصنّف، تحقيق: رمضان عبد التّواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط01 (1989).
18_ الفراهيدي، الخليل ابن أحمد، العين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01 (2001).
19_ الفيروزآبادي، مجد الدين، البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة، تحقيق: محمّد المصري، دار سعد الدين، القاهرة، ط01 (2000).
20 _ القفطي، جمال الدين، انباه الروّاة على أنباه النحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة (2009).
21_ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثامنة (1998).
22_ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (2003)، مادة (لهج).

هوامش البحث

(1) تنظر ترجمته في : انباه الروّاة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، 12/3، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنباري، ص 122، وبغية الوعّاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، 253/2، 254، وطبقات اللغويين والنحويين، لأبي بكر الزبيدي، ص 199، والبلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة، للفيروزآبادي، ص 233.

(2) سائد بكداش، أبو عبيد القاسم بن سلاّم، دار القلم، دمشق، ط01 (1991)، ص (37_ 47).

(3) المرجع نفسه، ص (48_ 54).

(4) المرجع نفسه، ص (79_ 86).

(5) المرجع نفسه، ص 87.

(6) ابن الصلاح، مقدّمة في علوم الحديث، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر،(د ت)، ص 112.

(7) ينظر: السيّد الشرقاوي، معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنّحو، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى (2001).

(8) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى (1963)، 4/1.

(9) كاصد ياسر الزيدي، منهج أبي عبيد في تفسير غريب الحديث،إصدار مجلّة الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى(1999)، ص 12.

(10) ينظر: سائد بكداش، أبو عبيد القاسم بن سلاّم، ص 115.

(11) سائد بكداش، أبو عبيد القاسم بن سلاّم، ص 109.

(12) المرجع نفسه، ص 112.

(13) أبو عبيد القاسم بن سلاّم، غريب الحديث، تحقيق: محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية (2003)، 14/1.

(14) سائد بكداش، المرجع نفسه، ص 111.

(15) المرجع نفسه، ص 112.

(16) المرجع نفسه، ص 112.

(17) المرجع نفسه، ص 111.

(18) محمّد مرتضى الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستّار أحمد فرّاج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، طبعة(1965)، 462/39.

(19) ابن جنّي، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجّار، المكتبة العلمية، (د ت)، 33/1.

(20) حاتم الضامن، فقه اللغة، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط01 (2007)، ص 12.

(21) الخليل ابن أحمد، كتاب العين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (2001)، ص 886.

(22) ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01 (2003)، مادة (لهج).

(23) إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د ت)، ص 15.

(24) محمّد علي الخولي، معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، الطبعة الأولى (1982)، ص 146.

(25) إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص 115.

(26) أنيس فريحة، اللهجات وأسلوب دراستها، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (1989)، ص 79.

(27) محمّد أحمد خاطر، في اللهجات العربية (مقدمة للدراسة)، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، طبعة (1978)، ص (51_ 55).

(28) ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط08 (1998)، ص 211.

(29) ينظر: أبو عبيد القاسم بن سلاّم، غريب الحديث، تحقيق: حسن محمّد محمّد شرف، وعبد السلام هارون، ومصطفى حجازي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، طبعة (1993)، 178/1، 179، 247، 414. 165/4. 159/5، 172، 304، 393، 534.

(30) المصدر نفسه، 144/2. 346/3. 373/4. 11/5، 32، 39، 217، 462، 515،

[31]المصدر نفسه، 133/1.
[32]المصدر نفسه، 393/1.
[33] المصدر نفسه، 150/1.
[34]أبو عبيد القاسم بن سلاّم، المصدر السابق، 165/4.
[35]المصدر نفسه، 277/2.
[36] المصدر نفسه، 112/2.
[37] المصدر نفسه، 254/2.
[38]المصدر نفسه، 383/2.
[39]المصدر نفسه، 39/5.
[40] المصدر نفسه، 11/5.
[41] المصدر نفسه، 155/2.
[42]أبو عبيد القاسم بن سلاّم، المصدر السابق، 251/1.
[43]المصدر نفسه، 268/1.
[44]المصدر السابق، 190/1.
[45] المصدر نفسه، 96/2.
[2]المصدر نفسه، 42/1.
[47]المصدر نفسه، 129/1.
[48]المصدر نفسه، 182/1.
[49]المصدر نفسه، 55/2.
[50]أبو عبيد القاسم بن سلاّم، المصدر نفسه، 34/1.
[51]المصدر نفسه، 297/1.
[52]المصدر نفسه، 113/2.
[53]المصدر نفسه، 311/1.
[54]المصدر نفسه، 66/1.
[55]المصدر نفسه، 39/1.
[56]المصدر نفسه، 40/1.
[57]سورة التوبة، الآية 34.
[58]المصدر نفسه، 60/1.
[59]أبو عبيد، المصدر السابق، 92/2.
[60]المصدر نفسه، 306/1.
[61]المصدر نفسه،223/1.
[62]المصدر السابق، 39/2.
[63]المصدر نفسه، 60/1.
[64]المصدر نفسه، 42/2.
[65]أبو عبيد، المصدر السابق، 39/1.
[66]المصدرنفسه، 84/1.
[67]سورة الأحزاب، الآية 19.
[68]المصدر نفسه، 66/1.
[69]المصدر نفسه، 93/1.
[70]أبو عبيد، المصدر السابق، 9/2.
[71]المصدر نفسه، 149/1.

(72) المصدر نفسه، 642/2.

(73) سورة طه، الآية 96.

(74) أبو عبيد، المصدر السابق، 87/1.

(75) المصدر نفسه، 90/1.

(76) سورة الإسراء، الآية 16.

(77) المصدر نفسه، 208/1.

(78) سورة ص، الآية 15.

(79) المصدر نفسه، 269/2.

(80) المصدر نفسه، 89/1.

(81) سورة المرسلات، الآية 11.

(82) المصدر نفسه، 113/1.

(83) سورة ص، الآية 3.

(84) أبو عبيد، المصدر السابق، 311/2.

(85) المصدرنفسه، 99/1.

(86) المصدر نفسه، 50/2.

(87) أبو عبيد، المصدرالسابق، 34/1.

(88) المصدر نفسه، 84/1.

(89) المصدر نفسه، 60/1.

(90) المصدر نفسه، 297/1.

(91) المصدر نفسه، 84/2.

(92) المصدر نفسه، 39/2.

أدب السخرية من اللغة إلى الرسالة - وصف وتحليل مجمع الأمثال للميداني أنموذجا

Irony from Language to Message
Ankhology of Proverbs by el Meidani as an Example

عمار ساسي *

تاريخ تقديم البحث **2018/01/02** تاريخ القبول **2018/01/12**

ملخص

يتناول البحث موضوع أدب السخرية من كونها لغة إلى وظيفة الرسالة في المجتمع . وقد تضمن العناصر التالية : - مقدمة .
- السخرية في المعاجم العربية .
-السخرية في القرآن الكريم .
-فن السخرية عند القدامى .
- موضوعات السخرية في أدب الجاحظ .
- هل السخرية إلا نوع من أنواع اللغة الأدبية ؟.
- السخرية في الأمثال العربية .
-من سمات السخرية في الأمثال العربية .
تطبيقات من السخرية في الأمثال العربية . ثم الخاتمة والنتائج .

الكلمات الدالة: : أدب السخرية - اللغة - الرسالة - الأمثال العربية – السيمات - تطبيقات .

Abstract

This research deals wikh the problem of irons from language to message . this research contains the following elements :
-Irony in Arabic Dictionaries .
-Irony in The Koran.
-Irony for the ancient people .
-Instances of irons in the works of el eldjahidh .
-Is irony a literary genre ?
-Irony in the Arabic proverbs .
-Characteristics of irony in the Arabic proverbs .
-Exemples of irony in the Arabic proverbs .

Keyboard: Irony - Language --Massage -- Proverbs – literary genre -- characteristics - Exemples

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الأداب واللغات ، جامعة الجزائر 2، الجزائر .

مقدمة

كان علي من البداية الفصل في دلالة مصطلح السخرية مع تتبع صيغ اشتقاقاته ومواقع استعمالاته العربية ، ذلك لتبيان دلالته و الكشف عن معناه المميز، ولينطلق البحث من بداية سليمة ، خصوصا وأن الذي يقرأ ما كتبه بعض الباحثين في عنصر تحديدات يلمس ذلك التداخل المصطلحي و المفهومي عندهم بين السخرية والضحك و التهكم و الهزوء والاستجهال الاستخفاف و.. ، وربما وضعها في صف المترادفات من غير تدقيق بياني و لا فحص لغوي و لا رجوع بالكلمة إلى أصل معناها . وهنا أجدني مستنطقا المعاجم العربية للمسك بناصية الدلالة اللغوية لهذه المصطلحات التي يظن أنها من المترادفات . وقديما قال اللغوي الكوفي أبوالعباس ثعلب : (مايظن من المترادفات هو من المتباينات)(1).

السخرية في المعاجم العربية :

جاء في مقاييس اللغة لأحمد بن فارس : سخر ، السين و الخاء و الراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقارو استذلال ، من ذلك قولنا : سخر اللع تعالى الشيء وذلك إذا ذلله لأمره وأرادته ، قال تعالى : (سخر لكم ما في السماوات و الأرض جميعا منه) (2) . ويقال : رجل سخرة (بضم السين وتسكين الخاء): يسخر في العمل ، وسخرة إذا كان يسخر منه ، فأن كان هو يفعل ذلك ، قلت : سخرة (بفتح الخاء و الراء) . يقال : سفن سواخر مواخر ، فالسواخر المصبغة الطيبة الريح ، و المواخر التي تمخر الماء : تشقه . ومن الباب سخرت منه ، إذا هزئت به . ولا يزالون يقولون : سخرت منه . وفي كتاب الله (فإنا نسخر منكم كما تسخرون)(3) (4) (مقاييس اللغة ج3 ص144 دار الفكر)

وجاء في معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : سخر: التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهرا ، قال تعالى : (سخر لكم ما في السماوات والأرض) (5) ، وقتا : (وسخر لكم الشمس و القمر دائمين وسخر لكم الأنهار) (6) .... فالمسخر هو المقيض للعمل . و السخري هو الذي يقهر فيتسخر بإرادته ، قال تعالى (ليتخذ بعضكم بعضا سخريا) (7) .وسخرت منه استسخرته للهزء منه ، قال تعالى : (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) (8)، وقوله (بل عجبت ويسخرون) (9) . وقيل : رجل سخرة –بضم السين وفتح الخاء - لمن سخر. وسخرة – بتشديد الخاء – لمن يسخر منه . و السخرية –بضم السين – و السخرية –بكسرها – لفعل الساخر. وقوله تعالى : (فاتخذتموهم سخريا) (10) ، فقد

حمل على الوجهين على التسخير و على السخرية . وقوله تعالى : (وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار أتخذتموهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار) (11) ، ويدل على الوجه الثاني قوله بعدها :(وكنتم منهم تضحكون) (12) (13) . (الراغب ص 232-233).

وجاء في لسان العرب : سخر منه وبه سخرا –بفتح السين- وسخرا – بضم السين وفتح الميم – ومسخرا و سخرا – بضم السين وتسكين الخاء – وسخرة –بضم وتسكين – وسخريا – بكسر السين – وسخريا – بضمها – وسخرية : هزئ به ، ومنها قول الأعشى :

(إني أتتني لسان لا أسر بها - من عدو لا عجب منها ولا سخر) . قال الأزهري : وقد يكون نعتا ن لقولهم : هم لك سخري –بفتح وكسرالسين - و سخرية من ذكر – بتشديد الكاف- . قال : سخريا –بالضم- ومن أنث ، قال : سخرية . قال الفراء : يقال سخرت منه ، ولا يقال سخرت به . قال تعالى : (ولا يسخر قوم من قوم) (14) . وسخرت من فلان هي اللغة الفصيحة . والسخرة –بضم السين – الضحكة ، ورجل سخرة –بضم السن وفتح الخاء - : يسخر بالناس . وفي التهذيب : يسخر من الناس ....و سخرة –بالضم والتسكين - : يسخر منه . ... ووقيل : السخري بالضم ، والسخري بالكسر من الهزء. وقد يقال في الهزء سخري –بضم و فتح السين - ، ...وأما السخرة – بضم السين – فواحده مضموم . وقوله (فاتخذتموه سخريا حتى أنسوكم ذكري) (15) ، فهو سخريا من سخر ، والضم أجود . قال أبو زيد : سخرريا من سخر إذا استهزأ (16) .(لسان العرب ج2 ص 115-114).

لعل أقل ما يمكن استخلاصه من هذه التحديديات اللغوية في المعاجم العربية أن هناك معنى واحدا رابطا وجامعا بين هذه الاستعمالات العربية الظاهرة و هو معنى الاستذلال والاحتقار ، ذلك أن العربية لغة اشتقاقية . وما تشابه من حروف الأصول بين فعلين إلا وكان هناك معنى جامع بينهما ، فمثلا بين سخر – بكسر الخاء- و سخر–بتشديد الخاء- فإن الجامع بينهما هو استذلال ، أي محتقر ، بحيث هو مسخر لخدمة الإنسان المكرم . ومعنى الاحتقار يصب في مدلول الفعل الذي يصنعه الإنسان . فالسخرية ليست من إنسان تجاه إنسان ، إنما هي من إنسان إلى فعل إنسان . فالفعل إذا كان دون المستوى أثار سخرية الناس ، أي صاروا يحتقرونه ويصفونه بالذلة . مع العلم أن السخرية إذا كانت من إنسان تجاه إنسان مهما كان ، ومن قوم تجاه قوم من دون سبب فهي غير محمودة ، وليست من أخلاق البر . قال تعالى : (ولا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن)(17) . فهو ركز على شريحة القوم وشريحة النساء لشيوع فعل السخرية

كثيرا في معاملاتهم،أي القوم مع القوم والنساء مع النساء ، إذ قد يفتح باب الفتنة عريضا ، وربما قد يؤدي إلى إيقاد نار حرب تأتي على الأخضر واليابس . وهذا قد حصل كثيرا في حياة العرب الجاهلية ، وقد أظهره بشكل لافت ديوانهم في الأشعار و الأمثال و الخطب ....ومنه قول قائلهم : الفرزدق لجرير:

(ضربت عليك العنكبوت بنسجها - وقضى عليك به الكتاب المنزل) (18) .

ولعل الجامع بين الفعلين (سخر بتشديد الخاء ، وسخر بكسرها) هو:

1- هو الإذلال الموجب بالكائنات و المخلوقات لصالح الإنسان ، كالبحر والفلك و الأرض و السماوات وما فيها ، ويتحدد في علاقة الأنسان بالكون وعناصره ، فهو تسخير له من الله ، وهو المنبعث من التسخير.

2- الإذلال المنبعث من السخرية ، ويكون من الإنسان تجاه فعل الإنسان غير السوي ،أي كان نوع الفعل الموجب للسخرية . وهو يقتضي ترفعا واستعلاء عن فعل وضيع ، فالترفع والاستعلاء من الساخر، والوضع والاستفال من المسخور منه .

السخرية في القرآن الكريم :

تعددت النصوص في القرآن الكريم التي ذكرت كلمة السخرية ، وأوردتها بصيغ متنوعة ، إما بالفعل وإما بالاسم . فالفعل في قوله تعالى : (الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم وسخر لكم الشمس والقمر دآيبين وسخر لكم الأنهار.. وآتاكم من كل ما سألتموه ...) (19) (إبراهيم 31-32) .

والتسخير هنا هو التذليل لتكون في خدمة الإنسان ومنفعته ومصلحته ، كقوله (والنجوم مسخرات بأمره)(20) ، أي على عظمتها فهي مذللات لخدمة الإنسان ومنفعته ، من غير احتقار ولا امتهار للشيء المسخر للإنسان .

وقال تعالى في موضع آخر (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره و لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (21) (الجاثية 11-13).

و التسخير في الآية هو التذليل لخدمة الإنسان ومنفعته ومصلحة حياته من غير امتهان و لا احتقار للمسخر من سماوات وأرض و بحر وجبال و فلك وغيرها . فالسخرية بين الإنسان والكائنات تعني التذليل من غير احتقار ولا امتهان للمسخر (بفتح الخاء) .

أما السخرية من الإنسان إلى الإنسان فتعني الاحتقا و الإذلال الذي هو من الذلة ، وهذا فعل غير محمود ، لذلك نهى عنه القرآن الكريم بقوله : (ولا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن)(22) (الحجرات) .

وفي مقوله نوح عليه السلام لقومه الساخرين منه والكافرين برسالته وهو يصنع الفلك ، (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) (23) (هود38) . قال الزمخشري : (سخروا منه) ومن عمله السفينة ، وكان يعملها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء ، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة ، فكانوا يتضاحكون ، ويقولون له : يا نوح صرت نجارا بعد ماكنت نبيا . (فإنا نسخر منكم) يعني في المستقبل (كما تسخرون) منا الساعة ، أي نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة . وقيل : إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم في استجهالكم ، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر وبناء على ظاهر الحال ، كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقيقة (24) . (الكشاف ج2 ص 268) . فالسخرية عند الزمخشري هي في معنى استجهال فعل الفاعل . وفي الاستجهال تصغير للفعل واحتقار له واستذلال ، و الفعل مرتبط بفاعله في كل الأحوال حسنها وقبيحها .

وهنا نجد أن صورة (سخر) و (سخر بتشديد الخاء) و(السخرية) تشبه إلى حد صورة (ذلة) كما في(ذلل) بتشديد اللام الأولى ، و (ذل) التي تفيد مضمونهما . فالأولى تفيد التذليل من غير احتقار ولا امتهان ولا استجهال على لغة الزمخشري ،لأن الإنسان هو في تعامله مع مخلوقات سخرت له تكريما . فلا معنى للامتهان والاحتقارو الضحك في هذا المقام .

والثانية تفيد الذلة مع الاحتقار و الاستهزاء بفعل الفاعل ، لأنه في النظر فعل شائن غيرمحمود ، فيستوجب الاستجهال و الامتهان والتحقير. وفي بيان هذه المعاني يقول الراغب الأصفهاني في التذليل : ذل : الذل ما كان عن قهر ، يقال : ذل يذل ذلاء . والذل –بتشديد الذال وكسرها – ما كان بعد تصعب وشماس من غير قهر . يقال : ذل يذل ذلا . وقوله (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)(25) ، أي كن كالمقهور لهما . وقرئ (جناح الذل) بكسر الذال ، أي لن وانقاد لهما . يقال : الذل و القل و القلة –بفتح الذال وضم القاف

وكسر قاف القلة- قال تعالى :(ترهقهم ذلة) (26) ، وقال : (ضربت عليهم الذلة والمسكنة) (27) و (سينالهم غضب من ربهم وذلة)(28) . وذلت الدآبة بعد شماس ذلا ، وهي ذلول ، أي ليست بصعبة . قال الله تعالى : (لا ذلول تثير الأرض) (29). والذل ما كان من جهة الإنسان نفسه لنفسه فمحمود ، نحو قوله (أذلة على المؤمنين)(30) و (فاسلكي سبل ربك ذللا)(31) و (ذللت قطوفها تذليلا)(32) ، أي سهلت . وقيل : الأمور تجري على إذلالها) ، أي مسالكها وطرقها (33) . (الراغب ص 182-183).

فن السخرية عند القدماء :

كانت السخرية قبل عصر الجاحظ أبي عثمان تأتي عفوية تارة و مقصودة لغرض من الأغراض السياسية تارة دون أن تقوم بالتحليل و التشخيص و التصوير لإبراز خصائص المجتمع ، ولم يثبت أن صنع لها مؤلفا خاصا قبل الجاحظ (255هـ) . ومن الآثار في السخرية قبل الجاحظ من دون أن ترقى إلى مؤلف مخصص في فنها كتاب(الأكلة) للمدائني ، حيث كان أسلوبه إخباريا في نوادره ، وكتاب (لصوص العرب) لأبي عبيدة ، حيث كان على شاكلة سابقه وعلى نمطه . أما أبوعثمان الجاحظ فكان في رأي كثير من الأدباء والنقاد أول مؤلف في تاريخ أدب السخرية دراسة وتحليلا للمجتمع ، وقد فعل ذلك في كتابه (البخلاء) و في رسالته (التربيع والتدوير) (34) . (السخرية في أدب الجاحظ – السيد عبد الحليم محمود حسين ص 93- دار النشر الجماهيرية 1988).

ولما كانت السخرية ليست معطاة لكل الناس ، إنما هي مهداة لخاصتهم ، فقد تعددت العوامل التي جعلت من الجاحظ أديبا ساخرا مميزا جعل من السخرية فنا قائما بذاته ، ومن العوامل العامل الوراثي و عامل المجتمع و البيئتين الفكرية والعامة .

و تتطلب السخرية في الأديب الساخر الطبيعة المرحة و الخبرة النقدية الواسعة ، بحيث يقدم على معالجة المشكلة بالضحك . والمتأمل في منجز الجاحظ يستنتج أنه لا يسخر من منطلق مزاجه العاطفي ، بل هو يوظف السخرية لمواجهة خصومه . فهو يسخر من كل سلوك خالف قواعد مجتمعه ، لذلك صارت تسري في كل كتاباته .

موضوعات السخرية في أدب الجاحظ :

ومنها : العيوب الجسمية و المظهرية ، وغرابة الطباع ، والبخل ، والنفاق ، والجحود ونكران الجميل ، و البلادة والإهمال ، و القصور العقلي وما نتج عنه من الحمق والجهل و الغفلة و التناقض و التزييف في التمظهر.

ومن نماذج الجاحظ سخريته من أهل المرو كما عرف عنهم بالبخل الشديد : فيقول : ويروى أنه قيل لتمامة : أي الناس أبخل ؟ فقال : لم أر الديكة في بلدة قط إلا وهي لاقط يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو . فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقرها من الحبوب . قال : فعلمت أن بخلهم شيء من طبع البلاد ، وفي جوهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيواناتهم (35) . (كتاب البخلاء ج1 ص 46 دار الكتب المصرية).

وقد كان لفن السخرية عند الجاحظ أثر في الفعل الأدبي فيمن جاء من بعده ، مثل ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار)حيث يقول : (سينتهي بك كتابنا هذا إلى كتاب المزاح والفكاهة) (36) (السخرية في أدب الجاحظ ص 102) . وأبو حيان التوحيدي الذي احتذى مذهب الجاحظ في كل شيء مشيرا بقوله : (إن النفس تمل كما أن البدن يكل ، وكما أن البدن إذا كل طلب الراحة ، فكذلك النفس إذا ملت طلبت الروح)(37) (السخرية في أدب الجاحظ ص 113).

وقد أمتد هذا الأثر العميق إلى العصر الحديث ، حيث وجدنا نخبة من الأدباء الكبار ممن مسهم أثر الجاحظ في هذا الفن الجميل ، من أمثال طه حسين و العقاد و مصطفى صادق الرافعي و أحمد حسن الزيات و المازني و أحمد أمين . وهو ما جعل هذا الأخير يقول : (إن الطبيعة عودتنا أن نجعل لكل باب مفتاحا ولكل كرب خلاصا ولكل عقدة حلا ، ولكل شدة فرجا . فلما رأيت الإنسان يكثر من الهموم ، ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب ، أوجدت لكل ذلك علاجا فكان الضحك)(38) (المرجع نفسه ص128)، ويقول في موضع آخر : (و الطبيعة ليست مسرفة في المدح ، فلما لم تجد للحيوانات كلها هموما لم تضحكها ، ولما وجدت الإنسان وحده هو المهموم جعلته وحده هو الحيوان الضاحك .)(39) (المرجع نفسه ص129) .

و أدب الجاحظ في الحقيقة هو مزيج من أدب الفرس وحكمة الهند وفلسفة اليونان ، لذلك غزر علمه ووضح بيانه .(ابن النديم ، مؤلفات الجاحظ 170- البخلاء و الحيوان

والبيان والتبيين ورسالة التربيع والتدوير .. وهي في أغلبها سخرية من العادات والتقاليد عشعشت في عصره بصورة كبيرة ، فكان يتخذ أسلوب الفكاهة و المرح في التعليق عليها ودحضها . (40)

السخرية فعل تعبيري عن القضايا التي تثير الانتقاد في المجتمع بلغة ساخرة ملؤها الضحك و المزاح لمقصد الاستهجان و الامتهان ، فيسعى الأديب الساخر إلى نقل سلسلة أفكاره بأبسط الطرق و أسهلها لتحقيق الغرض . و الذي يلزم المقابلة و الموازنة بين النقائض ، كالمحاسن و المساوئ و الجمال و القبح و السمعة و الحسنة ونقيضتها و الموت والحياة وغيرها . حيث يحكي قلم الأديب الساخر عن سيف حاد يقطع رقاب الآلام و الأوجاع والذلة و النفاق و الرياء ، ويكشف عن ظلم الظالمين ويشفي بذلك غليل المظلومين.

ومن هنا فالسخرية تقدم صورة هجائية عن الجوانب القبيحة و السلبية للحياة، كما تصور معايب المجتمعات و مفاسدها و حقائقها المرة بإغراق شديد ، حيث تظهر تلك الحقائق المرة أكثر قبحا و مرارة ، لتبين خصائصها وميزاتها بشكل أكثر وضوحا ليتجلى التناقض العميق بين الوضع الموجود و الحياة الكريمة المرجوة . وهكذا يجادل قلم الساخر كل قديم ميت متأخر ، وكل ما يمنع عن التقدم و الرقي دون عفو و إغماض(41) .

إن السخرية تجعلنا نتعرف على الإنسان الساخر وعلى المسخور منهم ، وهي لاتهدف إلا إلى هذه الغاية . كما أن السخرية توقض الناس من سباتهم العميق ، وتقدم تعريفا عن طرق الصراع الذي أصيب بسهام غضب الساخر ، لأن الغاية الكبرى من السخرية هي تحقيق الوعي و إيجاد اليقضة .(السخرية لغتها و أشكالها ودوافعها بقام أبي القاسم رادفر بتاريخ 29 كانون الثاني يناير 2011--الدخول 13-11-2016.).

ويتطلب الفعل السخري دوما من فاعله هدوءا واطمئنانا بعيدا عن كل تهريج أو مجون وغيرها من الأخلاق المخلة (42) .

ولعل من صفات لغة السخرية بعدها عن الغموض و انصافها بالعذوبة و الوضوح والقابلية للفهم واستخلاص المدلول بسرعة . وهذا ما يسهل للناس التعرف على نقاط الضعف و القصور لتحولها إلى مشاكل يجب حلها . وقد قالوا : عندما يعجز الجد عن البيان تسارع السخرية في التعبير . و السخرية خليط للعذوبة و المرارة ، حيث تكمن عذوبتها في الطرافة

،وتتجلى مرارتها في الانتقاد . وهذا يعني أن السخرية هي تعبير للانتقادات المرة البناءة بلغة عذبة فيها الكناية و الضحك (43) . (السخرية لغتهاو أشكالها ..)

كما يمكن اعتبار السخرية انتقادا ممتزجا بالاستهزاء ، وهو نوع من الانواع الأدبية ، حيث يتم التعبير عنه بالتعريض وبشكل غير مباشر . (المرجع نفسه ..)

وقد أحسن خلاصة بيانها أحد الباحثين حين قال : و السخرية هي بيان للرذائل الخلقية للفرد أو المجتمع بأسلوب ساخر، وبإشارة القرائن البعيدة والقريبة ، وبالظن الصائب والاستدلال المستقيم ، وهي تصويب لشفرة سيفها الحاد بكل جرأة وشجاعة ودراية نحو المجتمع المريض وسقمه العام (44).(السخرية في الأدب العربي) .

هل السخرية إلا نوع من أنواع اللغة الأدبية ؟؟

وقد أحسن بيان الجواب صاحب مقال السخرية في الأدب العربي حين قال :

تعد السخرية من الأنواع الأدبية ، وهي طريق للتعبير عن الجوانب الانتقادية و النقائص المجتمعية بلغة ممزوجة بالضحك الناتج عن الآلام و المضايقات . فلغة السخرية هي نوع من أنواع اللغة الأدبية ، والأديب الساخر بتداعياته السحرية يجمع الكلمات و التراكيب المناسبة أو غير المناسبة لتجذب وتدفع بعضها إلى بعض ، كالألوان في الرسوم و الأصوات في الموسيقى (45) .(المرجع نفسه). ثم يتابع بقوله :

و السخرية لغة ناطقة للغالبية الصامتة . و السخرية لها مذاقان ، فهي مرة سامة من داخلها وحلوة لذيذة من خارجها . وهي طريق خطير في الكتابة ، إذ ليس من اليسير معرفة مدى الإبهام المستخدم فيها لتهدئة الغضب . إنها نتاج أدبي ينتقد التصورات والتعاليم الاجتماعية في المجتمعات البشرية باستخدام النكتة ، والعكس و الغضب و النقائض .

و التجربة تدعو إلى التفكير ، وحقيقتها غامضة . وبالرغم من طبيعتها المضحكة ، فإنها تستخدم الضحك أداة لنيل الغايات العليا ، لتلفت الناس إلى عمق الرذائل(46). وخلاصتها

أن السخرية تعني البكاء بقهقهة الضحك ، وتعني الضحك بعويل البكاء .

السخرية في الأمثال العربية :

تأخذ السخرية مكانة كبيرة في الأمثال العربية ، وتكاد تحكم على أنها فن خرج من رحم الأمثال ، لأنها نشأت وبرزت وغزرت في حقله الواسع. وكانت الغاية منها إبراز الجوانب الأخلاقية السلبية الضارة بالفرد والمجتمع معا ، ومنها أخلاق الغش و اللامبالاة و الكسل والبخل والنفاق و التكبر والظلم و الخيانة والحسد و البغض والقتل و الكذب والزور و التحايل وغيرها .. وتبقى السخرية هي الأسلوب الأمثل والفن النبيل في مواجهة العفونات الأخلاقية والاوساخ السلوكية الانحرافات المعاملاتية و الآفات الاجتماعية والأزمات الاقتصادية والمخدرات السياسية والانقلابات العسكرية في كل مجتمع من مجتمعات الدنيا ، إذ الحق واحد والباطل متعدد ، قال تعالى :(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا هم بربهم يعدلون) (47) (الأنعام) .

من سمات لغة السخرية في الأمثال العربية :

من أظهر السمات اللغوية مايلي :

- تجانس المفردات مع المفاهيم الاجتماعية و التقافية والسياسية و الأخلاقية .
- ورود طائفة من المحسنات اللغوية اللفظية .
- ورود عدد من الخصائص اللسانية ، كالتضاد و الاشتراك و الإبهام ، وذلك لورود عدد من الصور البيانية ، كالمجاز التشبيه والاستعارة والكناية و التمثيل .

ليصل منها الأديب الساخر إلى النتائج المرجوة .

ذلك أن الأديب الساخر يستخدم لغة مناسبة للحال والمقام ،لأن قلبه في هذه الحال هوعامر بالآلام و ممتلئ بالأوجاع التي جرعه بها المجتمع ، فامتلأ قلبه إلى مشاشه . كما أنه يعبر عن رأيه بلغة بسيطة موجزة دون حاجة إلى التصنيع و الترصيع والجناس . كما يلجأ إلى الجناس في بعض الأحيان للإغراق و المبالغة . كما يوظف أنواع التشبيهات و الاستعارات ، وخاصة الاستعارة التهكمية و التمثيل والتضاد و بالأخص الكناية و أقسامها كالتعريض و التلويح و الرمز و الإيماء و الإبهام .. وغيرها من المحسنات التي لا يغفل عنها الأديب الساخر الذي يمتلك المهارة والخبرة (48) .

- ولعل من أبرز سماتها الهروب من الواقع ، ذلك أن لغتها لا تصور العالم الخارجي كما هو ، بل تستفيد ....الهروب من الواقع . فواقع العالم الخارجي في لغة السخرية إما أن يرافقه التكبير أو يرافقه التصغير. (49) (المرجع نفسه).

ومن سمات نجاحها :

- الهجاء في معرض الذم .
- الذم الشبيه بالمدح .
- الصداقة الممزوجة بالصفاء .
- الإيمان برسالة القلم .
- بعد عن الدوافع الشخصية .
- البعد عن الدوافع النفسية .
- البعد عن القبح في التعبير(50)

القسم التطبيقي في الأمثال العربية :

ربما كان المثل لغة اختصرت حدثا ، أو قل هو تركيب لغوي صور فعلا إنسانيا حقيقيا في زمن مخصوص . وربما غلب في الحدث معنى السلوك الإنساني ، ذلك أن غالبية الأمثال تصنعها سلوكات الناس في الحياة ، كما يشمل المثل منها الإيجابي و السلبي معا .

وتأتي الأمثال في الحياة لبيان العقدة الثابتة في سلوك الناس في كل زمان ومكان . إنها عقدة الأخلاق والسلوك المتكررة في الإنسان . فمنظومة القيم هي واحدة في الناس في كل زمان ومكان ، إذ الإنسان مفطور على حب الخير وبغض الشر ، قال صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة فإما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) (51) . وهي سنة فطرية عامة في كل إنسان يولد في هذه الحياة . قال تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) (52) . والإنسان يعيش في حياته صراعا دائما بين الخير والشر ، فتارة يغلب خيره شره و تارة أخرى يغلب شره خيره . قال تعالى : (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) (53) ، وقال : (و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) (54) ، و (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) (55) . ولما كانت

الفطرة واحدة ، كانت السلوكات متشابهة في الناس عبر الزمان ، فكأنها نفس الأحداث في صور بشرية متعاقبة ، أو قل فكأنها منظومة أخلاقية ثابتة في بشر متغيرين . وهنا يصبح المحتوى (الخلق) ثابتا ، والصيغة (الإنسان) متغيرة .

وقد ألفنا في الدرس اللغوي أن الصيغة ثابتة و الدلالة متغيرة ....وربما قد يحير هذا الأمر الناظر اللغوي ؟ والصحيح أن الإنسان في ذاته هو صيغة ودلالة ، أما الصيغة فهي هندامه وشكله وصورته ، أما الدلالة فهي أخلاقه وأفعاله وسلوكه . فالأول ثابت والثاني متغير

لذلك بانت صورة أخلاق وسلوك تتكرر وتعاد مع الزمن في أشخاص متغيرين . فكأن الأمر يقول بسنة الثابت والمتغير . و الأخلاق فعال و الفعال أحداث ، وتسلسل الأحداث هو التاريخ .ومنه قالوا : التاريخ يعيد نفسه ، والسلوك يعود في شخص جديد مع الزمن .

-- صيغة لغوية صورت سلوكا متحركا --

و الصيغة اللغوية هذه هي التعبير الأول عن الحدث الحقيق ، فهي كالقالب التركيبي الثابت ، نوظفه كلما تجدد السلوك من دون النظر إلى صاحبه . والمثل شديد الارتباط بالطبيعة و العالم الخارجي كونهما مصدري المعرفة الإنسانية و التكنولوجية في كل زمان . وربما بهذا الأمر كانت نظرية المحاكاة و الطبيعة في بيان أصل اللغة هي أقرب صحة عند ابن جني من غيرها من النظريات الأخرى . ومن هنا يمكن اعتبار المثل صيغة لغوية ثابتة ذات دلالة كلية مفتوحة تجسد سلوكا متكررا في إنسان متغير. ويمكن القول بعد هذا أن المثل هو تصوير لغوي ثابت لقيمة إنسانية متكررة . فهو مرتبط بالعيان ارتباطا ، فهو نسيج لغوي من واقع حقيق . وهذا الذي يسمونه بالمورد ، فإذا عاود إنسان آخر السلوك نفسه سموه مضرب . ومنه جاءت صيغة مضرب الأمثال ، ومنه جاء في القرآن الكريم (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (56). والقرآن الكريم وظف صيغ المثل في أكثر من موضع للأهمية القصوى . جاء في بيان المثل عند الراغب الأصفهاني : و المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، نحو قولهم : (الصيف ضيعت اللبن) ، فإن هذا القول يشبه قولك :(وأهملت وقت الإمكان أمرك) . وعلى هذا الوجه ما ضرب الله من الأمثال فقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ، وفي أخرى (لعلهم يتفكرون) . و المثل يقال على وجهين أحدهما بمعنى المثل نحو شبه و شبه ونقص و نقص ، و الثاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني ، أي معنى كان ، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة . وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط ، و الشبه

يقال فيما يشارك في الكيفية فقط . و المساوي يقال فيما يشارك في الكمية ، والشكل يقال فيما يشاركه في القدروالمساحة فقط ، والمثل عام في جميع ذلك .)(57) (المعجم 482-481).

وظف القرآن الكريم المثل في أكثر من أربعين موضع أحصاها ابن الجوزي في كتابه المدهس .(تفسير ابن كثير) . والأمثال جمع مثل ، والمثل و المثيل كالشبه و الشبه و الشبيه لفظا ومعنى ، والتمثيل يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان بتشبيه المعقول بالمحسوس ، وقياس النظير على النظير. وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالا ، فكان ذلك أدعى إلى تقبل النفس له و اقتناع العقل به . وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه ، وعادة العرب استعمال الأمثال لأنها أبلغ في توصيل المطلوب إلى السامع ، وعندما جاء القرآن الكريم تحدى العرب ببلاغته الخاصة . فإن للقرآن بلاغة خاصة لا يدركها إلا العارف بأسرار اللغة العربية (58).(في تاريخ28-11-2016).

الإحصاء : السورة ،عدد المرات :

البقرة 9 - آل عمران 2- الأنعام 1- الأعراف 1 - يونس 1 - هود 1 - الرعد 2 - إبراهيم 3 - النحل 3 - الكهف 2 - الحج 2 - النور 3 - الروم 1 - الزمر1 - محمد 1 - الفتح 1 - الحديد 1 - الحشر1 - الجمعة 1 - التحريم 2 -

فوائد الأمثال :

وكان لإمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني قول، في غاية الأهمية في بيان فوائدها في القرآن الكريم ، حيث يقول : (اعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو أبرزت هي باختصار في معرضه و نقلت عن صورها الأصيلة إلى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

فإن كان ذما ، كان مسه أوجع و ميسمه ألذغ ، ووقعه أشد ، وحده أحد .

وإن كان حجتجا ، كان برهانه أنور وسلطانه أقهرو بيانه أظهر.

وإن كان اعتذارا ، كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، و للسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث ، وحسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظا ، كان أفى للصدر ، وأدعى للفكر ، وأبلغ في التنبيه و الزجر ، وأجدر أن يجلي الغيابة ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ويشفي الغليل .)(59) (أسرار البلاغة ص 101-102).

ويقول إبراهيم النظام : (يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام ، إيجاز اللفظ و إصابة المعنى و حسن التشبيه و جودة الكناية .)(60) (الأمثال في القرآن –محمد شاهد يامين –الدخول 28-11-2016-).said.net@ (miskoo-moh)

الجانب التطبيقي -

جانب السخرية في المثل العربي :

للمثل أي مثل مورد ومضرب ، فالمورد هو مقام ميلاد جملة المثل ، أي مقامه الأصلي و الأول . أما المضرب فهو مناسبة ضرب المثل إذا تشابهت علة الضرب مع علة المورد .

فصيغة المثل هي قياس ، والقياس حمل الفرع على الأصل لعلة شبه بينهما . و المثل تشبيه ، والتشبيه مشبه ومشبه به و علة شبه ، فجواز التشبيه في هذه الحال هو قائم على توافق علة بينهما (المشبه والمشبه به) ، أو قل توافق بين الأصل والفرع من جهة العلة . كما تقول: قياس النبيذ على الخمر لعلة السكر ، فالخمر حرام لأنه مسكر ، والنبيذ مسكر ، إذن هو حرام ، وهذا هو القياس الشرعي . ويقترب من هذا التحليل المثل العربي خاصة و الأمثال في الأمم الأخرى عامة . وربما قد يلاحظ على الأمثال العربية جملة ملحوظات قد تقود الذهن و الفكر و التأمل إلى التخصيص ، وهي :

- ارتباط المثل بالبيئة (أدوات و إنسان و حيوان و غيرها).

- المثل صيغة توظف أدوات الطبيعة و الإنسان و الحيوان ..

- المثل صيغة لغوية فصيحة تسرد حسب مقامها ، والمقامات متعددة ومتنوعة ومفتوحة ، إذن فهي ليست على نمط لغوي واحد .

- المثل صيغة ثابتة ومحتوى متغير.

- نواة المثل هو التشبيه لأداء معنى وبيان غرض . واللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والأغراض مفتوحة كانفتاح المقامات ، يقول الإمام السكاكي في ذلك : (إن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام الشكر يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد يباين مقام الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار ، جميع ذلك معلوم لكل لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغايرمقام الكلام مع الغبي ، ولك من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر ، ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام ....)(61) (مفتاح العلوم ص 73).

- سمة السخرية في المثل العربي نستشفها من صيغة التشبيه ونوعية المشبه به ، كالتشبيه بالحيوان و الطيور والزواحف و الجمادات ...

--1-- (أشأم من براقش) --

وبراقش اسم كلبة نبحت جيشا كان قصد قومها وخفي عنهم مكانه ، فلما نبحت عرفوه ، فعطفوا عليها واجتاحوه ، فقالت العرب : (أشأم من براقش) . فصارت الجملة مثلا يضرب في كل مقام وسلوك غبي يجر إلى هلاك وضرر في الأهل . وقد يصب معناه أيضا في صيغة الثانية أخرى اشتهر بها المثل وهي : (على أهلها جنت براقش) .

وقد تلمس فيه سمة السخرية من الفعل الغبي الذي يجر التهلكة و الضرر على أهله

ومجرد التشبيه بفعل براقش يحمل ضمنيا معنى من معاني السخرية .

و التشبيه بصورة براقش (الكلبة) فيه وصفة السخرية . ويضاف إليها أن اختيار صوتيات التسمية التي فيها الباء والراء والقاف و الشين بما تحمله من صفات الانفجار و الترعيد و القوة و التفشي التي تشكل ثقلا في النطق بها و هندسة صوتية غير منسجمة هي أقرب إلى الفوضى و التنافر و الثقل منها إلى التناسب والخفة والانسجام هي مدعاة إلى السخرية الصوتية . ما يفيد أن معاني السخرية قد تستخلص من كل مستويات التحليلي اللغوي ، وأساسها المستوى الصوتي ، فالإفرادي ، فالتركيبي .

--- 2-- ((**بقبقة في زقزقة**)).

قالوا : البقبقة هي كثرة الكلام و الصخب ، و الزقزقة الضحك .فصار مثلا يضرب للمفتخر بما ليس عنده ،أو الذي يأتي بالباطل . وقد تلمس في المثل سمات السخرية منها :

- الجرس الصوتي ، واختيار نغمة (بق) المضاعفة ، وهي في العادة نجدها في صوتيات الطيور ، ومنها (غ ق) التي هي صوت الغراب ونغمته ولغته ، لذلك قالوا : نعيق الغراب ، أي صوت غاق غاق . وهي لغة ثقيلة على النطق ، لا تبتعد حركة النطق بها عن مخرج الحلق ، وهذا أثقل غريب غير مبين، ليكون الناطق بها مدعاة للسخرية صراحة .

- كما أن سمة تكرار الصوت في التركيب الواحد يفيد عدم جدوى ، ويعلم بغياب المعنى ، ويلمح بخواء الإناء ، وفي ذلك سمة لا معنى ولا فائدة من هذه الأصوات . ومن شبه كلامه بهذا فهو مسخور منه ، و محتقر في أعين الناس .

- لقد هيمن على النص صوت (القاف) بنسبة (4) ، ثم بعده صوتا (الباء) و (الزاي) مثنى مثنى ، وفي ذلك إشارة إلى لا معنى .

وكثيرا ما كانت العرب توظف هذه الأصوات في اللا معنى وفي الفضاءات الفارغة . و البقبقة و الزقزقة هي أصوات مستوحاة من الطبيعة .

-3- ((**إن البغاث بأرضنا يستنسر**))-

و البغاث من ضعاف الطير ، و استنسر صار كالنسر في القوة . وهو مثل صار يضرب للعزيز إذا نزل عنده ذليل عزبه وصار قويا بعد أن كان ضعيفا .

وسمة السخرية تظهر في التشبيه بالطير الضعيف يريد أن يكون نسرا قويا بما لم يفعل وبغير حق ، وهو في هذه الحال مدعاة للسخرية و الاستجهال و الاستهزاء .

- **سمة السخرية في المثل :**

وهي في تشبيه الضعيف بالبغاث ، وتشبيه الاستقواء بالاستنسار ، و النزول بالإنسان من مقام الإنسانية إلى مقام أنزل وأرذل ، وهو مقام البغاث (ضعاف الطير) . و مجرد إلصاق مصطلح بغاث بالإنسان الضعيف هو في حد يفيد معنى السخرية منه و الضحك عليه استخفافا واستهزاءا . وقد يتجلى لك الأمر بيانا حين تقابل صيغة المثل اللغوية بصيغة

بيانية تستهدف معناها ، فتقول : (إن الضعاف بأرضنا يستقوون) . وهي جملة أولى واصفة ومقررة . ومجرد الاستبدال في خط المعنى نفسه يوحي بسمة السخرية . كما أنك مجرد ما تلقب الضعيف ببغيث أو بغث أو بغاث ،تكون قد أبنت السخرية منه صراحة .

قال الله تعالى (و تنابزوا بالألقاب) (62) ، حيث ذكر الآية في سياق السخرية ، لذلك قال قبلها (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان)(63) (الحجرات)

ويمكنك القول بأن السخرية تفيد تخاطبا من الأعلى إلى الأدنى ، من مرسل إلى مرسل إليه على سبيل التحقير و الاستجهال و التهوين المفضي إلى الضحك الناتج عن الاستصغار.

-- 4- ((**إنك لا تجني من الشوك العنب**))

أي إنك لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلا . قاله الإمام علي كرم الله وجهه لرجل مدحه نفاقا . والمثل هذا هو تركيب يفيض برائحة السخرية ذا المنبت السوء بالشوك الدائم الأذى ، ذو الصورة المنبوذة لدى الفطرة الإنسانية . وفضلا على أنه مني الحقارة و النذالة في عين الفطرة لكآبة منظره و لدوام أذاه وضره . فما تشبيهه بهذا النبات إلا لتحقيره و السخرية منه .

فالتشبيه بالشوك قمة في السخرية الجالبة للضحك ، الدافعة إلى الاستجهال على لغة الإمام الزمخشري . وقد يتجلى لك الأمر وضوحا لو قلت بدلها : (إنك لا تجني من ذي المنبت السوء العنب) ، وتبين لك ما تحمل مفردة (الشوك) من دلالات ومعاني قد لا تحملها كلمة (ذي المنبت السوء). وقصة المثل تحكي أن صبيا رأى أباه يغرس شجرة عنب وبعد مدة رأى ثمار عنب لذيذة ....فبادر الصبي تأسيا بأبيه فأخذ شجرة شوك فغرسها ، فلما رآة أبوه استغرب الفعل وقال لابنه : (إنك لا تجني من الشوك العنب) .فصارت هذه على إثرها مثلا ، أي لا تجد عند المنبت السوء جميلا . ويقال إن المثل هو من قول أكتم ، وقد أراد إذا ظلمت فاحذر الانتصار ، فإن الظلم لا يكسبك إلا مثل فعلك .).

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام السيوطي و ابن نعيم وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة قوله صلى الله عليه وسلم : (كما لا يجتنى من الشوك العنب ، كذلك لا

ينزل الفجار منازل الأبرار ، فاسلكوا أي طريق شئتم ، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله .)
.(64)

والشوكة مايخرج من الشجر أو النبات دقيقا صلبا محدد الرأس كالإبر . والعنب ثمر ناعم القشرة عصيري ينمو على شجرة خشبة – شجرة العنب . تظهر الأعناب في عناقد يوجد فيها عادة مابين ست تمرات إلى ثلاث مائة تمرة ، ومختلف الألوان والأذواق ، ويقال لثمرة الكرم نفسه ، الواحدة عنبة و جمعه أعناب ، قال تعالى : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون سكرا ورزقا حسنا)(65) (النحل) . واجتنى الثمرة : جناها ، تناولها من منبتها و التقطها . واجتنى العسل جمعه ، وأجنى فلان التمر مكنه من اجتنائه . كما يمكن قراءة خطاب المثل من جهة الجناية ، فتقول : هذا ما جنى علي أبي و ما جنيت على أحد . تقول : من صنع شرا جنى شوكا . و من صنع خيرا جنى خيرا . فهما يتمشيان معا ، وتلك سنة الله في خلقه . وتقول أيضا :

- إنك لا تجني الخير من الشر . و لا تجني العنب من الشوك . حيث نجد في هذا الخطاب (الصيغة التركيبية) معادلة الضدين الذين لا يجتمعان ، الشوك والعنب . وهو الأمر الذي أكده القرآن الكريم في أكثر من موضع ، ومنه قوله تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) (66) .

--5-- ((**مواعيد عرقوب**))--

قال أبو عبيد : هو رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما اطلعت أتاه للعدة ، فقال له : دعها حتى تصير بلحا ، فلما أبلحت ،قال : دعها حتى تصير زهوا ، فلما زهت ، قال : دعها حتى تصير رطبا ، فلما أرطبت ،قال : دعها حتى تصير تمرا ، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها ولم يعط أخاه شيئا ، فصار مثلا في الخلف . وفيه قال الأشجعي :

-- وعدت وكان الخلف منك سجية - مواعيد عرقوب أخاه بيثرب ---

ويروى بيثرب وهي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويترب – بالتاء وفتح الراء - موضع قريب من اليمامة . وقال كعب بن زهير :

-- كانت مواعيد عرقوب لها مثلا - وما مواعيد ها إلا أباطيل - (67)

(كتاب مجمع الأمثال – مختارات – تحقيق محمد علي قاسم ص 152).

والنص مثل يضرب في الخلف الذي يومأ له بعدم الوفاء ، وهو يقوى على حمل معنى منه قريب كمعنى الكذب و النفاق الذي هو الوعد والخلف .

- وصيغة المثل اللغوية (مواعيد عرقوب) هي جملة اسمية غير تامة ، إذ ينقصها الجزء المتم الفائدة ، وهو الخبر ، لأنها في هذه الحالة توجب علينا طرح السؤال التالي : ما بها ؟ ، ما صفاتها ؟ ومالها ؟ وما عليها ؟ .غير أن طبيعة هذه الصيغة الناقصة التامة توحي بأشياء نستنبطها من محيطها و مقامها ومقتضى حالها ، وسبب إيرادها . ونقصان الصيغة هذه خطا ، أي من جهة الشكل الظاهر يلزمه تأويل ، وهي أيضا حاملة بهذه الصورة معاني ودلالات ذات أهمية وما كانت لتكون وتستخلص إلا بهذا الشكل الظاهر الناقص التام .

فانتفاء الصفة أو الخبر من صيغة المثل على رسوخ صفة الخلف و تجذرها في شخص عرقوب ، حتى كأنها صارت جزءا من كيانه ، فلا يذكر (عرقوب) إلا والخلف حاضر باليقين ، و يجلي هذا المعنى قول الشاعر كعب بن زهير في قصيدة(بانت سعاد):

(كانت مواعيد عرقوب لها مثلا -- وما مواعيد عرقوب إلا أباطيل) .

وكأن بهذه الصيغة الناقصة التامة (مواعيد عرقوب) توحي في المقابل باستئصال خلق الوفاء بالوعد من كيان عرقوب ، أي صار كأنهما عدوان لدودان لا يلتقيان كالشيء وضده .

ذلك أن الناس جميعا لم يعرفوا عنه صدقا ولا وفاء بعهد في حياته كلها . فلما صار عند الناس كذلك ، من حيث لا يخفى خلف الوعد عند أحد منهم ، صار لا مدعاة و جدوى من ذكر صفة الخلف ، فهم على علم بذلك يقينا . فكأن عرقوب هو الخلف عينه ، وكأن الخلف هو عرقوب ذاته . لذلك قالوا : (مواعيد عرقوب) ، و الأصل برأينا (مواعيد عرقوب خلف) . وحذفها (الصفة) في هذا المقام يدل أكثر من ذكرها ، يقول الإمام الجرجاني : (هذا باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، و الصمت عن الفائدة أزيد للفائدة ، وتجدك أ نطق ما تكون ، إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن .)(68) (الدلائل ص103دار قتيبة) .

ولو ذكرت في الصيغة ما قطعت ولا جزمت بنسبة الخلف كاملة ، وربما أشركت معها صفة الوفاء بالوعد ولو بنسبة ضئيلة جدا . وحذفها في هذا المقام كما يحمل هذه المعاني ، يحمل دلالة السخرية و الاستهزاء و الاحتقار و الاستخفاف و الاستجهال الباعثة على الضحك عليه ، لأن صفة كهذه تنبذها الفطرة البشرية و تمجها الأنفس و تبغض فاعلها و تجلب السخرية منه .

- **الخاتمة :**

وبعد فإن كانوا قد قالوا : عندما يعجز الجد عن البيان تسارع السخرية في التعبير. فإنه بذلك تكون السخرية هي طريق الممهد للتعبير عن الجوانب الانتقادية والنقائص المجتمعية بلغة ممزوجة بالضحك الناتج عن الآلام والأوجاع و المضايقات الشديدة ، وعلية فلغتها هي نوع من أنواع اللغة الأدبية ، وهي لغة ناطقة للغالبية الصامتة ، لذلك وصفوا لغة السخرية بأنها مرة سامة من الداخل وحلوة عذبة في الخارج . وتأخذ السخرية في الأمثال العربية مكانة كبيرة ، وقد تكاد تحكم بأنها فن خرج من رحم الأمثال ذاتها . ألم تكن الأمثال فنا نبيلا ممدودا جاء لرسالة شريفة تهدف رأسا مواجهة العفونات و الأوساخ والانحرافات والآفات و الأزمات في كل المجتمعات ؟ ألم تكن هذه هي عين رسالة في السخرية في المعارف الأدبية ؟

ألم تكن لغة الأمثال و السخرية لغة رسالية هادفة إلى تصحيح وتوجيه وترشيد وبناء مجتمعات الفضيلة حضارات القيم ؟

هوامش البحث:

القرآن الكريم -برواية ورش عن نافع -دار المعرفة - ط 9- 1428هـ- دمشق .
1-اللسان العربي وقضايا العصر-عمار ساسي - ص17- عالم الكتب الحديث 2009. وأسرار اللسان العربي - جعفر دك الباب - ص808- الأهالي -دمشق-1990-ط 1.
2-الجاثية 11-13.
3-هود 38.
4-مقاييس اللغة - أحمد بن فارس - ج3- ص144- تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار الفكر .
5-الجاثية 11-13.
6-إبراهيم 33.
7-الزخرف32.
8- هود 38.
9- الصافات 12.
10-المؤمنون 110.
11- ص62-63.
12- المؤمنون 110.
13- معجم مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - ص 232-233- تحقيق نديم مرغشي - دارالكاتب العربي .
14- الحجرات 11.
15- المؤمنون 110.
16- لسان العرب- ابن منظور - ج 2 - ص 114- 115- إعداد وتصنيف يوسف الخياط - دار لسان العرب - بيروت .
17-الحجرات 11.
18- من ديوان الفرزدق - قصيدة مطلعها (إن الذي سسمك السماء بنى لنا - بيتا دعائمه أعز وأطول) ، في هجاء جرير في شعر النقائض - - الدخول بتاريخ 30-12-2016.com. الموسوعة العالمية للشعر العربي
19-إبراهيم 31-32.
20-النحل 12.
21-الجاثية 11-13.
22-الحجرات11.
23-هود 38.
24-تفسير الكشاف - الزمخشري - ج2 - ص 268 - دار الفكر .
25-الإسراء 24.
26المعارج 44.
27 آل عمران112.
28-الأعراف 152.
29-البقرة 71.
30-المائدة 54.
31- النحل 69.
32- الإنسان 14.
33-معجم مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني -ص182- 183. دار الكاتب العربي .
34-السخرية في أدب الجاحظ - السيد الحليم محمود حسين -ص93- دار الجماهيرية 1988.- ويكيبيديا الموسوعة الحرة - الدخول بتاريخ 25-12-2016.
35- كتاب البخلاء - الجاحظ - تقديم محمد علي أبو العباس - ط1 - ص 46- دار الكتب المصرية .
36-السخرية في أدب الجاحظ -السيد عبد الحليم محمد حسين - ص 102 - ويكيبيديا - الموسوعة الحرة - الدخول 25-12-2016..

37-المرجع نفسه – ص103.
38- المرجع نفسه – ص128.
39-المرجع نفسه – ص129.
40- الفهرست - ابن النديم محمد بن إسحاق أبو الفرج – ص 170 -
41-السخرية لغتها وأشكالها ودوافعها – أبو القاسم ردفر-جامعة آزاد الإسلامية –جيرفت – 2011- الدخول بتاريخ20 - 12-2016 http //www.shomosnews.com/58718-2
42- المرجع نفسه – الموقع نفسه –التاريخ نفسه .
43-المرجع نفسه .
44-السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري – د نعمان محمد أمين طه – ط1- 1978- دار التوفيقية للطباعة الأزهر –
www.alsakher.com
45-المرجع نفسه – الموقع نفسه – الدخول بتاريخ 25-11-2016.
46- المرجع نفسه –الموقع نفسه – التاريخ نفسه .
47- الأنعام 01.
48-السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري –نعمان محمد أمين طه –
www.alsakher.com
49-المرجع نفسه – الموقع نفسه .
50-المرجع نفسه – الموقع نفسه .
51-حديث نبوي شريف – متفق علية – عن أبي هريرة رضي الله عنهما .
52-الروم 30.
53-يوسف –53.
54-التوبة 102.
55-الشمس 07.
56-العنكبوت43.
57-معجم مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – ص481-482.
58-الأمثال في القرآن الكريم – محمد شاهد يامين –(موقع صيد الفوائد)
((Said.net))
59-أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني –ص101-102.
60-الأمثال في القرآن الكريم –محمد شاهد يامين- موقع صيد الفوائد
Said.net
61- مفتاح العلوم – الإمام السكاكي – ص 73. دار الكتب العلمية .
62-الحجرات 11.
63-الحجرات11.
64-أخرجه الإمام السيوطي وأبن نعيم و ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة .
65-النحل 67.
66-فصلت46.
67-كتاب مجمع الأمثال – مختارات – تحقيق محمد علي قاسم – ص152.
68-دلائل الإعجاز –الجرجاني عبد القاهر – ص103- دار قتيبة .

الدّلالة المعجميّة في درّة الغوّاص في أوهام الخواص للحريري _دراسة وصفية

Lexical semantic inDurrat al-Ghawas fi Owham Al-Khawasto Alhariri -Descriptive study

ياقوتة لزرقي *

تاريخ تقديم البحث **2017/11/1** تاريخ القبول **2018/1/4**

ملخص

يجتهد هذا البحث في دراسة الدلالة المعجمية عند أحد أعلام اللغة العربية، ألا وهو الحريري، وذلك من خلال كتابه درة الغواص في أوهام الخواص، الذي اجتهد فيه في كشف اللحن الذي وقع فيها خاصة الناس ظنا منهم أنه من الفصيح العربي، ولذلك كان لزاما علينا التعريف بمنهج المؤلف في كتابه قبل بحث الدلالة المعجمية من كل جوَانبها دراسة وصفية تحليلية؛ لذلك كان أنسب المناهج لهذه الدراسة هو المنهج الوصفي، لنسجل في خاتمة البحث أهم النتائج المتوصل إليها.

الكلمات الدالة: الدلالة المعجمية، اللغة، اللحن، التغير الدلالي، العلاقات الدلالية.

Abstract

This research aims to study the lexical semantic of one of the most famous Arabic linguists, namely, Alhariri, through his book Durrat al-Ghawas in Owham Al-Khawas, in which he uncovered the incorrectness in which theespecially peoplehas been said it;.They thought it was aneloquent language.For that we are obligated to introduce the authorapproach in his book before examining the lexical semantic of all its aspects descriptive analytical study; therefore, the most appropriate methods for this study is the descriptive approach, to record finally in the conclusion of the research the most important results.

Keyboard: lexical semantic, language, incorrectness, semantic change, semantic relations.

* قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الأداب واللغات ،جامعة لونيسي علي، البليدة 2، الجزائر

مقدمة

اهتم علماء اللّحن في التراث اللساني العربي بالدّلالة وذلك بمراعاة أمرين: الأوّل وصفي يبرز الدّلالات الصّوتيّة والصرفية والنحوية التي نتجت عن العدول في الكلام سواء بالتحرّك من الصواب إلى الخطأ أو العكس، والثاني تاريخي يركز على الدّلالة المعجميّة وما يعتورها من تغيير. والملاحظ على كتب اللحن التي تركها لنا السّلف أنّها تقدّم لنا نماذج تطبيقية حيّة للنشاط الدلالي في كل حقبة من تاريخ حضارتنا الزّاهرة، غير أنّنا اخترنا من هذه الجوانب جانبا واحدا هو جانب الدّلالة المعجميّة الّذي عنينا برصد أمثلته من خلال مؤلّف وازن من مؤلّفات اللّحن القديمة، وهو: "درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ" للقاسم بن علي الحريري، ولكن قبل الولوج إلى ذلك لابدّ من التّعريف بالمدوّنة _ موضوع الدّراسة_ وصاحبها.

أولا_ التّعريف بالمؤلّف(الحريري):

هو أبو محمّد القاسم بن علي بن عثمان الحريري البصريّ الحراميّ، وُلد سنة أربعمائة وستّ وأربعين للهجرة بضاحيّة من ضواحي البَصرة تُسمّى"المُشَان". ولمّا شبّ تحوّل عنها إلى البصرة واستقرّ بحيٍّ فيها يُسمّى"بنو حرام"؛ ولذلك سُمّي بالبصري الحراميّ، وكان يزعم أنّه من ربيعة الفرس. أمّا تسميّته بالحريري فنسبة إلى مهنته، وهي صناعة الحرير أو بيعه[1].

أخذ الحريري الأدب عن أبي القاسم الفضل بن محمّد القصباني(ت444هـ) الّذي ذكره في درّته أكثر من مرّة، إذ كان غالبا ما تتصدّر أقواله فيها عبارات مثل:"وذكر شيخنا أبو القاسم الفضل بن محمّد النّحوي رحمه اللّه"[2]، و" قال الشّيخ الإمام الأجلّ والأوحد أبو محمّد رحمه اللّه"[3]، ولم يكن أبو القاسم الفضل القصباني الشّيخ الوحيد الّذي أخذ عنه الحريري؛ لأنّنا وقفنا في الدّرّة على ما يُثبت أخذه عن آخرين؛ وذلك في قوله عند تعليقه على أحد القضايا:"وقد أذكرني هذا المثل أبياتا أنشدنيها أحد أشياخي رحمهم اللّه"[4].

أقبل الحريري على العلم والأدب، وتَفقَّه في الدّراسات الدِّينيّة والعلوم اللُّغويّة والنّحو؛ حتّى بلغ ما بلغه من مكانة بين العلماء، ويروى أنّه كان في غاية الذّكاء والفطنة، وهو ما أدركه أولو الأمر في عصره فأدنوه منهم وعيّنوه صاحب الخبر في البصرة[5]، وقد ساعده في ذلك تمسّكه بدينه وبعده عن الشّبهات.

وفي سنة أربعمائة وخمس وتسعين بدأ الحريري في كتابة مقاماته الّتي نالت شهرة واسعة، وتداولها النّاس، وأشاد بها الحكّام والأدباء[6]؛ ذلك أنّها "اشتملت على شيء كثير من

كلام العرب من لغاتها وأمثالها وأسرارها؛ ومن عَرَفها حقّ معرفتها استدلّ بها على فضل هذا الرّجل وكثرة اطّلاعه وغزارة مادّته"[7]، وكان الحريري معجبا بمقاماته فخورا بها. وله دون ذلك مؤلّفات أخرى منها: "ملحة الإعراب"، وهي منظومة في النّحو تناول فيها مختلف أبواب النّحو، بدءًا بباب الكلام إلى غاية باب البناء في حوالي أربعمائة بيت من الرّجز، ميّزتها السّهولة والوضوح، وله أيضا شرحها.وقد كان الحريري بارعا براعة فائقة في اللّغة يشهد له بذلك مؤلّفه الشّهير في اللّحن" درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ"_ موضوع الدّراسة_، وتوُفي سنة ست عشرة، وقيل خمس عشرة وخمسمائة بالبصرة، في سكّة بني حرام مخلّفا ولدين[8].

ثانيّا_ التّعريف بالمؤلَّف "درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ":

الكتاب كما يظهر من عنوانه يتوجّه به صاحبه إلى خاصّة النّاس، إذ يقول في مقدّمته: "فإنّي رأيت كثيرا ممّن تسنّموا أسنمة الرّتب، وتوسّموا بسِمَة الأدب قد ضاهوا العامّة في بعض ما يفرط من كلامهم، وتَرْعَفُ به مراعف أقلامهم ممّا إذا عُثِر عليه، وأُثر عن المعزوّ إليه خفض قدر العِلْية، وصمّ ذا الحلية. فدعاني الأنَف لنباهة أخطارهم، والكلف بإطابة أخبارهم، إلى أن أدرأ عنهم الشُّبَه، وأبيّن ما التبس عليهم واشتبه،... فألّفت هذا الكتاب تبصرة لمن تبصّر، وتذكرة لمن تذكّر، وسمّيته «درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ»"[9]، حيث ضمّن الحريري كتابه هذا جملة من الألفاظ والعبارات الّتي أُسيء استخدامها فحُرّفت عن موضعها الأوّل الّذي ارتضاه لها فصحاء العرب، ولم يسِر الحريري في ترتيبه للمادّة على نهج معيّن، بل ساقها على نحو عشوائي، إذ يمكن إجمال ما جاء به في المواضيع الآتية:

1. تغيير دلالة الكلمة بتعميمها أو تخصيصها، أو الانتقال بها إلى معنى آخر.
2. تجاوز بعض القواعد النّحويّة والصّرفيّة.
3. عدم التّفريق بين المعاني النّاتجة عن تقارب البنية الصّوتيّة للكلمة الّتي تعدّ من أقوى الدّلائل فيه.

وقد نالت الدّرّة شهرة واسعة في عصر الحريري وحتّى في العصور المتأخّرة، ويشهد على ذلك إقبال العلماء عليها بالشّرح والتّحليل والتّرتيب والرّد، ومن أشهر العلماء:[10]

_ أبو محمّد عبد اللّه بن برّي(ت582ه): وضع على الدّرّة حواشي وردود مفيدة.

_ ابن منظور الإفريقي: رتّبها في كتاب أسماه "تهذيب الخَواصّ من درّة الغوّاص".

_ شهاب الدّين الخفّاجي(ت1069ه): وضع عليها شروحا وتعليقات وردودا.

_ محمّد الحسيني المعروف بآلوسي زاده(ت): جمع عليها شروحا لمن سبقه إليها في كتاب أسماه" كشف الطرّة عن الغرّة"، حيث قام فيه بترتيب ألفاظ الحريري ترتيبا هجائيا.

المنهج المتبع:سلك الحريري في درّته طريق المُتشدّدين بحرصه البالغ على انتقاء الأفصح والمطّرد من كلام العرب الفصحاء، وعليه كان منهجه في معالجة القضايا على النّحو الآتي:

الاستشهاد بالقرآن الكريم بالدّرجة الأولى:فلا تكاد صفحات الكتاب تخلو من الآيات القرآنية الّتي يأتي بها الحريري؛ ليؤكّد صحّة ما يذهب إليه، ولم يأخذ في المقابل بالقراءات حتّى أنّه نسب بعضها إلى اللّحن.

التّحرّز الشّديد في الأخذ من اللّغات:ميّز الحريري حرصه الشّديد في الأخذ بالمشهور المبني على القياس المطّرد ذلك أنّ الشّواذّ لديه"تُقصر على السّماع، ولا يُقاس عليها بالإجماع"[11]. والأمر ذاته بالنّسبة لأخذه الأشعار عن شعراء الطّبقات الأولى فقط، ولم يأخذ عن طبقة المولَّدين.

عدم التزامه كلّية باستعمالات علماء اللّغة: فهو لا يرى في استعمالاتهم ما يُجوّز القبول بالخطأ، ويظهر ذلك في تخطئته للأصمعي في تصغيره مختارا على: مُخَيْتِير، وهو عنده" غلط أودع بطون الأوراق وتناقله الرّواة في الآفاق"[12]. فمنهج الحريري المتشدديقصد من ورائه العودة باللّغة إلى عصور النقاء اللغوي الأولى، إلّا أنّ في ذلك صعوبة تفرضها طبيعة اللّغة القابلة للتّطوّر. وهو وإن لم يستخدم المصطلحات الّتي نعرفها في علم الدّلالة إلّا أنّ الكتاب ينبئ عن وعي عميق بها يظهر في الممارسة الدّقيقة لهذا العلم الحديث.

ثالثا_الدّلالة المعجميّة_lexical semantic:

تسمّى أيضا بالدّلالة المركزيّة أو الأساسيّة[13]، إذ تُمثّل المعنى اللّغوي الّذي وضع له اللّفظ أوّل الأمر، وهيّ جوهر المادّة اللّغويّة المشترك في كلّ ما ينتج عنها من اشتقاقات وأبنيّة صرفيّةمتنوّعة[14]، حيث شبّهها إبراهيم أنيس بـ"الدّوائر الّتي تحدث عقب إلقاء حجر في الماء، فما يتكوّن منها أوّلا(...) يعدّ بمثابة الدّلالة المركزيّة للألفاظ، يقع فهم بعض النّاس منها في نقطة المركز، وبعضهم في جوانب الدّائرة، ثمّ تتّسع تلك الدّوائر وتصبح في أذهان قلّة من النّاس وقد تضمّنت ظلالا من المعاني لا يشاركهم فيها غيرهم"[15]، وتلك المعاني المركزيّة هي الّتي يحرص أصحاب المعجمات على تقديمها[16].

وقد عمد علماء اللّغة المحدثون إلى تحليل الوحدات المعجميّة lexical units بوصفها بنية من العناصر المتعالقة، واستنادا إلى ذلك قام المعجميّون بتحديد ثلاثة عناصر أساسيّة للمعنى المعجمي تتمثّل في:[17]

أ_ ما تشير إليه الوحدة المعجميّة من دلالات معنويّة أو مجرّدة denotation: وهيّ العلاقة الّتي تربط الدّال اللّغوي بمدلوله سواء أكان هذا المدلول مادّيا أو غير مادّي، فمعنى كلمة "كوز" مثلا: هو التّرابط بين الفكرة "إناء به عُروة" وبين الصّورة السّمعيّة[18]، وهذا العنصر على الرّغم من دلالته الثّابتة على الموجودات في الخارج إلّا أنّ جانب النّسبيّة فيه لابد أن يؤخذ في الحسبان، فالوحدة المعجميّة "صباح" مثلا تطلق في اللّغة العربيّة على الفترة الممتدّة من انتصاف اللّيل إلى وقت الزّوال[19]وفي اللّغة الإنجليزيّة على أيّ وقت من أوقات النّهار في حدود الفجر والظهر، فيما تطلق في اللّغة الألمانيّة على وقت الضّحى.

ب_ ما تتضمّنه الوحدة المعجميّة من دلالات تتلازم مع الأولى connotation: ويشمل هذا العنصر** ما ترتبط به الكلمة من مفاهيم وتصوّرات بعيدا عمّا تشير إليه في الخارج، أو" هو المعنى الإضافي الّذي توحي به كلمة ما زيادة على معناها الأصلي، وغالبا ما يختلف المعنى الإضافي من شخص لآخر"[20] وقد عبّر عنه إبراهيم أنيس بمصطلحالدّلالة الهامشيّة"وهي تلك الظلال الّتي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، فهي ظلال المعاني"[21]، ويمكن التّمثيل لذلك بكلمة "أحمر" الّتي تدلّ دلالة تضمّنيّة على الحُسن، ويُكنّى بها أيضا على استصعاب أمر ما؛ فيقال: الموت الأحمر، وعلى السّنة المُجدبة فيُقال: حمراء[22].

ج_ درجة التّطابق بين العنصر الأوّل والثّانيrang of application: أي التّطابق بين الدّلالة المركزيّة والدّلالة الهامشيّة، فمثلا لفظتي "التّتابع" و"التّواتر" بينهما تطابق فيما يتّصل بما تشيران إليه في الخارج وهو: مجيء شيء إثر شيء، ومع ذلك هناك فرق يكمن في درجة التّطابق إذ تُستعمل الأولى للدّلالة على التّتابع الّذي يكون بلا فصل، فيما تُستعمل الثّانية للدّلالة على ما يكون بينه فصل ومنه قيل: جاءت الخيل متتابعة إذا جاء بعضها في إثر بعض، وجاءت متواترة، إذا تلاحقت وبينها فصل[23]، ومن ذلك أيضا لفظتي"القيمة والثّمن" فالأولى يُراد بها ما يوافق مقدار الشّيء ويعادله، والثّانيّة ما يقع به التّراضي[24].

وممّا جرى مجرى ذلك، لفظتي "الجلوس" و"القعود"، اللّتين فرّق بينهما الخليل بن أحمد وتبعه الحريري إذ قال:" والاختيار على ما حكاه الخليل بن أحمد أن يُقال لمن كان قائما:

اقعُد، ولمن كان نائما أو ساجدا: اجلس، وعلّل بعضهم لهذا الاختيار، بأنّ القعود هو الانتقال من عُلو إلى سُفْل، ولهذا قيل لمن أصيب برجله مُقعَد، وإنّ الجلوس هو الانتقال من سفل إلى علو، ومنه سمّيت نجد جَلْسا لارتفاعها، وقيل لمن أتاها: جالس وقد جلس[25]. كذلك "الحثّ والحضّ"، "فالحثّ يكون في السّير والسّوق وفي كلّ شيء، والحضّ فيما عدا السّير والسّوق"[26].وهذا العنصر_درجة التّطابق _ الّذي حدّده علماء اللّغة المحدثون يتجلى بشكل دقيق فيما يُعرف ب"الفروق اللّغويّة" و"الأشباه والنّظائر" الّتي أفرد لها اللّغويّون القدماء مؤلّفات مستقلّة منها: الفروق اللّغويّة لأبي هلال العسكري، والأشباه والنّظائر لجلال الدّين السّيوطي.

رابعا_ طرق التفسير الدلالة المعجمية عند الحريري:

صاحب الدّرّة على الرّغم من عدم سيره على منهج معيّن في التّرتيب إلاّ أنّ كتابه يُعدّ من أهم المعجمات التّثقيفيّة الّتي تميّزت بالاستطراد وكثرة الشّواهد، وكذا الاحتفال بالمسائل الأدبيّة[27]، وقد تمثّلت لديه معظم طرق تفسير المعنى المعجمي الّتي سلكها صانعو المعجمات،ولعلّ أكثرها تواترا ما يلي:[28]

1_ التّفسير بالمغايرة أو المخالفة:

"وقد استخدمه اللّغويّون في مؤلّفاتهم لبيان معنى كثير من الألفاظ، لكنّه استعمل بوضوح في المعجمات المختصرة، وليس معنى ذلك أنّ المعجمات الّتي أعطت المعاني حقّها من التّوضيح والتّفصيل خلت منه، بل وُجد فيها متناثرا"[29]، وهناك ثلاثة أنواع من المغايرة وهي:

1_أ_ المغايرة التّامّة: ويُعبَّر عنها بمصطلحات مثل: نقيض وضدّ وخلاف، إذ تكون فيه المغايرة باختلاف المعنى وأصل الكلمة نحو تفسير الحريري للذِّكر بأنّه ضدّ النّسيان[30].

1_ب_ المغايرة الناقصة: يشمل هذا النّمط من المغايرة المعنى أو الصّيغة، ويمكن أن يشملهما معا مع الحفاظ على أصل الكلمة، من ذلك ما جاء في الدّرّة في تفسير لفظة " نجز":" معنى نجز بالفتح حضر(...) وبعته ناجزا بناجز أي حاضرا بحاضر"[31].هذا عن المغايرة في الصّيغة. أمّا المغايرة في المعنى دون الصّيغة فهو ما يُعرف بالمشترك اللّفظي homonymy، وهو أن تحتمل اللّفظة معنيين أو أكثر، ومن أمثلته في الدّرّة لفظة "الملح" الّتي تُطلق على الرّضاع، وتطلق كذلك على حقوق العشرة والمودّة، بل تُقرن أحيانا بالخبز إشارة إلى ما يُؤتدم به[32].

وقد ورد في اللّسان والقاموس والتّاج ما يدلّ على تعدّد معنى كلمة "الملح"فالملح بالكسر ما يُؤتدم به، والرّضاع والعلم، والعلماء، والملاحة، والشّحم، والسّمن، والحرمة، والذّمام، وضدّ العذب من الماء[33].

1_ ت_ المغايرة بالمجاز: وذلك عن طريق التّفريق بين معنى الكلمة الحقيقي ومعناها المجازي، كقولهم: تنسّمت علما، واشتقاقه من النّسيم، فشبّه ما يشدوه منه حالا بعد حال، وفي الوقت بعد الوقت باستنشاق النّسيم[34].

2_ التّفسير بالتّرجمة:

والترجمة المقصودة هاهنا هيّ أن تُفسّر الكلمة بكلمة أخرى من اللّغة نفسها، أو بأكثر من كلمة من اللّغة نفسها، وعليه هناك نوعان من التّفسير[35]، الأوّل: يكون بشرح اللّفظ بلفظ آخر يحمل المعنى ذاته أو يُقاربه، والثّاني: يُقصد به تفسير اللّفظ بأكثر من لفظ، وذلك بشرح معناه شرحا موجزا،وقد كان لهذا الضّرب من التّفسير بنوعيه قدر كبير في الدّرّة؛ وربّما تكون علّة ذلك هيّ استخدامه في معظم المعجمات الأمر الّذي جعل منه أحد الطّرق المهمّة في شرح المادّة المعجميّة بالنّسبة للقارئ.

2_أ_ التّفسير بكلمة واحدة: أو ما يُعرف بالتّرادف، وهو دلالة عدد من الكلمات على معنى واحد[36]، وقد استخدمه الحريري في توضيح العديد من الألفاظ نحو تفسيره ل"اقدحرّ" بمعنى "غضِب"[37]، و" ألا" بمعنى " قصّر"[38]، و"طمّ" بمعنى علا وقهر[39]، وفسّر "الهوش" ب"الاختلاط"[40]، و"الأوق" ب"الثّقل"[41].

2_ب_ التّفسير بأكثر من كلمة واحد: وغالبا ما يُستهلّ بكلمة تفسيريّة نحو:" تغشمر السّيل **إذا** أقبل بشدّة وجرى بحدّة"[42]، و"ما كلّمته قطّ **أي** فيما انقطع من عمري"[43]. وممّا ينتظم في هذا السّمت أيضا قوله بأنّ:" الدّفيف هو سريع الحركة"[44]، و" العلباء هي العصبة في العنق"[45].

3_ التّفسير بالسّياق_context:

رأى اللّغويّون المحدثون* أنّ المعجم لا يجب أن يقتصر على معنى الكلمة المفردة، بل عليه استيعاب ما ترد فيه من أسيقة باعتبار هذه الأخيرة واحدة من أهم العناصر المحدّدة للمعنى[46]، إذ يشمل السّياق كلّ ما يُصاحب العمليّة الكلاميّة من عناصر لغويّة أو غير

لغويّة."ومعنى الكلمة _على هذا_ يدرك تبعا لتعدّد السّياقات الّتي تقع فيها"[47]، وعليه قُسّمت الأسيقة إلى:

3_أ_ السّياق اللّغوي_linguistic context: وهو النّظم اللّفظي للكلمة وموقعها من ذلك النّظم، إذ يتطلّب تحديده تحليلا دقيقا للمستويات اللّسانيّة على اختلافها، صوتيّة، وصرفيّة، ونحويّة، ومعجميّة[48]، فمعنى الكلمة هو حصيلة استعمالها"داخل نظام الجملة متجاورة وكلمات أخرى، ممّا يكسبها معنى خاصّا محدّدا، كما أنّ للسّياق اللّغوي دورا فعّالا في إيضاح كثير من العلاقات الدّلاليّة عندما يستخدم مقياسا لبيان التّرادف أو الاشتراك أو العموم أو الخصوص أو الفروق ونحو ذلك"[49]؛ الأمر الّذي دفع بصانعيّ المعجمات إلى الوقوف على معاني الكلمات المتغيّرة حسب النّصوص الواردة فيها؛ ومن ذلك ما ذكره الحريري في بيان معاني "عند" حسب السّياق الّذي ترد فيه يقول:"تستعمل عند بعدّة معان، فتكون بمعنى الحضرة، كقولك: عندي زيد، وبمعنى الملكة كقولك: عندي مال، وبمعنى الحكم كقولك: زيد عندي أفضل من عمرو، أي في حكمي، وبمعنى الفضل والإحسان كما قال سبحانه وتعالى إخبارا عن خطاب شعيب لموسى عليه السّلام:﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرا فَمِنْ عِنْدِك﴾[50]أي من فضلك وإحسانك"[51].

3_ب_ السّياق العاطفي_Emotional context: يرتبط هذا السّياق بدرجة القوّة والانفعال المصاحبة للأداء الفعلي للكلام ممّا يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا[52]، فـ"السّياق وحده هو الّذي يوضّح لنا ما إن كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنّها تعبير موضوعي صرف، أو أنّها قُصد بها تعبير عن العواطف، والانفعالات، وإلى إثارة هذه العواطف والانفعالات، ويتّضح هذا في مجموعة من الكلمات نحو: حرّيّة وعدل، الّتي قد تُشحن في الكثير من الأحيان بمضامين عاطفيّة، بل إنّ بعض الكلمات المستعملة في الحياة العاديّة تكتسب نغمة عاطفيّة قويّة، وغير مُتَوَقّعة في المواقف الانفعاليّة[53]. من هذه الألفاظ لفظة "تغشمر" بما تحمله من قوّة وحدّة فقد فسّرها الحريري بأنّها بمعنى الشّديد، ولذلك يستعملها العرب بدلا من لفظة "أخذ" إذا كان الأخذ بقوّة و غلظة[54]. ومن ذلك أيضا لفظة " التّأبين" الّتي تُستخدم عند مدح الميّت خاصّة إذا كان ذا مكانة عاليّة في المجتمع[55].

3_ت_ السّياق الثقافي_cultural context: ويشمل البيئة الثّقافية أو الاجتماعية الّتي يُمكن أن تُستخدم فيها الكلمة[56]، فعند ما تستخدم كلمة "علّة" في سياق طبي يُقصد بها المرض. أمّا إذا استخدمت في سياق لغوي فالمقصود بها "السّبب"[57]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

3_ث_ سيّاق الموقف_situational context: ويشمل العناصر الخارجيّة الّتي تؤثّر في فهم دلالات الألفاظ[58]، ومثاله ما ذكره الحريري مبيّنا صحّة قول أحدهم: ما أسود زيدا، وما أسمر عمرا، وما أصفر هذا الطّائر، وما أبيض هذه الحمامة، وما أحمر هذا الفرس! ، فظاهر هذه التّراكيب يُنبئ عن فسادها لأنّ التّعجّب من الألوان والعاهات لا يكون إلّا ببناء فعل التّعجّب من فعل ثلاثيّ يُطابق المقصود من المدح أو الذّم، ثمّ المجيء بما يُتعجّب منه كأن نقول: ما أحسن بياض هذه الحمامة، ولكن إذا علمنا بأنّ القائل كان يريد به التّعجّب من سُؤدد زيد، ومن سمر عمر، ومن صفير الطّائر، ومن كثرة بيض الحمامة، ومن حمر الفرس؛ وهو أن يُنتن فوه من البشم، صحّت المسألة وزال اللّبس[59].

4- التّفسير السّببي:

وذلك بذكر سبب التّسميّة الّتي ترتبط ارتباطا مباشرا بمعنى اللّفظ كما هو الأمر في لفظة "مائدة" الّتي قيل إنّها سُمّيت بذلك؛ لأنّها تميد بما عليها أي تتحرّك، مأخوذة من قوله تعالى:﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُم﴾[60]، وقيل إنّها من ماد أي أعطى[61] كذلك تسميّتهم للذّهب بالخِلاص"لاشتقاقه من أخْلَصَتْهُ النّار بالسَّبك"[62].

خامسا_ تطور الدلالة المعجمية عند الحريري:

ولعلّ أهمّ ما يصيب اللّغة باعتبار ما هي عليه من ديناميّة وحركيّة تطوُّريّة دائمة، هو تغيّر دلالة الكلمة المعجميّة النّاتج عن تعميمها أو تخصيصها أو الانحراف بمعناها العرفي إلى معان أخرى، فنّيّة تسمّى المعاني المجازيّة كالتّشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل وغيرها، ثمّ ما تلبث هذه المعاني والألفاظ أن تكتسب عرفيّة جديدة مشفوعة بمعيار التّداول والشّيوع، فيحدث ما يُعرف بالتّغيّر الدّلالي semantic change.

1_ مفهوم التّغيّر الدّلالي*:

يدخل التّغيّر الدّلالي ضمن اهتمامات علم الدّلالة الحديث، خاصّة علم الدّلالة التّاريخي الّذي" يُعنى بدراسة تغيير المعنى عبر الزّمن"[63]، فالمفردات غير مستقرّة على حال وإنّما تتبع البيئة الّتي تُتَداول فيها وتتأثّر بها[64]. وقد تنبّه اللّغويّون القدماء إلى ظاهرة التّغيّر الدّلالي الّتي تصيب الكلمات وسجّلوا ذلك في معجماتهم، منهم أبو القاسم الزّمخشري صاحب أساس البلاغة، الّذي أولى فيه عناية كبيرة للمجاز الّذي يُعدّ من أهم عوامل التّغيّر الدّلالي، مثل كلمة"بسق" الّتي تطلق على النّخلة، ومنه يُقال: بسقت النّخلة، وتطلق مجازا على الأشخاص

فيقال: بسق فلان على قومه بمعنى علا ذكره وارتفعت مكانته عندهم[65]، كذلك تحدّث أبو منصور الأزهري في تهذيبه عن تطوّر دلالة الكلمات وأورد العديد من الأمثلة على ذلك، كما هي الحال في لفظة" عاهن" أي كسلان، وأصلها أن يتقصّف القضيب من الشّجرة ولا يبين منها فيبقى مُعلّقا مُسترخيّا"[66]. وفي هذين المثالين دليل على تغيّر دلالة الكلمات بفعل الاستخدام المجازي الّذي يشمل حيّزا كبيرا في اللّغة العربية.

2_أسباب التّغيّر الدّلالي:

يحدث التّغيّر الدّلالي بفعل أسباب داخليّة وأخرى خارجيّة، أمّا الدّاخليّة فتشمل كلّ ما يتّصل باللّغة من قوانين صوتيّة، وصرفيّة، ونحويّة، وما يطرأ عليها من تغيّرات وإن كان ذلك التّغيّر في بدايته آخذا شكل الانحراف إلّا أنّه بعد مرور مدّة من الزّمن يغدو عرفا متواضعا عليه[67] فالتّقارب الصّوتي بين كلمتين مختلفتين مثلا قد يُفضي نتيجة سوء النّطق أو سرعته إلى تحريف يجعلها بعد ذلك من كلمات المشترك اللّفظي[68]. أمّا الأسباب الخارجيّة فتتمثّل في العوامل الاجتماعيّة، والتّاريخيّة، والنّفسيّة الّتي لها أثر بالغ في تغيير المعنى[69]. ويمكن حصر هذه العوامل في النّقاط الآتية:[70]

2_أ_ الاستعمال:مدلول الكلمة قابل للتّغيّر نظرا لاستعمالاتها المختلفة عبر الزّمن، لأنّ اللّغة غير ثابتة، وإنّما هي متداوَلة بين أفراد المجتمع عن طريق الأذهان والنّفوس المتباينة بين أفراده[71].

2_ب_ الانتقال:لأنّ الاستخدام المجازي للكلمات من شأنه أن يُغيِّر من دلالاتها الحقيقيّة[72].

2_ت_ عامل الزّمن:ذلك أنّ الزّمن يؤثّر تأثيرا بالغا في مفردات اللّغة باعتبار أنّ الكلمة يمكن أن تكون ذات دلالة ما عند السّلف، ثمّ تتحوّل بفعل الزّمن إلى دلالة جديدة[73].

2_ث_ سوء الفهم:وغالبا ما يكون ذلك نتيجة التقارب بين أصوات بعض الكلمات الّتي يؤدّي سوء النّطق بها مثلا إلى تحويلها عن دلالتها الخاصّة بها إلى دلالة كلمة أخرى؛ فينتج عن ذلك ما يُعرف بالمشترك اللّفظي.

2_ ح_ الحاجة: وذلك نتيجة متطلّبات العصر بما فيه من أشياء جديدة في حاجة إلى مسمّيات، الأمر الّذي ألجأ اللّغويين إلى ما يُعرف بإحياء التّراث، والتّرجمة، والتّعريب وغير ذلك

من الطّرق المستحدثة الّتي من شأنها تغيير دلالات الكلمات.وقد ينتج عن هذه العوامل أشكال متعدّدة للتّغيّر الدّلالي.

3_ أشكال التّغيّر الدّلالي:

أجمع اللّغويّون على أنّ أشكال التّغيّر الدّلالي تتمثّل في ثلاثة مظاهر رئيسة وهيّ:[74]

3_أ _تخصيص الدّلالة_narrowing: تتحول الدّلالة من المعنى العام إلى المعنى الجزئي بتضييق مجالها[75]، مثال ذلك لفظة "هوى" الّتي أصبحت تدلّ على الهبوط فقط إلّا أنّ الحريري قد وضّح أصل وضعها الّذي مفاده الإسراع الّذي قد يكون في الصّعود والهبوط[76]، وكذلك "الرّاحلة" الّتي أصبحوا يُطلقونها على النّاقة النّجيبة فقط، ووجه الكلام لديه أنّها تقع على الجمل والنّاقة[77]، ويمكن أن يكون هذا النّوع من التّغيّر متّصلا بالزّمن نتيجة ما ذكره الحريري عن مخالفة العرب بين ألفاظ متّفقة المعاني لاختلاف الأزمنة "وقصرها أسماء الأشياء على وقت دون الآخر،كما في تسميتهم لشرب الغداة صبوحا، وشرب العشيّة غبوقا، وشرب نصف النّهار قيلا، وشرب أوّل اللّيل فحما، وشرب السّحر جاشريّة. كما قالوا: إنّ السّراب لا يكون إلّا نصف النّهار، والفيء لا يكون إلّا بعد الزّوال"[78].

ومن أمثلة تخصيص الدّلالة أيضا لفظة "بهيم" الّتي يصفون بها اللّون الأسود فقط وهي عند العرب" اللّون الخالص الّذي لا يُخالطه لون آخر"[79]، ومن ذلك أيضا قصرهم بعض الألفاظ على الاستعمال في الشّر دون الخير كلفظة "تهافت الّتي تستعمل في المكروه والحزن، وكلفظة أشفى الّتي لا تقال إلّا لمن أشرف على الهلكة، وكالأرق الّذي لا يكون إلّا في المكروه(...) ولكلّ ما يثور للضّرر هاج..."[80].

3_ب _ تعميم الدّلالة_wedning: وذلك بتوسيع معنى اللّفظ من الخاص إلى العام[81]، من ذلك لفظة "القافلة" الّتي اتّسعت لتدلّ على الرّفقة الخارجة من الوطن بعد أن كانت مختصّة بالرّفقة العائدة فقط[82]، ولفظة "سائر" الّتي يستعملونها بمعنى الجميع وهيّ في كلام العرب بمعنى الباقي، ولذلك قيل لما يبقى بالإناء سؤر قليلا كان أو كثيرا[83]، ومن أمثلة تعميم الدّلالة أيضا قولهم:"جرح الرّجل في «ثديه»، (...) والصّواب أن يُقال جُرِح الرّجل في ثندوءته لأنّ الثّدي يختصّ بالمرأة والثّندوءة بالرّجل"[84]. ونظير ذلك لفظة "الدّرج" الّتي أصبحت تُطلق على ما يُرتقى فيه وما يُتحدّر منه، إلّا أنّ أصل وضعها أن تدلّ على ما يُرتقى فيه فقط[85].

3_ج_ انتقال الدّلالة_metonymy:ويتم ذلك بعدّة وسائل أحصينا منها في الدّرّة ما يأتي:

_ **الاستعارة:** ومثال ذلك لفظة "مشورة" الّتي "اختُلف في اشتقاق اسمها، فقيل إنّه من قولك شرت العسل أشوره إذا جنيته فكأنّ المستشير يجتني الرّأي من المستشار"[86] كما يُجتنى العسل. ومن ذلك أيضا لفظة "شحاذ" الّتي اشتُقّت من قولهم: شحذت السّيف إذا بالغت في إحداده، فكأنّ الشّحاذ هو المُلحّ في المسألة والمُبالِغ في طلب الصّدقة[87].

_ **الانتقال نحو المعاني المضادّة:**مثل "أزف" الّتي كانت بمعنى دنا الشّيء واقترب ثمّ أصبحت بمعنى حضر ووقع، فنجدهم يقولون: أزف وقت الصّلاة إشارة إلى تضايُقه ومشارفة تصرّمه[88]. وكذلك لفظة " قَطّ" الّتي استعملها العرب فيما مضى من الزّمان إلّا أنّ دلالتها انتقلت إلى المعنى المضاد في مثل قولهم: لا أكلّمه قَطّ[89]. و"المأتم" الّتي عادة ما تُستخدم بمعنى مجمع المناحة، وهي عند العرب اجتماع النّساء في الخير والشّر[90].

_ **المجاز:**ومن ذلك ما ذكره الحريري في أنّه لا يجب إطلاق لفظة "الكأس" على الإناء إلّا إذا كان مملوءًا بالشّراب، فيما لو حملناها على المجاز المرسل يمكن أن يكون إطلاقها باعتبار علاقة الحلول[91].

_ **إطلاق الكلّ على الجزء:**من ذلك قولهم: سار ركاب السّلطان إشارة إلى مَوكبه المشتمل على الخيل والرّجل وأجناس الدّواب إلّا أنّ العرب قد قصرت هذه اللّفظة_ركاب_ على الإبل[92].

ولعلّ هذه التّغيّرات الّتي تطرأ على المعنى هي أحد الأسباب الّتي ينتج عنها ما يُعرف بالعلاقات الدّلاليّة*، فمن كلام العرب" اختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللّفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللّفظين واختلاف المعنيين"[93]، الأمر الّذي أدّى إلى تضخّم المعجم العربي[94]، وثرائه.

4_ أثر التّغيّر الدّلالي على مفردات اللّغة:

من خلال ما تقدّم ذكره من أشكال التّغيّر الدّلالي يُمكن الوقوف على أثره في إيجاد العلاقات الدّلاليّة الآتيّة:

1_ علاقة الأضداد_antonymy:

والمقصود بالأضداد أن يدلّ اللّفظ الواحد على معنيين متضادّين[95]، ومن خلال الدّرّة اتّضح لدينا بأنّه قد يكون في المفردة، كما أنّه قد يكون في الأحوال الإعرابيّة:

أ_ الأضداد في المفردة:مثل: لفظة "المأتم" الّتي سبق وأن أشرنا إلى دلالتها على اجتماع النّساء في الخير والشّر، إلّا أنّ هذا ليس أصل وضعها باعتبار أنّ الكلمات لم توضع للمعنيين المتضادّين أوّل الأمر، وإنّما وُضعت لأحدهما ثمّ جدّت عوامل مختلفة أدّت إلى إطلاقها على المعنى المُضادّ، وهو ما تفطّن إليه علماء اللّغة فقالوا: "إذا وقع الحرف على معنيين متضادّين، فالأصل لمعنى واحد، ثمّ تداخل الاثنان على جهة الاتّساع"[96] ونظير المأتم لفظة "البشارة" الّتي تستخدم كذلك في الخير والشّر، أمّا استخدامها في الخير فهوّ شائع ولا حاجة لتوضيحه، وأمّا استخدامها في الشّر فقد استشهد عليه الحريري بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم﴾[97].

ب_ الأضداد في الأحوال الإعرابيّة:وهو ما تمثّل في قوله تعالى:﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[98]، يُحتمل أن يكون التّقدير "مُرْدَفِينَ" فيلزم على هذا أن تكون الملائكة مفعولا بها، ويُحتمل أن يكون التّقدير" مُرْدِفينَ" فيلزم على ذلك أن تكون الملائكة هي الفاعل[99].

2_ علاقة التّرادفsynonymy_:

التّرادف على نحو ما جاء في قول سيبويه هو دلالة الألفاظ المختلفة على معنى واحد[100]،وإن كانت الدّلالة متفاوتة؛ لأن" التّرادف التّامّ نادر الوقوع فهو نوع من الكماليّات الّتي لا تستطيع اللّغة أن تجود بها في سهولة ويسر(...) ومعظم المترادفات ليست إلّا أنصاف أو أشباه مترادفات، لا يمكن استعمالها في السّياق الواحد أو الأسلوب الواحد دون التّمييز بينها"[101]، وهو ما تمت الإشارة إليه عند التّفريق بين ألفاظ مثل: "التّتابع والتّواتر" الّذين أصبحا بفعل تعميم الدّلالة يستعملان بمعنى واحد؛ أي مترادفين[102]، وكذلك "القيمة والثّمن" الّذين جرى عليهما إلف الاستخدام بمعنى واحد وزال الفارق بينهما[103].

3- علاقة المشترك_ homonymy:

هو دلالة اللّفظ الواحد على معان متعدّدة[104]، إذ يمكن أن يكون نتيجة للتّغيّر الدّلالي في كثير من الأحيان، فانتقال لفظة " العمى"مثلا من الدّلالة على عمى البصر إلى الدّلالة على عمى البصيرة هو ما جعلها من المشترك اللّفظي[105]، ومثلها لفظة "الملح" الّتي سبق ذكرها[106]. ولم تقتصر مهمّة الحريري في الدّرّة على تفسير دلالات الألفاظ المفردة فقط، وإنّما تجاوز ذلك

إلى ما يُعرف بالتّعبيرات الاصطلاحيّة Iidiomatic Expression الّتي يكثر تداولها بين أفراد المجتمع الواحد.

4- دلالة التّعبيرات الاصطلاحيّة:

التّعبير الاصطلاحي مصطلح يُستخدم للدّلالة على سلسلة الكلمات المترابطة دلاليّا ونظميّا أيضا، مؤدّية وظيفتها على أساس أنّها وحدة دلاليّة مفردة تملك معاني حرفيّة ومعنى غير حرفي، وذلك في نحو التّعبير العربي: ضرب كفّا بكفّ الّذي يحمل معنى الحيرة[107]. وتتميّز التّعبيرات الاصطلاحيّة عن غيرها من التّعبيرات بجملة من الخصائص وهيّ:[108]

_ الثّبات في التّركيب والدّلالة.

_ اختلاف دلالتها عن دلالة مفرداتها الّتي تتألّف منها.

_ إمكانيّة الاستعاضة عنها بوحدات دلاليّة مفردة.

_ صعوبة ترجمتها ترجمة حرفيّة إلى لغة أخرى، لارتباطها بالبيئة الثّقافيّة الّتي أنتجتها.

وقد وقف الحريري في درّته على العديد من هذه التّعبيرات نذكر منها: قولهم في التّعبير عن الشّخص النّادم: **" سُقِطَ في يده"**[109]، وقولهم للمنهزم: **" نظر عن شماله"**[110]

أمّا قولهم: سقط في يده، فهو تعبير مركّب من فعل + حرف جرّ+ اسم مجرور، ولأنّه يبدأ بفعل فهو من النّمط الفعلي، ولعلّ أهمّ ما يُميّزه عن غيره من التّعبيرات هو إمكان الاستعاضة عنه بكلمة واحدة تحمل نفس الدّلالة كما أسلفنا الذّكر، ولكن قد يتساءل أحدهم عن الغاية من استخدامه مادمنا قادرين على اختصاره في كلمة واحدة، ونحن نعلم أنّ العرب أميل إلى الإيجاز نقول: إنّ هذه التّعبيرات تؤدّي دلالةأقوى من دلالة الكلمة المفردة لأنّ تداولها الدّائم في بين أفراد المجتمع يُكسبها قيمة دلاليّة نابعة من الخلفيّة الثّقافيّة الّتي أنتجتها.وأمّا التّعبير الثّاني:"نظر عن شماله"، ففضلا عن قيمته الدّلالية لدى مستخدميه يحمل أيضا دلالة عقائديّة تعود إلى ما جرى عليه إلف أفراد المجتمع الواحد. فالشّمال في الثّقافة العربيّة يرمز إلى السّوء، على عكس اليمين.

خاتمة البحث:

تبين من خلال البحث أن الحريري واحد من العلماء الأعلام الذين حرصوا على صفاء ونقاء اللغة العربية؛ ودليل ذلكالمؤلف موضوع الدراسة الذي بين أيدينا، وقد اجتهد فيه على كشف وبيان الأغلاط التى ركبها خواص الناس ناهيك عن عامتهم، وردها إلى ما يراه صوابا بالأدلة والشواهد؛معتمدا على ما ورد في المدونة العربية التي جمعت في زمن الفصاحة الأول، فهو يعد بذلك من فريق المتشددين في مسألة التصحيح اللغوي، ولذلك هناك ما يستدرك عليه من وجهة نظر فريق المتساهلين؛ ومع ذلك يعد مؤلفه هذا من أهم ما ألف في هذا الموضوع في عصره، والأهم من هذا أن الرجل قد عالج في مؤلفه مسألة تغير الدلالة المعجمية من كل جوانبها ممارسة وتطبيقا، على الرغم من حداثة هذا العلم (علم الدلالة).

مكتبة البحث:

1_ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
2_ إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، مصر،ط4، 1980م.
3_ أحمد بن أبي بكر بن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح: إحسان عباس دار صادر بيروت، لبنان، د.ط 1978م،
4 _ أحمد عزّوز، المدارس اللّسانيّة أعلامها، ومبادئها، ومناهج تحليلها للآداء التّواصلي، دار الرّضوان وهران، الجزائر، ط2 د.ت.
5_ أحمد محمد قدّور، مبادئ اللّسانيّات، دار الفكر دمشق، سورية، ط2، 1999م.
6 _ أحمد محمّد قدّور، مصنفات اللّحن والتّثقيف اللّغوي حتّى القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الثّقافة دمشق، سوريّة د.ط، 1996م.
7_ أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5، 1998م.
8_ الأ نباري أبو بكر محمد بن القاسم، الأضداد، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة التّراث العربي الكويت، د.ط 1985م.
9 _ أبو البركات الأنباري، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 1998م.
10_حسن بن علي القفطي، إنْباه الرّوّاة على أنْباه النّحاة تح:محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر ومؤسسة الكتب الثّقافية، بيروت، لبنان، ط1 1986م.
11_حسين نصّار، المعجم العربي نشأته وتطوره، دار مصر، د.ط، د.ت.
12_ حلمي خليل، الكلمة دراسة لغويّة معجمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة، مصر، ط2، 1998م.
13_ خير الدّين الزّركلي، الأعلام قاموس التّراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، لبنان، ط15، 2006م.
14 _ رمضان عبد التّواب، فصول في فقه اللّغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط6، 1999م.
15_ رمضان عبد التّواب، لحن العامّة والتّطور اللّغوي، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، مصر، ط2، 2000م.
16_ أبو الطّيب اللّغوي(ت351هـ)، الأضداد في كلام العرب، تح: عزّة حسن، دار طلاس، دمشق، سوريّة د.ط 1995م.
17_ عبد الفتّاح سليم، اللّحن في اللّغة مظاهره ومقاييسه، ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1989م.
18 _ عبد الكريم حسن حسن جبل،علم الدّلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضّليات، دار المعرفة الجامعيّة الأزاريطة مصر، د.ط، 1997م.
19_ علي عبد الواحد وافي، علم اللّغة، دار النّهضة، القاهرة، مصر، ط7، د.ت.
20_ عواطف كنّوش مصطفى، الدّلالة السّياقية عند اللّغويين، دار الشّباب، لندن، ط1، 2007م.
21_ عودة خليل عودة، التّطور الدّلالي بين لغة الشّعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الزّرقاء، الأردن، ط1 1985م.
22_ فايز صبحي، مستويات التّحـليل اللّغوي رؤية منهجية في شرح ثعلب على ديوان زهير، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1، 2010م.
23_ فرانك بالمر، علم الدّلالة: إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السّيد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر 1992م.

24_القاسم بن علي الحريري، درّة الغواص في أوها م الخواص، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة مصر دط، 2009م.
25_ مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنيّة فرنسي- إنجليزي-عربي، دار الفكر اللّبناني، بيروت، لبنان، ط1 1995م.
26 _ محمّد أحمد أبو الفرج إبراهيم، المعاجم اللّغويّة في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث، دار النّهضة بيروت، لبنان، د.ط 1966م.
27_ محمود أحمد نحلة، علم اللّغة النّظامي، دار الوفاء، الإسكندريّة، مصر، ط1، 2008م.
28 _ مكّي الصّقلّي، تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، تح: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1 1990م.
29_ محمد حسن حسن جبل، المعنى اللّغوي دراسة عربيّة مؤصّلة نظريا وتطبيقيا، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، ط1 2005م.
30_ محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات في ضوء علم اللّغة الحديث، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة، مصر، د.ط د.ت.
31_ نسيم عون، الألسنيّة محاضرات في علم الدّلالة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
32_ نعمان بوقرة، محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، د.ط، 2006م

هوامش البحث

---

[1] - ينظر: أحمد بن أبي بكر بن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان د.ط، 1978م، ج4، ص63، وينظر: الحسن بن علي القفطي، إنْباه الرّوّاة على أنْباه النّحاة تح:محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ومؤسسة الكتب الثّقافية، بيروت، لبنان، ط1 1986م، ج3، ص25، وينظر: خير الدّين الزّركلي، الأعلام قاموس التّراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، لبنان ط15، 2006م، ج2، ص174 ، وينظر: أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 1998م، ص327.
2- الحريري، درّة الغواص في أوهام الخواص، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د.ط، 2009م، ص32.
3- المرجع نفسه، ص17.
4- المرجع نفسه، ص91.
5- ينظر: أبو البركات الأنباري، نزهة الألبّاء، ص329 ، وينظر: إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، الحسن بن علي القفطي، ج3، ص26.
6- ينظر: ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج4، ص63_64.
7- المرجع نفسه، ج4، ص64.
[8] - ينظر:ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج4، ص67.
[9] - الحريري، الدرة، ص11.
[10] - ينظر: عبد الفتّاح سليم، اللّحن في اللّغة مظاهره ومقاييسه، ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1989م، ج1 ص95.
[11] - الحريري، الدّرّة، ص 38.
[12] - الحريري، الدّرّة، ص86.
[13] - ينظر: نسيم عون، الألسنيّة محاضرات في علم الدّلالة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص149.
[14] - ينظر: محمد حسن حسن جبل، المعنى اللّغوي دراسة عربيّة مؤصّلة نظريا وتطبيقيّا، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، ط1 2005م، ص70.
[15] - ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، مصر،ط4، 1980م، ص106.
[16] - ينظر: محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات في ضوء علم اللّغة الحديث، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة، مصر د.ط، د.ت، ص329.
* _ يمكن التّمييز بين مجموعتين من الكلمات، الأولى: تتمثّل في الوحدات الّتي بينها وبين دلالاتها مناسبة طبيعيّة، والثّانيّة: تمثّل الحيز الأكبر من مفردات اللّغة الّتي تربطها بمعانيها علاقة غير معلّلة. ينظر: حلمي خليل، الكلمة دراسة لغويّة معجمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة، مصر، ط2، 1998م، ص103.

---

17 - ينظر: المرجع نفسه، ص103 وما بعدها.

18 - ينظر:الحريري، درّة الغواص، ص23.

19 - ينظر:المرجع نفسه، ص17.

**_ وقد وسمه أحمد مختار عمر بعدّة مياسيم وهي: المعنى الإضافي، والعرضي، والثّانوي، والتّضمّني. ينظر: أحمد مختار عمر علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5، 1998، ص37.

20 - مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنيّة فرنسي- إنجليزي-عربي، دار الفكر اللّبناني، بيروت، لبنان، ط1 1995م، ص58.

21 - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص106.

22 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص139.

23 - ينظر: المرجع نفسه، ص13-14.

24 - ينظر: المرجع نفسه، ص51.

25 - ينظر:الحريري، الدّرّة، ص119.

26 - المرجع نفسه، ص161.

27 - ينظر: حسين نصّار، المعجم العربي نشأته وتطوّره، دار مصر، د.ط، د.ت، ج1، ص99.

28 - ينظر: محمّد حسن حسن جبل، المعنى اللّغوي دراسة مؤصّلة نظريا وتطبيقيّا، ص75 وما بعدها.

29 - فايز صبحي، مستويات التّحليل اللّغوي رؤية منهجيّة في شرح ثعلب على ديوان زهير، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 2010م، ص227.

30 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص122.

31 - المرجع نفسه، ص15.

32 - ينظر: المرجع نفسه، ص71.

33 - ينظر: ابن منظور، اللّسان، ج2، ص601، وينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج3، ص309 وينظر: الزّبيدي تاج العروس، ج7، ص137.

34 - ينظر: الحريري، الدّرّة، 110.

35 - ينظر: محمّد أحمد أبو الفرج إبراهيم، المعاجم اللّغويّة في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث، دار النّهضة بيروت، لبنان د.ط، 1966م، ص106.

36 - ويعدّ التّرادف من أهمّ العلاقات الدّلالية الّتي تميّز مفردات اللّغة. ينظر: جلال الدّين السيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ج1، ص402.

37 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص35.

38 - المرجع نفسه ، ص63.

39 - ينظر: المرجع نفسه، ص107.

40 - ينظر: المرجع نفسه، ص36.

41 - المرجع نفسه، ص61.

42 - الحريري، الدّرّة، ص16.

43 - المرجع نفسه، ص19.

44 - المرجع نفسه، ص35.

45 - المرجع نفسه، ص45.

*_ منهم: محمود عكاشة، وأحمد مختار عمر.

46 - ينظر: تمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص182.

47 - أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص69.

48 - ينظر: عواطف كنّوش مصطفى، الدّلالة السّياقيّة عند اللّغويين، دار الشّباب، لندن، ط1، 2007م، ص53.

49 - نعمان بوقرّة، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، د.ط 2006م، ص138.

50 - سورة القصص، الآية27.

51 - الحريري، الدّرّة، ص28.

52- ينظر: أحمد عزّوز، المدارس اللّسانيّة أعلامها، ومبادئها، ومناهج تحليلها للآداء التّواصلي، دار الرّضوان وهران، الجزائر ط2، د.ت، ص194 . وينظر: منقور عبد الجليل، علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التّراث العربي ص90.

53 - ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ص58.

54 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص16.

55 - ينظر: المرجع نفسه، ص69.

56 - ينظر: أحمد عزّوز، المدارس اللّسانيّة، ص138.

57 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص136.

58 - ينظر: محمود أحمد نحلة، علم اللّغة النّظامي، دار الوفاء، الإسكندريّة، مصر، ط1، 2008م، ص85.

59 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص32.

60 - سورة النّحل، الآية15.

61 - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص22.

62 - المرجع نفسه، ص74.

* يذهب أحمد محمّد قدّور إلى أنّ ما عرفه الدّرس اللّغوي الحديث من سيطرة المنهج الوصفي هو ما جعل الدّارسين أميل إلى استخدام مصطلح "التّغير_change" بدلا من "التّطور_développement" لارتباط هذا الأخير بمعنى التّقدّم والرقي. وقد تنبه القدماء لذلك منهم ابن مكّي الصّقلّي (ت501 هـ) الّذي وسم عشرة أبواب من مؤلّفه "تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان" ب: "ما غيّروه...".ينظر: أحمد محمد قدّور، مبادئ اللّسانيات، دار الفكر دمشق، سورية، ط2، 1999م ص323، وينظر: ابن مكّي الصّقلّي، تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، تح: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنانط1، 1990، ص77-84-94-111-117-120.

[1] - فرانك بالمر، علم الدّلالة: إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السّيّد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر 1992م ص24.

64 - ينظر: فندريس، اللّغة، ص 246.

65 - ينظر، أبو القاسم الزّمخشري، أساس البلاغة، مادّة(ب_س_ق)،

66 - ينظر: أبو منصور الأزهري، تهذيب اللّغة ، مادّة(ع-هـ-ن) ج1، ص145.

67 - ينظر: أحمد محمّد قدّور، مصنّفات اللّحن والتّثقيف اللّغوي حتّى القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الثّقافة دمشق سوريّة، د.ط، 1996م، ص297.

68 - ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ص125.

69 - ينظر: أحمد محمّد قدّور، مصنّفات اللّحن والتّثقيف اللّغوي حتّى القرن العشر الهجري، ص298.

70 - ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 150.

71 - ينظر: علي عبد الواحد وافي، علم اللّغة، دار النّهضة، القاهرة، مصر، ط7، د.ت، ص319.

72 - ينظر: عودة خليل عودة، التّطوّر الدّلالي بين لغة الشّعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الزّرقاء، الأردن، ط1 1985م ص353.

73 - ينظر: رمضان عبد التّوّاب، لحن العامّة والتّطوّر اللّغوي، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، مصر، ط2، 2000م ص62.

[74] - ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص152 ، وينظر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص243.

[75] - ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص245.

[76] - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص163.

[77] - ينظر: المرجع نفسه، ص162.

[78] - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص17-18.

[79] - االمرجع نفسه، ص163.

[80] - الحريري، الدّرّة، ص69.

[81] - ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص243.

[82] - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص100.

[83] - ينظر: المرجع نفسه، ص11-12.

[84] - الحريري، الدّرّة، ص154.

[85] - ينظر: المرجع نفسه، ص46.

[86] - المرجع نفسه، ص25.

[87] - ينظر: المرجع نفسه، ص134.

[88] - ينظر: المرجع نفسه، ص15.

[89] - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص19.

[90] - ينظر:المرجع نفسه، ص118.

[91] - ينظر:المرجع نفسه، ص22-23.

[92] - ينظر: المرجع نفسه، ص109.

*- وتتمثّل في: التّرادف، والأضداد، والمشترك، ومع ما كان من خلاف بين العلماء قديما وحديثا حول وُقوعها في اللّغة، إلّا أنّهم قد أجمعوا على إثباتها، حتّى أنّهم خصّوها بمؤلّفات مستقلّة، فممّا جاء في التّرادف: كتاب مااختلفت ألفاظه واتّفقت معانيه لابن خالويه، وفي ا لأضداد: كتاب الأضداد لابن الأنباري، وممّا ألّف في المشترك: كتاب الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللّفظ واختلف في المعنى لأبي عبيد القاسم بن سلّام (ت 223هـ)، ولمزيد بسط القول، ينظر: جلال الدّين السيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ج1، ص287 وما بعدها.

[93] -سيبويه، الكتاب، ج1، ص7.

[94] - ينظر: رمضان عبد التّواب، فصول في فقه اللّغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط6، 1999م، ص309.

[95] - ينظر: أبو الطّيّب اللّغوي(ت351 هـ)، الأضداد في كلام العرب، تح: عزّة حسن، دار طلاس، دمشق، سوريّة د.ط، 1995م، ص33.

[96] - ابن الأنباري أبو بكر محمّد بن القاسم، الأضداد، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة التّراث العربي الكويت، د.ط 1985م، ص

[97] - سورة الانشقاق، الآية 24.

[98] - سورة الأنفال، الآية 9.

[99] - ينظر:الحريري، الدّرّة، ص129.

[100] - ينظر: سيبويه، الكتاب، ج1، ص7.

[101] - ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ص97-98.

[102] - ينظر: الحريري، الدّرّة، ص13-14.

[103] - ينظر:المرجع نفسه، ص51.

[104] - ينظر: جلال الدّين السيوطي، المزهر في علوم اللّغة، ج1، ص369.

[105] - ينظر:المرجع نفسه، ص31-32.

[106] - ينظر: المرجع نفسه، ص71.

[107] - ينظر، أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص33.

[108] - ينظر: عبد الكريم حسن حسن جبل،علم الدّلالة دراسة تطبيقيّة في شرح الأنباري للمُفضّليّات، دار المعرفة الجامعيّة، الأزاريطة، مصر، د.ط، 1997م، ص86.

[109] - الحريري، الدّرّة، ص108.

[110] - المرجع نفسه، ص45.

إِشْكَالِيَّةُ الفِعْلِ النَّاقِصِ بَيْنَ القُدَامَـــى والمُحْـدَثِيــن

The Controversy of Model Verbs between traditional and Modern Grammarians

عبدالعزيز بن محمد الحكمي*

تاريخ تقديم البحث**2017/12/13** تاريخ القبول **2018/01/13**

ملخص

إشكالية البحث:

لم يكن تخصيص (كان وأخواتها) بباب في أي مؤلف نحوي مدعاة للتعجب أو الإنكار عند النحاة؛ لكن بعض المحدثين من العلماء لم يرقْ له هذا التقسيم، فرغب عنه ذاهبا إلى أن مثل هذا الصنيع في التقعيد يفتح في علمِ العربية ثلما ثلاثا؛ ثلمة الفعل وأنَّ منه تاما وناقصا، وثلمة المرفوع بعد الفعل وأنه ليس فاعلًا، وثلمة الخبر وأنّه قد يكون منصوبا، ورأى أن إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو يسد هذه الثلم جميعا، ذاهبا إلى أن هذا الطرح ليس جديدا، وأنه رأي مدرسة الكوفة.

تساؤلات البحث:

1-هل كان هذا حقا رأي مدرسة الكوفة النحوية وأعلامها؟ ولماذا لم يكتب له الذيوع إذًا؟ إذا كان أدعى للتيسير على المتعلمين، وأهدى سبيلا في تصوير طبيعة هذا النوع من التراكيب اللغوية!

2-هل يكون إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو -حقا-أكثر جدوى ونفعا في تصوير العربية، وفهم تراكيبها، ودلالاتها من إقراره؟

3-هل أفلح هؤلاء المحدثون في الرد على ما قد يعترض به على رأيهم ؟

4-هل كان النحاة السابقون في غفلة عن هذا الأمر على ما فيه من سهولة ويسر؟ وما الذي دعاهم إلى نهجهم الذي نهجوا ؟

وقد حاول الباحث الإجابة عن هذه التساؤلات ليصل إلى رأي يرتضيه إزاء هذه الإشكالية ، وقد توصل البحث إلى عدة نتائج أهمها أن القول بضم الفعل الناقص إلى الأفعال اللازمة قول غير سديد ،

Abstract

The classification of the model verbs (Kanna and its sisters) into one separate category was not a surprising or doubtful act to traditional grammarians; but some of the modern scholars did not appreciate this categorization, claiming that such a classification propagates three misunderstandings: first, the verbs being model verbs or principle verbs; second, the nominative after the verb is not the subject; third, the predicate is not subjunctive. So, modern scholars see that the classifications of these model verbs should be abandoned to avoid such misunderstandings. This is the view of the Kufa School.

Research Questions:

1.Is this new approach belongs to Kufa School and its scholars? Why was it not known since it claims to make the treatment of these verbs easier for scholars and students of Arabic grammar?

2.Should the classification of these model verbs be abandoned in grammar to make the study of Arabic grammar and semantics easier or not?

3.Did these modern scholars succeed in responding to those who challenged their theories?

*قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة جازان ، المملكة العربية السعودية.

وأن نسبة إعراب (مرفوع كان فاعلا، ومنصوبها حالا إلى الكوفيين) نسبة غير صحيحة.

مشتملات البحث:

تشكل البحث من مقدمة، وثلاثة محاور، الأول: " اقتراح إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو العربي، وعلله"، والثاني: " منهج مدرسة الكوفة النحوية في إعراب الفعل الناقص وما في حكمه، والثالث: دوافع تقسيم الفعل إلى تام وناقص، و تبعت المحاور الثلاثة خاتمة تضمنت أهم النتائج، ثم ثبت للمصادر والمراجع التي اعتمد الباحث عليها.

الكلمات الدالة: إشكالية ، الأفعال الناقصة ، تقسيم الفعل ، إعراب الفعل الناقص ، إلغاء باب الأفعال الناقصة.

4.Were the old grammarians unaware of these issues despite the simplicity and easiness of this approach? And why did they classify the verbs in the traditional manner?

The researcher, in this study, tries to answer these questions in a way that put this matter to rest! The study proves that the claim that model verbs should be included within the category of principle verbs is not appropriate, and rejects the whole idea that such a claim was made by the Kufa School.

Research Content:

The research begins with an introduction, followed by three chapters that explain first the motion of deleting the classification of model verbs and the reasons behind such a motion; second, an illustration of Kufa school's philosophy on model verbs and their syntactical description in the sentence. Third, the study shows the importance of classifying Arabic verbs into model verbs and principle verbs. The study ends with a discussion of the results and a reference page of all sources used in the study.

Keyboard: Controversy, Model Verbs, Division of Verbs, Declension of Model Verbs, EasingArabicGrammar.

مقدمة

استقر في عرف النحاة ودارسي النحو العربي أن الفعل في العربية منه ناقص وتام، وأن لكل منهما عملًا يختلف عن عمل الآخر، وطبيعة دلالية تختلف عن الطبيعة الدلالية للآخر أيضا.

وظل هذا العرف راسخا في أذهان أهل العربية والنحو أحقابا، يستقرئون به أقوال العرب العرباء، ويفسرون المعاني ويعللون ضبط بعض الجمل على أساس نقص الفعل العامل أو تمامه.

ولم يكن تخصيص (كان وأخواتها) بباب في أي مؤلف نحوي مدعاة للتعجب أو الإنكار عند النحاة، فكان وأخواتها أفعال تختلف عن بقية أفعال العربية في الدلالة؛ وهي لذلك تعمل في الجملة التي تليها عملا يختلف عن عمل الأفعال التامة في معمولاتها.

لكن بعض المحدثين من العلماء لم يرُقْ له هذا التقسيم، فرغب عنه ذاهبا إلى أن مثل هذا الصنيع في التقعيد يفتح في علم العربية ثلما ثلاثا؛ ثلمة الفعل وأنَّ منه تامًّا وناقصًا، وثلمة المرفوع بعد الفعل وأنه ليس فاعلًا، وثلمة الخبر وأنَّه قد يكون منصوبًا بعد كان وأخواتها، ورأى أن إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو يسد هذه الثلم جميعا؛ فـ(كان وأخواتها) مثل بقية أفعال العربية، والمرفوع بعدها فاعلها، والمنصوب حال وليس خبرا؛ فقول القائل: (كان محمد راكبا) مساو في الإعراب لقوله: (جاء محمد راكبا)، ولا فرق بين الفعلين (كان) و (جاء) من جهة نقص أو تمام.

طرْح جديد للمسألة؛ إلا أن صاحبه يذهب إلى أن هذا الطرح ليس جديدا، وأنه رأي مدرسة كاملة من المدارس النحوية، هي مدرسة الكوفة، فأعلام هذه المدرسة ورجالها –كما يزعم أهل هذا الرأي من المحدثين-كانوا يعربون اسم كان فاعلا لها، ويعربون خبرها حالا.

فهل كان هذا حقا رأي مدرسة الكوفة النحوية وأعلامها؟ ولماذا لم يكتب له الذيوع إذًا؟ إذا كان أَدْعى للتيسير على المتعلمين، وأهدى سبيلا في تصوير طبيعة هذا النوع من التراكيب اللغوية!

ثم بعد هذا كله يبقى التساؤل الأهم، وهو: هل يكون إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو –حقا-أكثر جدوى ونفعا في تصوير العربية، وفهم تراكيبها، ودلالاتها من إقراره؟ وهل أفلح هؤلاء المحدثون في الرد على ما قد يعترض به على رأيهم ؟ وهل كان النحاة السابقون في

غفلة عن هذا الأمر على ما فيه وما يتبعه من سهولة ويسر؟ وما الذي دعاهم إلى نهجهم الذي نهجوا؟ من زيادة في التقسيم، واختلاف في العمل النحوي بين فعل وآخر، وتغيير للمسميات التي يمكن أن تسمى باسم واحد؛ فهذا فعل ناقص وذلك تام، وهذا اسم الفعل الناقص وخبره، وذلك فاعل الفعل التام ومفعوله، أو فاعله وحاله...إلخ

كان من شأن هذه التساؤلات أن تجهد الباحث فترة ليست بالقصيرة، فالجواب عنها يحتاج إلى تأصيل لبعض أبواب النحو ومسائله، وإلى نظر متأن في طبيعة التأليف الأول فيه، ثم في كيفية تطور ذلك التأليف وتطور مناهجه، فليس كل درب سهل في العلوم يكون بالضرورة هو الدرب الرشيد، وخاصة حين يستحضر خلد الباحث أن السابقين الأولين من النحاة لم يكونوا ليغفلوا عن مسلك سهل في التقعيد، ويميلوا إلى أصعب منه إلا لعلة تجعل هذا السهل ممتنعا مخلا، وتجعل غيره –وإن كان أصعب منه-أهدى سبيلا وأقوم قيلا.

كان لا بد للباحث أن يبدأ من علل المحدثين من أصحاب هذا الرأي، ودافعهم للمخالفة لأمر قد استقر في النحو، ولمَّا كان من عللهم أنهم وجدوا رأيهم هذا كان منهجا لمدرسة الكوفة النحوية كان لا بد له من البحث في كتب أعلام مدرسة الكوفة لمعرفة صحة نسبة هذا القول لهم من عدمه، ثم كان الأمر الأهم والأصعب، وهو البحث في دلالة هذه الأفعال – عند النحاة الأوائل-، وأثرها في الجملة التي بعدها.

وقد نجم عن هذا النهج بحث يتشكل من هذه المقدمة، وثلاثة محاور، الأول: " اقتراح إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو العربي، وعلله"، والثاني: " منهج مدرسة الكوفة النحوية في إعراب الفعل الناقص وما في حكمه، والثالث: دوافع تقسيم الفعل إلى تام وناقص، ولقد تبعت المحاور الثلاثة خاتمة تضمنت أهم النتائج، ثم ثبت للمصادر والمراجع التي اعتمد الباحث عليها، والله ولي التوفيق.

أولًا: " اقتراح إلغاء باب الأفعال الناقصة من النحو العربي، وعلله"

لا شك أن إخراج كتاب ابن مضاء القرطبي الموسوم بـ "الرد على النحاة" كان له أثر واضح في ظهور تعامل جديد مع البنية النحوية التراثية، ذلك التعامل الذي يخرج من حيز التحليل إلى حيز النقد والرد والرفض، ولا أعني نقد القاعدة الواحدة بذكر الشاذ والنادر الذي يقدح في اطرادها، أو يطعن في شمولها، فذلك أمر هين معروف قبل كتاب الرد على النحاة بقرون، وإنما أعني نقد البنية النحوية التراثية من أساسها، والثورة على ثوابتها، وأصولها، والطعن في النظرية النحوية الكبيرة (نظرية العامل)[1].

وليس البحث هنا بمعني بكتاب ابن مضاء القرطبي نفسه، وإنما يعنيه ما أزكته تلك الروح النقدية الثائرة على ثوابت هذا العلم المستطيل من دعوات مُلِحَّات إلى ما يعرف بإحياء النحو تارة وتجديد النحو وتيسيره تارات أخرى، حتى ليتوهم من يسمع المقترح الذي يُدرج تحت إحياء النحو أن النحو قد آل إلى أرض موات، صار فيها علما منزوع الروح والحياة، أو أنه علم خَلَقٌ بالٍ، وعر المسالك لا سبيل له إلى بقاء إلا بالتجديد أو التيسير، إذ لم تأت دعاوى التيسير والتجديد والإحياء هذه مفردة، وإنما جاءت مثناة بالعيب على النحاة والقدح فيهم وفي مذهبهم ومنهجهم تارة، وفي ضرب آراء بعضهم-التي كانت لها الغلبة في سنوات التباري والدرس النحوي-بآراء بعض منهم كان محكوما عليها بالضعف، ووئدت في مهدها، ولم يجد أصحابها أنفسُهم سبيلا يستقوون به وينتصرون لآرائهم التي أدحض جمهور النحاة حججها، حتى اندثر صوتها، وحاد عنها مقترحوها في أزمنة كانت الغلبة فيها لصوت العلم وحججه فقط.

لا رفض للتجديد والتيسير إن كان مبنيا على استقراء كامل وأساس سليم، فالنحاة بشر، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد، ولكن يبقى ما عليه التعويل في القبول أو الرفض هو الاستقراء الكامل، والحجة العلمية الغالبة.

ولقد ذكر محقق كتاب الرد على النحاة –رحمه الله تعالى-أن هذا الكتاب حمله على تصنيف للنحو جديد " يذلل صعوباته"[2]، أقامه على ثلاثة أسس، كان الأول منها –وهو ما

يعنينا هنا– إعادة تنسيق أبواب النحو؛ بحيث يستغنى عن طائفة منها، برد أمثلتها إلى الأبواب الباقية؛ حتى لا يتشتت فكر دارس النحو في كثرة الأبواب التي توهن قواه العقلية"(3)

ولقد كان أول باب من الأبواب التي نادى الشيخ بحذفها من النحو جملة واحدة باب كان وأخواتها، وكانت خلاصة حججه ما يلي:

أولا: تعد (كان وأخواتها) خللا كبيرا دخل على الجملة الفعلية، فإن الفعل فيها وحدها دون أفعال العربية جميعا فعل ناقص، لا فاعل له، والمرفوع التالي ليس فاعلا بل هو اسم لها، والمنصوب لا يدخل في منصوبات الجملة الفعلية، بل هو خبر منصوب"

ثانيا: إعراب هذه الأفعال أفعالا لازمة، وجعل مرفوعها فاعلا، ومنصوبها حالا هو الأَوْلى، وهو رأي مدرسة الكوفة النحوية-على ما ذكر الدكتور شوقي ضيف-

ثالثا: هذه الأفعال "كان وأخواتها " تأتي أفعالا لازمة حين تكون تامة، وهذا يقوي ذلك الاقتراح، إذ لا يفصم المتشابه إلى قسمين.

رابعا: القول بأن لهذه الأفعال خصيصة تميزها عن غيرها بأن الجملة بعدها مكونة من مبتدأ وخبر قول مردود بأن هذا الأمر موجود في كل فعل لازم تلا فاعله الحال كقولنا: "جرى الرجل مسرعا "

خامسا:-وهذا خلاصة حججه-أن هذا الإعراب الجديد يسد في النحو ثلما ثلاثاً:" ثلمة الفعل، وأن منه تاما وناقصا...وثلمة المرفوع بعد الفعل، وأنه ليس فاعلا، وثلمة الخبر، وأنه قد يكون منصوبًا بعد كان وأخواتها.

ويبدو أن الدكتور ضيف قد تخيل أن هذا الاقتراح الجديد من الحذف سوف يحظى بمعركة علمية نقدية وفكرية، ويوحي بهذا بعض أمثلته التي ذكرها في هذه المسألة " قصف الرعد عاليا – نهض عمرو خطيبا – نشبت المعركة ضارية".

وكان من أثر هذا أنه حاول جاهدا أن يستحضر جميع ما يتخيل أن يُنتقد به نهجه الذي نهج، فتوقع شيخ المجمع أن يقابل اقتراحه هذا بثلاثة اعتراضات فقط، وهي في جملتها منصبة على المنصوب بعد كان؛ إذ قد يأتي ثابتا، والأصل في الحال الانتقال وعدم الثبوت، وقد يأتي معرفة، والأصل في الحال التنكير، ويأتي اسما جامدا، والأصل في الحال الاشتقاق، ورد الشيخ على كل هذا ببساطة شديدة، فالحال قد تفارق ما هو أصل فيها، فتأتي الحال ثابتة ملازمة لصاحبها كقولنا "هذا ثوبك صوفا "وتأتي معرفة كقولنا: "جاء زيد وحده "، وتأتي جامدة كقولنا: " جاء الجندي أسدا"، وانتهى الدكتور شوقي ضيف بعد ذلك إلى إقرار اقتراحه هذا بقوله: "وبذلك تسقط جميع الاعتراضات التي يمكن أن توجه إلى إعراب جملة كان وأخواتها مكونة من فعل، وفاعل مرفوع، وحال، وقد سقت أمثلتها بباب الحال إذ هو بابها الصحيح "(4)

هذه حجج الشيخ، وتلك هي الاعتراضات التي تخيل أن معارضيه لن يتعدوها فقرر ما قرر، ضاربا بما استقر عند النحاة عرض الحائط، فهو تكلف لا يجر على النحو إلا الثلم الثلاث التي ذكرها.

فهل غفل النحاة عن أن باب كان هو نفسه باب الأفعال اللازمة، وأن مرفوعها يمكن أن يضم إلى باب الفاعل، وأن منصوبها هو نفسه حال ؟ أم ماذا ؟

لو كانت دلالة (كان) التي يقول النحاة عنها إنها ناقصة مساوية لدلالة الفعل اللازم الداخل على جملة اسمية، وأن ما تُلْفَظُ له كان هو نفس الغرض الذي يُلفَظ له أي فعل لازم فقد صدق أصحاب هذا الرأي، وصح رأيهم، ولو أن مدرسة الكوفة بأعلامها الكبار: الكسائي والفراء وثعلب اصطلحوا على هذا الإعراب فعْلا لساق هذا إلى القول بأن صاحب هذا الاقتراح قد آوى إلى ركن شديد؛ إذ إن مواضع الخلاف البصرية الكوفية قد حظيت بعلل واضحة لكل فريق منهما، وحينها ستقف حجج الكوفيين لرافضي هذا الاقتراح، فتكفي صاحبها مؤونة الدفاع عن هذا الرأي ضد مخالفيه، وربما تحمل على اتباعه وإقراره؛ لأن ظاهره التيسير والاختصار، وضم النظائر المتفقة، ومنع شتاتها.

وهنا تُطْرَح أسئلة ثلاثة، وهي:

الأول: هل (كان الناقصة)تساق في الكلام لما يساق له الفعل اللازم، وتدخل على ما يدخل عليه؟

الثاني: هل مرفوع كان يصح أن يدرج حقا تحت باب الفاعل ؟ وهل منصوبها يصح أن يدرج تحت باب الحال؟

الثالث: كيف كان الكوفيون يعربون جملة (كان) الداخلة على جملة اسمية كاملة؟

والإجابة عن السؤال الأول تبدأ بتأمل الفعل اللازم نفسه، ثم تأمل كيف يدخل في أبسط صورة للتركيب اللغوي فيحصل به معنى يمكن السكوت عليه مع تحقق فائدة.

أما جانب الفعل اللازم الدلالي فهو كلمة دالة على الحدث في زمن، فهي دلالة مركبة من الحدث وزمانه معا، وأما دخول الفعل في التركيب اللغوي فطريقه أن يسند إلى اسم على جهة القيام بهذا الحدث، أو الوقوع منه، فتتحقق بذلك الإفادة بالجملة البسيطة التي يمكن السكوت عليها، فيقال مثلا (جلس) فعل لازم، دال على الجلوس في زمن مضى، ثم يقال: "جلس محمد" فيحصل له إسناد أول تتحقق به فائدة يحسن السكوت عليها، ثم تزيد في الإسناد بالحال مثلا فيقال: "جلس محمد مترقبا " فيكون الحال إسنادا ثانيا جديدا في صلة الإسناد الأول، لتزيد الفائدة المعنوية ببيان الكلمة الثالثة لهيئة الفاعل وقت تلبسه بالفعل.

وأما (كان) فشأنها يبعد كثيرا عن هذا؛ فإذا كانت دلالتها على الزمان واضحة فإن دلالتها على الحدث ليست واضحة وضوح مثيلاتها في الأفعال اللازمة(5)، وليس أدل على ذلك من أنه لا يمكن إدخالها في تركيب أَوَّلِيّ بسيط، تكون فيه هي وفاعلها فقط كلاما منوطا بتحقق إفادة يحسن السكوت عليها بخلاف الأفعال اللازمة. فلا نستطيع أن نقول "كان محمد" كما كنا نقول "جلس محمد"، لأن الإفادة في الجملة الفعلية تكون بالإسناد الذي يتحقق منه الحكم بوقوع حدث من محدث، وليس هذا حاصلا هنا.

ومن هنا يظهر جليا أن (كان) الناقصة لا يمكن الاكتفاء بها مع اسم مرفوع، فكيف تكون فعلا لازما، والأفعال اللازمة تحقق الفائدة المعنوية الأولى بإسنادها إلى المرفوع دون حاجة إلى غيره؟

ثم إن تأملا بسيطا لحال المرفوع بعد كان ليؤكد أنه ليس فاعلا (وإن كان شبيها بالفاعل من جهات)؛ إذ قد اتفقت تراكيب العربية على أن الفاعل يرتفع بإسناد الفعل إليه، وتلبس الفاعل بالحدث المفهوم من الفعل على جهة قيامه به أو وقوعه منه، أو على انتفاء قيامه به أو وقوعه منه، كما في الفعل المنفي مثل (لم يجلس محمد)، أو على جهة تشبه ذلك كما في الفعل الذي يكون فاعله في حكم المستقبِلِ للحدث أو الواقع عليه الحدث مثل (مات وهلك)، فالمرفوع بعد (كان) إذن ليس فاعلا حقيقيا، ولا فاعلا بعُرْف الصنعة.

أما المنصوب بعد كان –وهو الذي اتكأ عليه الدكتور ضيف كثيرا في اقتراحه –فبينه وبين الحال بون شاسع، ليس من الجهات التي ذكرها فقط، وإنما من جهات أخرى لم يتعرض لها الرجل؛ أولها أن منصوب (كان) عمدة، لا يستغنى عنه، فهو في ذلك كالخبر تماما، بينما الحال فضلة في كل كلام عربي ما لم يكن سادا مسد خبر، وهذا الأخير له مواضعه المعروفة المتفقة التي تخالف –أيضا- خبر كان كثيرا، ولا يخفى أن قولنا " جلس الرجل صامتا " يختلف عن قولنا " كان الرجل صامتا" إذ الصمت في الأولى يجوز السكوت دون بيانه، أما في الثانية فلا بد من ذكره، وإلا لما أمكن السكوت في كلام تام مفيد.

وهذا الأمر يبين لنا أن الغرض الذي سيق إليه قولنا (صامتا) في الجملتين ليس واحدا، فهو في الجملة الأولى جاء لبيان هيئة الفاعل عند تلبسه بالفعل، أما في الثانية – جملة كان– فقد جاء لبيان الحكم الرئيس الذي ليس للمعنى تمام دونه، وإن فُهِمَ منه بيانُ الهيئة بالعَرَض.

كما أن جهة الإسناد المحقِّق للمعنى مختلفة في الجملتين، وطريقته مختلفة كذلك؛ فقولنا "جلس محمد صامتا" فيه إخبار عن حدثين أتى ثانيهما في صلة أولهما، فالأول الجلوس المستفاد من الفعل، والثاني الصمت المستفاد من الحال، والذي عليه التعويل أولا هو الحدث

الأول، وأما الثاني فقد جاء في صلة الأول ليوضح الهيئة وقت الاتصاف بالأول، ولذا لم يكن الثاني منهما رئيسا، ولا متنزلا منزلة الأول، ولذا قال البلاغيون: الحال خبر في صلة خبر[6].

ومن هنا يفهم أن طريق الإسناد كما تقدم مختلفة في الجملتين كذلك؛ فجملة (جلس الرجل صامتا) فيها إسناد فعل (جلس) إلى اسم (الرجل) ثم مجيء وصف في صلة هذا الإسناد، أما في جملة (كان الرجل صامتا) فالإسناد الرئيس فيها طريقه إسناد اسم (صامتا) إلى اسم (الرجل) ليتصف به اتصاف المبتدأ بخبره، والموضوع بمحموله[7].

ولهذا جاز في خبر كان أن يأتي معرفة وأن يأتي نكرة كما يجوز في الخبر تماما، إذ قد تتحقق الإفادة في هذا النوع من الإسناد بتعريف المحمول (الخبر) كما تتحقق بكونه نكرة، أما الحال فقد قصد منها بيان هيئة صاحبها المعرفة المجهول الهيئة عند المخاطب، إذ لو كان معرفة لأفهم أن المراد النص على وصف عرف به الموصوف، يتصف به مع الفعل المذكور ومع غيره من الأفعال، وليست هذه وظيفة الحال، وهذا هو الفرق بين قولنا (جلس الرجل صامتا)، و(جلس الرجل الصامت)؛ فلا يخفى أن التنكير في الأولى أبان أن الوصف النكرة إنما جيء به لبيان هيئة الفاعل وقت الفعل فقط، وأما في الجملة الثانية فقد أبان وصفا يعرف به صاحبه من بين جملة الرجال، وهذا فرق جلي معروف بين النعت والحال، ولا يخفى أن جعل التنكير والتعريف للحال سِيَّيْن – وهو الذي يفضي إليه مقترح الدكتور ضيف – أمر من شأنه أن يخفي الغرض الرئيس من الحال في الكلام، والفرق بينه وبين بقية المواقع الإعرابية التي تتفق في أنها تأتي لبيان حكم في محكوم عليه، ثم تختلف في طرق هذا البيان وسبل إصابته مثل (الخبر والصفة والحال).

ويمكن القول هنا: إن الفرق بين خبر كان والحال يدرك بأمور بسيطة جدا، منها:

1- أن الحال يمكن السكوت دونه، وليس كذلك خبر كان فإذا قيل: "جلس محمد" حسن السكوت، وإذ قيل "كان محمد" لم يحسن حتى يؤتى بالخبر.
2- أن الحال لا يأتي ضميرا أبدا في أي جملة عربية، ولا يمتنع ذلك في خبر كان، ولا يقل، ولا يندر، ومن ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم-: " إِنْ يَكُ حَقًّا فَلَنْ تُسَلَّطَ

عَلَيْهِ، وَإِنْ لَا يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ "[8]، بل قد يأتي اسم كان وخبرها ضميرين كقولنا: " كنته" قال ابن مالك: "فِي كُنْتُهُ الخُلْفُ انتمى"، وما يقال عن الضمائر هنا يقال عن الأعلام أيضا؛ إذ هي لا تأتي أحوالا، ولا يمتنع أن تأتي أخبارا لكان أو لإحدى أخواتها.

3- أن ما جاء من أحوال معرفة لفظا كان تأويلها على النكرة التي بمعناها ممكنا، ولا يكون هذا التأويل ممكنا مع الأخبار التي تعرف في باب كان، ولاسيما إذا كان (خبر كان) ضميرا أو عَلَما-كما تقدم-

ثم إن الدكتور ضيف يقيس في اقتراحه هذا النزر القليل في باب نحوي بالأصل أو الكثير في باب آخر؛ ليجعل وجه الاختلاف وجها للشبه، وهذا تكلف لا يخفى، فالثبوت في الحال نزر قليل، وله مواضعه المعروفة، التي يقصد المتكلم البليغ فيها إلى الخروج من أصل دلالة الباب لعلة، كالتوكيد بالحال في مثل قول الله تعالى " ويوم أبعث حيا "، أو إقامة علاقة دلالية بين الحال وصاحبها، وعاملها، يكون فيها العامل في الحال مُشْعِرًا بتجدد صاحبها، فيكون القصد النص على ملازمة الحال لصاحبها مع تجدده؛ كما في قولهم: " خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها "، وليس الأمر هكذا مع خبر كان حين يأتي ثابتا، ولذا فقياس خبر كان في هذا الجانب على الحال قياس مع الفارق إن لم نصرح بقولنا: إنه قياس غير صحيح.

ومثل هذا يقال في قياس مجيء الحال معرفة بمجيء خبر كان معرفة، فمجيء الحال معرفة له مواضعه المعروفة المحددة بخلاف خبر كان المعرفة، يضاف إلى هذا أن أكثر أنواع المعارف لا تقع أحولا أبدا في قليل ولا كثير كالضمائر والأعلام والأسماء الموصولة وأسماء الإشارة، ولم يأت من الحال معرف اللفظ إلا المعرف بأل كقولهم (أرسلها العراك) والمعرف بالإضافة كقولنا (جاء محمد وحده) وهو في معنى النكرة رغم تعريف لفظه؛ إذ لا يخفى أن المقصود من الأولى معتركة، ومن الثانية منفردا، بخلاف خبر كان حال وقوعه معرفة.

أما الحديث عن مجيء الحال اسما جامدا، فهذا عارض خالف أصل الباب لعلة فيه أيضا، ذلك أن فهم معنى المشتق منه حال جموده ليس بمستبعد في الحالات التي يكون فيها مؤولا بالمشتق، كأن يدل على تشبيه أو مفاعلة أو ترتيب، فالمعاني المقصود إفهامها من البنية اللفظية هي معاني المشتق(الوصف) لا معاني الجامد، ولذا كان وقوع هذه الألفاظ حالا تغليبا

للمعنى والقصد؛ فلا يخفى أننا حين نقول " كر الجندي أسدا "أننا نعني بالأسد هنا حدثا مفهوما من التشبيه البليغ، هو الشجاعة والقوة، ولا نعني (الأسد) بدلالته المعجمية الأولى، التي هي دلالة الاسم الجامد.

وقد يقال: هذا عند إتيان الحال مؤولة بالمشتق، فما القول في الحالات التي تأتي فيها الحال جامدة غير مؤولة بالمشتق؟! ويُرَدُّ على هذا بشيئين؛ أما الأول فهو: أن يقال: إن من اللغويين من قال بأن كل جامد من الحال مؤول بالمشتق، ولا يخفى أن هذا الرد فيه تكلف ناجم عن إلزام المتلقي بضرورة تأول المشتق من العدد مثلا في قوله تعالى: " فتم ميقات ربه أربعين ليلة "، أو من الحال التي هي أصل لصاحبها كما في قوله تعالى: "أأسجد لمن خلقت طينا " أو من التي هي فرع له كما في قوله تعالى: " وتنحتون الجبال بيوتا "، فلا شك أن حمل قوله تعالى (طينا) و(بيوتا) على التأويل بلفظ مشتق أمر فيه تكلف، وأما الثاني – وهو الأَوْلَى- فهو أن يقال إن جميع هذه المواضع يفهم منها بيان هيئة صاحب الحال بكيفيات مختلفة؛ كبيان الهيئة بالاسم الجامد الموصوف كما في قوله تعالى: " قرآنا عربيا"، أو بيانها بإيضاح عدد بعده تمييز، كقوله تعالى: " فتم ميقات ربه أربعين ليلة"، أو ببيان طورين في الشيء الواحد المفضل بعضه على بعض كقولهم: " هذا بسرا أطيب منه رطبا "أو ببيان أصل لفرع كما في (أأسجد لمن خلقتَ طينا) أو فرع لأصل كما في (وتنحتون الجبال بيوتا)، وكل هذه كيفيات تختلف في الأدوات والطرق، وتتفق في أنها اجْتُلِبَتْ في الأصل لبيان جانب من الهيئة، ولذا صح اعتبارها حالا، لأنها اجْتُلِبَتْ لما تُجْتَلَبُ له الحال المشتقة، وهذا كله لا ينطبق على خبر كان الجامد؛ إذ ليس يُقصَد من الإخبار به دوما بيان الهيئة، بل قد يقصد ما يفهم من الاسم الجامد حقيقة، فقولنا: " كان الغالب أسدا "يحتمل فيه المنصوب دلالتين؛ فهو إما أن يكون المعني الأسد الحقيقي، أو يكون مقصودا به معنى المشتق، لوصف الغالب بالشجاعة المستفادة من تشبيهه بالأسد، أما قولنا "أقبل الجندي أسدا" فلا يحتمل إلا الدلالة الثانية، وهي دلالة المشتق، وإن كان لفظه جامدا.

ولقد ذهب الدكتور ضيف إلى أن الحذف سيسد في النحو ثلما ثلاثا، الأولى ثلمة الفعل وأن منه ناقصا وتاما، إلا أنه –في الكتاب نفسه الذي اقترح فيه الحذف– لم يستطع

أن ينكر خصوصية (كان) واختلافها عن بقية أفعال العربية؛ إذ ذكر في آخره بابا للذكر والحذف، وقسّمه، فجعل فيه حديثا خاصا بالحذف في باب كان، ولو كانت مثل بقية أفعال العربية لما كان لتخصيصها بالتقعيد وجه.

وأما ثلمة المرفوع بعد كان-التي ذكر الشيخ أن اقتراح حذف الباب قد سدها-فمردودة بما تقدم من فوارق بين مرفوع كان والفاعل، كما أن اقتراحا كهذا من شأنه أن يفرق ضوابط الإسناد التي يكون الفعل طرفا فيها؛ إذ لا يتحقق إسناد حقيقي يُكتفى فيه بكان الناقصة مع مرفوعها-مع عدم نية الخبر-بعكس بقية أفعال العربية التامة إذ يصح أن تكون مع مرفوعها معنى يمكن السكوت عليه – كما تقدم-

وأما ثلمة الخبر المنصوب بعد كان –التي ذكرها الدكتور ضيف-فقد تبين أن الاقتراح يحولها إلى ثلمة أكبر، إذ تجعل النزر القليل في باب الحال أصلا، وتغفل ما يجوز وقوعه من أصناف الكلم منصوبا بكان، وهو لا يكون حالا بعد غيرها على الإطلاق، كما أنه يغفل رتب الدلالات للكلمات من العمدية وعدمها؛ فيسوي بين العمد والفضلات، ويجعل ما كان واجب الذكر كما يمكن الاستغناء عنه.

ولم يبق شيء ينتصر لهذا الاقتراح سوى قول صاحبه: إنه رأي مدرسة الكوفة النحوية، وهذا ما سيتبين في المحور الثاني.

اقتراح حذف (ما) و(لا)و(لات)و(إنْ) المشبهات بليس من النحو، وعلله

ولما كانت الحروف المشبهة بليس مقيسة عليها فقد ذهب الدكتور ضيف إلى ضرورة إلغاء هذا الباب من الدرس النحوي، وجاءت حججه على النحو التالي:

1- الباب المقيس عليه حُذِف، وهذا يستوجب حذف المقيس.

2- مدرسة الكوفة النحوية تعرب خبر ما الحجازية منصوبا على نزع الخافض.

3- (لا) لم يأت الخبر بعدها منصوبا إلا في بيت واحد قديم، ولذا أنكر كثير من أئمة النحو أن يأتي الخبر بعدها منصوبا.

4- (لات) حرف لنفي الظرف، ويأتي الظرف بعده منصوبا، ويلي الظرف المضاف إليه، ولا حاجة إلى تقدير اسمها محذوفا في نحو قوله تعالى: " ولات حين مناص".

ولقد جعل الدكتور ضيف من اقتراح حذف المقيس عليه دعامة لحذف باب آخر من أبواب النحو، والحقيقة أن اطراد أدوات هذا الباب نفسها على الشكل الذي بدا في النحو العربي يقدح في الاقتراح الأول نفسه؛ إذ هو اقتراح من شأنه أن يفرق النظائر المتفقة.

وقد قرر الدكتور ضيف –رحمه الله –أن (لا)النافية المشبهة بليس لم يأت الخبر بعدها منصوبا إلا في بيت شعر واحد قديم؛ ولعله يقصد قول الشاعر:

تعَزَّ فَلا شَيْءٌ عَلَى الأَرْضِ بَاقِيَا ... وَلاَ وَزَرٌ مِما قَضَى اللَّهُ وَاقِيَا[9]

إذ هو البيت الأشهر في الاستشهاد النحوي بإعمال لا عمل ليس، ولكنه على أي حال ليس البيت الوحيد كما قرر الدكتور ضيف، فقد جاء غيره شاهدا على إعمالها، فمن ذلك قول الشاعر:

نصرتُك إذ لا صاحبٌ غيرَ خاذل ... فبُوِّئت حصنا بالكُماة حصينا[10]

وربما يقال: إن عدم نسبة البيتين السابقين لقائل معين يقدح فيهما، أو يشي بصناعتهما رغم كون البيت الأول مذكورا في معظم كتب النحو؛ إلا أن هذا الرأي يرد عليه بأن هناك نظائر للبيت منسوبة إلى أصحابها؛ فقد أورد ابن مالك في شرح التسهيل[11] أن ابن الشجري ذكر في أماليه بيتا للنابغة الجعدي، وقد أعملت فيه (لا)عمل ليس، وخبرها المنصوب مفرد، واسمها معرفة، مما جعله[12] يتوسع في القاعدة النحوية، فيجيز أن يقع اسم لا (العاملة عمل ليس) معرفة، وقد أورد ابن مالك البيت هكذا:

وَحَلَّتْ سَوَادَ الْقَلْبِ لاَ أَنَا بَاغِيا ... سِوَاهَا وَلاَ عَنْ حُبِّهَا مُتَرَاخِيا[13]

وهذه المواضع وغيرها وردت فيها لا عاملة عمل ليس، ومنصوبها مصرح به، وإن كان ما يكثر في هذه الأنماط التركيبية هو حذف الخبر، والاكتفاء بالاسم المرفوع بعدها، كما في قول الشاعر:

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيْرَانِهَا... فأنا ابْنُ قَيْسٍ لاَ بَرَاحُ

وإذا تجاوزنا مرحلة الاستشهاد النحوي، ونظرنا في الشعر العربي بعد شعراء الاستشهاد وجدنا أن إعمال (لا) عمل ليس ظل موجودا، ومقيسا عليه عند أكابر شعراء العربية في العصور التي أعقبت عصور الاستشهاد؛ فها هو المتنبي –مثلا-يقول:

إِذَا الجُودُ لَمْ يُرزق خَلاَصاً مِنَ الأذى... فَلاَ الْحَمْدُ مَكْسُوباً ولا المال باقيا

وقد ذكر بعض النحاة قول المتنبي هذا قائلا: " القياس على هذا شائع عندي"[14].

وفي وجود غَيْرِ بيت شعري-يتضمن إعمال (لا)عمل ليس-ردٌّ على ما احتج به الدكتور ضيف، يؤكده قياس شعراء ما بعد زمن الاحتجاج عليه، ونسجهم على منواله.

أما (لات) فإن قول الدكتور ضيف: هي خاصة بنفي الظرف هو نفسه كلام النحاة عنها؛ إن لم نقل: إن كلام النحاة عنها كان أدق وأصح إذ قالوا: " تختص بأسماء الأحيان فلا تعمل في غيرها"[15]، ولا شك أن (الظرف) يشمل الزمان والمكان، وهي لا تدخل على المكان أبدا، ولذلك قلنا لفظ النحاة أدق، وأما ما رآه الدكتور ضيف من أن جملتها ليست في حاجة إلى تقدير ظرف محذوف، وأنها لنفي الظرف الموجود بعدها فمردود بالدلالة المفهومة من الجُمَل، إذ ليس المَعْنِيُّ بالحكم هو الظرف الملفوظ بعدها، إنما المَعْنِيُّ بالحكم هو الظرف المحدد المفهوم من الجملة، وهو المحذوف، إذ لا يخفى على أحد أن المعنى: ليس هذا الحين الذي نصفه ونتحدث عنه حين مناص، ولذا كان لا بد من تقدير المحذوف؛ إذ هو من الموجود بالقوة في الكلام – أقصد قوة الدلالة والمعنى-

وأما كلامه عن رأي مدرسة الكوفة في إعمال الحروف المعملات عمل (ليس) فسيأتي في موضعه في المحور الثاني – إن شاء الله –

اقتراح إلغاء أفعال المقاربة من النحو العربي، وحججه:

واقترح الدكتور ضيف – رحمه الله – إلغاء باب أفعال المقاربة (كاد وأخواتها) من النحو العربي وحجته في ذلك أنه وجد سيبويه يلغي باب كاد وأخواتها –على الوجه الذي تصوره البصريون بعده-[16]، واقترح الدكتور ضيف ضم أمثلة هذا الباب إلى باب المفعول به؛ يقول: "وتنبه سيبويه من قديم إلى ذلك؛ فقال إن كاد وعسى فعلان متعديان، والمرفوع بعدهما فاعل، وجملة المضارع التالي لهما مفعول به"[17]

ولم يُحِلْ الدكتور ضيف نصه هذا إلى موضع من كتاب سيبويه، وقد بحثت طويلا في الكتاب، فلم أجد سيبويه قد قال هذا، وقد ذكر سيبويه (كاد وعسى) تحت قوله: "هذا باب من أبواب أن التي تكون والفعل بمنزلة مصدر"(18)، ذكر فيه صراحة أن الجملة الفعلية بعدها خبر، كما أن مثيلاتها تكون بعد (كان) أخبارا؛ إلا أن الفرق بينها وبين خبر كان أن خبر كان يأتي اسما ويأتي فعلا، بينما الخبر بعد كاد لا يكون إلا فعلا يقول سيبويه: "وأما كاد فإنَّهم لا يذكرون فيها أن، وكذلك كرب يفعل، ومعناهما واحد. يقولون: كرب يفعل، وكاد يفعل ولا يذكرون الأسماء في موضع هذه الأفعال لما ذكرت لك في الكراسة التي تليها، ومثله: جعَل يقول، لا تذكر الاسم ههنا. ومثله أخَذ يقول، فالفعل ههنا بمنزلة الفعل في كان إذا قلت: كان يقول، وهو في موضع اسم منصوب بمنزلته ثمَّ، وهو ثمَّ خبرٌ كما أنه ههنا خبر، إلا أنَّك لا تستعمل الاسم، فأخلصوا هذه الحروف للأفعال كما خلصت حروف الاستفهام للأفعال نحو: هلَّا وألا"(19)

فالنص فيه تصريح من سيبويه بأن الفعل المضارع بعد كاد خبر، وهذا واضح وضوحا لا مرية فيه من قوله: "وهو ثمَّ خبرٌ كما أنه ههنا خبر"

ويبدو أن لبسا ما قد حدث أدى إلى أن يعزو الدكتور ضيف هذا الرأي إلى سيبويه، وأيا كان الأمر فإننا إذا تجاوزنا ذلك إلى مناقشة ضم الجملة الفعلية التي تأتي خبرا لكاد وأخواتها إلى باب المفعول به كان هذا الاقتراح مردودا بشدة إذا ما وضعنا في الاعتبار ما أدركه الرضي في شرحه لكافية ابن الحاجب من أن "الأقرب في رسم المفعول به أن يقال: هو ما يصح أن يعبر عنه باسم مفعول غير مقيد، مصوغ من عامله المثبت أو المجعول مثبتا"(20).

فالمفعول به يصح أن يعبر عنه باسم مفعول مصوغ من عامله، وهذا ما لا يكون، ولا يمكن أن يكون في باب (كاد) وأخواتها؛ فلا يُحْمَل قولنا "كاد الحق يظهر" على "ظهور الحق مكيد"، هذا من ناحية، يضاف إلى هذا أن اسم المفعول لا يصاغ أصلا من كاد التي تعني المقاربة، وهذا من شأنه أن يضم إلى باب المفعول به أشتاتا متفرقة، لا تلتقي مع نظائره المتفقة، فهو اقتراح على هذا –إن كان ممكنا – فضره أكثر من نفعه.

المحور الثاني: " منهج مدرسة الكوفة النحوية في إعراب (كان وأخواتها)

لم يقدر لأساتذة الكوفة الأُوَل أن يكون لهم كتاب في النحو كبير على غرار كتاب سيبويه البصري، وربما كان هذا الأمر سببا في وجود اختلاف وتشتت بيِّنين في نسبة بعض الآراء النحوية إليهم، إذ إن معظم آرائهم النحوية قد جاءت في صلة حديثهم عن معاني القرآن وتفسيره، وإن كان بعض أهل التراجم قد نسب إلى أئمتهم كتبا في النحو خالصة، كالذي نسبه بعضهم للكسائي من أن له كتابا في النحو للمبتدئين؛ لكن هذه الكتب المزعومة-على أي حال- لم تعمر كثيرا، وبقي على من أراد أن يعرف آراء الكوفيين النحوية أن يتتبعها ويستقرئها عبر ثلاثة طرق: الأول: أن يتتبعها في مؤلفاتهم التي كانت في معاني القرآن، أو في ذكر المجالس العلمية....إلخ.

الثاني: أن يعرفها ممن تتلمذ على أيديهم، ونقل عنهم ابتداء من أبي بكر بن الأنباري تلميذ أبي العباس ثعلب؛ خاتم الكوفيين.

الثالث: أن يعرفها من العلماء اللاحقين الذين اهتموا برصد مسائل الخلاف بين المدرستين الكبيرتين البصرة والكوفة؛ كأبي جعفر النحاس في بعض مؤلفاته، وأبي البركات الأنباري، والعكبري.

ولا شك أن نسبة رأي ما إلى أئمة مدرسة الكوفة عبر طريق من هذه الطرق أمر يحتاج إلى تمهل، ودقة، ذلك أن المصدر الرئيس الذي يمكن أن نستوثق منه مفقود كما أسلفت؛ إذ ليس هناك كتاب لهم خالص للنحو؛ كما أن من اهتموا من العلماء اللاحقين بجمع مسائل الخلاف بينهم وبين البصريين كانوا متأخرين عن الفريقين بفترة زمنية طويلة؛ فإذا استثنينا أبا جعفر النحاس – إذ إن كتابه في مسائل الخلاف مفقود، وما جاء من ذلك على لسانه آراء بسيطة جاءت في ثنايا كتبه الأخرى التي لم تكن لرصد هذا الغرض-كانت البداية الطبعية من أبي البركات الأنباري؛ وهو متأخر كثيرا عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب –خاتم الكوفيين-؛ إذ كان بينهما ما يقارب ثلاثة قرون من الزمان؛ فضلا عما كان بين الناقل-أبي البركات الأنباري-وبين الفراء أو الكسائي أو أبي الحسن الأحمر.

ولقد نسب الدكتور ضيف –رحمه الله- إلى مدرسة الكوفة أنها تعرب مرفوع كان فاعلا، وتعرب خبرها حالا، لكن نظرة فاحصة لآراء الكسائي النحوية-باعتباره رأس مدرسة

الكوفة النحوية-تنبئ بأنه كان لا يختلف في إعرابها عن الإعراب البصري، فالمرفوع اسم لها، والمنصوب خبرها.

والدلائل على ذلك كثيرة، نذكر منها هنا ما ورد في المناظرة المنعقدة بين الكسائي واليزيدي حين كانا يتناظران في مجلس الرشيد فسألهما الكرماني عن قول الشاعر: من مجزوء الرمل:

ما رأينا خَرِبًا يَنـ ******* قر عنه البَيضَ صَقْرُ

لاَ يَكُونُ العَيرُ مُهرًا ******* لا يكون: المُهْر مُهرُ

فقال الكسائي: يجب أن يكون المهر منصوبًا على أنه (**خبر كان**)، ففي البيت على هذا إقواء. فقال اليزيدي: الشعر صواب؛ لأن الكلام قد تم عند قوله: لا يكون الثانية، ثم استأنف، فقال: المهرُ مهرُ"[(21)].

ولو كان الكسائي يعرب خبر كان حالا لقال: هي منصوبة على الحال.

ولقد تواترت كلمة من نقلوا عن الكسائي آراءه في إعراب القرآن على أنه يعرب منصوب كان خبرا لها، ولم يظهر من نص واحد إعرابه له حالا. فمن ذلك ما جاء في إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس عندما تعرض لتعليل نصب (رحمة) في قوله تعالى: " وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ"[(22)]قال النحاس: "...عند الكسائي على خبر كان "[(23)] ومثل ذلك ما جاء في الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي قال مكي: "وهو عند الكسائي خبر كان مضمره، والتقدير: ولكن كان ذلك رحمة"[(24)]

ونقل النيسابوري المتوفى 468هـ عن الكسائي تفسيره لقوله تعالى "فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى"[(25)] فقال: " قال الكسائي: وهي لغة حجازية، يقال: كان مني قاب قوسين...، وانتصب قاب على خبر كان"[(26)].

وما نقل عن الكسائي من إعراب منصوب كان خبرا لها أكثرُ من أن يتسع المقام لذكره هنا[(27)]، وهو يقطع بعدم صحة نسبة إعراب خبر كان حالا له.

هذا عن الكسائي –زعيم الكوفة – أما الفراء –وهو رأس المدرسة بعد الكسائي – فقد جاء في كتابه معاني القرآن ما نصه:" والمعنى البيّن أن تُدخل (كَانَ) **عَلَى كل خبر** قد كَانَ ثُمَّ انقطع كما تَقُولُ للرجل: قد كنت موسرًا، فمعنى هَذَا: فأنت الآن مُعْدِم"[(28)]

ونقل آراء الفراء كثير من المفسرين والمترجمين وأهل الأخبار؛ فجاء فيما نقلوه عنه ما يثبت تسميته لمنصوب كان خبرا؛ قال مكي بن أبي طالب القيسي:" قَوْله {وَلَكِن تَصْدِيق الَّذِي بَين يَدَيْهِ} تَصْدِيق خبر كَانَ مضمرة تَقْدِيره وَلَكِن كَانَ تَصْدِيق فَفِي كَانَ اسْمُها، هَذَا مَذْهَب الْفراء وَالْكسَائِيّ"[29]، وجاء عنده ما يثبت أنه كان يسمي مرفوعها اسما لها قال: " قَوْله {وَكَانَ بَين ذَلِك قواما} اسْم كَانَ مُضْمر فِيهَا وَالتَّقْدِير كَانَ الانفاق بَين ذَلِك قواما وقواما خبر كَانَ وَأَجَازَ الْفراء أَن يكون {بَين ذَلِك} اسْم كَانَ"[30]

ولو أن استخداما مثل هذا – أقصد إطلاق الحال على خبر كان – قد كان شائعا عند واحد من أهل الكوفة الكبار لما خلت كتبهم من الإشارة إليه، وذكره، ولقد كان أبو العباس ثعلب وكتاباه المجالس والفصيح ملء السمع والبصر، وقد تتبعت لفظة (حال) في فصيح ثعلب، فوجدتها وردت منكرة ست عشرة مرة، ومعرفة بأل تسع مرات؛ ما بين استخدامها مصطلحا نحويا[31] واستخدامها بدلالتها المعجمية[32]؛ فلم أجده يطلقها ولو مرة واحدة على خبر كان، وتتبعتها في الفصيح، فوجدتها وردت اسما مرتين جاءت فيهما بدلالتها المعجمية[33]

ولقد كان أبو بكر بن الأنباري أحد من تعلموا على يد أبي العباس ثعلب؛ وقد نظرت في كتبه فوجدته يستخدم مصطلح (خبر كان) ولم أعثر على إعرابه له حالا، فهو يذكر في كتابه إيضاح الوقف والابتداء مصطلح خبر كان عشر مرات[34]، كما ذكر المصطلح أيضا في كتابه شرح القصائد السبع[35] في مواضع عدة، ولو أن واحدا من أصحابه كان يعربه حالا لذكر ابن الأنباري ذلك.

ويبدو أن الدكتور ضيف قد اعتمد-في نسبة هذا الرأي إلى الكوفيين-على ما جاء في الإنصاف لأبي البركات الأنباري المتوفى 577هـ؛ في أولى المسائل الثلاث التي زيدت على بعض نسخه[36] وفيها: " ذهب الكوفيون إلى أن خبر"كان" والمفعول الثاني لـ "ظننت" نصب على الحال. وذهب البصريون إلى أن نصبهما نصب المفعول، لا على الحال"[37].

والواضح من المسألة هذه أن الكوفيين المقصودين في المسألة لا يجعلون خبر كان حالا حقيقة؛ وإنما يقولون: هي قائمة مقام الحال، والأدلة على ذلك كثيرة:

أولها: أن البصريين قالوا: إن منصوبها ينتصب نصب المفعول، وليس لأحد أن يدعي أن البصريين يعربون خبر كان مفعولا به.

وثانيها: حجة الكوفيين التي ذكرها أبو البركات الأنباري حين قال: " أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أن خبر "كان" نصب على الحال أن "كان" فعل غير واقع أي غير متعد والدليل على أنه غير واقع أن فعل الاثنين إذا كان واقعا فإنه يقع على الواحد والجمع نحو: ضَرَبَا رجلا، وضَرَبَا رجالا، ولا يجوز ذلك في "كان"، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول: كانا قائما، وكانا قياما، ويدل على ذلك أيضا أنك تَكْنِي عن الفعل الواقع نحو "ضَرَبْتُ زيدًا" فتقول: فَعَلْتُ بزيد، ولا تقول في كنت أخاك: فعلت بأخيك، وإذا لم يكن متعديا وجب أن يكون منصوبا نصب الحال، لا نصب المفعول؛ فإنا ما وجدنا فعلا ينصب مفعولا هو الفاعل في المعنى، إلا الحال، فكان حمله عليه أولى، ولأنه يحسن أن يقال فيه "كان زيد في حالة كذا" وكذلك يحسن أيضا في ظننت زيدا قائما "ظننت زيدا في حالة كذا" فدل على أنه نصب على الحال"(38)؛ فحديثهم يتجه نحو إثبات شبه كان بالفعل اللازم، لا المتعدي، والغرض من ذلك رد قول البصريين بأنه ينتصب نصب المفعول، وأنَّ كان تشبه المتعدي من الأفعال.

وثالثها: رد الكوفيين على ما ظنوا أنه سيعترض عليهم به؛ إذ قالوا:" ولا يجوز أن يقال "إنه لو كان نصبًا على الحال لما جاز أن يقع معرفة في نحو: كان زيد أخاك، وظننت عمرا غلامك، والحال لا تكون معرفة" لأنا نقول: إنما جاز ذلك لأن "أخاك، وغلامك" وما أشبه ذلك **قام مقام الحال** كقولك: ضربت زيدا سَوْطًا، فإن "سوطا" ينتصب على المصدر وإن كان آلة لقيامه مقام المصدر الذي هو ضرب"(39).

فقولهم: " قام مقام الحال" يوضح القصد تماما، وهو مقابل لقول البصريين " قام مقام المفعول" وليس هذا يعني أنهم يساوون بينه وبين الحال، أو أنهم يريدون خلط أمثلة البابين، وضمهما إلى باب واحد هو باب الحال – كما رأى الدكتور ضيف – رحمه الله-

ولقد ذكر بعض النحاة اللاحقين بأبي البركات الأنباري مذهب الكوفيين هذا، ورد عليهم، فكان رده ينصرف جهة إقرار وجه الشبه بين خبرها وبين المفعول، والشبه بين (كان) والأفعال المتعدية، ونفي كونها لازمة، أو كون خبرها يقوم مقام الحال، ونفي كون خبرها مفعولا به حقيقة، وهذا يدل على أنهم يعرفون أن موضع الخلاف هو قياس الشبه لكان على الفعل اللازم أو المتعدي، وبالتالي قياس الشبه لخبرها على الحال أو المفعول به، وإيضاح دور العامل في الحالين، وطبيعة المعمول، ومن هؤلاء النحاة العكبري في اللباب إذ يقول: " وأمَّا الخَبَر

فمنصوب ب (كَانَ) عِنْد البصريّين وَقَالَ الكوفيُّون ينْتَصب على القطع يعنون الحَال وَالدَّلِيل على انتصابه ب (كَانَ) أَنَّه اسْم بعد الْفِعْل وَالْفَاعِل وَلَيْسَ بتابع لَهُ فَأشبه الْمَفْعُول بِهِ وَلَا يصحّ جعله حَالا لأَنَّ الحَال لا يكون مَعرفة وَلَا مضمراً ويصحُّ حذفه وَلَيْسَ كَذَلِك خبر كَانَ لأَنَّه مَقْصُود الجُمْلَة أَلا ترى أَنَّه لَو قَالَ: كَانَ زيْد قَائِما، فَقَالَ قَائِل (لَا)، كَانَ النَّفْي عَائِدًا إِلَى الْقيام لَا إِلَى كَانَ، وإنَّما لم يكن منصوبها مَفْعُولا بِهِ على التَّحْقِيق لأَنَّ الْمَفْعُول بِهِ يسوغ حذفه وَلَا يلْزم أَن تكون عدَّته على عدَّة الْفَاعِل وَلَا أَن يكون الْمَفْعُول بِهِ هُوَ الْفَاعِل، وَخبرُ كَانَ يلْزم فِيهِ ذَلِك"(40)

أن يقول: إن قول العكبري في اللباب: " وَقَالَ الكوفيُّون ينْتَصب على الْقطع يعنون الْحَال" يحتمل معه أن يكون المقصود إقرارهم بكونه حالا، وأنه يعضده ما جاء في بعض مصادر النحاة المتأخرين زمنيا مثل السيوطي في قوله: "وَذهب الْكُوفِيُّونَ إِلَى أَنه –يقصد خبر كان- انتصب على الْحَال"(41)

وهذا قول مردود من جانبين؛ **الأول**: أنه يرده إقرار هؤلاء النحاة بأن الفراء، وهو الزعيم الثاني لمدرسة الكوفة كان يرى شبه خبر كان بالحال، وشبه اسمها بالفاعل، ويجعل ذلك الشبه علة لرفع الاسم، ونصب الخبر، ولا يسمي الاسم فاعلا، ولا الخبر حالا، وهو ما ذكره السيوطي نفسه؛ قال:" وَذهب الْفراء إِلَى أَن الِاسْم ارْتَفع لشبهه بالفاعل وَأَن الْخَبَر انتصب لشبهه بِالْحَال"(42).

والثاني: هو أن القول-بأنه يحتمل أن جماعة من الكوفيين، كانت ترى ذلك، وليس منهم –بالطبع- أئمة الكوفة؛ الكسائي، والفراء، وثعلب – قول فيه رد على استدلال الدكتور ضيف نفسه؛ ذلك أنه إذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال(43)، وأن هذا لو كان فإنه يكون من قلة من النحاة الذين نسبوا إلى هذه المدرسة، خالفوا فيه مذهب أئمتهم، وهو على أي حال –إن كان- فقد وئد في مهده، ورُدَّ عليه، وقُدِحَ فيه، وذلك لا شك يضعف من استدلال الدكتور ضيف به على ضم أمثلة باب كان إلى باب الحال.

و نقرر أن مذهب الكوفيين واضح، والدلائل عليه كثيرة – كما تقدم – وخلاصته أنهم يحتفظون لباب (كان) بخصوصيته، ويعرفون عدم إمكانية إلغائه من النحو العربي، وأن الخلاف الذي كان بينهم وبين البصريين كان مجاله قياس الشبه؛ أتقاس كان في عملها على

الفعل المتعدي أم أنها تقاس على الفعل اللازم؟ وهل ينتصب منصوبها نصب المفعول لشبهه به أم أنه ينتصب نصب الحال لشبهه به ؟ وشبهه بالحال عند الكوفيين لا يتنافى مع بقائه بابا من أبواب الدرس النحوي عندهم، ولا يتطلب ضم أمثلته إلى باب الحال، كما لم تتطلب نيابةُ المفعول به عن الفاعل حذفَ باب المفعول، وضمَّه إلى باب الفاعل أو العكس، وكما لم تتطلب نيابة ضمير المصدر أو اسم المصدر أو آلته أو عدده...إلخ حذف درس هذه البنى الصرفية، وضمها إلى بنية المصدر.

إعراب الكوفيين لخبر الحروف المعملات عمل ليس:

قرر الدكتور ضيف أن الكوفيين يعربون خبر ما النافية المعملة عمل ليس منصوبا على نزع الخافض، ولا شك عندي في أنه يقصد بالكوفيين هنا ما اشتهر عن الفراء من تعليله لسبب نصب الخبر بعد (ما) عند أهل الحجاز، ورفعه عند تميم، يقول الفراء في معاني القرآن: " وقوله: (مَا هَذَا بَشَراً) نصبت (بَشَراً) لأن الباء قد استعملت فِيهِ فلا يكاد أهل الحجاز ينطقونَ إِلَّا بالباء، فلمّا حذفوها أحبُّوا أن يكون لَهَا أثر فيما خَرَجت منه فنصبوا عَلَى ذَلِكَ ألا ترى أن كلّ ما في القرآن أتى بالباء إِلَّا هذا، وقوله: (مَا هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ) وأمّا أهلُ نَجدٍ فيتكلمونَ بالباء وغير الباء فإذا أسقطوها رفعوا"[44].

وقال في موضع آخر من الكتاب نفسه: "إنما كانت في كلام أهل الحجاز: ما هَذَا ببشر، فلما ألقيت الباء ترك فيها أثر سقوط الباء وهي فِي قراءة عَبْد اللَّه «ما هُنّ بأمهاتهم»، وأهل نجد إِذَا ألقوا الباء رفعوا، فقالوا «ما هَذَا بشر»، «ما هن أمهاتهم»"[45].

والواضح من النصين السابقين أن الفراء يفسر سبب النصب في لغة الحجاز، الذي يقابله الرفع في لغة أهل نجد مع كون الأداة واحدة؛ فيقول: إن أهل الحجاز يلزمون في هذا التعبير النطق بالباء الزائدة؛ فيقولون: ما هذا ببشر، فلما جاءت هذه بإسقاط الباء نصبوا، بينما أهل نجد ينطقون بالباء ودونها، وهم بدونها يرفعون، وبها يجرون، فلما جاء اللفظ دون الباء وافق شيئا مما كانوا ينطقون عليه، ولذا لم ينصبوا.

والقول بأن هذا يعني أن الكوفيين يرون النصب على نزع الخافض في مثل هذا التركيب فيه نظر من نواح أربع؛ **الأولى**: أن الرأي للفراء، وليس للكوفيين أجمعين.

والثانية: أن الفراء نفسه قد أقر في موضع آخر من كتابه بأن الشبه الواقع بين (لات) –وهي إحدى هذه الأدوات- و(ليس) هو سبب النصب بـ (لات)، وليس نزع الخافض؛ قال الفراء:" وقوله: "فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ"[46] يقول: لَيْسَ بحين فِرار،...، والكلام أن ينصب بِهَا لأنها فِي معنى لَيْسَ"[47]، وفي هذا النص تصريح منه بأن (لات) هي الناصبة، وأن سبب النصب هو شبهها بـ(ليس) في المعنى.

والثالثة: أن القول بأن قصد الفراء من تفسير الفرق بين لهجتي الحجاز ونجد في (ما) هو نفي شبهها بليس، أو إنكار كون هذا الشبه سببا في إعمالها لا يعدو كونه احتمالا، فيسقط به الاستدلال على أنها لا تعمل هذا العمل لتضمنها معنى ليس، وأنها فقط تعمل لنزع الخافض.

والرابعة: أنه ليس كل ما يتضمن معنى حرف الجر عند الفراء يكون منصوبا على نزع الخافض؛ فالمفسر(التمييز) -مثلا- يكون في الغالب بمعنى (من) التي لبيان الجنس، ولا يستطيع قائل أن يقول: إن الفراء ينصبه على نزع الخافض؛ وإن كان الفراء نفسه يقر بأنه متضمن هذا المعنى، يقول الفراء: "فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً"[48] نصبت الذهب لأنه مفسر لا يأتي مثله إلا نكرة...وإنما ينصب على خروجه من المقدار الَّذِي تراه قد ذكر قبله، مثل ملء الأرض، أو عدل ذلك، فالعدل مقدار معروف، وملء الأرض مقدار معروف، فانصب ما أتاك على هذا المثال ما أضيف إلى شيء له قدر كقولك: عندي قدر قفيز دقيقا، وقدر حملةٍ تبنا، وقدر رطلين عسلا، فهذه مقادير معروفة يخرج الَّذِي بعدها مفسرا لأنك ترى التفسير خارجا من الوصف يدل على جنس المقدار من أي شيء"[49]

فالفراء يقر بمعنى (من) في التمييز؛ لكن هذا لا يعني أنه ينصبه بنزع الخافض، فكذلك ههنا، فخبر (ما) متضمن معنى حرف الجر في لغة الحجاز، كما أن خبر لات متضمن معنى حرف الجر ذاته، والفراء يقر بأن النصب في خبر لات لشبهها بليس، وليس كل ما تضمن معنى حرف جر محذوف هو عند الفراء منصوبا على نزع الخافض كما مثلنا بالتمييز، وكل هذا يرجح أن الفراء لا ينكر الشبه القائم بين (ليس) من ناحية والمعملات عملها من الحروف من ناحية أخرى، أو هو على أضعف وجه يجعل الزعم القائل بأن الفراء كان يعرب خبر ما الحجازية منصوبا على نزع الخافض مجرد احتمال، وإذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال.

المحور الثالث: دوافع تقسيم الفعل إلى تام وناقص:

إن الدلالة المنوط بالفعل في العربية تحقيقها هي دلالة مركبة من الحدث والزمن؛ فالفعل في العربية ما دل على حدث في زمن، وبذلك يصح به الإسناد مع الاسم، فتتحقق فائدة مرجوة من الكلام يمكن السكوت عليها.

وهذه الدلالة تتفق فيها معظم أفعال العربية؛ والفعل ما دام دالا على هذه الدلالة المركبة فهو فعل تام، يصح إدخاله في تراكيب لغوية، تتحقق به الإفادة الأولى فيها بإسناده لاسم يتنزل منه منزلة المحدِث للحدث المفهوم منه.

ولقد خالفت (كان) وأخواتها هذا الشيوع المعروف في أفعال العربية من جوانب أشهرها جانبان، أما الأول: فهو جانب الدلالة الأولى (الأصلية) التي تتحقق من الكلمة في حال الإفراد. وأما الثاني: فهو جانب التركيب اللغوي الذي تدخل فيه، إذ لا يكون له فائدة يحسن السكوت عليها إلا بعد إشباع التركيب بمنصوب بعد المرفوع.

ولقد كانت جوانب الاختلاف في الشكل التركيبي والوظيفة مدعاة قوية لتقسيم الفعل إلى ناقص وتام، وإلى ضرورة النص على ذلك نصا صريحا عند وصف العربية، وطرائق التعبير بها، وقد أدرك النحاة ذلك من بدايات النحو العربي، ورصدوا الاختلاف بين كان وأخواتها وبين بقية الأفعال من نواح أربع، **الأولى**: اختلاف مدخولها عن مدخول بقية الأفعال، **والثانية**: اختلاف الدلالة عن دلالة أفعال العربية، **والثالثة**: اختلاف مرفوعها عن الفاعل، **والرابعة**: اختلاف منصوبها عن المفعول به، واختلافه عن الحال.

أولا: ذكر اختلاف مدخولها عن مدخول بقية أفعال العربية:

لاحظ النحاة اختلاف جملة (كان) عن الجمل الفعلية الأخرى، فذكروا أنها تكون بمنزلة الابتداء، قال سيبويه: " ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كانَ عبدُ الله منطلقا...؛ لأن هذا يَحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده "(50)

"قال أبو سعيد: اعلم أن الأسماء التي لا بد لها من أخبار هي أربعة: المبتدأ لا بدّ له من خبر وهو أصل هذه الأربعة، واسم كان وأخواتها، كقولك: كان زيد منطلقا، وأصبح زيد

ذاهبا، وليس عمرو عندنا، واسم إنّ وأخواتها، كقولك: إن زيدا منطلق، وليت أباك قائم، والمفعول الثاني من مفعولي ظننت وأخواتها كقولك: ظننت عبدك ذاهبا، وحسبت أباك منطلقا"[51]

وقول السيرافي السابق يشي بأن الجملة التي تدخل عليها كان وأخواتها تختلف عن بقية الجمل الفعلية في العربية؛ إذ إن أصل هذه الجملة الابتداء.

ثانيا: اختلاف دلالة الأفعال الناقصة عن دلالة أفعال العربية (التامة):

لا شك أن النحاة كانوا ذوي وعي كبير بدلالة التراكيب، ودلالة المفردات الأصلية قبل دخول المفردة في التركيب اللغوي، وهم عند تقسيمهم للكلمة تقسيما ثلاثيا، جعلوا الفعل قسما، ونصوا على أنه "يدل بلفظه على مصدره، وببنائه وصيغته على زمانه، وبمعناه على فاعله؛ فالأولان مسموعان، والثالث إنما يدرك من جهة أن كل فعل لابد له من فاعل، لأن وجود فعل من غير فاعل محال"[52]

وجعل النحاة هذه الدلالة أصلا في الفعل، لكنهم كانوا يلاحظون اختلافا دلاليا بين ما أسموه بالأفعال الناقصة، وبقية أفعال العربية من جهة هذا الأصل، هذا الاختلاف الذي جعلهم ينقسمون إلى فريقين في مكمنه الدلالي، وطريقه، أو كيفيته -مع إجماعهم على وجود هذا الاختلاف-

أما الفريق الأول-ومنهم صاحب الكناش في النحو-فيرى أن الأفعال الناقصة ليس فيها دلالة على الحدث، فهي عندهم ليست دالة على مصادرها[53]، وأنها تدل على الزمان فقط، وتدل على مرفوعها-الذي يختلف عن بقية مرفوعات الأفعال-دلالة لزوم.

وأما الفريق الثاني-ويمثله ابن مالك-فهو يرى أنها تدل على الحدث، وأن القول بتجريدها من الدلالة عليه قول بإخراجها عن الأصل الذي تتفق فيه نظائرها في التقسيم الثلاثي للكلمة، ويستدل على ذلك بدلائل؛ أهمها أنها لو كانت مجردة للدلالة على الزمان لجاز أن تنعقد جملة تامة من بعضها ومن اسم معنى، وبأن أفعال باب كان كلها تتفق في الدلالة على الزمان، وتختلف بالنسبة إلى الحدث؛ "فإذا فرض زوال ما به الافتراق، وبقاء ما به التساوي، لزم ألا يكون بين الأفعال المذكورة فرق ما دامت على صيغة واحدة، ولو كان الأمر كذلك، لم يكن فرق بين: كان زيد غنيا، وصار غنيا، والفرق حاصل، فبطل ما يوجب خلافه"[54]

وأصحاب هذا الفريق لا ينكرون الفرق بين دلالة الأفعال الناقصة ودلالة التامة، وإنما يشيرون إلى أن مكمنه أن الحدث الذي تدل عليه هذه الأفعال " مقصود إسناده إلى النسبة التي بين معموليها، فمعنى قولك: كان زيد عالما، وجد اتصاف زيد بالعلم، والاقتصار على المرفوع غير واف بذلك، فلهذا لم يستغن به عن الخبر التالي، وكان الفعل جديرا بأن ينسب إلى النقصان"[55].

وأيا كان الأمر في هذه النقطة؛ فالإجماع قائم على وجود الاختلاف بين الفعل الناقص والتام من حيث الدلالة التي يؤديها كل واحد من القسمين، سواء كان هذا الاختلاف الدلالي ناجما عن تجرد الفعل من الدلالة على الحدث، أو ناجما من القصد إلى إسناد هذا الحدث إلى النسبة بين المرفوع والمنصوب في الجملة.

ثالثا: اختلاف مرفوعها عن الفاعل:

الفاعل اسم يسند إليه فعل على جهة قيام هذا الاسم بحدث الفعل أو اتصافه به أو وقوعه منه، أو على انتفاء اتصافه به كما إذا كان الفعل منفيا، أو على جهة تشبه ذلك، لكن الأفعال الناقصة ليست مع مرفوعها هكذا، وقد ألمح سيبويه في الكتاب إلى هذا الفارق حين قال: " تقول: كان عبدُالله أخاك، فإنَّما أردْتَ أن تُخْبِرَ عن الأُخوّة، وأدخلتَ كانَ لتَجعلَ ذلك فيما مضى. وذكرت الأول كما ذكرت المفعول الأول في ظننت"[56]، أي أن المرفوع ذكر هنا ليعلم " أنه صاحب هذه الفائدة، كما ذكرت المفعول الأوّل في باب " ظننت "[57].

والفعل الناقص لا يستغني بمرفوعه، فيدل معه على معنى، يقول السيرافي:" (كاد) لا تستغنى باسمها -إذا أردت هذا المعنى- ولا أخواتها، فأشبه "(كان) وأخواتها، و (إن) وأخواتها، وكل ما يحتاج إلى خبر"[58]

فالفائدة المرجوة التي يتصف بها الاسم مفهومة من الخبر، وكأن الإسناد حاصل بين اسمين، فالمرفوع فيهما متصف بالفائدة، والمنصوب معتمد الفائدة، وموضعها.

وإلى هذا يعزى سبب عدم اكتفاء كان بالمرفوع، كما يكتفي الفعل التام بمرفوعه، إذ إن المرفوع بعد كان تنتظر له الفائدة التي يفهمها الخبر (المنصوب)، ولذا لا يصح الاكتفاء به -أي المرفوع- مع الفعل الناقص في كلام يحسن عليه السكوت.

ويتبع ذلك أمور أخرى في الدلالة، منها أن الفاعل المرفوع بعد الفعل التام يمكن أن نشتق له من فعله اسم فاعل يدل على اتصاف الاسم بفعله وتلبسه به، فنقول مثلا: اجتهد محمد، فهو مجتهد، وأكرم فهو مكرم، ولا نقول في (كان محمد قائما) إنه كائن إلا إذا أكملنا بالخبر فقلنا: كائن قائما.

رابعا: اختلاف منصوبها عن المفعول وعن الحال:

تقدم الحديث عن هذا الفرق في المحور الأول بما يغني عن التكرار هنا إلا أنه يمكن أن تضاف هنا لطيفة لاحظها النحاة ومنهم الرماني في شرحه لكتاب سيبويه إذ يقول: "ولا يجوزُ أنْ يكونَ الفصلُ إلا بين معرفتينِ أو ما قاربَ المعرفةَ من النكرةِ؛ لأنه للإيذانِ بأنَ الذي بعده مُعتمدُ الفائدةِ [لا] على جهةِ الصفةِ.... ولا يصلُحُ الفصلُ إلا بين الاسم والخبرِ؛ لِيُؤْذِنَ بمعتمدِ الفائدةِ، فيجوزُ الفصلُ على هذا في: حسبتُ وأخواتها، وفي: كانَ وأخواتها، وفي إن وأخواتها، وفي الابتداءِ والخبرِ؛ لأن جميعَ ذلك يصلُحُ فيه معتمدُ الفائدةِ، ولا يجوزُ في: (ضربتُ) وما جرى مجراها؛ لأنه لا يُذْكَرُ بعدها معتمد الفائدةِ"[(59)]

فخبر كان يختلف عن سائر المنصوبات التي تنصب بعد الأفعال في العربية في أنه يكون معتمد الفائدة، ولذا جاز دخول ضمير الفصل عليه، لأن هذا الضمير إنما يدخل على ما كان معتمد الفائدة.

وجملة القول: إن اختلافا يشمل هذه الزوايا الأربع، من شأنه أن يحكم بعدم إمكانية ضم هذا الباب إلى نظائر تختلف معه في الدلالة الأولى الأصلية، وفي التركيبات اللغوية التي تدخل عليها، وإن اقتراحا مثل هذا من شأنه أن يقضي على استشعار هذه الفروق الجوهرية، حيث يضم نظائر مختلفة إلى أبواب منتظمة النظائر مثل باب الفاعل، وباب الحال، وهو في الحين ذاته يفرق النظائر التي بالإمكان نظمها تحت وتائر متفقة فيضعها تحت أبواب، فيجعل من خبر ليس حالا، ومن خبر ما أعمل عملها من الحروف -لشبه في الدلالة واضح- مدرجا تحت المنصوب على نزع الخافض، في حين أن الخافض نفسه مفهوم من خبر (ليس) أيضا، وهي التي قضى الاقتراح بأن خبرها لا يكون منصوبا على نزعه، وإنما على الحال، ومن خبر ما أشبه باب كان في مدخولاته مثل أفعال المقاربة مندرجا تحت باب المفعول به... إلخ دون كبير جدوى.

الخاتمة

أوضح البحث الفروق الجوهرية بين باب (كان) والأفعال التامة، وخلص إلى نتائج من أهمها ما يلي:

1- لا تساق كان وأخواتها إلى ما يساق له الفعل اللازم؛ إذ تختلف عنه في الدلالة الأصلية، وفيما يدخل عليه كل منهما من المعمولات، وفي جهة الإسناد وطريقه، كما يختلف مرفوعها عن الفاعل، ومنصوبها عن المفعول به والحال كليهما، مما يجعل القول بضم الفعل الناقص إلى الأفعال اللازمة قولا غير سديد.

2- نسبة إعراب (مرفوع كان فاعلا، ومنصوبها حالا إلى الكوفيين) نسبة غير صحيحة، وقد أثبت البحث أن أعلام الكوفة يعربون مرفوع كان اسما لها، ومنصوبها خبرا لها، وأوضح ذلك بما عرف من آراء الكسائي، والفراء، وثعلب، وما نقله تلاميذ الكوفيين عنهم من أمثال أبي بكر بن الأنباري؛ تلميذ ثعلب.

3- قول الفراء بأن الحجازيين ينصبون خبر ما العاملة عمل ليس لأنهم يلزمون النطق بالباء في مثل هذا التركيب، لا يعني أنه ينكر أن سبب نصب الخبر في هذا الباب هو مشابهة الحرف لليس، وقد أثبت البحث ذلك بكلام الفراء نفسه عن (لات)؛ ليرد على الزعم القائل بأن الكوفيين يعربون خبر ما الحجازية منصوبا على نزع الخافض.

4- رد البحث الزعم القائل بأن (لا) العاملة عمل (ليس) لم ترد سوى في بيت واحد من الشعر، وأورد بعض الشواهد الفصيحة التي جاء فيها إعمال (لا) عمل (ليس)واضحا، في زمن شعراء الاحتجاج وبعدهم.

5- أوضح البحث أن نسبة إعراب خبر أفعال المقاربة مفعولا لسيبويه نسبة غير صحيحة، وأثبت أن سيبويه يجعلها شبيهة لكان في كون منصوبها خبرا.

6- فصل البحث القول في الفروق التي نص عليها النحاة بين كان وغيرها من الأفعال من جهة الدلالة وطبيعة التركيب اللغوي الذي يدخل عليه كل منهما،

وأوضح علة تخصيص (كان وأخواتها) بباب خاص في الدرس النحوي منذ بدايات التأليف النحوي.

ثبت المصادر والمراجع

1. إعراب القرآن- أبو جعفر النَّحّاس النحوي (المتوفى: 338هـ)-وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم-منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت –الطبعة الأولى، 1421 هـ.
2. الاقتراح في أصول النحو -المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)-حققه وشرحه: د. محمود فجال-الناشر: دار القلم، دمشق – الطبعة الأولى، 1409-1989 م.
3. أمالي ابن الشجري (المتوفى:542هـ)-المحقق:د. محمود محمد الطناحي-الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة-الطبعة: الأولى، 1413 هـ-1991 م.
4. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين-المؤلف: كمال الدين الأنباري (المتوفى: 577هـ)-الناشر: المكتبة العصرية-الطبعة: الأولى 1424هـ-2003م.
5. إيضاح الوقف والابتداء-المؤلف: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (ت 328هـ)-المحقق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان-الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق-1390هـ-1971م.
6. تاريخ المدينة لابن شبة-المؤلف: عمر بن شبة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: 262هـ)-حققه: فهيم محمد شلتوت--جدة-عام النشر: 1399 هـ
7. التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين-أبو البقاء العكبري-المحقق: د. عبد الرحمن العثيمين-الناشر: دار الغرب الإسلامي –الطبعة الأولى، 1406هـ-1986م.
8. تجديد النحو – للدكتور شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة – الطبعة السادسة.
9. التَّفْسِيرُ البَسِيْط-أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري(المتوفى: 468هـ)-الناشر: عمادة البحث العلمي-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.-الطبعة: الأولى، 1430 هـ
10. تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد-المؤلف: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: 778 هـ)-دراسة وتحقيق: أ.د. علي محمد فاخر وآخرين- دار السلام للطباعة والنشر-القاهرة-الطبعة: الأولى، 1428 هـ
11. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك-المؤلف: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبدالله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: 749هـ)-

تحقيق: د. عبد الرحمن علي سليمان -الناشر: دار الفكر العربي-الطبعةالأولى 1428هـ-2008م.

12. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون-المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ)-المحقق: د. أحمد الخراط-دار القلم، دمشق.
13. دلائل الإعجاز-المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ)-المحقق: محمود محمد شاكر-الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة-دار المدني بجدة – الطبعة الثالثة 1413هـ-1992م.
14. الرد على النحاة – لابن مضاء القرطبي - تحقيق د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثانية – 1982 م.
15. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي-عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: 1111هـ)-المحقق: عادل أحمد عبدالموجود-علي محمد معوض-الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت-الطبعة: الأولى، 1419 هـ-1998 م.
16. سنن الترمذي-المؤلف: محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)-تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، وآخرين-الناشر: مصطفى البابي الحلبي – مصر –الطبعة الثانية 1395 هـ-1975 م.
17. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك-المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد-الناشر: دار التراث – القاهرة.
18. شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو-المؤلف: خالد الأزهري (المتوفى: 905هـ)-الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-الطبعة: الأولى 1421هـ-2000م.
19. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات-أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (ت 328هـ)-تحقيق: عبدالسلام محمد هارون-الناشر: دار المعارف [سلسلة ذخائر العرب (35)-الطبعة: الخامسة.
20. شرح تسهيل الفوائد-لابن مالك (المتوفى: 672هـ)-المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون-الناشر: هجر للطباعة والنشر-الطبعة: الأولى (1410هـ-1990م).
21. شرح كافية ابن الحاجب – رضي الدين الأستراباذي- تصحيح وتعليق د.يوسف حسن عمر-1398 هـ-1978 م.
22. شرح كتاب سيبويه-المؤلف: أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (المتوفى: 368 هـ)-المحقق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي-الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان-الطبعة الأولى، 2008م.
23. شرح كتاب سيبويه [جزء من الكتاب (من باب الندبة إلى نهاية باب الأفعال)]-المؤلف: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (296-384 هـ)-أطروحة دكتوراه لـ: سيف بن عبد الرحمن بن ناصر العريفي-إشراف: د تركي بن سهو العتيبي،

الأستاذ المشارك في قسم النحو والصرف وفقه اللغة، كلية اللغة العربية، جامعة: الإمام محمد بن سعود الإسلامية-الرياض-المملكة العربية السعودية-عام: 1418 هـ-1998 م.

24. صحيح البخاري-المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري-المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر-الناشر: دار طوق النجاة-الطبعة: الأولى، 1422هـ.
25. صحيح مسلم-المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)-المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي-الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
26. طبقات الشافعية الكبرى-تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي-تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو-هجر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الثانية 1413هـ
27. الفصيح-المؤلف: أحمد بن يحيى، أبو العباس، المعروف بثعلب (المتوفى: 291هـ)-تحقيق ودراسة: دكتور عاطف مدكور-الناشر: دار المعارف.
28. كتاب سيبويه-المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (المتوفى: 180هـ)-المحقق: عبد السلام محمد هارون-الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة-الطبعة: الثالثة، 1408 هـ-1988 م.
29. الكناش في فني النحو والصرف-المؤلف: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة (المتوفى: 732 هـ)-تحقيق: الدكتور رياض بن حسن الخوام-الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان-عام النشر: 2000 م.
30. اللباب في علل البناء والإعراب-المؤلف: أبو البقاء العكبري محب الدين (المتوفى: 616هـ)-المحقق: د. عبدالإله النبهان-الناشر: دار الفكر – دمشق-الطبعة: الأولى، 1416هـ 1995م.
31. اللباب في علوم الكتاب-المؤلف: أبو حفص سراج الدين الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)-المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض-الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت / لبنان-الطبعة: الأولى، 1419 هـ-1998م.
32. اللمحة في شرح الملحة- محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي، المعروف بابن الصائغ (المتوفى: 720هـ)-المحقق: إبراهيم بن سالم الصاعدي-الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية-الطبعة: الأولى، 1424هـ/2004م.
33. مجالس ثعلب-المؤلف: أحمد بن يحيى الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (المتوفى: 291هـ)-شرح وتحقيق: عبدالسلام هارون – النشرة الثانية – دار المعارف – مصر.
34. مسائل خلافية في النحو-المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: 616هـ)-المحقق: محمد خير الحلواني-الناشر: دار الشرق العربي – بيروت-الطبعة: الأولى، 1412هـ 1992م.

35. مسند الشاميين-المؤلف: سليمان اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)-المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي-الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت-الطبعة: الأولى.
36. مشكل إعراب القرآن – مكي القيسي-المحقق: د. حاتم صالح الضامن-الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت-الطبعة: الثانية.
37. معاني القرآن-المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (المتوفى: 207هـ)-المحقق: أحمد يوسف نجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي-الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر-الطبعة: الأولى.
38. الهداية إلى بلوغ النهاية-أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (المتوفى: 437هـ)-المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي-جامعة الشارقة-الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة-كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة الشارقة-الطبعة: الأولى، 1429 هـ-2008 م.
39. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع-المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)-المحقق: عبد الحميد هنداوي-الناشر: المكتبة التوفيقية – مصر.

الهوامش:

---

(1)-ينظر كتاب الرد على النحاة: 72، 73

(2)- ينظر كتاب الرد على النحاة ، تحقيق د. شوقي ضيف: 4، وينظر أيضا: تجديد النحو: 4

(3) تجديد النحو : 4

(4)-تجديد النحو:12ـ 14

(5)-ينظر في ذلك اللمحة في شرح الملحة: 2/ 575-ومسائل خلافية في النحو:69-والتبيين عن مذاهب النحويين: 141 والإنصاف في مسائل الخلاف: 2/ 680

(6)-ينظر مثلا دلائل الإعجاز: 212

(7)-الموضوع والمحمول مصطلحان منطقيان استخدمهما النحاة كثيرا؛ ينظر مثلا شرح التصريح على التوضيح:1/ 307

(8)-سنن الترمذي:519/4 ، وورد في غيره برواية أخرى يرد فيها موضع الاستشهاد مرتين (يكنه) وهي: " إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْه، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْله "؛ ينظر مثلا صحيح البخاري: 93/2، 4/ 70، وصحيح مسلم:4/ 2244-و مسند الشاميين: 4/ 226، وتاريخ المدينة: 1399 هـ:2/ 402

(9)-البيت من الطويل، وهو من الأبيات التي لم تعز إلى قائل معين.

(10)-البيت من الطويل، وهو مجهول القائل.

(11)-ينظر شرح تسهيل الفوائد:1/ 376

(12)-التوسع في القاعدة بإجازة كون مرفوع لا معرفة هو صنيع ابن الشجري، وقد وافقه ابن مالك في شرح التسهيل؛ فقال: " والقياس على هذا سائغ عندي"؛ ينظر أمالي ابن الشجري: 1/ 432، وينظر أيضا: شرح التسهيل لابن مالك: 1/ 376

(13)-رجع الباحث إلى مصدر البيت – أمالي ابن الشجري-فوجد كلمة (مبتغ) مكان قوله (باغيا)، وهو ما يضعف الاستشهاد بالبيت على أنها (لا) المعملة عمل ليس، إذ إن النصب ليس واقعا على الخبر (مبتغ)، لكن ابن الشجري استدل على ذلك بنصب قوله (متراخيا)، ذاكرا بيتا قبل هذا البيت، وبيتا بعده؛ ليستدل على نصب القافية، وقال: "لئلا يتوهم متوهم أن البيت فرد مصنوع"

وقد ذكر ابن الشجري نفسه أنه عرف بعد انقضاء أماليه الرواية الثانية للبيت، وهي التي أثبتها الباحث هنا ؛ قال: " ووجدت بعد انقضاء هذه الأمالي، في كتاب عتيق يتضمّن المختار من شعر الجعدي: «لا أنا باغيا سواها» فهذه الرواية تكفيك تكلّف الكلام على «مبتغ»، ينظر أمالي ابن الشجري: 1/ 432، 433.

(14)-القول لابن مالك في شرح التسهيل: 1/ 376، وقد زعم الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد -في تعليقه على شرح ابن عقيل-أن القول لأبي حيان الأندلسي، والصواب أن ابن حيان كان ناقلا للفظ ابن مالك وشارحا له، وأن اللفظ لابن مالك نفسه؛ ينظر شرح ابن عقيل:1/ 316

(15)-ينظر مثلا توضيح المقاصد والمسالك:1/ 514

(16)-ينظر تجديد النحو: 15-16

(17)-المرجع السابق: 16

(18)-كتاب سيبويه: 153/3

(19)-نفسه: 3/ 159، 160

(20)-شرح كافية ابن الحاجب – رضي الدين الأستراباذي: 1/ 334، وينظر: 136/4

(21)-ينظر مثلا طبقات الشافعية الكبرى: 3/ 142، وينظر أيضا سمط النجوم العوالي: 417/3، وروي البيت الأول بروايتين؛ الأولى التي ذكرناها، والثانية (ما رأينا خَرِباً نق... قر عنه البَيْضَ صَقْرَ)، والخرب الذكر من الحبارى، والعير بفتح العين وسكون الياء الذكر من حمر الوحش.

(22)-سورة القصص: 28 / 46

(23)-إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحّاس:3/ 163

(24)-الهداية إلى بلوغ النهاية: 8/ 5542، وينظر أيضا مشكل إعراب القرآن:546/2

(25)-سورة النجم: 9/53

(26)-التَّفْسِيرُ البَسِيْط للنيسابوري: 21/ 19

(27)-ينظرَ مثلا الدَر المصون: 6/ 202، 4 / 164، و اللباب في علوم الكتاب:142/7

(28)-معاني القرآن للفراء: 403/2

(29)-مشكل إعراب القرآن: 1/ 346

(30)-نفسه: 2/ 525

(31)-ينظر مجالس ثعلب: 43

(32)-ينظر المرجع السابق مثلا : 165

(33)-الفصيح؛ فصيح ثعلب:288، 295

(34)-ينظر إيضاح الوقف والابتداء:126/1، 316، 497 و692/2، 818، 834، 905

(35)-ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 6، 9، 86، 411، 412، 551

(36)-ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/ 676

(37)- المرجع السابق والصفحة نفسها.

(38)-نفسه: 2/ 676

(39)-نفسه: 2/ 676

(40)-اللباب في علل البناء والإعراب:1/ 167

(41)-همع الهوامع: 1/ 409

(42)-نفسه: 1/ 409

(43)-الاقتراح في أصول النحو: 131

(44) -معاني القرآن للفراء: 2/ 42

(45)-نفسه: 3/ 139

(46)-سورة ص: 38/ 3

(47)-المرجع السابق: 2/ 397

(48)-سورة آل عمران: 3/ 91

(49)-معاني القرآن للفراء: 1/ 226

(50)-كتاب سيبويه: 1/ 23، 24

(51)-شرح كتاب سيبويه: 1/ 174

(52)-الاقتراح: 46

(53)-ينظر مثلا الكناش في فني النحو والصرف:40/2

(54)-شرح تسهيل الفوائد لابن مالك: 1/ 337، 338، كما ينظر تفصيل هذه المسألة أيضا في شرح التسهيل المسمى "تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد" ،لناظر الجيش: 3/ 1085

(55)-شرح تسهيل الفوائد: 1/ 341

(56)-كتاب سيبويه: 1/ 45

(57)-شرح كتاب سيبويه للسيرافي: 1/ 299

(58)-شرح كتاب سيبويه للسيرافي: 1/ 30

(59)-شرح كتاب سيبويه للرماني: 1/ 687

لُغَةُ الجَسَدِ وَدَوْرُهَا فِي تَكْوِينِ الخطَابِ النَّحْوِيَ

الحَذْفُ عِنْدَ سيبويهِ أنْمُوذَجًا

Body Language and its Role in the Development of the Speech

'Sibawayh's View inSyntactic Ellipsis as a Model'

عصام محمد ناصر العصام*

تاريخ تقديم البحث **2017/1/31** تاريخ القبول **2017/3/16**

ملخص

يدرس الباحث في هذا البحث أثر هذا النِّظام العلاماتيِّ غير اللَّفْظِيِّ في بناء التركيب النحوي متبعًا المنهجَ الوصفيّ المتَّخذَ من التحليلِ أداةً له، فيصفُ ويُحَلِّلُ نظرةَ كلٍّ من اللُّغَويين، والبلاغيين، والنَّحْوِيِّينَ في تراثنا العربي، وأصحاب المدرسة الوصفيَّة، وأصحاب المدرسة التوليدية التَّحْوِيْلِيّة في الثراث الغربي وَمَنْ تَأَثَّر بهم من المحدثين العرب، إلى هذا النوع من الأنظمة العلاماتية وإلى أيِ مدى يكون إسهامها في بنية الحطاب النَّحْوِيّ من عدمه، متَّخذًا من دراسة ظاهرة الحذف عند سيبويه أنموذَجًا لدراسة مدى إسهام لغة الجسد في تشكيل بنية الخطاب النحوي، فهي دراسة في الفكر وطريقة المقاربة، وَتَأمَلُ هذه الدراسةُ أن تُلْقيَ مَزِيدًا منَ الضَّوْءِ عَلَى وَاحد مِنْ مُتَمِّمَات الكلامِ لَهُ دورٌ بارزٌ وكبيرٌ في إِيْصَالِ رَسَائلنا اليَوْمِيَّة.

الكلمات الدَّالة: دور، لغة، الجسد، تكوين، الخطَاب، النَّحْوي، الحذف، سيبويه.

Abstract

This research deals with the impact of non-verbal communication in syntax,throgh the descriptive approach and analytical.Describing and analyzing the scholar's view in languistic, syntax and rhetoric of linguistsin the heritage of the Arab, and the transformatinal &generative views in the western heritage and the views ofnew Arabs that influenced by that school, studying the systems of this kind of communication (non-verbal), and its role in arabic syntax, taking the study of the phenomenon of ellipsis(by Sibawayh) as a model, focusing on the contribution of body language in the formation of syntactic speech. It is a study in thought and method of approach, whict hopes to shed more light on one of the complements of speaking, whereit has a prominent and significant role in the delivery of messages in our daily communication

Keyboard: Role، Language، Body، Formation، Speech، Syntactic، ALEllipsis ،Sibawayh.

* قسم اللُّغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية .

مقدمة:

قارب الباحثون مفهوم الخطاب من زوايا متنوِّعة، طبقا لتنوّعِ خلفيَّاتهم العلميَّة، واهتماماتهم البحثيِّة، ولم يقفوا عند معالجة نظام الخطاب العلاماتيِّ، "ولذلك ورد الخطاب بتعريفات متنوّعة... وليس في هذا تشتُّتٌ بقدر ما فيه من غنىً وسعة"[1]، وقد ركّزت بعض الأعمال على مقاربة نظام الخطاب اللَّفْظِيِّ، انطلاقًا من أَنَّ الخطابَ هُوَ لَفْظٌ. وندرك أنَّ اللُّغَة اللَّفْظِيَّة قد لا تستطيع في بعض السِّياقات، أن تكتنز شحنة الخطاب التبليغيّ بمعزلٍ عن الأنظمة العلاماتيَّة الأُخَرَ، ليس هذا فحسب، بل لو انطلقنا من تجاربنا وخبراتنا، لأمكن القول إِنَّ النِّظامَ التَّلفُّظِيَّ ليس النِّظام الوحيد المستعمل في صياغة الخطابات. خصوصًا الخطاب المعاصر الذي واكب إيقاع الحياة، واستثمر التطوُّرات التقنيَّة أيَّما استثمار؛ فقرَّب البعيد، ونوَّع مادَّة الخطاب، وخاطب جميعَ الحواسِّ. هذا، وقد نتج عن تلك التطوُّرات، وهذه الاستثمارات تنوُّعٌ في أنظمة الخطابات، ممَّا أضفى عليها غنىً. وبالرَّغم من تلك الممارسات التي أصبحت شبه مسلَّمات، إلَّا أنَّ الخطاب ذا النِّظام العلاماتيِّ غير اللَّفْظِيِّ لم يحظ بالعناية والدِّراسة ضمن نظريَّات الخطاب التي تَكْفَلُ معالجته والوقوف على تنظيمه وتفعيله في السِّياقات المختلفة. بيد أنَّ هناك من قاربه، ولكن ضمن البحث في الدراسات التواصليَّة فقط، وما جرى من دراسات في التَّواصل هو دراسة للوسائل والآثار وغيرها؛ أي في الإطار العامِّ، ولكن بمعزلٍ عن أثر هذا النظام العلاماتيِّ غير اللَّفْظِيِّ في بناء التركيب النحوي ومن هنا انبثقت مشكلة هذا البحث عن عدم اعتبار الأنظمة غير اللَّفْظِيَّة أنظمةً خطابيَّةً، تستحقُّ أَنْ تُفْرَدَ لها دراسة، أو دراسات مستقلَّة..

أسئلة البحث:

الأسئلة واسطة بين مشكلة البحث وأهدافه، ويمكن عرضها في الأسئلة التّالية:

- هل ينحصرُ مفهوم الخطاب في الخطاب اللَّفْظِيِّ؟
- هل اعْتَدَّ النحويون بالأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفْظِيَّة بوصفها مكوّنًا خطابيًّا؟
- ما دَوْرُ لُغَةِ الجَسَدِ في تَكْوِينِ الخِطَابِ النَّحْوِيِّ؟.

أقسام البحث:

انقسم البحث في هذه الدراسة إلى عدَّة مباحث:

المبحث الأوّل: لغة الجسد بوصفها لغة جانبيّة، وينضوي تحته:

1- منزلة لغة الجسد فيما يسمَّى باللُّغَة الجانبيَّةِ.

2-لغة الجسد بوصفها لغةً جانبيَّةً وعلاقتها بمفهومي الكلام واللُّغَة.

3- لغة الجسد بين الإنتاج والتلقِّي والتحليل.

4- لغة الجسد نظامٌ لغويٌّ أو جزءٌ من النظام اللُّغَوِيِّ عند مقاربتها من منظور التلقي.

5- لغة الجسد دليلٌ على الجزء المحذوف من النِّظَامِ اللُّغَوِيِّ عند مقاربتها من منظورِ إنتاجِ الكلامِ.

6- لغة الجسد وصلتها بقضيَّة الحذف والتَّقْدِير بين الوصفيِّين والتَّحويليِّين العرب:

المبحث الثاني: لغة الجسد وأثرها في مبنى التركيب النحوي ودلالته، الحذف عند سيبويه أنموذجًا، وينضوي تحته:

1- الحكم بوجود محذوف وتقديره.

2- الأحكام المتعلقة بالحذف.

المبحث الأوَّل: لغة الجسد بوصفها لغة جانبيّة، وينضوي تحته:

1- منزلة لغة الجسد فيما يُسَمَّى باللُّغَة الجانبيَّة:

يتناول هذا البحث الأداءات الخارجيَّة أو ما يمكن تسميته القرائن أو اللُّغَة الجانبيَّة (paralangage) التي تصاحب الكلام المنطوق، وليست منه، وتؤثر في معناه. هذه الأداءات الخارجية (اللُّغَة الجانبيَّة) تختلف عن الأداءات الداخليَّة النابعة من القرائن الصوتيَّة والصرفيَّة والتركيبيَّة النحويَّة والمعجمية والبيانيَّة للكلمة أو التركيب. وتنقسم هذه الأداءات الخارجية إلى نوعين: أولهما: الأداءات الصوتيَّة: مثل: الوقفات، والتنغيم، والتزمين، والإيقاع. والآخر: الأداءات غير الصوتيَّة: مثل: سياق الحال، والحركة الجسديَّة المصاحبة للكلام(2).

اختلف علماء العربية في مفهوم اللُّغَة الجانبيَّة، فمنهم من يرى أنَّها تقتصر على الجوانب الصوتية التي تصاحب الكلام، فليست هي تلك الألفاظ التي ينطقها المتكلم، ولكنَّها

حالة الصوت عند نطق الألفاظ ارتفاعًا وانخفاضًا أو تنغيمًا أو غير ذلك[3]. ومنهم من يرى أَنَّهَا تَهْتَمُّ باستخدام الظواهر غير الصوتيَّة مثل: تعبيرات الوجه أو حركات الرأس أو العينين والإشارة بأعضاء الجسم التي قد تفيد الموافقة أو تضيف ظلالاً من المعاني إلى ما يقوله الناس[4]. والقسم الثالث -والأخير- يجمع بين المفهومين، ويرى أنها تطلق على الجوانب الصوتيَّة، والجوانب غير الصوتيَّة المصاحبة للكلام، فيرون أنها مزيج من الطرق الاجتماعيَّة المميزة، والإشارات الجسمانيَّة وتعبيرات الوجه وتغيرات الصوت، وغير ذلك[5]. ويرى من ذهب إلى أن اللُّغَة الجانبيَّة تقتصر على الجوانب الصوتية التي تصاحب الكلام، أنَّ المعنى المحَصَّلَ من الكلام له علاقة وثيقة بالأداء الصوتي المصاحب للكلام؛ لكونها تتعلق بحالة الصوت اللُّغَوِيِّ عند النُّطْقِ بالجملة، فالجملة بوصفها كلامًا منطوقًا لا يتأتى معناها المقصود بالألفاظ فقط بل هناك وسائل وأداءات صوتية تشترك في تحديد المعنى؛ ولذا فإنَّ اللُّغَوِيِّين رصدوا موازين معينة لهذه اللُّغَة الجانبيَّة تُؤَثِّرُ في معنى الكلام، قذ تضيف معنًى جديدًا على ما تُؤَدِّيه الألفاظ، وقد تُؤَدِّي عكس ما تُؤَدِّيه الألفاظ، ومن هذه الموازين: ميزان جهارة الصوت وميزان طبقة الصوت، وميزان الصوت المنفتح وميزان البطء والسرعة[6]. فاللُّغَة الجانبية بهذا المفهوم لها دلالات عرفيَّة شأنها شأن اللُّغَة العاديَّة، وقد تُؤَدِّي أحيانًا عكس ما تُؤَدِّيه اللُّغَة المنطوقة نفسها؛ ولذا فإنَّ هذه اللُّغَةَ تعتبر جزءًا من علم ما وراء اللُّغَة[7].

2 -لغة الجسد بوصفها لغة جانبيَّةً وعلاقتها بمفهومي الكلام واللُّغَة: تندرج لغة الجسد بوصفها لغة جانبيَّة في مفهوم الكلام عند دي سوسير[8]، والأداء أو اللُّغَة المجسَّدة عند نعوم تشومسكي[9]، حيث الكلام بوصفه أداء أو سلوكًا لغويًّا بشريًّا ضربان: ضربٌ إنتاجيٌّ (produtive) أو كما كان يسمِّيه القدماء أداء نشطًا أو فاعلاً (active)، وهو حين يُنْتِجُ الإِنْسَانَ اللُّغَة، أَيْ حِيْنَ يَكُونُ مُتَكَلِّمًا أَوْ كَاتِبًا وَضَرْبٌ استقباليٌّ (receptive) أو ما كان يسمَّى أداء سلبيًّا (passive) وهو حين يستقبلُ الإنسانُ اللُّغَة، وَيَتَلَقَّاهَا أَيْ حِينَ يَكُونُ مُسْتَمِعًا أَوْ قَارِئًا، وَيَكَادُ الاهتمامُ العِلْمِيُّ أَنْ يَكُونَ مُنْصبًّا عَلَى الضَّرْبِ الاسْتِقْبَالِيِّ لِلُغَةِ؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ عَمَلِيَّاتٍ دَاخِلِيَّةٍ كَثِيرَةٍ[10].

هذا الضربُ الإنتاجيُّ للكلامِ تتعدَّدُ وَسَائِلُهُ لَكِنَّهَا تَعُودُ في نهاية الأمر إلى لُغَةٍ صَائِتَةٍ تَعْنِي مجموعةً من الحروف المقطعية الملفوظة المؤتلفة في نسق تركيبي له خصائصه وسماته للدلالة على معنى تركيبي مفيد يعبِّرُ عَمَّا يجول بخاطر المتكلِّم، ولغة صامتة تشمل: الخط، والإشارة وتشمل: الحركات الجسديَّة، وما تدركه الحواس من مواقف وأشياء وملابسات عدَّةٍ تكتنفُ الموقف الكلامي، والعقد، والنصبة (سياق الحال) [11]

3- لغة الجسد بين الإنتاج والتلقي والتحليل:

لغةُ الجَسَدِ ضَرْبٌ مِنَ اللُّغَة الجَانِبِيَّةِ المصَاحِبَةِ للكَلامِ، تَشْمَلُ فِي عُمُومِهَا: الحركاتِ الجَسَدِيَّةَ، وَمَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ، وَتَتَنَوَّعُ مَصَادِرُهَا، فَمَرَّةً تَكُونُ مِنْ جَانِبِ المتَكَلِّمِ، وَمَرَّةً تَكُونُ مِنْ جَانِبِ المخَاطَبِ، وَمَرَّةً تَكُونُ حَالَةً مُشْتَرَكَةً عَبْرَ مَوْقِفٍ حَرَكِيٍّ يُمَثِّلُ مَشْهَدًا حَاضِرًا مُدْرَكًا بالحِسِّ. وهذه اللُّغَة مَهْمَا تَنَوَّعَ مَصْدَرُهَا لَهَا أَثَرٌ فِي إِنْتَاجِ الكَلامِ مِنْ قِبَلِ المتَكَلِّمِ أَوْ تَلَقِّيهِ مِنْ قِبَلِ المخَاطَبِ، والمحَلِّلُ اللُّغَوِيُّ (النَّحْوِي) مُرَاقِبٌ لِهَذِهِ العَمَلِيَّةِ لاسْتِكْنَاهِ المعَاني البَاطِنَةِ واسْتِخْرَاجِهَا في مَبْنَى التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ الذِي يَدُورُ بَيْنَ المتَكَلِّمِ والمخَاطَبِ(12).

4- لغة الجسد نظامٌ لغويٌّ أو جزءٌ من النِّظَامِ اللُّغَوِيِّ عند مقاربتها من منظور التَّلَقِّي:

ذلك أنَّ المقصدَ من عملية التَّخَاطُبِ مَبْنِيٌّ عَلَى الإِفَادَةِ والإِبَانَةِ عَمَّا في النَّفْسِ، فَكُلُّ رِسَالَةٍ مِنَ المتَكَلِّمِ إلى المخَاطَبِ مَحْكُومَةٌ بِهَذَا المبْدَأِ فَمَتَى مَا أَدَّتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ هَذَا الغَرَضَ- وَعَلَى أَيِّ شَكْلٍ كَانَتْ- عُدَّتْ نِظَامًا لُغَوِيًّا مُتَكَامِلاً. وَقَدْ تَنْطَوِي هَذِهِ الرِّسَالَةُ عَلَى مجموعةٍ من حركاتِ الجَسَدِ، وإيماءاتِه المصاحبةِ لِلَفْظِ، وقد تكونُ هذه الحركاتُ هِيَ كُلُّ مَا دَارَ بَيْنَ المتَكَلِّمِ والمخَاطَبِ(13). كما تقع دلالات لغة الجسد في إطار الدلالات غير اللَّفْظِيَّة في التراث اللغوي(14)؛ولذا يعدُّهَا ابن هشام في البيان الذي يطلق على الكلام لغةً، ويعدُّ فيه الحدث الذي هو التكلُّم وما في النفس مِمَّا يُعَبَّرُ عنه باللَّفْظِ المفيد، وما تحصل به الفائدة سواءً كان باللَّفْظِ أو الخط أو الإشارة أو ما نطق به لسان الحال (15)، وعدَّ بعضهم في الكلام "ما يُفْهَمُ من حال الشيءِ مَجَازًا"(16) ويظهر الأمر أكثر في القول، فقد عدُّوا فيه مثل: "فقالت له العينان: سمعًا وطاعةً"، ومثل "قال بيده أشَارَ"، ومثل "قال برأسه أشار"ومثل "قال بثوبه رَفَعَهُ"(17). ويقول عبد القاهر الجرجاني: "فتجد في الحال وصفًا هو شبيه بالنُّطق من الإنسان وذلك أنَّ الحال تدلُّ على الأمر، ويكون فيها أماراتٌ يُعْرَفُ بها الشيءُ كما أنَّ النُّطق كذلك، وفي العين وَصْفٌ شبيه بالكلام، وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها وخواصِّ أوصافٍ يُحْدَسُ بها على ما في القلوب من الإنكار والقبولِ"(18). ويروي في موضع آخر عن رجلٍ أتى الجمحيَّ يستشيره في شأن امرأةٍ يريد الزَّواج منها، فسأله عن بعض أحوالها فلَمْ يَفْهَمْ سؤاله، فقال: إنِّي لأعْرفُ في عين الرَّجُلِ إذَا عرفَ، وَأَعرفُ فيها إذا أَنْكَرَ، وَأَعْرفُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ وَلَمْ يُنْكِرْ، أَمَّا إذا عَرَفَ فإِنَّهَا تُخَاوِصُ، وإذَا لَمْ يَعْرِفْ وَلَمْ يُنْكِرْ فإِنَّهَا تَسْجُو، وإذا أنْكَرَ فإِنَّهَا تَجْحَظُ "(19)، ثمَّ أَضَافَ الجرجاني أنَّ أمر لغة العيون كان معروفًا في عصره(20). ويرى ابن طفيل أنَّ الإنسان "إذا احتاج أن يعرف غيره ما في ضميره أو مقصوده بضميره استعمل الإشارة في الدلالة على

ما كان يريد إذا كان من يتلمَّس تفهيمه بحيث يبصر إشارته ثمَّ استعمل بعد ذلك التَّصويت"[21]. وفي السياق ذاته عَدَّ الجاحظ وسائل البيان، وهي اللَّفْظُ، والإشارة، والعقد، والخطُّ، والحال التي تُسَمَّى النَّصبة[22]. فأَمَّا الإشارة فهي ما نعنيه في هذا البحث من الحركات الجسدية وما تدركه الحواس، كما رأى أَنَّ حُسْنَ الإشارة باليد والرأس إنَّما هو من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدَّلِّ والشَّكْلِ والتَّفَتُّلِ والتَّثَنِّي واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور[23].

كما أنَّ للإشارة واللَّفْظِ عنده رتبًا مختلفة يصرِّفها المتكلِّمُ كيفما شاء وحسب مقصده في رسالته اللغوية، فقد يكون اللَّفْظُ أسبق في الرتبة من الإشارة وقد يكونان في آنٍ واحد معًا فيقعان موقعًا واحدًا من الرُّتْبَةِ[24].

وحينئذٍ تكونُ لدلالاتِ الإشارةِ أو لُغَةِ الجَسَدِ أَهَمِيَّةٌ كُبْرَى دَاخِلَ النِّظَامِ اللُغَوِيِّ، فَلَهَا دلالاتٌ وَإِيْحَاءَاتٌ وَإِيَمْاءَاتٌ لا يمكن أن تصلَ إلى المخاطَبِ إلَّا بواسطتها، وَيَصِفُ الجَاحِظُ هَذِهِ الدِّلالاتَ بـ**(خَاصِّ الخَاصِّ)**[25].

ويرى الجاحظ أنَّ **معنى خاصِّ الخاصِّ هو** الذي: "لا اسم له إلَّا أَنْ تَجْعَلَ الإشارةَ المقرونة باللَّفْظِ اسْمًا"[26]. ومِمَّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ أنَّ الجاحظ قَسَّمَ الإشارة أو اللُّغَة الإشاريَّة في مجمل حديثه عنها ثلاثة أقسام على النَّحْوِ الآتي:

1- **الإشارة المصاحبة للَّفْظِ**: هي شريك للَّفْظِ في أداء المعنى الكُلِّي، فـ "الإشارةُ واللَّفْظُ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللَّفْظِ"[27].. ويتحدَّث الجاحظ عن المتكلِّم الذي يستعمل حركات جسده أثناء الكلام بقوله: "وَلَوْ قُبِضَتْ يَدُهُ وَمُنِعَ حَرَكَةَ رَأْسِهِ لَذَهَبَ ثُلُثَا كَلامِهِ"[28].

2- **الإشارة غير المصاحبة للَّفْظِ**: هي في هذه الحال ليست نمطًا تَوَاصُلِيًّا ثَانَوِيًّا تابعًا للَّفظِ، بل تُكَوِّنُ لنفسها نظامًا خاصًّا ذا جهازٍ منفصلٍ عن جهاز النُّطْقِ[29]، وهي بذلك أداة تواصل بين المرسل والمتلقِّي، يبرز أثرها في حال عجز الصَّوت عن بلوغ الأذن لتباعد المُتَخَاطِبين، أو نتيجة الضوضاء، وكثرة الأصوات واختلاطها على السَّامع "لأَنَّهُ مَتَّى كَثُرَتْ الأَصواتُ صارت وَغًى، وَمَنَعَ بعضُهَا بَعْضًا من الفَهْمِ"[30].

3- **الإشارة باعتبارها نسقًا ثقافيًّا**: هي إشارات لا تصنعها حركات أعضاء الجسم ولا هيئاته، لكنَّها تنبثق عن مختلف العناصر التي تُكَوِّنُ نَسَقَ حياة العرب الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة،

فـ"القَضِيبُ للإِيْقَاعِ، والقَنَاةُ للبَقَّارِ، والعَصَا للقِتَالِ، والقَوْسُ للرَّمْيِ"[31]. وَيُقَرِّرُ ابن جني أنَّ الحذف قد يكون من نصيب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وَلَكِنَّهُ لا يُلْقِي حُكْمَهُ هذا على عواهنه غَيْرَ مُقَيَّدٍ ولا مُخَصَّصٍ، فلا بُدَّ للمحذوفِ من دليلٍ يَدُلُّ عليه، ويُعْتَاضُ به عن المحذوف، وإلَّا تخلَّقَ التَّفَاصُلُ وامَّحَى التَّوَاصُلُ، وكان فيه ضربٌ من تكليف علم الغيب في معرفته[32]، ومن الدلائل على المحذوف ما يصحب الكلام المنطوق من حركات جسديَّة وما تدركه الحواس من ذلك، ويضرب مثالاً على ذلك حذف الصفة لدلالة ملابسات الموقف الكلامي عليها، يقول ابن جني: "وقد حُذِفَت الصِّفة ودلَّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: يَسِيرُ عَلَيهِ ليلٌ، وَهُمْ يريدون: لَيْلٌ طويلٌ، وكأَنَّ هذا إنَّمَا حُذِفْتَ فيه الصِّفَةُ لِمَا دَلَّ من الحالِ على موضعها، وذلك أَنَّكَ تُحِسُّ في كلام القائل لذلك من التَّطْوِيح والتَّطْرِيح والتَّفْخيم والتَّعظيم ما يقوم مقام قوله: ليلٌ طويلٌ أو نحو ذلك"[33].

ثمَّ يقول: "وأنت تحسُّ ذلك من نفسك إذا تأمَّلْته، وذلك أَنَّك تكون في مدح إنسانٍ والثَّنَاء عليه فتقول: كان واللهِ رجلاً، فتزيد في قوَّة اللَّفْظِ بـ(والله) هذه الكلمة، وتَتَمَكَّنُ في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، وعليها أي: رجلاً فاضلاً أوشجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك، وكذلك تقولُ: سألناه فوجدناه إنسانًا! وتُمَكِّنُ الصَّوْتَ بـ(إنسان) وتُفَخِّمُهُ فتَسْتَغْنِي بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك، وكذلك إنْ ذَمَمْتَهُ وَوَصَفْتَهُ بالضِّيق قلْتَ: سألناه وكان إنسانًا! وتزوي وجهك وتُقَطِّبُهُ، فيُغْنِي ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا"[34].

كما ينقل ابن جنِّي عن بعض مشايخه قوله: "وأنا لا أُحْسِنُ أَنْ أُكَلِّمَ إنسانًا في الظُّلْمَةِ"[35]، كما يأبى ابن جني أن يكون استماع الأذن مغنيًا عن مقابلة العين في الدِّلالَةِ على مقصود المتكلِّم، ولو كان ذلك كذلك لَمَا تَكَلَّفَ القائل، ولَمَا كَلَّفَ صاحبه الإقبال عليه والإصغاء له[36]، ومِمَّا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنّ ِاللُّغَةَ الصائتةَ لا تقدمُ المعنى الكلِّي بل كما يظهر من ثنائية ابن جني أنَّ اللُّغَةَ الصامتةَ لها دور في إيصال المعنى، بل هي شريكٌ فيه[37].

وقد تنبَّهَ ابن وهب إلى دور اللُّغَةِ الصامتةِ في بيان المعنى وكونها شريكًا في ذلك للُّغَةِ الصَّامِتَةِ، فَأَطْلَقَ عَلَى البيان بالإشارة مصطلح (الوحي) مشيرًا إلى الدلالة الإيحائية التي يتضمَّنُهَا، حيث يقول: "وأمَّا الوحي فإنَّها الإبانةُ عَمَّا في النفس بغير المشافهة، على أيِّ معنى وقعت من إيماءٍ أو إشارةٍ"[38]. كما ارتضى (دي سوسير) أن يكون للكلمة جانبان: واحدٌ ماديٌّ، والآخَرُ معنويٌّ، أمَّا الماديُّ فهو الدَّالُّ، وأمَّا المعنويُّ فهو المدلول، والحق أَنَّ الحركة الجسديَّة كذلك أمرها، فَلَهَا دَالٌّ وَمَدْلُولٌ، فَأَمَّا الدَّالُّ فَهُوَ الصُّورَةُ التَّشْكِيْلِيَّةُ التِي تَتَجَلَّى عَلَيْهَا الحَرَكَةُ،

وَأمَّا المدلولُ فَهُوَ دَلالَةُ هَذِهِ الحَرَكَةِ فِي سِيَاقِهَا الذِي وَرَدَتْ فِيهِ، فاللُّغَة الصَّامِتَةُ شريكةٌ للُّغَةِ الصَّائِتَةِ في بيان المعنى الكلِّي للتَّرْكِيبِ، وَكِلاهُمَا يُفْصِحُ عَنْ مَدْلُولِهِ الخَاصِّ، وَهُمَا يَفْتَرِقَانِ فِي نَوْعِ الدَّالِّ فَهُوَ في اللُّغَةِ الصَّائِتَةِ صَوْتِيٌّ، وَذُوَ طَبِيعَةٍ رَمْزِيَّةٍ وفي اللُّغَة الصَّامِتَةِ حَرَكِيٌّ وَذُو طبيعةٍ رَمْزِيَّةٍ أيضًا[39]. كما أنَّ الكلمة يكون لها معنيان فأكثر، فتكون من قبيل المشترك اللَّفْظِيِّ، فإنَّ الحركة الجسديَّة قد يكون لها أكثر من معنى بحسب سياقها، فتكون من قبيل المشترك الحركي، وكما أنَّ المعنى الواحد قد تعتوره كلمتان فأكثر، فينشأ من ذلك الترادف اللغوي، فإنَّ المعنى الحركي قد يُسْتَدَلُّ عليه بأكثر من حركةٍ جسديَّةٍ تدلُّ على المعنى ذاته، فينشأ من ذلك الترادف الحركيُّ[40]. وقد ظَهَرَ في السنوات الأخيرة علمٌ يَهْتَمُّ بهذا المجال يُنْسَبُ إلى العالم الأنثروبولوجي (ري بيردوسل)، وَأَطْلَقَ عليه مصطلح (kinematics) أو مصطلح (kinetics) وهو علمٌ يدرسُ الحركاتِ الجسديَّةَ المصاحبةَ للكلام حينًا، وتسدُّ مسدَّه حينًا آخر، ولها معنى معيَّنٌ عند جماعةٍ لغويَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وتَتَّخِذُ هذه الحركات أشكالاً مختلفةً، وتَتِمُّ أَحْيَانًا باليد أو بالرأس أو بالعين أو بالجسم الإنساني كلِّه، وتَتَوَزَّعُ حَسَبَ المواقف المختلفة[41]، ويستخدم هذا العلم وحدة تحليلية تسمَّى (الكينيم kineme) وتدلُّ على الحركة المجردة من حركات الجسم، ويستعين هذا العلم بالرسم والتصوير لتحديد الحركات المصاحبة للكلام، ويؤكد هذا العلم أَنَّ الحركة الجسديَّة ليست حركات فسيولوجيَّة، ولكنَّها نظامٌ اجتماعيٌّ شَأْنُهُ شَأْنُ اللُّغَةِ تُؤْخَذُ بالاكتساب، وتدرس في إطار المجتمع، ولذلك فقد اتَّجَهَ علماءُ الحركةِ الجسديَّةِ إلى تطبيق مناهج اللُّغَوِيِّين في البحث[42]، فقسَّموا هذه الحركات إلى حرَكَاتٍ فِطْرِيَّةٍ وحَرَكَاتٍ مَوْرُوثَةٍ وَحَرَكَاتٍ مُكْتَسَبَةٍ، ومِمَّا يجب التأكيد عليه أنَّ الحركات الجسديَّة ليست مسألة عضويَّة فحسب بل هي نِظَامٌ يتعلَّمُهُ الإنسانُ داخل المجتمع، وله أنماطه الخاصة بالثقافة، بل إنَّ هناك اختلافات كبيرة بين المجتمعات في استخدام الحركات الجسديَّة ودلالاتها[43].

5- لغة الجسد دليلٌ على الجزءِ المحذوفِ من النِّظَامِ اللُّغَوِيِّ عند مقاربتها من منظور إنتاج الكلام:

ذلك أنَّ اللُّغَةَ كَمَا يقولُ ابن جني في باب القول على اللُّغَةِ، وما هي: "أَمَّا اللُّغَةَ فَإِنَّهَا أَصواتٌ يُعَبِّرُ بِهَا كلُّ قومٍ عن أغراضهم"[44].ويفرِّق الجاحظ بين الصوت اللُّغَوِيّ الذي هو نتاج عمليتي التقطيع والتأليف، وباقي الأصوات الصرفة المصمَتَةِ التي يُصْدِرُهَا الإنسانُ، فيقولُ: "الصوت هو آلة اللَّفْظِ، وهو الجوهر الذي يقومُ بِهِ التَّقْطِيعُ، وَبِهِ يُوْجَدُ التَّأْلِيفُ، وَلَنْ تَكُونَ حركاتُ اللِسَانِ لَفْظًا، وَلا كَلامًا مَوْزُوْنًا، وَلا مَنْثُورًا إِلَّا بظهور الصَّوْتِ، وَلَنْ تَكُونَ الحروفُ كلامًا إِلَّا بالتقطيع والتأليف"[45]. ويقول في المعنى ذاته: "وَأَبْعَدُ فَهْمِكَ لِصَوْتِ صَاحِبِكَ وَمُعَامِلِكَ،

والمُعَاوِنِ لَكَ، مَا كَانَ صِيَاحًا صِرْفًا وَصَوْتًا مُصْمَتًا، ونداءً خَالِصًا، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا وَهُوَ بعيدٌ منَ المُفَاهَمَةِ، وَعُطْلٌ منَ الدِّلالَةِ"[46]. وَسَمَّى الجاحظُ الكَلامَ الملفُوظَ بأسماء عدَّة منها: البيان[47]، البيان باللسان، المبيّن للجنس والنَّوع[48]، المنطق[49]. ويكشف الجاحظ عن جانبٍ يتعلَّقُ بدلالة الألفاظ على معانيها، فهناك عواملُ أُخَرُ تَتَحَكَّمُ في وصولِ مَا يُسَمَّى في الدراسات الحديثة الحمولة الدلاليَّة، أو الشحنة التَّبْلِيْغِيَّة، أَوْ القُوَّة الإِنْجَازِيَّة للكلامِ الملْفُوظِ، وإتمامِ عمليَّةِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ المتكلِّم (المنتج للكلام) والمخاطَب (المُتَلَقِّي)، هذه العواملُ تَكْمُنُ في أمرين: الأوَّل: السَّنَنُ المشْتَرَكُ، أو الثقافة المشتركة التي قد تعود إلى البيئة الاجتماعيَّة المشتركة أو العرف الاجتماعي، **والثاني: معرفة أصل الوضع في الكلام الملفوظ**. فإذَا فُقِدَا لم يكن الكلامُ الملفوظُ بيانًا، ولم يَعُدْ سوى تصويتٍ لا مَعْنَى لَهُ بالنسبة للمُتَلَقِّي، يَقُولُ الجاحظُ:" وَكَذَلِكَ كَلامُ العَرَبِ، فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا أَخْرَجْتَهُ مِنْ حَدِّ البَيَانِ، وَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْطِقٍ؛ لأَنَّكَ لَمْ تَفْهَمْ عَنْهُ فَأَنْتَ أَيْضًا لا تَفْهَمُ كَلامَ عَامَّةِ الأُمَمِ، وَأَنْتَ إِذَا سَمَّيْتَ كَلامَهُمْ رِطَانَةً وَطَمْطَمَةً، فَإِنَّكَ لا تَمْتَنِعُ مِنْ أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ ذَلِكَ كَلامُهُم وَمَنْطِقُهُمْ، وَعَامَّةُ الأُمَمِ أَيْضًا لا يَفْهَمُونَ كَلامَكَ وَمَنْطِقَكَ، فَجَائِزٌ لَهُم أَنْ يُخْرِجُوا كَلامَكَ مِنَ البَيَانِ والمَنْطِقِ، وَهَلْ صَارَ ذَلِكَ الكَلامُ مِنْهُم بَيَانًا وَمَنْطِقًا إِلَّا لِتَفَاهُمِهِمْ حَاجَةَ بَعْضِهِمْ إِلى بَعْضٍ؛ وَلأَنَّ ذَلِكَ كَانَ صَوْتًا مُؤَلَّفًا خَرَجَ مِنْ لِسَانٍ وَفَمٍ"[50]. ثمَّ إنَّ هَذَا السَّنَنَ المشترك يُمَثِّلُ ما يُسَمَّى في المنهج السِّيميائي الشَّفْرَة التي تُوْجَدُ في العلامة اللغويَّة الملفوظة، وقد يكون عامًّا يشترك في امتلاكه جميع الناطقين باللُّغَةِ الواحِدةِ، وقد يكون خاصًّا مقصورًا على نُخَبٍ اجتماعيَّةٍ أو ثقافيَّة خاصَّةٍ[51]. ويشير الجاحظ في سياق بيان أهمية البيان باللِسانِ إلى أنَّ "الحاجة إلى بيان اللسانِ حاجة دائمة واكدة، وراهنة ثابتة"[52]، وذلك انطلاقًا من كونها هي الأصل في وسائل البيان وهي النموذج المحتذى في وسائل التعبير، وتبقى الوسائل الأُخَر التي قد يستخدمها المتَكَلِّمُ تبعًا له، فأَوّل ما يفكِّرُ المتكلِّم باستخدامه من وسائل التعبير، وأقواها هو الكلام الملفوظ، يقول:"وقُلْنَا في العَقْدِ وَلِمَ تَكَلَّفُوهُ، وفي الإِشَارَةِ وَلِمَ اجْتَلَبُوهَا، ولِمَ شَبَّهُوا جميع ذلك ببيان اللسان، حتَّى سَمَّوهُ بالبيان.....وقُلْنَا في الحَاجَةِ إلى المَنْطِقِ وعمومِ نَفْعِهِ وشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيهِ، وَكَيْفَ صَارَ أَعَمَّ نَفْعًا، ولجميع هذه الأشكال أَصْلاً، وصَارَ هُوَ المُشْتَقُّ مِنْهُ، وهو المحمولُ عليهِ"[53]. وتصلُ الألفاظُ إلى الدَّرَجَةِ العُلْيَا في قدرتها على إيصالِ حمولتِهَا الدِّلالِيَّةِ حينما يُخْرِجُ المتكلِّمُ كلامَهُ على أقدار المعاني، والمقامات، والمخَاطَبين، يقول الجاحظُ: "يَنْبَغِي للمُتَكَلِّمِ أَنْ يَعْرِفَ أَقْدَارَ المَعَانِي، وَيُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَقْدَارِ المُسْتَمِعِينَ، وَبَيْنَ أَقْدَارِ الحَالاتِ فَيَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ ذَلِكَ كَلامًا، وَلِكُلِّ حَالَةٍ مِنْ ذَلِكَ مَقَامًا **حَتَّى يُقَسِّمَ أَقْدَارَ الكَلامِ عَلَى أَقْدَارِ المَعَانِي، وَيُقَسِّمَ أَقْدَارَ المَعَانِي عَلَى أَقْدَارِ المَقَامَاتِ، وَأَقْدَارِ**

المُسْتَمِعِينَ عَلَى أَقْدَارِ تِلْكِ الحَالاتِ"(54). ويرى عبد القاهر في إطار المعنى ذاتِهِ أَنَّ الناظم إذا أرادَ أن يَنْظِمَ كلامًا في أيِّ غرضٍ، يبدأ فَيُرَتِّبُ المعاني في نفسه أوّلاً، ويبذلُ جهدًا في ترتيبها، ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ. فإذا وَجَبَ لمعنى أن يكون أوّلاً في النفس، وَجَبَ للفظِ الدَّالِ عليه أن يكون مثله أوّلاً في النُّطْقِ(55). ويفرِّق عبد القاهر بين حروفٍ منظومةٍ وكلمٍ منظومٍ، وذلك أنَّ نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضٍ عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تَحرَّاهُ. أمَّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأَنَّكَ تقتضي في نظمها آثار المعاني فَتُرَتِّبُ أَلْفَاظَ الكلامِ على حسب ترتيب المعاني في النفس(56). فتفرقة الجرجاني في النَّصِ السَّابق بين الحروف المنظومة والكلم المنظوم تفرقة ذكية للغاية، ذلك أنَّ العرب تتصرف في كلامها تصرف الواعي الخبير بمعاني ألفاظها وتراكيبها في سياقات متنوعة، وذلك بناء على قواعد مركوزة في أذهانهم تمثل الكفاءة اللغوية لمستعملي اللُّغَة(57). هذه الكفاءة تتحوَّل إلى واقع عملي على مستوى الأداء الفردي أو الجماعي الذي يصدر عن جماعة كلاميَّةٍ واحدة، ولكن بدرجاتٍ متفاوتةٍ(58)؛ ولذلك تتمايز مستويات الفصاحة والبيان من فرد إلى فرد آخر، ومن جماعة كلامية إلى جماعةٍ كلامية أُخْرَى، فإذا انتقلنَا إلى واقع اللُّغَة المؤدَّى نجد هذه القواعد الذهنيَّة المركوزة قد تجسَّدت في ظواهر لغوية متنوعة كالذكر، والحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والاعتراض، والإقحام، والتأكيد، وغير ذلك. فعندما يُخْرِجُ المتَكَلِّمُ كَلامَهُ صحيحًا من الناحية التأليفية والإعرابية دون مراعاة للمعاني الداخليَّة في نفسه، فيخرج الكلام دون حذفٍ لأيِّ جزءٍ من أجزائه ودون تقديمٍ أو تأخيرٍ أو اعتراضٍ أو حتى تأكيدٍ، فيأتي بالكلام على أوَّل أمرهِ. فَإِنَّهُ لا يُؤَدِّي أَكْثَرَ من حروفٍ منظومةٍ عند الجرجاني لا يبتغي من نظمِهَا ولا يَتَوَخَّى إِلَّا عدم انْفِرَاطِهَا فقط، وهو بها يسير وفق الكفاءة اللغوية بمعناها الأقوى عند تشومسكي (النَّحْو العام)، فلا مزيَّة في نظمِهِ تُمَيِّزُهُ عن الآخرين، ولو كان الأمر على ما كان منه لَتَسَاوَى المتَكَلِّمُونَ جَمِيعُهُم في طَرِيقَةِ إِفْصَاحِهِمْ عَنْ مَكْنُونَاتِهِم، لَكِنَّهُ حِينَمَا يُخْرِجُ الكلامَ مراعيًا الناحيةَ التأليفيَّةَ، وَصِحَّةَ الإعراب في التركيب والمعاني الداخليَّة في نفسه فيقدِّم ما كان في نفسه أَهَمُّ، وما كان ببيانه يعني أوّلاً، وَيُؤَخِّرُ مَا عَدَا ذلك، ويعترض بالجملة في موطنٍ يتطلَّبُ الاعتراض لاحتراسٍ أو احترازٍ أَوْ غير ذلك، ويحذف ما ليس له داعٍ في الكلام، ويذكر المحذوف خشية الإلباس على المتكلِّم، ويزيد في الكلام لتأكيدِ المعنى أو للاحتياط له، إذا كان يفعل هذا كُلَّهُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ بكلامِهِ دَرَجَةَ الكَلِمِ المنظوم الذي يشي ببلاغة وافية عند الجرجاني، وهو يسير وفق الكفاءة اللغوية بتعريفها الأضعف عند تشومسكي (النَّحْو الخاص). فالمنتجُ للكلامِ يبلغُ الذروةَ في التعبير عمَّا يجول بخاطره إذا

استخدم كفاءَتَهُ اللُّغَوِيَّةَ في أعلى طاقاتِهَا، لكنَّهُ ينطلق في ذلك من كفاءةٍ لُغَوِيَّةٍ اعْتِيَادِيَّة :الكفاءة اللغوية بمعناها الأقوى عند تشومسكي (النَّحْو العام) كمرحلةٍ أولى لا يمكنُ إغفالها، قد يلجأ إليها إذا شَعَرَ بأَنَّ المخَاطَبَ لَمْ يَفْهَمْ مَا أَرَادَهُ أَوْ إِذَا وَجَّهَ كَلامَهُ لمخَاطَبٍ أَقَلَّ في درجة الفهم والتواصل معه. فإذا كانَ المخاطَبُ في درجةٍ أعلى من الفهم والتواصل مع المتكلِّم وفق سياق يسمح للمخاطب فهم رسالة المتكلِّم فإنَّ المتكلِّم يستخدم في رسالته وسائل أُخَرَ غير الأصوات المقطعية المؤتلفة للدلالة على مدلولاتها اللغوية، فقد يستخدم الإشارةَ، والصُّورةَ، والخطَّ، وهيئةَ الحالِ، وحركاتِ الجسدِ، وَكُلَّ مَا كَانَ مُؤَدِّيًا إلى فهم رسالته، وَهُنَا يَلْجَأ المتكلِّمُ إلى كفاءةٍ أُخْرَى هِيَ الكَفَاءَةُ الاتِّصَالِيَّةُ أو التَّوَاصُلِيَّةِ عند أصحاب اللسانيات الاجتماعية والتداوليين، وفي ذلك دليل على بلاغة العرب وفصاحتها وقوَّةِ بَيَانِهَا. **ولَمَّا كانت اللُّغَة في أصلِ وَضْعِهَا أصواتٌ يعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم، ولَمَّا كان الحذفُ من بنية الكلامِ للاستغناءِ عن المحذوف[59] من أهمِّ المظاهر التي يَتَجَلَّى فيها تَأْثِيرُ استعمالِ المتكلِّم للأنظمة العلاماتيَّة غيرِ اللَّفْظِيَّة -وَمِنْ بَيْنِهَا لُغَةُ الجَسَد- في مبنى التركيب ودلالته، كَانَ لابُدَّ للمحلِّل اللُّغَوِيِّ أَنْ يُرَاقِبَ هَذَا التَّغْيِيرَ في بِنَاءِ التَّرْكِيبِ وَدلالَتِه، فَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ الحَذْفُ، والتَّقْدِيرُ في التَّرْكِيبِ.**
لكنَّنَا لا نعدم وجود إشارات من كلام النُّحاة تفيد بأهمية استعمال الأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفْظِيَّة في الخطاب النَّحْوِيِّ، بل إنَّها تُشَكِّلُ لَدَى بَعْضِهِمْ جُزْءًا من أجزاء التركيب الذي يُمَثِّلُ رسالة المتكلِّم، يقول الرُّمَّاني:"الذي يجوز في إضمار الفعل المأمور به أو المنهي عنه حذفه إذا كانت الحالُ دالَّةً على المعنى تقوم مقام اللَّفْظِ، وصارت خلفًا منه في إحضار المعنى للنفس، والإفهام به كالإفهام باللَّفْظِ المحذوف..... ولهذا جاز أن يُغَيِّرُوا الكلامَ عن حدِّه في الموضوع للاستغناء عنه بدلالة الحال، فلا يُحْتَاجُ إلى التَّكَلُّم به على هذه الشَّرِيطَةِ، ويكون الحذفُ أَوْلَى من الذِّكْرِ: لأَنَّهُ أَقْرَبُ في إفهام المعنى، وَأَقَلُّ كُلْفَةً فِيمَا يُعْمَلُ من النُّطْقِ بِهِ"[60]. ويقول في موضع آخر: "إِذَا كَانَتِ الدِّلَالَةُ بِهَذِه المَنْزِلَةِ، فَلَيْسَ عَلَى المتكَلِّمِ إِلَّا أَنْ يُفْهِمَ المخَاطَبَ كَمَا لَيْسَ عَلَيْهِ لَوْ أَتَمَّ الكَلَامَ"[61]. ويقول ابن عصفور في شَرْحِهِ الإيضاحَ لأبي علي الفارسي: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّفْظَةَ المفْرَدَةَ وُجُودًا وَتَقْدِيرًا قَدْ تَكُوْنُ كَلامًا إِذَا قَامَتْ مَقَامَ الكَلامِ، وَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ (نَعَمْ) وَ(بَلَى)، فإِنَّهُمَا كَلامَانِ، وَلَيْسَا بِمُرَكَّبَيْنِ"[62]. إلَّا أنَّنا إذا أمعنا النَّظرفي هذه النصوص وجهة معالجتها للمسألة أدركنا أنها كانت تنطلق في نظرتها إلى الأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفْظِيَّة وأثرها في التركيب **من منظور التَّلَقِّي** أي: من جهة تَلَقِّي المخَاطَب للرِّسَالَةِ، ومدى فهمه لها من عدمه. إذ لا معنى لـ (نعم) و(بلى) وحدهما، حتى وإن أدرك المخاطب المعنى، فقد لا يدركه آخر، وقد لا يدركه أصلاً، وحينئذ لا يُعَدُّ كلامًا باتفاق الجميع. ولذا فإنَّ ابن جنِّي يُقَرِّرُ هذه

الحقيقة فيقول: "وإنَّما قَالَ النَّحْوِيُّونَ: عامل لفظيٌّ، وعامل معنويٌّ؛ ليروك أَنَّ بعض العمل يأتي مسبَّبًا عن عمل يصحبه، كـ: مررتُ بزيدٍ، وليت عمرًا قائمٌ، وبعضه يأتي عاريًا من مصاحبة لفظ يتعلَّق به، كرفع المبتدأ بالابتداء، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم، هذا ظاهر الأمر وعليه صفحة القول، فأَمَّا في الحقيقة، ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنَّصب والجرّ والجزم إِنَّمَا هو للمتكلِّم نفسه لا لشيءٍ غيره، وإِنَّمَا قالوا: لفظيٌّ، ومعنويٌّ لَمَّا ظهرت آثار فعل المتكلّم بمُضامَّةِ اللَّفظِ للَّفْظِ، أو باشتمال اللَّفْظِ على المعنى، وهذا واضح"[63]. لذا فإنَّ العامل المحذوف أو المعمول المحذوف استغناء عنهما بالأداءات المصاحبة للكلام أو الأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفظِيَّة التي يستخدمها منتج الكلام، لا بدَّ للمُحَلِّلِ اللُّغوِيِّ أن يقوم بتقدير وجودهما؛ إذ لا معمول من غير عامل مؤثر فيه بالعمل، ولا عامل من غير معمول يعمل فيه. إذن تقرَّر أنَّ الأداءات المصاحبة للكلام أو الأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفْظِيَّة التي يستخدمها منتج الكلام هي دليل وقرينة على الجزء المحذوف من الكلام، فَلَيْسَتْ جزءًا منه، ومن ثَمَّ فلا تُمَثِّلُ عند النُّحَاةِ جُزْءًا مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيهِ كَلامًا؛ إذ الكلامُ عند النَّحْوِيّين: "كُلُّ لَفْظٍ مُسْتَقِلٍّ بنفسه مفيدٍ لمعناه، وهو الذي يسمِّيه النَّحْوِيُّونَ الجُمَلَ"[64]فالكلامُ عند النَّحْوِيّينَ مَحْصُورٌ في مفهوم مُحَدَّدٍ لا يَتَّسِعُ لِغَيْرِهِ خِلافًا للمصطلحات القريبة منه نحو: القولُ، فَكُلُّ كَلامٍ قَوْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ قَوْلٍ كَلامًا، ومن مظاهر ضيق هذا المفهوم وتحديد مدلوله عند النَّحْوِيِّينَ أَنَّ القَوْلَ قَدْ يُتَّسَعُ فِيهِ فَيُطْلَقُ عَلَى الكلامِ في مواضعَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُتَّسَعَ في الكلامِ، فَيُطْلَقَ عَلَى القَوْلِ، يَقُولُ ابن جِنِّي: "وَسَبَبُ ذلك وعِلَّتُهُ عندي مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ سَعَةِ مَذَاهِبِ القَوْلِ وَضِيقِ مَذَاهِبِ الكَلامِ"[65].

ومن الأسباب التي دعَتِ النُّحَاةُ إلى الاعتدادِ بالجزء المحذوف أو المحذوف من الكلام رَغْمَ أَنَّ بلاغةَ الكلامِ تَقْتَضِي حَذْفَهُ - إضافة إلى نظرتهم للكلام من منظور إنتاج المتكلِّم (المرسِل) لا من منظورِ التَّلقي الذي يقومُ به المخاطَبُ- ما يلي:

1- أنَّ المتكلِّمَ قد يَذْكُرُ هَذَا المحذوفَ في مقامٍ وسياقٍ آخَرَ يَسْتَدْعِي إِتْمَامَ الجُمْلَةِ، يَقُولُ ابنُ عصفورٍ: "والصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ المرَكَّبِ تَقْدِيرًا، والأَصْلُ: نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ، وَلا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، واخْتُصِرَ الكلامُ فَحُذِفَ، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الأَصْلَ مَا ذُكِرَ أَنَّهم قد يُصَرِّحُون بذلك"[66].

2- نظريَّة العامل بمفهومها التقليدي الذي يتطلب أركانًا ثلاثة متلازمة الوجود هي: العامل والمعمول، وأثر العامل في المعمول، فإذا لم يوجد واحد منها أو لَمْ تُوجَدْ كُلُّهَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ من تقديرِ مَا لا وُجُودَ لَهُ مِنْهَا.

ومنها أيضًا فكرة النُّحاة عن تكوين الجملة، هذه الفكرة القائمة على الإسناد، وتعتمد في الإسناد على ركنين أساسيين لا سبيل إلى إهمالِ أيٍّ منهما، فإذا لم يوجد في الجملة وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَعَيَّنَ عَلَى النُّحَاةِ تَقْدِيرُهُ(67).

3- انطلقَ النُّحاةُ في اعتدادهم باللَّفْظِ المستقلّ المفيدِ بالوَضْعِ فَائِدَةً يَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَيْهَا فِي نَظْرَتِهِم لمفْهُومِ الكَلامِ، دُوْنَ غَيْرِهِ مِنْ وَسَائِلِ البَيَانِ مِنْ جِهَاتٍ عِدَّةٍ:

أ- **دينيَّة**: إذ الإنسانُ مخلوقٌ متكلِّمٌ، وفي ذلك فضيلةٌ خَصَّهُ بها اللهُ فَعَلَّمَهُ البيانَ بالكلام، وَعَلَّمَهُ الأسماءَ، وَجَعَلَ اختلافَ لُغَاتِهِ آيَةً مِنْ آياتِ خَلْقِهِ وَإِحْكَامِهِ فِعْلَهُ(68).

ب- **فلسفيَّة**: فالإنسان حيوانٌ ناطقٌ، والنُّطْقُ والكَلامُ فَصْلٌ ذَاتِيٌّ للإِنْسَانِ مِنَ الحَيَوَانِ، وذكر ابن عبدربه في هذا الباب أنَّ اللسانَ هو"الآلة التي يخرج بهاالإنسان عن حدِّ الاستبهام -يقصد عن حَدِّ البهيمة- إلى حدِّ الإنسانيَّة بالكلام، ولذلك قال صاحب المنطق: "حَدُّ الإنسان: الحَيُّ النَّاطِقُ"(69).

ج- **اجتماعيَّة**، يقول ابن سينا: "وَلَمَّا كانت الطبيعةُ الإنسانيَّةُ محتاجةً إلى المحاورة؛ لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة انبعثت إلى اختراع شيء يُتَوَصَّلُ به إلى ذلك، ولم يكن أخَفَّ من أن يكون فعلاً، ولم يكن أخفَّ من أن يكون بالتَّصويتِ، وخصوصًا والصَّوتُ لا يثبتُ ولا يَسْتَقِرُّ ولا يزدحمُ، فتكون فيه مع خِفَّته فائدة وجود الإعلام به مع فائدة انمحائه؛ إذ كان مستغنيًا عن الدلالة به بعد زوال الحاجة عنه، أو كان يُتَصَوَّرُ بدلالته بعده، فَمَالَتْ الطبيعةُ إلى استعمالِ الصَّوتِ، وَوُفِّقَتْ من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معًا، مِمَّا ليُدَلَّ بها على ما في النَّفس من أَثَرٍ"(70). وقد تناولَ العلماءُ هذهِ المقوّمَاتِ الاجتماعيةَ للكلامِ في عددٍ من العلوم، "فقد خَاضَ النَّحويُّونَ في مسألةِ الخِفَّةِ، والثِّقَل في الكلامِ، كَمَا خَاضَ المتكلّمونَ، والنَّحويّونَ، والأصوليُّونَ في مسائلِ الصَّوتِ وحقيقته، وَخَاضَ المتكلّمون في مسألة عدم الصَّوت، وانتهى هؤلاء جميعهم إلى أنَّ الصَّوت المقصود بالإعلام، والإخبار، والإفهام في الكلام ليس مطلق الصَّوت، وإنَّمَا الصَّوتُ المتميِّزُ؛ ليُخْرِجُوا منه أصوات الطُّيُورِ، والرِّيَاحِ، وما إلى ذلك"(71). وبذلك تلتقي نظرة النَّحْوِيِّينَ في تأثير الأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفْظِيَّة ومنها لغة الجسد في مبنى التركيب ودلالته مع نظرة المدرسة التوليدية التحويلية التي تراعي البنى العميقة للجملة أثناء التحليل اللغوي للمُنْتَجِ اللُّغَوِيِّ الذي يُنْتِجُهُ المتكلِّم، حيث تَمُرُّ الجُمْلَةُ المُنْجَزَةُ بِواسِطَةِ استخدامِ الكَفَاءَةِ اللُّغَوِيَّةِ للمُتَكَلِّمِ بِعَمَلِيَّاتٍ مُتَدَاخِلَةٍ بَيْنَ التَّوْلِيدِ والتَّحْوِيلِ حَتَّى تَتَنَاسَقُ مَعَ مَا يَجُولُ فِي خَاطِرِ المتَكَلِّمِ فِي نَظْمٍ مُتَنَاسِقٍ وَمُتَمَاسِكٍ، **وعلى هذا فالخطاب يقتصر في مفهومه**

على الخطاب اللَّفْظِيّ فقط. بينما نظرت المدرسة البنيويَّة الوصفيَّة إلى المنْجَزِ اللُّغَوِيّ من منظور التَّلَقِّي، **والخطابُ هنا تَتَّسِعُ رقعته ومجالاتُه لتشمل كُلَّ مَا أَبَانَ وَأَفْهَمَ مِنَ: اللَّفْظِ، (الكلام المنطوق عبر تقطيع الأصوات وترتيبها على أقدار المعاني والمقامات)، والإشارةِ (حركات الجسد وإيماءاته) والخطِّ (الكتابة)، والعقدِ (الحساب)، والنَّصبةِ (مقام الحال)، وكُلُّ ما سبَقَ يمكن أن يشَكِّل مكوّنًا خطابيًّا له أصوله، وقواعده، وإسهاماته في تحصيل جزءٍ من المعنى الكُلّي للخطاب، وقد تكونُ الخطابَ كُلَّهُ.** وهذا الاتجاهُ يلتقي مع نظرة بعض النحويين مثل: الرُّمَّانِيّ، وَبَعْضِ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِم ابنُ عُصْفُورٍ هَذَا الرَّأْيَ، لَكِنَّهُم لم يكوّنوا الرَّأْيَ الأَقْوَى مقارنة برأي جمهور النحويين.

6- لغة الجسد وصلتها بقضيَّة الحذف والتَّقْدِير بين الوصفيّين والتَّحويليّن العرب:

تناول الباحثون العرب المحدثون قضيَّة الحذف والتَّقْدِير على اختلاف مناهجهم، فمنهم من اتَّبَعَ المنهجَ الوصفيَّ في دراسة هذه الظَّاهرة، ومنهم من اتَّبَعَ المنهجَ التَّحويليَّ، فاختلفت بذلك زاوية المعالجة، وتباينت وجهات النَّظرِ إلى القضيَّة لديه؛ **لذا** من الضروري أن نقف على آراء أساتذتنا وباحثينا الذين اتصلوا بِعِلْمِ اللُّغَةِ الوَصْفِيِّ أو علْمِ اللّغة التَّحويلِيِّ، ثُمَّ طَبَّقُوا أُسَسَهُمَا، وَمَنَاهِجَهُمَا عَلَى الدَّرْسِ اللُّغَوِيّ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، والدَّرْسِ النَّحْوِيّ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ. وَيَتَبَيَّنُ لَنَا مِنْ اسْتِعْرَاضِ **مَوْقِفِ الوصفِيّينَ مِنَ العَرَبِ** مِنْ قَضَايَا الحَذْفِ عِنْدَ القُدَماءِ أَنَّهُم قَدْ هَاجَمُوا هَذِهِ الظَّاهِرَةَ وَخَاصَّةً ذَلِكَ الذِي يَنْتُجُ عَنِ العَامِلِ النَّحْوِيّ، وَقَدْ اختلفت حِدَّةُ هذا الهجومِ: تمام حسان أراد أَنْ يَضَعَ نَظَرِيَّةً أُخْرَى تُغْنِي عَنْ نَظَرِيَّةِ العَامِلِ[72]، وكمال بشر بَيَّنَ مَوَاطِنَ الضَّعْفِ فِي الدَّرْسِ النَّحْوِيِّ، وهي: الاتجاهات الفلسفية والمنطقية، والتَّأْوِيلُ والافْتِرَاضُ، والمِعْيَارِيَّةُ، و الاتِّجَاهُ الوَصْفِيُّ [73]، ومحمد حجازي اهْتَمَّ ببناء الجملةِ، وبناءِ الكلمة، والفَرْقِ بَيْنَهُمَا[74]، ومحمد عيد هَاجَمَ العَامِلَ أَيْضًا، وَرَأَى أَنَّهُ دَخِيلٌ عَلَى دراسةِ اللُّغَة[75]. وَمِمَّا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَيْضًا مِنْ خِلَالِ دراسةِ مَوْقِفِهِم أَنَّهُم نَظَرُوا إلى اللُّغَة نَظْرَةً شَكْلِيَّةً جَامِدَةً حَتَّى إِنَّ تمام حسان لَمْ يَرَ غَضَاضَةً فِي إِعْرَابِ كَلامٍ لا مَعْنَى لَهُ اعتمادًا على المعنى الوَظِيْفِيّ، وَهُوَ "مجموعةٌ من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصَّةِ حَتَّى تكون صالحةً عند تركيبها؛ لبيان المراد منها، وذلك كعلاقة الإسناد، والتَّخْصِيص، والنِّسْبَة، والتَّبَعِيَّة، وَهَذِهِ العَلاقَاتُ فِي الحقيقة قَرَائِنُ مَعْنَوِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي الأَبْوَابِ الخَاصَّةِ كالفَاعِلِيَّةِ، والمَفْعُولِيَّةِ"[76] ، ثُمَّ اشْتَرَطَ لذلك بَعْضَ الشُّرُوطِ[77].

ومن أوائل مَنْ كَتَبَ عن المنهجِ التَّحْويلِيِّ عبده الراجحي، فَقَدْ تَحَدَّثَ عن القضايا والقواعد التحويلية والتقائها مع نظيرها العَرَبِيِّ، فَعَقَدَ فَصْلاً عن "الجوانب التَّحْوِيلِيَّة في النَّحْوِ العَرَبِي "عَرَضَ فِيهِ لِمَا يَلِي:

1- قضيَّة الأصليَّة والفرعيَّة. 2- قضيَّة العامل.3- قواعد الحذف.4- قواعد الزيادة أو الإقحام.5- قواعد إعادة الترتيب(78).

ويهمنا الآن بيان موقفه من قضيَّة الحذف، وما يصاحبها من تقدير في النحو العربي، يقول عبده الراجحي: "إنَّ اللُّغَة هي أهمُّ الجوانب الحيوية في النشاط الإنساني، ليس من المعقول أن تكون لها هذه الأهميَّة ثم تتحوَّل إلى مجرد تراكيب شكليَّة يسعى الوصفيون إلى تجريدها من "المعنى "ومن "العقل "في هذا الوصف السَّطْحِيِّ الذي صَوَّرَهُ دي سوسير أَوَّلَ هذا القرن. إنَّ دراسةَ اللُّغَة كَمَا يَرَاهَا تشومسكي لا يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَقَّفَ عندَ هَذَا المَنْهَجِ الوَصْفيّ؛ لأَنَّهُ لا يتجاوز حدودَ المادَّةِ المبَاشِرَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُعِينَنَا الدِّرَاسَةُ اللُّغَوِيَّةُ عَلَى فهم الطبيعةِ البَشَرِيَّةِ"(79).وَلَمَّا كانت قضية الحذف وَمَا صَاحَبَهَا مِنْ تَقْدِيرٍ عِنْدَ النُّحَاةِ مرتبطةً بالعَمَلِ إِذْ أَنَّهَا مُرَتَّبَةٌ عَلَيهَا فَإِنَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ عبده الراجحي لَمْ يَرْفُضْ قَضِيَّةَ الحذفِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَعْتَرِضْ عَلَى العَامِلِ نَفْسِهِ(80).

وبعد أَنِ بَيَّنَا موقفَ عبده الراجحي من قضيَّةِ الحذف، وَمَا يُصَاحِبُهَا مِنْ تَقْدِيرٍ عِنْدَ النُّحَاةِ نَوَدُّ أَنْ نَتَبَيَّنَ رَأْيَ بَاحِثٍ آخَرَ هُوَ داود عبده الذي كَانَ لَهُ رَأْيٌ مُعْتَدِلٌ في هذِهِ القَضِيَّةِ. وَقَبْلَ ذَلِكَ نَوَدُّ أَنْ نَتَعَرَّفَ على رَأْيِهِ في المنهجِ الوَصْفِيِّ وَتَطْبِيقِهِ عَلَى الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ عند العَرَبِ يَقُولُ: "أَصْبَحَ من الشَّائِعِ بين اللُّغَوِيّين العَرَبِ في العقدين الآخرين أن يثبتوا المنهجَ الوَصفِيَّ في اللُّغَة، وَهُوَ رَدُّ فعلٍ للمَآخِذِ الكثيرةِ على المَنْهَجِ الفَلْسَفِيِّ الذِي وُصِمَ بِهِ اللُّغَوِيُّون والنَّحْوِيُّونَ العَرَبُ القُدَامَى وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ عَدَدًا مِنْ هَؤُلاءِ اللُّغَوِيّين المحْدَثِينَ قَدْ بَلَغَ فِي التَّعَصُّبِ للمَنْهَجِ الوَصْفِيِّ حَدَّ التَّطَرُّفِ، فَكَانَ يُجَرِّدُ عِلْمَ اللُّغَة مِمَّا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى من أَجْلِهِ علمًا، ولعَلَّ هَذَا التَّطَرُّفَ مَبْنِيٌّ في الدَّرَجَةِ الأُولَى عَلَى سُوْءِ فَهْمٍ للمَنْهَجِ الوَصْفِيِّ فِي اللُّغَة"(81)، وَنَأْتِي إلى رأي داود عبده في قَضِيَّةِ الحَذْفِ وَمَا يُصَاحِبُهَا مِنْ تَقْدِيرٍ عِنْدَ النُّحَاةِ، فَنَرَاهُ يَقْبَلُ بِمَبْدَأِ الحَذْفِ والتَّقْدِيرِ فِي بَعْضِ الأَمْثِلَةِ، وَيَرْفُضُهُ فِي بَعْضِهَا الآخَرَ، فَمَا قَبِلَهُ مِنْهَا:

1- مَا كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٌ ولا بَيْضَاءَ شَحْمَةٌ.2- اذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ.3- ادْرُسْ تَنْجَحْ.4- لا تُهْمِلْ تَنْجَحْ.5- كِتَابُ الأُسْتَاذِ الجَدِيدُ.6- جَاءَ الذِي وَصَلَ أَمْسِ.7- مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ.

وَيُعَلِّلُ داود عبده قَبُولَهُ لِمَا في تلكَ العباراتِ مِنْ تَقْدِيراتٍ بِعِدَّةِ تَعْلِيلاتٍ يُمْكِنُ إِجْمَالُهَا فِيمَا يَأْتِي:

1- النَّظَرُ إلى البِنْيَةِ العَمِيقَةِ، وعَدَم الأَخْذ بالظَّاهِرِ؛ فَتَقدِيرُ(كُلُّ) فِي العِبَارَةِ الأولى أَمْرٌ يُحَتِّمُهُ المعْنَى، فَتَقْدِيرُ العِبَارَةِ: "وَمَا كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٌ وَلا كُلُّ بَيْضَاءَ شَحْمَةٌ".

2- الحَذْفُ فِي بَعْضِ العِبَارَاتِ لِتَجَنُّبِ التِّكْرَارِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَأْلُوفٌ فِي اللُّغَاتِ، يَقُولُ: "تَقدِيرُ (أَنْتَ) فِي "اذْهَبْ إلى بَيْتِكَ "أَمْرٌ لَيْسَ مَقْبُولاً فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ ضَرُورِيٌّ؛ لأَنَّ تَرْكِيبَ هَذِهِ الجملَةِ اللُّغَوِيَّ لا يَسْتَقِيمُ دُونَهُ"[82].

3- التَّبْرِيرُ اللُّغَوِيُّ لِبَعْضِ التَّقْدِيرَاتِ، وَقَدْ عَبَّرَ داود عبده عن ذلك قائلاً: "كما أَنَّ تَقْدِيرَ (أَنْ) محذوفة بعد (حَتَّى) حِينَ تَسْبِقُ الفِعْلَ لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ لُغَوِيًّا، ف (حَتَّى) حَرْفُ جَرٍّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَحُرُوفُ الجرّ تَسْبِقُ الأَسْمَاءَ والضَّمَائِرَ، وَمَا يُعَادِلُ الاسْمَ لَيْسَ الفِعْلَ وَحْدَهُ، بَلِ الفِعْلُ مَسْبُوقًا ب (أَنْ) المصْدَرِيَّة، أَيْ: المصْدَرُ المؤَوَّلُ، وَهَذا واضحٌ مِنْ مُقَارَنَةِ عِبَارَةِ: بَعدَ ذَهَابِه مثلاً بِعِبَارَةِ بَعْدَ أَنْ يَذْهَبَ، أَوْ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ"[83].

4- النَّظَرُ في التَّرْكِيبِ اللُّغَوِي الذِي قَدْ لا يَسْتَقِيمُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ دُوْنَ رَدِّ المحْذُوفِ إلى الجُمْلَةِ فَأَصْل العِبَارَتَينِ:

اذْرُسْ تَنْجَحْ ، لا تُهمِلْ تَنْجَحْ

هُوَ: ادْرُسْ إِنْ تَدْرُسْ تَنْجَحْ ، لا تُهْمِلِ إِلَّا تُهمِلْ تَنْجَحْ

وداود عبده يُفَرِّقُ هُنَا بَيْنَ التَّقْدِيرِ الذي غايَتُهُ تَفْسِيرُ التَّرَاكِيبِ التِي خَرَجَتْ عَنْ أَنمَاطِ اللُّغة وَهُوَ التَّقْدِيرُ المقْبُولُ وَبَيْنَ التَّقْدِيرِ الذِي غَايَتُهُ تَبْرِيرُ حَرَكَاتِ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ التي شَذَّتْ عَنْ قَوَاعِدِ النُّحَاةِ[84]، والوَاقِعُ أَنَّهُ لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فَكِلاهُمَا يَصْدُرَانِ عَنْ نَظَرِيَّةِ العَامِلِ، وَمُرْتَبِطَانِ بالإِعْرَابِ، **وَيَظْهَرُ جَلِيًّا أَنَّ ثمَّةَ تَشَابهًا وَاضِحًا بَيْنَ مُعَالَجَةِ كُلٍّ مِنَ النُّحَاةِ القُدَمَاءِ والتَّحْوِيلِيّينَ لِظَاهِرَةِ الحَذْفِ واعْتِبَارِهِمْ القَرَائِنَ الحَالِيَّةَ -وَمِنْهَا لُغَةُ الجَسَدِ- دَلائِلَ عَلَى المحذُوفِ مِنَ الكَلامِ، وَلَيْسَ نَمَطًا خَاصًّا مِنَ الكَلامِ، فَالكَلامُ لَفْظٌ، وَمَا كَانَ غَيْرَ لَفْظٍ فَلَيْسَ بِكَلامٍ.**

المبحث الثاني : لغة الجسد وأثرها في مبنى التركيب النّحوي ودلالته، الحذف عند سيبويه أنموذجًا:

تَجَسَّدَتِ العلاقة بين لغة الجسد، ومبنى التركيب النَّحوي ودلالته عند سيبويه في عِدَّةِ مَسَائِلَ نَحْوِيَّةٍ تنوَّعت، فَتَنَوَّعَتْ أَضْرُبُهَا، ذلك أنَّ علاقةَ سياقِ الحالِ عِنْدَ سيبويهِ بالبِنَاءِ المنْجَزِ للتَّرْكِيبِ، وَتَسْوِيغَهُ حَذْفَ أَحَدِ عَنَاصِرِ الجُمْلَةِ مِمَّا كَثُرَتْ أَمْثِلَتُهُ عِنْدَهُ. والحَقُّ أَنَّ إِشَارَاتِ سيبويهِ الذَّكِيَّةَ والرَّائِدَةَ فِي هَذَا البَابِ تَجْعَلُهُ سَبَّاقًا لأحدث الاتجاهات اللُّغوية في زماننا، إذ لم تفته العناية بأثر الحركة الجسديَّة وعناصر الموقف المستمَدَّةِ مِنَ الحَوَاسّ في بنية التَّرْكِيبِ وَدِلالَتِهِ، من حيث حَذْفِ أَحَدِ عَنَاصِرِ التَّرْكِيبِ اسْتِنَادًا إلى تِلْكَ العَنَاصِرِ الحَالِيَّةِ. وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى في **أَثَرِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيَّةِ للمُتَكَلِّمِ وللمُخَاطَبِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ وَمَا فِي إِدْرَاكِ الحَوَاسّ عَلَى التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ المنْجَزِ، ذلك الأثر الذي اتَّضَحَتْ مَلامِحُهُ عِنْدَ سيبويهِ، وَتَنَوَّعَتْ أَضْرُبُهُ وَذَلِكَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:**

الضرب الأَوَّل: الحكمُ بوجودِ محذوفٍ في التَّرْكِيبِ وتقديرِهِ:

أ- حَذْفُ الأسماءِ:

1- حَذْفُ المتكَلِّمِ المبتدأ اعتمَادًا عَلَى القرائنِ الحاليَّةِ المصَاحِبَةِ للكَلامِ، والمرتبطةِ بحاسَّةٍ مِنَ الحَوَاسّ الخَمْسِ:

أَشَارَ سيبويهِ إلى مَا يَعْمَدُ إِلَيهِ المتَكَلِّمُ مِنْ حَذْفِ المبتَدَأِ اعْتِمَادًا عَلَى القَرَائِنِ الحاليَّةِ المصَاحِبَةِ للكَلامِ والمرتَبِطَةِ بحاسَّةٍ مِنَ الحَوَاسّ الخَمْسِ، فيقول: "وَذَلِكَ أَنَّكَ رَأَيْتَ صُوْرَةَ شَخْصٍ فَصَارَ آيةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الشَّخْصِ فَقُلْتَ: عَبْدُ اللهِ ورَبِّي، كَأَنَّكَ قُلْتَ: ذَلِكَ عَبْدُ اللهِ، أَوْ هَذَا عَبْدُ اللهِ. أو سَمِعْتَ صَوتًا فَعَرَفْتَ صَاحِبَ الصَّوْتِ فَصَارَ آيةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَقُلْتَ: زَيدٌ وَرَبِّي. أَوْ مَسَسْتَ جَسَدًا، أَوْ شَمَمْتَ رِيحًا فَقُلْتَ: زَيْدٌ أَوِ المسكُ. أَوْ ذُقْتَ طَعَامًا فَقُلْتَ: العَسَلُ. وَلَوْ حُدِّثْتَ عَنْ شمائلِ رَجُلٍ فَصَارَ آيةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ لَقُلْتَ: عَبْدُ اللهِ. كَأَنَّ رَجُلاً قَالَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ رَاحِمٍ للمَسَاكِينِ بَارٍّ بِوَالِدَيه، فَقُلْتَ: فُلانٌ وَاللهِ"[85] فسيبويه في هذا الموضع يَتَحَدَّثُ عن المتَكَلِّم المُعَبِّرِ عن نفسه دون التَّوَجُّهِ بكَلامِهِ هَذَا إلى مُخَاطَبٍ بِعَيْنِهِ، وَجَعَلَ مَا يُحيطُ بِهِ مِنْ عَنَاصِرَ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الموقِفِ والمرتَبِطَةِ بِحَوَاسِّهِ الخَمْسَةِ – كالرُّؤْيَةِ والسَّمْعِ واللَّمْسِ والشَّمّ والتَّذَوُّقِ – أو المرتَبِطَةِ بمعرفته للمُخَاطَبِ عَنْ طَرِيقٍ سَابِقٍ تُحْدِثُ عِنْدَهُ دَلِيلاً عَلَى المبتدأِ المحْذُوفِ، وَتُصْبِحُ هَذِهِ الأَشْيَاءُ الوَاقِعَةُ في مجال خبرة الحواسّ أو المعرفة جزءًا مِنْ نَسِيجِ اللُّغَةِ، وَتَقُومُ مَقَامَ العَنَاصِرِ اللُّغَوِيَّةِ الخَالِصَةِ[86].

2- حَذْفُ المضَافِ وَإِقَامَةُ المضَافِ إِلَيهِ مَقَامَهُ:

يكتفي سيبويه في مثالٍ آخَرَ ببيان حال المتكلّمِ واستخدامِهِ حاسَّةً مِنْ حَوَاسِّهِ – وَهِيَ النَّظَرُ فِي الكِتَابِ – وَيُسَوّغُ بِمُوجِبِهَا حَذْفَ المضَافِ وَإِقَامَةَ المضَافِ إِلَيهِ مَقَامَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: "وَتَقُولُ إِذَا نَظَرْتَ فِي الكِتَابِ: هَذَا عَمْرٌو، وَإِنَّمَا المعْنَى: هَذَا اسْمُ عَمْرٍو، وَهَذَا ذِكْرُ عَمْرٍو، وَنَحْوُ هَذَا، إِلَّا أَنَّ هَذَا يَجُوزُ عَلَى سِعَةِ الكَلامِ، كَمَا تَقُولُ: جَاءَتْ القَرْيَةُ. وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: هَذِه عَمْرٌو، أَي: هَذِهِ الكَلِمَةُ اسْمُ عَمْرٍو، كَمَا تَقُولُ: هَذِهِ أَلْفٌ، وَأَنْتَ تُرِيدُ: هَذِهِ الدَّرَاهِمُ أَلْفٌ"(87) . فَلَوْ نَظَرْتَ إلى قَوْلِهِ: هَذَا عَمْرٌو، لَمْ يَكُن فِيهِ شَيْءٌ مَحْذُوفٌ لَوْلا مَا بَيَّنَهُ مِنْ حَالِ المتَكَلِّمِ واسْتِخْدَامِهِ حَاسَّةً مِنْ حَوَاسِّهِ – وَهِيَ النظر في الكتاب – ؛ لأَنَّهُ لو قال: هذا عمرو دون سياق الموقف السابق لكان مبتدأ وخبرًا ولكِنَّهُ لَمَّا قَالَ: إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابٍ، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ المعْنَى المرَادَ: هَذَا الحَرْفُ المكْتُوبُ اسْمُ عَمْرٍو أَوْ ذِكْرُ عَمْرٍو. وَمِنْ ثَمَّ جَازَ كذلك قَوْلُهُ :هَذِهِ عَمْرٌو؛ لأَنَّهُ يَقْصِدُ الكَلِمَةَ التِي رَآهَا فِي الكِتَابِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ الكلِمَةُ المكْتُوبَةُ اسْمُ عَمْرٍو.

3- حَذْفُ الصِّفَةِ وإبقاءُ الموصوفِ:

قال سيبويه:" وَتَقُولُ: سِيْرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ طَوِيلٌ وَسِيرَ عَلَيْهِ نَهَارٌ طَوِيلٌ، وَإِنْ لَمْ تَذْكُرِ الصِّفَةَ، وَأَرَدْتَ هَذَا المعْنَى رَفَعْتَ إِلَّا أَنَّ الصِّفَةَ تُبَيِّنُ بِهَا مَعْنَى الرَّفْعِ، وَتُوَضِّحُهُ، وَإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَ عَلَى نَصْبِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ وَرَمَضَانَ"(88). ويقول ابن جني:" وقد حُذِفَت الصِّفَةُ، ودلَّتْ الحَالُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ فِيْمَا حَكَاهُ صَاحِبُ الكِتَابِ مِنْ قَوْلِهِم : يَسِيرُ عَلَيْهِ لَيْلٌ، وَهُمْ يُرِيدُونَ: لَيْلٌ طَوِيلٌ، وَكَأَنَّ هَذَا إِنَّمَا حُذِفَتْ فيه الصِّفَةُ لِمَا دَلَّ من الحالِ عَلَى مَوضِعِهَا، وَذَلِكَ أَنَّكَ تُحِسُّ في كلام القائل لذلك من التَّطْوِيح، والتَّطْرِيح، والتَّفْخيم، والتَّعظيم ما يقوم مقام قوله: ليلٌ طويلٌ أو نحو ذلك"(89). ثمَّ يقول: "وأنت تحسُّ ذلك من نفسك إذا تأمَّلته، وذلك أنَّك تكون في مدح إنسانٍ والثَّنَاء عليه فتقول: كان واللهِ رجلاً، فتزيد في قوَّة اللَّفْظِ بـ(والله) هذه الكلمة، وتَتَمَكَّنُ في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، وعليها أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك، وكذلك تقولُ: سألناه فوجدناه إنسانًا! وتُمَكِّنُ الصوت بـ (إنسان)، وتُفَخِّمُهُ، فتَسْتَغْنِي بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك، وكذلك إن ذَمَمْتَهُ ووصفته بالضِّيق قلْتَ: سألناه وكان إنسانًا! وتزوي وجهك وتُقَطِّبُهُ، فيُغْنِي ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا"(90).

ب - حَذْفُ الفِعْلِ

1- النَّصْبُ على إضمارِ الفِعْلِ:

صَرَّح سيبويه بذلك في قوله: "وَمِمَّا يَنْتَصِبُ على إضمار الفعل المسْتَعْمَلِ إظْهَارُهُ أَنْ **تَرَى الرَّجُلَ قد قَدِمَ من سفرٍ** فتقولَ: خَيْرَ مَقْدَمٍ أو يقولَ الرَّجُلُ: **رأيتُ فيما يرى النائمُ كذا وكذا، فتقولَ: خيرًا وما سَرَّ، وخيرًا لنا وشرًّا لعدوّنا**، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: خَيْرُ مَقْدَمٍ وَخَيْرٌ لَنَا وَشَرٌّ لعدوّنَا، أَمَّا النَّصبُ فكأَنَّهُ بَنَاهُ عَلَى قَوْلِهِ: قَدِمْتُ، فَقَالَ: قَدِمْتَ خيرَ مَقْدَمٍ، **وإن لم يُسْمَعْ منه هذا اللَّفظُ فإنَّ قدومَه ورؤيته إيَّاه بمنزلة قوله: قَدِمْتُ**"(91)، وَيُؤَكِّدُ هذا المعنى في موضع آخر فيقول: "وأمّا سُبّوحًا قُدُّوسًا رَبَّ الملائكةِ والرُّوحِ فليس بمنزلة سُبحانَ اللهِ؛ لأنّ السُّبُّوحَ والقُدُّوسَ اسمٌ، ولكنَّه على قوله: أَذْكرُ سُبُّوحًا قُدُّوسًا، وذاك أنَّه **خَطَرَ** على باله، أو ذكَره ذاكرٌ فقال: سُبُّوحًا، أي: ذكرتَ سُبُّوحًا كما تقولُ: أهلَ ذاك إذا **سمعتَ** الرَّجُلَ ذَكَرَ الرَّجُلَ بثناءٍ أو بذمٍّ كأَنَّهُ قَالَ: ذَكَرْتَ أهلَ ذَاكَ؛ لأنَّه حيث جَرَى ذِكْرُ الرَّجُلِ في مَنْطِقِهِ صَارَ عنده بمنزلة قوله: أَذكُرُ فلانا أو ذكرتَ فلانا كما أنَّه حيثُ أَنْشَدَ، ثُمَّ قَالَ: صادِقًا صَارَ الإنشادُ عنده بمنزلة قَالَ، ثم قال: صادِقًا وأهلَ ذاك فحملَه على الفعل متابِعًا للقائل والذَّاكرِ، فكذلك سُبُّوحًا قُدّوسا كأَنَّ نفسه صارت بمنزلة الرَّجُلِ الذَّاكِرِ والمنشِدِ حَيْثُ خَطَرَ عَلَى بَالِهِ الذِّكْرُ، ثُمَّ قَالَ: سبُّوحًا قُدُّوسًا، أي: ذكرتَ سُبُّوحًا متابِعًا لها فيما ذكَرت وخطَر على بالها"(92). وهكذا فمن الملاحظ أَنَّ حذف الفعل أو المبتدأ في التركيب مبنيٌّ على ما يدركه المتكَلِّمُ بحواسِّهِ من حال المخاطَبِ. ومن ذلك أيضًا عنده **النَّصْبُ في الأمثلة الآتية: مصاحبًا معانًا، هنيئًا مريئًا، مبرورًا مأجورًا، صادقًا واللهِ، متعرِّضًا لِعَنَنٍ لَمْ يَعْنِهِ، بيعَ المَلَطَى لا عهد، ولا عقد، غَضَبَ الخيلِ على اللجُمِ، والظِّبَاءَ على البقر، أَهْلَ ذَاكَ وأَهْلَهُ**، يقول سيبويه مفرِّقًا بين النَّصب في هذه الأمثلة والرَّفع، وكلاهما جائزان عنده: "فإذا نصبَ فعلى الفعل، وأمَّا الرَّفْعُ فَعَلَى أَنَّهُ مبتدأٌ أو مبنيٌّ على مبتدأٍ، ولم يُرِدْ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى الفِعْلِ، ولكنَّهُ قال: هذا خيرُمَقْدَمٍ وهذا خيرٌلنا وشرٌّلعدوِّنا، وهذا خيرٌ وما سَرَّ، ومن ثَمَّ قالُوا: مصاحَبٌ مُعانٌ، ومبرورٌ مأجورٌ، كأَنَّهُ قَالَ: أنت مصاحَبٌ وأنت مبرورٌ، فإذا رفعتَ هذه الأشياءَ فالذي في نفسك مَا أَظْهَرْتَ، وإذا نصبت فالذي في نفسك غيرُ مَا أَظْهَرْتَ، وَهُوَ الفِعْلُ، والذي أَظْهَرْتَ الاسمُ وأما قولهم: راشدًا مهديًا، فَإِنَّهُمْ أَضْمَرُوا: اذْهَبْ راشدًا مَهْدِيًّا، وَإِنْ شِئْتَ رَفَعْتَ كَمَا رَفَعْتَ مُصاحَبٌ مُعَانٌ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ النَّصْبُ في كلامهم؛ لأنَّ (راشدًا مهديًّا) بمنزلة ما صار بدلاً من اللَّفْظِ بالفعلِ، كأَنَّهُ لَفَظَ بـ (رَشِدْتَ وهُدِيْتَ)، وسترى بيانَ ذَلْكَ إنْ شَاءَ اللهُ، ومثلُه: هنِيْئًا مَرِيئًا، وَإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَ فَقُلْتَ: مَبْرُورًا مَأْجُورًا وَمُصَاحَبًا مُعَانًا، حَدَّثَنَا بِذَلِكَ عَنِ العَرَبِ عِيْسَى وَيُونسُ وَغَيْرُهُمَا كَأَنَّهُ قَالَ: رَجَعْتَ مَبْرُورًا، واذْهَبْ مُصَاحَبًا، ومِمَّا يَنْتَصِبُ أَيْضًا على إضمار الفعل المستعمَل إظهارُه قول العرب: حَدَّث فلانٌ بكذا، وكذا، فتقول: صادقًا والله، أَوْ أُنْشِدُكَ شِعْرًا، فَتَقُولُ: صَادِقًا واللهِ، أَيْ: قَالَهُ

صَادِقًا؛ لأَنَّكَ **إِذَا أَنْشَدكَ فَكَأَنَّهُ قَدْ قَالَ كَذَا**، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا **أَنْ تَرَى رَجُلاً قَدْ أَوْقَعَ أَمْرًا أَوْ تَعَرَّضَ لَهُ**، فتقول: متعرّضًا لعَنَنٍ لم يَعْنِه أي: دنا من هذا الأمر متعرّضًا لعَنَنٍ لَمْ يَعْنِهِ، **وتَرَكَ ذكرَ الفعل لِمَا يَرى من الحال**، وَمِثْلُهُ: بَيْعَ المَلَطَى لا عَهْدَ، ولا عَقْدَ، **وذلك إنْ كنتَ في حالِ مُسَاوَمَةٍ وَحَالِ بَيْعٍ، فتَدَعُ أُبايعُك استغناءً لِمَا فِيهِ مِنَ الحَالِ**.... وَمِنَ العَرَبِ مَنْ يَقُولُ: مُتَعَرّضٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: صَادِقٌ واللهِ، وكلٌّ عربيٌّ، وَمِثْلُهُ غَضَبَ الخيلِ على اللُّجُم كَأَنَّهُ قَالَ: غَضِبْتَ أَوْ رَآهُ **غَضْبَانَ**. فَقَالَ: غَضَبَ الخيلِ فكأنَّه بمنزلة قوله: غَضِبْتَ غَضَبَ الخَيْلِ عَلَى اللُّجُمِ، وَمِنَ العَرَبِ مَنْ يَرْفَعُ فَيَقُولُ: غَضَبُ الخَيْلِ عَلَى اللُّجُمِ. فَرَفَعَهُ كَمَا رَفَعَ بَعْضُهُم:" الظِّبَاءُ عَلَى البَقَرِ"، وَمِثْلُهُ أَنْ **تَسْمَعَ الرَّجُلَ ذَكَرَ رَجُلاً**. فَتَقُولُ: أَهْلَ ذَاكَ وَأَهْلَهُ أَيْ: ذَكَرْتَ أَهْلَهُ؛ لأَنَّكَ فِي ذِكْرِهِ تَحْمِلُهُ عَلَى المعْنَى، وَإِنْ شَاءَ رَفَعَ على هُوَ، وَنَصْبُهُ وَتَفْسِيرُهُ تَفْسِيرُ خَيْرَ مَقْدَمٍ"[93].

2- بيان ما جرى من الأمر والنَّهي على إضمار الفِعل المستعمَلِ إظهارُه:

قد يؤدِّي المتكلم عبارته بأقلِّ عَدَدٍ مِنَ الأَلْفَاظِ مستغنيًا عَمَّا لا يحتاجه مؤدِّيًا المعنى الذي يقصده بإيجاز في القول ورشاقةٍ في العبارة، ولا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا بقَرَائِنَ حَاليَّةٍ أَوْ مَقَاليَّةٍ مُغْنِيَةٍ عَنِ النُّطْقِ باللَّفْظِ. قَالَ ابن يعيش: "إنَّ قرائنَ الأحوال قد تُغْنِي عَنِ اللَّفْظِ، وَذَلِكَ أَنَّ المرَادَ مِنَ اللَّفْظِ الدِّلالَةُ عَلَى المعْنَى فَإِذَا ظَهَرَ المعْنَى بقَرِينَةٍ حَالِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهَا لَمْ يَحْتَجْ إلى اللَّفْظِ المطَابِقِ، فَإِنْ أُتِيَ باللَّفْظِ المطَابِقِ جَازَ، وَكَانَ كالتَّأْكِيدِ، وَإِنْ لَمْ يُؤْتَ بِهِ فَلاستِغْنَاءِ عَنْهُ"[94]. ومن ذلك الاستغناءُ عن فعلِ المفعولِ به جوازًا لدَلالَةِ مُلابَسَاتِ الموْقِفِ الكَلامِيِّ بَيْنَ المتكَلِّمِ والمخَاطَبِ؛ إذ يفترض سيبويه تقدير موقف الضرب سواء بالذكر والحديث أو بالفعل، وكلا الأمرين واقعان من المخاطَبِ، ويعبران عن استخدامه حَوَاسَّهُ وَجَوَارِحَهُ، يقول سيبويه:" فاعرفْ فيما ذكرتُ لك أنَّ الفِعْلَ يَجرى في الأسماءِ على ثلاثة مَجارٍ فِعْلٌ مُظْهَرٌ لا يَحْسُنُ إضمارُه، وفِعْلٌ مُضْمَرٌ مستعمَلٌ إظهارُه، وفِعْلٌ مُضمَرٌ متروكٌ إظهارُه، فأَمَّا الفعل الذي لا يَحْسُنُ إضمارُه فإنَّه أَنْ تَنْتَهِيَ إلى رجلٍ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِ ضَرْبٍ ولم يَخطُرْ بباله فَتَقُولَ: زيدًا، فلا بُدَّ له من أَنْ تَقُولَ لَهُ :اضْرِبْ زَيْدًا، وَتَقُولَ لَهُ: قَدْ ضَرَبْتَ زَيْدًا، أَوْ يَكُونَ مَوْضِعًا يَقْبُحُ أَنْ يُعَرَّى مِنَ الفِعْلِ نَحْوَ:(أَنْ) و(قَدْ) وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَمَّا الموضعُ الذي يُضْمَرُ فيه وإظهارُه مستعمَلٌ فنحوُ قولك: زيدًا لِرَجُلٍ فِي ذِكْرِ ضَرْبٍ، تُريدُ: اضْرِبْ زَيْدًا، وأَمَّا الموضعُ لا يستعمَل فيه الفعلُ المتروكُ إظهاره فمِن الباب الذي ذُكِرَ فيه إيَّاك[95]، إلى البابِ الذي آخِرُه ذِكْرُ مَرحَبًا، وَأَهْلاً[96]، وسترى ذلك فيما يُستقبل إن شاءَ الله"[97]. وهو بذلك يعتمد في تحليله مُجْمَلَ التراكيب التي حُذِفَ فيها فعلُ المفعول به على القرائنِ المستَمَدَّةِ من الحواس أو الحركة الجسديَّة في بيان

ما جرى من الأمر والنَّهي عَلَى إضمار الفعل المستعمل إظهارُهُ، إذا عَلِمَ المتكَلِّمُ أَنَّ المخَاطَبَ مُسْتَغْنٍ عن لفظ الفعل بدلالة هذه القرائن عليه، يقول سيبويه: "وذلك قولك: زيدًا، وعمرًا ورأسَه، وذلك أنَّكَ رَأَيْتَ رَجُلاً يَضْرِبُ أَوْ يَشْتِمُ أَوْ يَقْتُلُ، فاكتفيتَ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ أَنْ تَلْفُظَ لَهُ بِعَمَلِهِ، فقُلْتَ: زيدًا، أَيْ: أَوْقِعِ عَمَلَكَ بِزَيْدٍ. أَوْ رَأَيْتَ رَجُلاً يَقُولُ: أَضْرِبُ شَرَّ النَّاسِ، فَقُلْتَ: زَيْدًا، أَوْ رَأَيْتَ رَجُلاً يُحَدِّثُ حَدِيثًا فَقطَعَهُ، فَقُلْتَ: حَدِيثَكَ، أو قَدِمَ رجلٌ من سَفَرٍ، فقلت: حَدِيثَكَ. استَغْنَيْتَ عن الفِعْلِ بِعِلْمِهِ أَنَّهُ مُسْتَخْبَرٌ فعَلَى هذا يَجُوزُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ"[98].

فلقد استغنى برؤيته الرَّجُلَ الذى يضرب أو يشتم أو يقتل عن قوله: (اضربْ زيدًا) أو (اشتمْ زيدًا) أو (اقتلْ زيدًا)؛ لأنَّهُ اكتفى برؤيته لعمله عن ذكر الفعل. كما اكتفى بالرؤية العلمية – أو التى هي من باب تراسل الحواس. بمعنى سمعت – عن ذكر الفعل في نحو (اضربْ زيدًا) أو (هاتِ حديثك). قال الرُّمَّاني: "الذي يجوز في إضمار الفعل المأمور به أو المنهي عنه حذفُهُ إذا كانت الحال دالةً على المعنى، تقوم مقام اللَّفْظِ، وصارت خلفًا منه في إحضار المعنى للنفس، والإفهام به كالإفهام باللَّفْظِ المحذوف.... ولهذا جاز أن يُغَيِّرُوا الكلامَ عن حدِّه في الموضوع للاستغناء عنه بدلالة الحال فلا يُحْتَاجُ إلى التَّكَلُّمِ به على هذه الشَّرِيطَةِ، ويكون الحذفُ أَوْلَى من الذِّكْرِ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ في إفهام المعنى، وَأَقَلُّ كُلْفَةً فِيمَا يُعْمَلُ من النُّطْقِ بِهِ"[99]. ويقول في موضع آخر: "إذا كانت الدِّلالَةُ بهذه المنزلة فَلَيْسَ عَلَى المتكَلِّمِ إِلَّا أَنْ يُفْهِمَ المخَاطَبَ كَمَا لَيْسَ عَلَيهِ لَوْ أَتَمَّ الكَلامَ"[100]. ويستغني سيبويه بهذه القرائن أيضا عن الفعل المستعمل إظهارُهُ في غير الأمر والنَّهي "وَذَلِكَ قَولُكَ، إِذَا رَأَيْتَ رجلاً مُتَوَجِّهًا وِجْهَةَ الحَاجِّ، قَاصِدًا في هَيْئَةِ الحَاجِّ، فَقُلْتَ: مَكَّةَ ورَبِّ الكعبةِ. حيث زَكِنْتَ أَنَّهُ يريدُ مَكَّةَ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: يُرِيدُ مَكَّةَ واللهِ. ويجوز أن تَقُولَ: مَكَّةَ واللهِ، على قولك: أَرَادَ مَكَّةَ واللهِ، كَأَنَّكَ أَخْبَرْتَ بهذه الصفة عنه أَنَّهُ كَانَ فيها أَمْسِ فَقُلْتَ: مَكَّةَ والله، أي: أَرَادَ مَكَّةَ إِذْ ذَاكَ... أَوْ رَأَيْتَ رَجُلاً يُسَدِّدُ سَهْمًا قِبَلَ القِرْطَاسِ، فَقُلْتَ: القِرْطَاسَ واللهِ، أَيْ: يُصِيبُ القِرْطَاسَ، وَإِذَا سَمِعْتَ وَقْعَ السَّهْمِ فِي القِرْطَاسِ قُلْتَ: القِرْطَاسَ واللهِ، أَيْ: أَصَابَ القِرْطَاسَ. ولو رَأَيْتَ ناسًا ينظرون الهِلالَ، وَأَنْتَ مِنْهُمْ بَعِيدٌ، فَكَبَّرُوا لَقُلْتَ: الهلالَ وربِّ الكعبة أي: أبصروا الهلال. أَوْ رَأَيْتَ ضَرْبًا، فَقُلْتَ على وجه التفاؤل: عَبْدَ اللهِ، أي: يَقَعُ بعبدِ اللهِ أو بعبدِ اللهِ يكون. ومثل ذلك أَنْ تَرَى رَجُلاً يُرِيدُ أن يُوْقِعَ فعلاً، أو رَأَيْتَهُ في حالِ رَجُلٍ قَدْ أَوْقَعَ فعلاً، أو أَخْبَرْتَ عنه بفعلٍ، فتقولُ: زَيْدًا. تُرِيدُ: اضْرِبْ زَيْدًا، أَوْ أَتَضْرِبُ زَيْدًا. وَمِنْهُ أَنْ تَرَى الرَّجُلَ أَوْ تُخْبِرَ عنه أَنَّهُ قد أَتَى أَمْرًا قَدْ فَعَلَهُ، فَتَقُولُ: أَكُلَّ هَذَا بُخْلاً، أَيْ: أتفعلُ كُلَّ هذا بخلاً، وإِنْ شِئْتَ رَفَعْتَهُ فَلَمْ تَحْمِلْهُ عَلَى الفِعْلِ، وَلَكِنَّكَ تَجْعَلُهُ عَلَى المبْتَدَأِ"[101]. فيدلُّ نصُّ سيبويه على أن الحذف يكون بمراعاة ملابسات الموقف بما تنطوي عليه من ملاحظة

الموقف الحركي وما فيه من استخدامٍ لحواسّ الـمُتَلَقِّي وَجَوَارِحِهِ مِمَّا يُشَكِّلُ مَوْقِفًا مُتكاملاً أمام مرأى من المتكلِّم يستطيع أن يبني كلامه عليه فيكون مسوّغًا للمتكلم لصياغةِ نسقٍ تعبيريٍّ يوائم هذه الحالة فمثلاً رؤية رجلٍ يحمل متاع السفر في موسم الحج قاصدًا مكة، تُعَدُّ مَشْهَدًا يُوْحِي للمُتَكَلِّمِ بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ يريد أداء مناسك الحج؛ لأنَّ هيأته تدلُّ على ذلك فَحَذَفَ المتكلِّمُ ما كان مشاهدًا[102]. كما يَتَّضِحُ هَذَا الأَمْرُ في بقية الأمثلة؛ إذ يصفُ سيبويه ملابساتِ الموقفِ، وَيُجَسِّدُهَا أَمَامَ القارئ لِيَتَّضِحَ لَهُ مقصود المتكلم، فَيُقَرِّرَ أَنَّ جَمَاعَةً مَا يَتَرَقَّبُونَ الهلالَ، وبعيدًا عنهم يَقِفُ المتَكَلِّمُ، وهو عارفٌ بخبرِهِمْ، فإذا كبَّروا عرف المتكلِّمُ أنَّهم قد أبصروا الهلالَ؛ لأنَّ التَّكْبِيرَ عندهم وعنده في هذا المقام علامةُ رُؤْيَةِ الهلالِ، وَيَتَّخِذُ المخاطَبُ موقفًا قريبًا من المتكلم، ناظرًا إلى الجماعة غير عالمٍ بخبرهم، فإذا قال: المتكلمُ: الهلالَ، فَهِمَ المخاطبُ أنَّ الجماعة أبصروا الهلال[103]. فعناصر سياق الموقف متمثلة في: الجماعة المراقبون للهلال، و المتكلم وموقعه البعيد عن الجماعة، ومعرفة المتكلم الضمنية بما اجتمعوا لأجله، والعادات الاجتماعية المتمثلة في تلازم التكبير ورؤية الهلال، والمخاطب وموقعه من المتكلم، و رؤية المخاطب أو معرفته بوجود الجماعة، و عدم معرفة المخاطَبِ لسبب اجتماعهم، و سماع المخاطب تكبير الجماعة[104]. كلُّ هذه المواقف التي عرضها سيبويه في هذا النص أجاز فيها أن يكتفي المتكلم بنطقِ كلمةٍ واحدةٍ في سياقات مختلفة وعدَّها كلامًا مقبولاً؛ لأنَّ الموقف الذي قيلت فيه كفيل بإيضاح المقصود، وسياق الموقف رابط أصيل بين المتكلم والمخاطَب في علاقة تواصليَّةٍ مُتَلائِمَةٍ. وَيَتَّضِحُ من هذه النُّصُوصِ بَيَانُ أَثَرِ حَاسَّةِ المتَكَلِّمِ وَمَا يُدْرِكُهُ بِوَاسِطَتِهَا مِنْ حَرَكَةِ جَسَدِ المخَاطَبِ، وَمَا يَقُومُ بِهِ عَلَى التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ، فَلُغَةُ الجَسَدِ مُشْتَرَكَةٌ هُنَا بَيْنَ المتَكَلِّمِ والمخَاطَبِ.

3- حَذْفُ الفعل في التحذير:

تحدَّث سيبويه عن هذه المسألة في باب ما جرى من الأمر والنَّهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، إذا علمت أنَّ المخَاطَبَ مُسْتَغْنٍ عَنْ لَفْظِكَ الفِعْلَ، قال:"وأَمَّا النَّهْيُ فإنَّه التحذيرُ كقولك: الأَسَدَ الأَسَدَ، والجِدارَ الجِدارَ، والصبيَّ الصبيَّ وإنّما نهيتَه أن يَقربَ الجِدارَ المَخُوفَ المائِلَ أو يَقربَ الأَسدَ أو يوطئ الصبيَّ، وإن شاء أَظْهَرَ في هذه الأشياء ما أَضْمر من الفعل فقال: اضربْ زيدًا، واشتمْ عَمْرًا، ولا توطِئ الصبيَّ، واحذَر الجدارَ، ولا تَقرب الأسدَ، ومنه أيضًا قوله: الطَّريقَ الطَّريقَ، إنْ شاء قَالَ: خَلِّ الطريقَ، أو تَنَحَّ عن الطريق"[105]. فبناءً على هذا النَّصِّ يُمْكِنُ الإشَارَة إلى أَنَّ التحذيرَ أسلوبٌ يَعْمَدُ إليه المتكلم تنبيهًا للمخَاطَبِ

لاجتناب مخوف قد يقع به، فهو أسلوب خَاصٌّ بالمتَكَلِّمِ مُوَجَّهٌ إلى المخَاطَبِ، ويقع في صُوَرٍ عِدَّةٍ، وَهِيَ:

1- ضميرُ المخاطَبِ (إيَّا) مسندًا إلى مخاطبٍ، ويذكر معه المحذَّرُ منه الذي يكون معطوفًا، نحو: إيَّاكَ والأسدَ أو مجرورًا، نحو: إيَّاكَ من الأسدِ(106).

2- المحذر منه مضافًا إلى ضمير المحذَّر، ومعطوفًا عليه محذَّرٌ منه آخر.

3- ذكر المحذَّر منه فقط إمَّا مكرَّرًا، نحو: الأسدَ الأسدَ، والجدارَ الجدارَ، والطريقَ الطريقَ، والصبيَّ الصبيَّ أو مفردًا نحو: الأسدَ، والجدارَ، والطريقَ، والصبيَّ(107).

ولـمَّا كان الاسم منصوبًا في هذا النوع من التراكيب، فإنَّهُ لا بُدَّ له من ناصبٍ؛ ولذا لجأ النحاة إلى تقدير ناصبٍ ينتمي إلى طبيعة الموقف الذي نشأ هذا التركيب في ظلاله ولـمَّا كان المقامُ والموقفُ موقفَ تَحْذِيرٍ، فَإِنَّ النُّحاة وعلى رأسهم سيبويه قدَّروا هذا الفعل بأنواع مختلفة من الأفعال كلُّها يؤدِّي معنى التحذير، ومن ذلك: نَحِّ وباعدْ، واتقِ، واحذر، يقول سيبويه:"هذا باب ما جرى منه على الأمر والتحذير، وذلك قولك إذا كنتَ تحذِّرُ: إيَّاكَ، كأَنَّك قُلْتَ إيَّاكَ نَحِّ، وَإِيَّاكَ بَاعِدْ، وَإِيَّاكَ اتَّقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ تَقُولَ: نَفْسَكَ يَا فُلانُ، أي: اتّقِ نفسَك إلَّا أنَّ هذا لا يجوز فيه إظهارُ مَا أَضْمَرْتَ، وَلَكِنْ ذَكَرْتُهُ؛ لأُمثِّلَ لك مالا يُظهَر إضمارُه"(108). أمَّا حكم هذا الفعل من حيث الإظهار والإضمار ففيه تفصيل على النَّحْوِ الآتي:

1- عدم جواز إظهاره إذا كان التَّحْذِيرُ بـ (إيَّا) مفردًا أو مُكَرَّرًا أو معطوفًا عليه، وكذلك إن كان التَّحْذِيرُ بغير (إيَّا)، وكان المحذَّر منه مُكَرَّرًا أو معطوفًا(109)، غير أنَّ من النُّحاة مَنْ قَالَ بجوازِ إظْهَارِهِ نَظَرًا إلى أَنَّ تكريرَ المفعولِ للتَّأْكِيدِ لا يُوجِبُ حَذْفَ العَامِلِ(110).

2- جواز إظهاره إذا كان التحذير بغير (إيَّا) والمحذَر منه مفردًا غير مكرَّر، إذ قال سيبويه:"فلو قُلْتَ: نَفْسَكَ أَوِ رَأْسَكَ أَوِ الجِدارَ كَانَ إظهارُ الفعل جائزًا نحو قَوْلِكَ: اتّقِ رأسَك، واحْفَظْ نَفْسَكَ، وَاتَّقِ الجِدَارَ"(111).

أمَّا عن سبب حذف فعل التحذير ووجوب عدم إظهاره في حال تكريره فيجيب سيبويه عن ذلك إجابة شافية بقوله:" **<u>وإنَّما حَذَفُوا الفِعْلَ في هذه الأشياءِ حين ثَنَّوْا؛ لكثرتها في كلامهم، واستغناءً بما يَرَوْنَ من الحال وبما جَرَى من الذِّكْرِ، وصار المفعولُ الأوَّلُ بدلاً من اللَّفْظِ بالفعل</u>**"(112). أمَّا الكثرة فلأنَّ هذا الأسلوب يعبِّرُ عن موقف متكرِّرٍ في حياتنا اليومية، فأصبح كالمثل في كثرته وجريانه، وأمَّا الاستغناء عن الفعل بِمَا يُرَى من الحَالِ

المشَاهَدَةِ فَهَذَا مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ إِذْ اسْتَغْنَى المتَكَلِّمُ بِمَا رَآه وَأَدْرَكَهُ بِحَواسِّهِ مِنَ الموْقِفِ الحرَكِيِّ الذي حَصَلَ أَمَامَهُ مِنْ حَرَكَةِ المخَاطَبِ وَسَيْرِهِ إلى أن اقْتَرَبَ مِنَ الأَسَدِ دُوْنَ أَنْ يَشْعُرَ بقربه منه قربًا يُشَكِّلُ عليه خطرًا، استغنى بهذا الموقف عن أن يذكر فعل التحذير؛ لأَنَّ الموقف والمقام يستدعي التَّحْذِيرَ بِأَقَلِّ الأَلْفَاظِ لِيَتَمَكَّنَ المخَاطَبُ مِنَ التَّنَبُّهِ والتَّصَرُّفِ بشكلٍ عَاجِلٍ فِي مِثْلِ هَذَا المقَامِ، يَقُولُ الرُّمَّانِيُّ: "لأَنَّ التَّحْذِيرَ مِمَّا يُخَافُ مِنْهُ وُقُوعُ المخُوفِ، فَهُوَ مَوْضِعُ إِعْجَالٍ، لا يَحْتَمِلُ تَطْوِيلَ الكَلامِ، لِئَلاَّ يَقَعَ المخُوفُ بالمخَاطَبِ قَبْلَ تَمَامِ الكَلامِ"(113)، وَقَالَ الرَّضِيُّ: "لأَنَّ القَصْدَ أَنْ يَفْرَغَ المتَكَلِّمُ سَرِيعًا مِنْ لَفْظِ التَّحْذِيرِ حَتَّى يَأْخُذَ المخاطَبُ حِذْرَهُ مِنْ ذَلِكَ المحْذُورِ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ لا يَسْتَعْمِلُ هَذِه الأَلْفَاظَ إِلَّا إِذَا شَارَفَ المكْرُوهُ أَنْ يرهق"(114).

4- **حَذْفُ عامل المفعول المطلق وجوبًا:** تحدَّث سيبويه عن هذه المسألة في باب ما يَنتصب في الاستفهام من هذا الباب فقال: "وأَمَّا مَا يَنتصبُ في الاستفهام من هذا الباب فقولُك: أَقِيامًا يا فلانُ، والنَّاسُ قعودٌ، وأَجُلوسًا والنَّاسُ يَعْدُونَ، لا يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ أَنَّهُ يَجْلِسُ، ولا أَنَّهُ قَدْ جَلَسَ، وانقضى جلوسُه، وَلَكِنَّهُ يُخْبِرُ أَنَّه في تلك الحال في جُلوسٍ، وفي قيامٍ"(115). ويقول في الباب ذاته بعد بضعة أسطر: "وكذلك إِنْ أَخْبَرْتَ، وَلَمْ تَسْتَفْهِمْ تَقُولُ: سَيْرًا سيرًا عَنَيْتَ نَفْسَك أَوْ غَيْرَك، وَذَلِكَ **أَنَّك رَأَيْتَ رَجُلاً فِي حَالِ سَيْرٍ أَوْ كُنْتَ فِي حَالِ سَيْرٍ، أَوْ ذُكِرَ رَجُلٌ بِسَيْرٍ، أَوْ ذُكِرْتَ أَنْتَ بِسَيْرٍ، وجَرَى كلامٌ يَحْسُنُ بِنَاءُ هَذَا عَلَيْهِ كَمَا حَسُنَ فِي الاسْتِفْهَامِ**؛ لأَنَّك إِنَّمَا تَقُولُ: أَطَرَبًا وَأَسَيْرًا إذا **رَأَيْتَ ذَلِكَ مِنَ الحَالِ أَوْ ظَنَنْتَهُ فِيهِ**، وَعَلَى هَذَا يَجْرِي هَذَا البَابُ إِذَا كَانَ خَبَرًا أَوْ اسْتِفْهَامًا **إِذَا رَأَيْتَ رَجُلاً فِي حَالِ سَيْرٍ أَوْ ظَنَنْتَهُ فِيهِ فَأَثْبَتَّ ذَلِكَ لَهُ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ فِي الاسْتِفْهَامِ** إِذَا قُلْتَ: أَأَنْتَ سَيْرًا؟، وَمَعْنَى هَذَا البَابِ **أَنَّه فِعْلٌ متّصِلٌ فِي حَالِ ذِكْرِكَ إِيَّاه اسْتَفْهَمْتَ أَوْ أَخْبَرْتَ، وَأَنَّكَ فِي حَالِ ذِكْرِكَ شَيْئًا مِنْ هَذَا البَابِ تَعْمَلُ فِي تَثْبِيتِهِ لَكَ أَوْ لِغَيْرِكَ**"(116). فيَتَّضِحُ مِمَّا سبق أنَّ الكلام في حذف عامل المفعول المطلق وجوبًا مبنيٌّ على ملاحظة الحال المشاهدة بما فيها من موقف حركيٍّ، إمَّا للمتكلم أو للمخاطَب فاستغنى بتلك الحال المشاهدة عن ذكر العامل؛ فأصبح المفعول المطلق منصوبًا، وعامله مقدَّر وجوبًا؛ لأنه لا بد لكلِّ منصوبٍ من ناصبٍ في نهاية الأمر. ومن ذلك أيضًا حذف عامل المفعول المطلق الذي قصد به التشبيه يقول سيبويه: "هذا باب ما يَنْتَصِبُ فيه المصدرُ المشبَّهُ به على إضمار الفعل المتروك إظهارُه، وذلك قولك: **مررتُ به فإذا له صَوْتٌ صَوْتَ حِمارٍ**، ومررتُ به فإذا له صُراخٌ صُراخَ الثَّكْلَى فإنَّما انتصب هذا؛ لأنَّك **مررتَ به في حال تصويتٍ**، ولم تُردْ أَنْ تَجْعَلَ الآخِرَ صفةً للأوَّل ولا بدلاً منه، ولكنَّك لَمَّا قُلْتَ: له صوتٌ عُلم أنه **قد كان ثَمَّ عَمَلٌ**، فصار قولُكَ: له صوتٌ بمنزلة قولك: **فإذا هو يُصَوِّتُ**، فَحَمَلْتَ الثَّانيَ على المعنى"(117). وفي هذا دليل على

اعتماد سيبويه على حَواسِّ المتكلِّم، وتَعْليلِهِ بِهَا حَذْفَ أَلْفاظِ اقْتَضى القِيَاسُ اللُّغَوِيُّ أنْ تُذْكَرَ في الكَلامِ، وكأنَّمَا أَحسَّ بأَنَّ الأفكارَ لا تَتَنَاقَلُ بالألفاظِ فَحَسْبُ، بل قَدْ يُدْرِكُ السَّامِعُ مَا يُرِيدُ اللسانُ التَّعْبِيرَ عنه؛ لِذَا لا يَذْكُرُ المتكلِّمُ الأَلْفَاظَ التِي عَرَفَهَا المخَاطَبُ[118]. هذا في حال انتصاب المصْدَرِ المرادِ به التَّشْبِيهَ عَلَى هَذَا المعْنَى، أَمَّا إِذَا وَرَدَ مَرفُوعًا، وَهَذَا جَائِزٌ فالمعْنَى مُخْتَلِفٌ، يَقُولُ سيبويه: "هَذَا بَابٌ يُخْتَارُ فِيهِ الرَّفْعُ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ لَهُ عِلْمٌ عِلْمُ الفُقَهاءِ وَلَهُ رَأيٌ رأيُ الأُصَلاءِ، وَإِنَّما كَانَ الرَّفْعُ فِي هَذَا الوَجْهِ؛ **لأَنَّ هَذِهِ خِصالٌ تَذْكُرُهَا فِي الرَّجُلِ كالحِلْمِ والعَقْلِ والفَضْلِ، وَلَمْ تُرِدْ أَنْ تُخْبِرَ بِأَنَّكَ مَرَرْتَ بِرَجُلٍ فِي حَالِ تَعَلُّمٍ ولا تفهُّمٍ**، وَلَكِنَّكَ أَرَدْتَ تَذَكُّرَ الرَّجُلِ بِفَضْلٍ فِيهِ وَأَنْ تَجْعَلَ ذَلِكَ خَصْلَةً قَدْ اسْتَكْمَلَهَا كَقَوْلِكَ: لَهُ حَسَبٌ حَسَبُ الصالحينَ؛ لأَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ وَمَا يُشْبِهها صَارَتْ تَحْلِيَةً عندَ النَّاسِ وَعلامَاتٍ، وَعَلَى هَذَا الوَجْهِ رُفِعَ الصَّوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَ فَقُلْتَ: لَهُ عِلْمٌ عِلْمَ الفُقَهَاءِ **كَأَنَّكَ مَرَرْتَ بِهِ فِي حَالِ تَعَلُّمٍ وَتَفَقُّهٍ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَكْمِلِ أَنْ يُقَالَ لَهُ عَالِمٌ**،....وإِذَا قَالَ: لَهُ صَوْتٌ صَوْتَ حِمَارٍ فَإِنَّما أَخْبَرَ أَنَّهُ **مَرَّ بِهِ وَهُوَ يُصَوِّتُ صَوْتَ حِمَارٍ**، وَإِذَا قَالَ: لَهُ عِلْمٌ عِلْمُ الفُقَهَاءِ فَهُوَ يُخْبِرُ عَمَّا **قَدْ اسْتَقَرَّ فِيهِ قَبْلَ رُؤْيَتِهِ وَقَبْلَ سَمْعِهِ مِنْهُ أَوْ رَآهُ يَتَعَلَّمُ فَاسْتَدَلَّ بِحُسْنِ تَعَلُّمِهِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ العِلْمِ**، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُخْبِرَ أَنَّهُ **إِنَّمَا بَدَأَ فِي عِلاجِ العِلْمِ فِي حَالِ لُقْيَاهُ إِيَّاهُ**؛ لأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِمَّا يُثْنَى بِهِ، **وَإِنَّما الثَّنَاءُ فِي هذا الموضع أن يُخبِرَ بما استَقرَّ فيه**، ولا يُخبِر أَنَّ أَمْثَلَ شيءٍ كان منه التعلُّمُ في حال لقائِه"[119].

5 - حَذْفُ عامل الحال:

أورد سيبويه هذه المسألة في باب ما يَنْتَصِبُ من الأسماء التي أُخِذَتْ مِنَ الأَفْعَالِ انْتِصَابَ الفعل اسْتَفْهَمْتَ أَوْ لَمْ تَسْتَفْهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: أَقَائِمًا وَقَدْ قَعَدَ النَّاسُ وأَقَاعِدًا، وَقَدْ سَارَ الرَّكْبُ، وكذلك إِنْ أَرَدْتَ هَذَا المعْنَى وَلَمْ تَسْتَفْهِمْ تَقُولُ: قَاعِدًا عَلِمَ اللهُ، وقد سار الرَّكْبُ، وَقَائِمًا قَدْ عَلِمَ اللهُ، وَقَدْ قَعَدَ النَّاسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ **رَأَى رَجُلاً فِي حَالِ قِيَامٍ أَوْ حَالِ قُعُودٍ، فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَهُ فَكَأَنَّهُ لَفظَ بقَوْلِهِ: أَتَقُومُ قَائِمًا، وَأَتَقْعُدُ قَاعِدًا، وَلَكِنَّهُ حَذَفَ اسْتِغْنَاءً بِمَا يَرَى مِنَ الحَالِ، وَصَارَ الاسْمُ بَدَلاً مِنَ اللَّفْظِ بالفِعْلِ، فَجَرَى مَجْرَى المصْدَرِ فِي هَذَا الموْضِعِ**، وَمِثْلُ ذَلِكَ عَائِذًا باللهِ مِنْ شَرِّهَا، كَأَنَّهُ **رَأَى شَيْئًا يُتَّقَى، فَصَارَ عِنْدَ نَفْسِهِ فِي حَالِ اسْتِعَاذَةٍ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ الذِي رَآهُ فِي حَالِ قِيَامٍ وَقُعُودٍ؛ لأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ فِي تِلْكَ الحَالِ**، فقال: عائذًا باللهِ، كأَنَّهُ قال: أعوذُ باللهِ عائذًا باللهِ، ولكنَّهُ حذف الفعل؛ **لأنَّه بدلٌ من قوله: أعوذُ باللهِ، فصار هذا يَجرى ها هنا مجرى عِياذًا باللهِ**، ومنهم من يقول: عائذٌ باللهِ من شرِّ فلان، وإذا ذكرت شيئًا من هذا الباب فالفعل متّصِلٌ **في حال ذكرِك وأنت تعمل في تثبيته لك أو لغيرك في حال ذكرِك إيَّاه**"[120]. ومِمَّا سَبَقَ تَتَّضِحُ **طبيعةُ الموقف الحركيِّ المبْنِيِّ عَلَى حَرَكَةِ الجَسَدِ** الذي

اسْتَقَرَّ في نَفْسِ المتَكَلِّمِ؛ سواء كان من المخاطَبِ أو من المتكلِّم أو من الحال التي تمثَّلها المتكلِّمُ في نفسه، فإنها تقوم مقام الحال المشاهدة في كونها من اليقين في نفس المتكلِّم، تتضح طبيعة كلِّ هذا، ومدى أثرها في بناء التركيب عليها من خلال حذف عامل الحال استغناء بما يرى من تلك الحال؛ لأنَّ المتكلِّم غرضه تثبيت تلك الحال لصاحبها وإقرارها في نفسه تمهيدًا لتوبيخه على بقائه على تلك الحال(121).

6- حَذْفُ عَامِلِ مَا جَرَى من الأسماء التي لم تُؤْخَذْ من الفِعْل مجرى الأسماءِ التي أُخِذَتْ مِنَ الفِعْلِ:

أوردَ سيبويهِ هَذِهِ المسْأَلَةَ فِي "بَابِ مَا جَرَى من الأسماء التي لم تؤخَذْ من الفِعل مجرى الأسماءِ التي أُخِذَتْ من الفعل، وذلك قولك: أتَميميًّا مرَّةً وقَيْسِيًّا أُخْرَى، وإنَّما هذا أنَّكَ **رأيتَ رجلاً في حال تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ** فقلتَ: أتميميًّا مرَّةً وقيسيًّا أُخْرَى، كَأَنَّكَ قُلْتَ: أَتَحَوَّلُ تَمِيمِيًّا مَرَّةً وَقَيْسِيًّا أُخرَى. **فَأَنْتَ في هذه الحال تَعمل في تثبيتِ هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ**، وليس يَسأله مسترشِدًا عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهِّمَه إيَّاه ويُخبِرَه عنه، **ولكنَّهُ وبَّخَهُ بذلك**، وحدَّثنا بعضُ العرب أنَّ **رجلاً من بني أَسَدٍ قال يومَ جَبَلَةَ واستقبله بَعِيرٌ أَعْوَرُ فتَطَيَّرَ منه. فَقَالَ: يا بني أسد أَعْوَرَ وذا نابٍ**، فَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسترشدهم ليُخبِروه عن عَوَرِه وصحَّته، **وَلَكِنَّهُ نَبَّهَهم، كَأَنَّهُ قَالَ: أَتَستقبلون أَعْوَرَ وذا ناب؟، فالاستقبالُ في حال تَنْبِيهِهِ إِيَّاهُم كَانَ وَاقِعًا كَمَا كَانَ التلوُّنُ والتنقُّلُ عندك ثابتينِ في الحال الأوَّل وأرادَ أن يثبِّتَ لَهُم الأعورَ ليَحذروه**.....وإنْ أَخبرتَ في هذا الباب على هذا الحدِّ نصبتَ أيضًا كما نصبتَ في حال الخبرِ الاسمَ الذي أُخِذَ من الفعل، وذلك قولك: تمَيميًّا قد عَلِمَ اللهُ مرَّةً، وَقَيْسِيًّا أُخرى، **فَلَمْ تُرِدْ أَنْ تُخْبِرَ القَوْمَ بأَمْرٍ قَدْ جَهِلُوهُ، وَلَكِنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَشْتِمَهُ بِذَلِكَ**"(122). فالأمر عند سيبويه سواء في حال الاستفهام أو الإخبار؛ إذ المعنى الذي ينتصب على أساسه الاسم في الحالين واحد، وهو أمر ملحوظ بما تمَّ قبله من مشاهدة حال ذات طبيعةٍ حركيَّةٍ، فالمخاطب يتلوَّن في تصرفاته وحركاته وأعماله مابين هذا وذاك، فَمَرَّةً يَتَشَبَّهُ بالتَّمِيمِيِّينَ، وَمَرَّةً يَتَشَبَّهُ بالقَيْسِيِّينَ، وَأَصْبَحَ هَذَا كَأَنَّهُ مَضْرِبَ المثَلِ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ يَتَلَوَّنُ في تصرفاته وحركاته وأعماله، كما أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ بني أَسَدٍ لاحَظَ حَالَهُ لَمَّا رأى استقبال البعيرِ لَهُ، وَقَدْ تَطَيَّرَ منه، وهذه حال فيها حركة من المتكلِّم لا علاقة للمَخَاطَبِ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَبُوحَ بما استقرَّ في خاطره من التشاؤم والتَّطَيُّرِ، فَأَخْرَجَ الكلامَ مخاطبًا به أهله لِيُبَيِّنَ أَنَّ ما اسْتَقَرَّ في نفسه هُوَ مَا يَسْتَقِرُّ في نفس أهله وقبيلته، وليحذرهم مِمَّا رآه؛ لأنَّ ما رآه يجلبُ التشاؤمَ والتَّطَيُّرَ(123).

ج -حَذْفُ الحُرُوفِ:

1- حَذْفُ الكَافِ من اسمِ الفِعْلِ "رُوَيْدَكَ":

أَجَازَ سيبويهِ حَذْفَ الكَافِ من اسم الفعل (رُوَيْدَكَ)، "استغناء بِعِلْمِ المخَاطَبِ أَنَّهُ لا يعني غيره"[124]، والمعروف أنَّ (الكاف) إنَّما تَلْحَقُ (رُوَيْدًا) "لِتُبَيِّنَ المخَاطَبَ المخصوصَ؛ لأنَّ (رُوَيْدَ) تقع للواحد والجميع، والمذكر والأنثى، فإِنَّمَا أَدْخَلَ الكافَ حين خَافَ التباسَ مَنْ يَعْنِي. بِمَنْ لا يَعْنِي"[125] وهكذا التفت سيبويه إلى أنَّ لموقف الخطاب حالاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَتَنَبَّهَ إلى أَنَّ العبارة اللغوية تتباين على قدر ذلك. فإذا كُنْتَ تَسْتَمْهِلُ رَجُلاً على حدة رأيته يعالج شيئًا قُلْتَ: رُوَيْدًا، أمَّا إذا كُنْتَ تَسْتَمْهِلُ رَجُلاً فِي جَمَاعَةٍ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: رُوَيْدَكَ، وكذلك إذا كُنْتَ تَسْتَمْهِلُ امرأةً في جماعة فَإِنَّكَ تَقُولُ: رُوَيْدَكِ.. إلخ[126] . ثم يستطرد سيبويه، فيقول: "فَلَحَاقُ الكَافِ، كَقَوْلِكَ: يَا فُلانُ، للرَّجُلِ حَتَّى يُقْبِلَ عَلَيْكَ، وَتَرْكِهَا كَقَوْلِكَ للرَّجُلِ: أَنْتَ تَفْعَلُ، إِذَا كَانَ مُقْبِلاً عَلَيْكَ بِوَجْهِهِ مُنْصِتًا لَكَ. فَتَرَكْتَ يَا فُلانُ، حِينَ قُلْتَ: أَنْتَ تَفْعَلُ؛ اسْتِغْنَاءً بِإِقْبَالِهِ عَلَيْكَ. وَقَدْ تَقُولُ أَيْضًا: رُوَيْدَكَ، لِمَنْ لا يُخَافُ أَنْ يَلْتَبِسَ بِسِوَاهُ، تَوْكِيدًا، كَمَا تَقُولُ للمُقْبِلِ عَلَيْكَ المنْصِتِ لَكَ: أَنْتَ تَفْعَلُ ذَاكَ يَا فُلانُ، تَوْكِيدًا"[127]. فلقد جعل سيبويه لغةَ جسدِ المخَاطَبِ وَمَا تُعَبِّرُ عنه من إقباله بوجهه على المتكلِّم وإنصاتِهِ إلى المتكلِّم مسوِّغًا لحذفِ الكاف من (رَوَيْدَكَ)؛ لأنَّ حَالَ المخَاطَبِ يُغْنِي عَنْ لحاقِ الضميرِ بِهِ، وَشَبَّهَهُ بِحَذْفِ حَرْفِ النِّدَاءِ اكتفاءً بإقبالِ المنَادَى على المتكلِّم فَيَقُولُ المتكلِّمُ للمخاطَبِ: (أَنْتَ تَفْعَلُ) وَيَسْتَغْنِي عَنْ قَوْلِهِ لِلمُخَاطَبِ: يَا فُلانُ. فَإِنْ عَلِمَ المخَاطَبُ أَنَّهُ المعنيُّ، لم يحتج المتكلم إلى الضمير، ولكنه قد يلحق الضمير مع علم المخاطب بأنه المقصود على سبيل التوكيد لا البيان والتخصيص، وَشَبَّهَهُ أيضًا بقولك للمقبل عليك المنصت لك: (أَنْتَ تَفْعَلُ يَا فُلانُ) تَوْكِيدًا، وبقولك: (أَرَأَيْتُكَ) تَوْكِيدًا[128].

2- حَذْفُ حَرْفِ النِّدَاءِ فِي قولك: (اللَّهُمَّ اغفرْ لَنَا أَيَّتُهَا العِصَابَةُ):

يمنعُ سيبويه دخولَ حَرْفِ النِّدَاءِ عَلَى قَوْلِكَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا أَيَّتُهَا العِصَابَةُ) إذا عَنَيْتُم أَنْفسَكُم كَمَا لا تَدْخُلُ (يَا) عَلَى قَوْلِكَ: (أَنَا أَفْعَلُ كَذَا أَيُّهَا الرَّجُلُ) إِذَا عَنَيْتَ نَفْسَكَ؛ لأَنَّ (أَيُّ) هُنَا تَأْتِي للاخْتِصَاصِ لا للنِّدَاءِ؛ لأَنَّ المنَادَى مُخْتَصٌّ، فَهُمَا مشتركانِ في الاخْتِصَاصِ، فَاسْتُعِيرَ لَفظُ أَحَدِهِمَا للآخَرِ مِنْ حَيْثُ شَارَكَهُ فِي الاخْتِصَاصِ، فَيَقُولُ:" وَأَرَدْتَ أَنْ تَخْتَصَّ ولا تُبْهِمَ، حِينَ قُلْتَ: أَيَّتُهَا العصابة وَأَيُّهَا الرَّجُلُ، أَرَادَ أن يؤكِّدَ؛ لأَنَّهُ قد اخْتَصَّ حين قَالَ: أَنَا، وَلَكِنَّهُ أَكَّدَ كما تقول للذي هو مقبلٌ عليكَ بوجهه مستمعٌ مُنْصِتٌ لَكَ: كَذَا كَانَ الأَمْرُ يَا أَبَا فُلان، تَوْكِيدًا. وَلا تَدْخُلُ (يَا) هَا هُنَا؛ لأَنَّكَ لَسْتَ تُنَبِّهُ غَيْرَكَ"[129] . ويقول عن حذف النداء في موضع آخر: "وَإِنَّمَا

فَعَلُوا هَذَا بالنِّدَاءِ لكَثْرَتِهِ فِي كَلامِهِم؛ ولأَنَّ أَوَّلَ الكلامِ أَبَدًا النِّدَاءُ، إِلَّا أَنْ تَدَعَهُ استغناءً بإقبالِ المخَاطَبِ عَلَيْكَ، فَهُوَ أَوَّلُ كُلِّ كَلامٍ لَكَ بِهِ تَعْطِفُ المُكَلَّمُ عليكَ"[130]، ويقول أيضا: "وَإِنْ شِئْتَ حَذَفْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ – يَقْصِدُ حُروفَ النِّدَاءِ – استغناءً، كَقَوْلِكَ: حَارِ بن كعبٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ هُوَ مقبلٌ عَلَيْهِ بِحَضْرَتِهِ يُخَاطِبُهُ"[131]. فدلالة هذه النصوص واضحة على أَنَّ لغة جسد المخَاطَبِ من إنصاتٍ واستماعٍ أو إقبالٍ على المتكلِّم بوجهه تجعل من الجائز للمتكلم أن يَدَعَ حَرْفَ النداء، وَأَمَّا قَولُهُ:" ولأَنَّ أَوَّلَ الكَلامِ أَبَدًا النِّدَاءُ"، وَقَولُهُ:" فَهُوَ أَوَّلُ كُلِّ كَلامٍ لَكَ بِهِ تَعْطِفُ المُكَلَّمُ عليكَ "فَمَعْنَى هَذَا أَنَّ المتَكَلِّمَ إِذَا تَكَلَّمَ فَلا بُدَّ لَهُ مِنْ مُخَاطَبٍ يُخَاطِبُهُ بِكَلامِهِ الذي يَتَكَلَّمُ بِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: "يا فُلان كَانَ مِنَ الأَمْرِ كَذَا وَكَذَا"[132]، فَلا يَنْفَكُّ المتَكَلِّمُ عَنْ احْتِيَاجِهِ إلى مُخَاطَبٍ أَبَدًا.

الضرب الثاني: الأحكام المتعلقة بالحذف: هي أحكام انبنت على القول بوجود محذوف في الجملة وتقديره مراعاة لملابسات الموقف الكلاميِّ، ومنها لغةُ الجسدِ، وَمَا تُدْرِكُهُ الحواسُّ.

1- عدمُ جَوازِ إِضْمَارِ فِعْلِ الغَائِبِ:

وهو حكمٌ أَطْلَقَهُ سيبويه لِيُبَيِّنَ مَدَى صِحَّةَ التَّرْكِيبِ مِنْ عَدَمِهِ اعتِمَادًا عَلَى وُجُودِ مُلابَسَاتٍ للمَوْقِفِ تَسْتَدْعِي فِعْلَ الأَمْرِ للمُخَاطَبِ، فَإِنْ خَاطَبْتَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ هُوَ المعْنِيَ بِإِيْقَاعِ الحَدَثِ، لَمْ يَكُنْ لَكَ أَنْ تَبْنِيَ كَلامَكَ للمُخَاطَبِ عَلَى إِضْمَارِ فِعْلِ الغَائِبِ، فَلا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تُضْمِرَ فِعْلَ الغَائِبِ؛ لأَنَّ الذي يَتَحَكَّمُ فِي صِحَّةِ حَذْفِ الفِعْلْ هُوَ المخَاطَبُ وَمَا يَكُونُ عَلَيهِ مِنْ حَالٍ مُشَاهَدَةٍ أَوْ مَسْمُوعَةٍ أَوْ مَشْمُومَةٍ أَوْ مَلْمُوسَةٍ مِنْ قِبَلِ المتَكَلِّمِ، أَوْ مَا يَقُومُ بِهِ المخَاطَبُ مِنْ أَحْوَالٍ يُمَارِسُهَا بِوَاسِطَةِ اسْتِخْدَامِ حَوَاسِّهِ وَجَوَارِحِهِ وَتَكُونُ فِي مُحِيطِ إِدْرَاكِ المتَكَلِّمِ أَثْنَاءَ إِنْتَاجِهِ الكَلامَ فَيَبْنِي عَلَيْهَا تَرْكِيبَهُ. وَإِنْ كَانَ ثَمَّةَ مُخَاطَبٌ، وَأَرَدْتَ مِنْهُ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ عَنَيْتَ بِكَلامِكَ أَنَّكَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِفِعْلٍ مَا، فَلا يَجُوزُ أَنْ تُضْمِرَ أَيْضًا فِعْلَ الغَائِبِ بَلْ لا بُدَّ مِنَ التَّصْرِيحِ بِهِ؛ لأَنَّ حَذْفَهُ يُؤَدِّي إِلى الإِلْبَاسِ عَلَى المخَاطَبِ، فَرُبَّمَا ظَنَّ المخَاطَبُ أَنَّ المتَكَلِّمَ أَرَادَ أَنْ يُوَجِّهَ الخطاب إليه، وَهُوَ لا يَقْصِدُه أَصْلاً. يقول سيبويه: "واعلم أَنَّه لا يجوزُ أَنْ تَقُولَ: زيدٌ، وأنت تريدُ أن تقولَ: لِيُضْرَبْ زيدٌ أو لِيَضْرِبْ زيدٌ إذا كان فاعِلاً ولا زيدًا، وَأَنْتَ تُرِيدُ لِيَضْرِبْ عَمْرُو زَيْدًا، وَلا يَجُوزُ زَيْدٌ عَمْرًا إِذَا كُنْتَ لا تُخاطِبُ زَيْدًا إِذَا أَرَدْتَ لِيَضْرِبْ زَيْدٌ عَمْرًا، وَأَنْتَ تَخَاطِبُنِي، فَإِنَّما تُرِيدُ أَنْ أُبلِغَه أَنَا عَنْكَ أَنَّكَ قَدْ أَمَرْتَهُ أَنْ يَضْرِبَ زَيْدٌ عَمْرًا، وَزَيْدٌ وَعَمْرُو غَائِبَانِ فَلا يَكُونُ أَنْ تُضْمِرَ فِعْلَ الغائبِ، وكذلك لا يَجُوزُ: زَيْدًا، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ أُبلِغَه أَنَا عَنْكَ أَنْ يَضْرِبَ زيدًا؛ لأَنَّكَ

إِذَا أَضْمَرْتَ فِعْلَ الغَائِبِ ظَنَّ السَّامِعُ الشَّاهِدُ إِذَا قُلْتَ: زَيْدًا أَنَّكَ تَأْمُرُه هُوَ بِزَيْدٍ، فَكَرِهُوا الالْتِبَاسَ هُنَا كَكَرَاهِيَتِهِمْ فِيْمَا لَمْ يُؤْخَذْ مِنَ الفِعْلِ، نَحْوَ قَوْلِكَ: عَلَيكَ أَنْ يَقُولُوا عَلَيْه زيدًا؛ لئلاً يشبَّهَ ما لم يؤخَذْ من أمثلة الفعل بالفعل، وكَرِهُوا هَذَا فِي الالْتِبَاسِ وَضَعُفَ حَيْثُ لَمْ يُخاطِبِ المأمورَ كَمَا كُرِهَ وضَعُفَ أن يشبَّهَ عَلَيْكَ و رُوَيْدَ بالفعل"[133]. **فلا يصحُّ من التراكيب إلّا ما كانت فيه الرسالة واضحة من المتكلم للمخاطب، وكان المخاطب على علم بما يريد المتكلم إيصاله إليه، ويكون هذا أظهر ما يكون إذا كان بين المتكلم والمخاطَب حالة معلومة مشتركة قائمة على استخدام الحواسّ والجوارح، يبدؤها المخاطَب باستخدام جوارحه، ويدركها المتكلم بحواسّه. فإذا وُجِدَتْ هذه الحالُ حَسُنَ الإضمارُ، وبناء التركيب عليها، وإن لم تُوجَدْ ووَقَعَ الإلباسُ، فلا يَحْسُنُ الإضمارُ بل يجب الإظهارُ**[134].

2- صِحَّةُ تَقْدِيرِ زَمَنِ الفِعْلِ المنَاسِبِ:

لَمْ يَكْتَفِ سيبويه بِهَذِهِ القَرَائِنَ الحَالِيَّةِ المسْتَمَدَّةِ مِنَ الحَوَاسِّ لِتَسْوِيغِ حَذْفِ الفِعْلِ فِي كُلِّ المَواقِفِ السَّابِقَةِ، بَلْ اسْتَعَانَ بِهَا أَيْضًا فِي صِحَّةِ تَقْدِيرِ زَمَنِ الفِعْلِ المنَاسِبِ لِكُلِّ حَالٍ عَلَى حِدَةٍ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَ فِي هَيْئَةِ الحَاجِّ قَدَّرَ الفعل المضَارِعَ، والمعنى: يُرِيدُ مَكَّةَ واللهِ،، وَلَمَّا رَآهُ عَلَى هَذِهِ الهَيْئَةِ بالأَمْسِ قَدَّرَ الفِعْلَ الماضِي، وَمَعْنَاهُ أَرَادَ مَكَّةَ واللهِ، وَكَذَلِكَ لَمَّا رَأَى رَجُلاً يُسَدِّدُ سَهْمًا قِبَلَ القِرْطَاسَ قَدَّرَ الفِعْلَ المضَارِعِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: يُصِيبُ القِرْطَاسَ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ وَقْعَ السَّهْمِ فِي القِرْطَاسِ قَدَّرَ الماضِي، وَكَأَنَّهُ قَالَ: أَصَابَ القِرْطَاسَ. وَهُوَ كَذَلِكَ لَمَّا رَأَى رَجُلاً يَشْرَعُ فِي الفِعْلْ أَوْ أَوْقَعَ فِعْلاً أَوْ أَخْبَرَ عَنْهُ بِفِعْلٍ، جَعَلَ الفِعْلَ المضْمَرَ أَمْرًا أَوْ مُضَارِعًا فِي الاسْتِفْهَامِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: اضْرِبْ زَيْدًا، أَوْ أَتَضْرِبُ زَيْدًا؟.

3- عَدَمُ جَوَازِ إِشَارَةِ المتَكَلِّمِ للمُخَاطَبِ إِلَى نَفْسِهِ:

هَذَا الحُكْمُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَصَوُّرٍ مُسْبَقٍ، يَفْتَرِضُ وُجُودَ مبتدأٍ مَحْذُوفٍ قَبْلَ ضميرِ المخَاطَبِ، هَذَا التَّصَوُّرُ يُمْكِنُ أَنْ يُسَاقَ فِي شَكْلِ تَسَاؤُلٍ عَلَى النَّحْوِ الآتِي: **الأصل في اسم الإشارة أن يكون لِمُشَارٍ إليه حسّيٍّ أو معنويٍّ على اختلاف درجات المشار إليه، ولمَّا كان المشار إليه الحسّيُّ يُشَارُ إليه بـ (هذا) ونحوه تقول: هذا زيدٌ شابًّا لطيفًا، فَلِمَ لا نقول: إنَّ ضمير المخاطَبِ هُنَا خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: (هذا)؟.** يجيب سيبويه عن هذا التساؤل المفترض بأنَّ إقبال المخاطَبِ وحركته تجاه المتكلم وإنصاته قرينة حاليَّةٌ تؤدّي إلى عدم جواز إشارة المتكلم للمخاطَبِ إلى نفسه، فتقول: هذا أنت؛ لأنَّكَ لا تحتاج إلى ذلك، وَإِنَّمَا تُشِيرُ لَهُ إِلَى غَيْرِهِ "أَلَا تَرَى أَنَّكَ لو أَشَرْتَ له إلى شَخْصِهِ فَقُلْتَ: هَذَا أَنْتَ، لَمْ يَسْتَقِمْ"[135]، فهو يَسْتَمِدُّ هَذَا

التعليل من تحليل موقف الإشارة، فقد لاحَظَ أَنَّهُ في كُلِّ خِطَابٍ جِهَاتٌ ثَلاثٌ: المتكَلِّمُ أَو المشِيرُ، والمشَارُ إليه، والمخَاطَبُ أَو المشَارُ لَهُ، ولاحظ سيبويه أَنَّ المخَاطَبَ جهةٌ لازِمَةٌ مِنْ هذهِ الجهاتِ، وَلَكِنَّهُ جهةٌ واحدةٌ، فَلا يَجُوزُ في حُكْمِ التَّحْلِيلِ الخَارِجِيّ للعِبَارَة أَنْ يَكُونَ المخَاطَبُ مُشَارًا إِلَيهِ وَمُشَارًا لَهُ في آنٍ مَعًا[136].

خاتمة البحث:

يمكن أن نوجز نتائج هذا البحث فيما يلي:

1- تندرج لغة الجسد ضمن ما يُسَمَّى اللُّغَة الجانبية أو الأداءات الخارجية المصاحبة للكلام. وتشمل: **الأداءات الصوتية**: مثل: الوقفات، والتنغيم، والتزمين، والإيقاع. **والأداءات غير الصوتية**: مثل: سياق الحال، والحركة الجسديَّة المصاحبة للكلام.

2- تندرج لغة الجسد بوصفها لغة جانبيَّة في مفهوم الكلام عند دي سوسير، والأداء أو اللُّغَة المجسَّدة عند نعوم تشومسكي، حيث الكلام بوصفه أداء أو سلوكًا لغويًّا بشريًّا ضربان: ضربٌ إنتاجيٌّ (produtive) أو كما كان يسمِّيه القدماء أداء نشطًا أو فاعلاً (active)، وهو حين يُنْتِجُ الإِنْسَانَ اللُّغَة، أَيْ حِيْنَ يَكُونُ مُتَكَلِّمًا أَوْ كَاتِبًا وَضَرْبٌ استقباليٌّ (receptive) أو ما كان يسمَّى أداء سلبيًّا (passive) ، وَيَكَادُ الاهتمامُ العِلْمِيُّ أَنْ يَكُونَ مُنْصَبًّا عَلَى الضَّرْبِ الاسْتِقْبَالِيِّ للُغَةِ؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ عَمَلِيَّاتٍ دَاخِلِيَّةٍ كَثِيرَةٍ. هذا الضربُ الإنتاجيُّ للكلامِ تتعدَّدُ وَسَائِلُهُ لَكِنَّهَا تَعُودُ في نهاية الأمر إلى لُغَةٍ صَائِتَةٍ تَعْنِي مجموعةً من الحروف المقطعية الملفوظة المؤتلفة في نسق تركيبي له خصائصه وسماته للدلالة على معنى تركيبي مفيد يعبِّرُ عَمَّا يجول بخاطر المتكلِّم، ولغة صامتة تشمل: الخط، والإشارة وتشمل: الحركات الجسديَّة، وما تدركه الحواس من مواقف وأشياء وملابسات عدَّةٍ تكتنفُ الموقف الكلامي، والعقد، والنصبة (سياق الحال).

3- لغةُ الجَسَدِ ضَرْبٌ مِنَ اللُّغَة الجَانِبِيَّةِ المصَاحِبَةِ للكَلامِ، تَشْمَلُ فِي عُمُومِهَا: الحركاتِ الجَسَدِيَّةَ، وَمَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ، وَتَتَنَوَّعُ مَصَادِرُهَا فَمَرَّةً تَكُونُ مِنْ جَانِبِ المتَكَلِّمِ، وَمَرَّةً تَكُونُ مِنْ جَانِبِ المخَاطَبِ، وَمَرَّةً تَكُونُ حَالَةً مُشْتَرَكَةً عَبْرَ مَوْقِفٍ حَرَكِيٍّ يُمَثِّلُ مَشْهَدًا حَاضِرًا مُدْرَكًا بالحِسِّ.

وهذه اللُّغَة مَهْمَا تَنَوَّعَ مَصْدَرُهَا لَهَا أَثَرٌ فِي إِنْتَاجِ الكَلامِ مِنْ قِبَلِ المتَكَلِّمِ أَوْ تَلَقِّيهِ مِنْ قِبَلِ المخَاطَبِ، والمحَلِّلُ اللُّغَوِيُّ (النَّحْوِيُّ) مُرَاقِبٌ لِهَذِهِ العَمَلِيَّةِ لاسْتِكْنَاهِ المعَانِي البَاطِنَةِ واسْتِخْرَاجِهَا في مَبْنَى التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ الذِي يَدُورُ بَيْنَ المتَكَلِّمِ والمخَاطَبِ.

4-لغة الجسد دليلٌ على الجزء المحذوف من النِّظام اللُّغويِّ عند مقاربتها من منظور إنتاج الكلام؛ ذلك أنَّ اللُّغَةَ كما يقول ابن جني في باب القول على اللُّغَة، وما هي: "أَمَّا اللُّغَة فإنَّها أَصوات يعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم". ولَمَّا كانت اللُّغَة في أصلِ وَضْعِهَا أصواتٌ يعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم، ولَمَّا كان الحذفُ من بنية الكلامِ للاستغناءِ عن المحذوف من أهمِّ المظاهر التي يَتَجَلَّى فيها تَأْثِيرُ استعمالِ المتكلِّم للأنظمةِ العلاماتيَّةِ غيرِ اللَّفْظِيَّةِ -وَمِنْ بَيْنِهَا لُغَةُ الجَسَدِ- في مبنى التركيب ودلالته، كَانَ لابُدَّ للمحلِّل اللُّغويِّ أَنْ يُرَاقِبَ هَذَا التَّغْيِيرَ فِي بِنَاءِ التَّرْكِيبِ وَدِلالَتِهِ فَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ الحَذْفُ، والتَّقْدِيرُ في التَّرْكِيبِ.

5- من الأسباب التي دَعَتِ النُّحَاةُ إلى الاعتدادِ بالجزء المحذوف أو المحذوف من الكلام رَغْمَ أَنَّ بلاغةَ الكلامِ تَقْتَضِي حَذْفَهُ - إضافة إلى نظرتهم للكلام من منظور إنتاج المتكلِّم (المرسِل) لا من منظورِ التَّلقي الذي يقومُ به المخاطَبُ-:

أ- أنَّ المتكلِّمَ قد يَذْكُرُ هَذَا المحذوفَ في مقامٍ وسياقٍ آخَرَ يَسْتَدْعِي إِتْمَامَ الجُمْلَةِ.

ب- نظريَّة العامل بمفهومها التقليدي الذي يتطلب أركانًا ثلاثة متلازمة الوجود هي العامل والمعمول، وأثر العامل في المعمول، فإذا لم يوجد واحد منها أو لَمْ تُوجَدْ كُلُّهَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ من تقديرِ مَا لا وُجُودَ لَهُ مِنْهَا. ويأتي تبعًا لهذه النَّظريَّةِ أيضًا فكرة النُّحاة عن تكوين الجملة، هذه الفكرة القائمة على الإسناد، وتعتمد في الإسناد على ركنين أساسيين لا سبيل إلى إهمالِ أيٍّ منهما، فإذا لم يوجد في الجملة وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَعَيَّنَ عَلَى النُّحَاةِ تَقْدِيرُهُ.

ج- انطلاقُ النُّحاةِ في اعتدادِهم باللَّفْظِ المستقلِّ المفيدِ بالوَضْعِ فَائِدَةً يَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَيْهَا فِي نَظْرَتِهِم لمفْهُومِ الكَلامِ، وَذَلِكَ دُوْنَ غَيْرِهِ مِنْ وَسَائِلِ البَيَانِ مِنْ جِهَاتٍ عِدَّةٍ: دينيَّة، وفلسفيَّة، واجتماعيَّة بيَّنَها الباحث في موضعها من الدراسة.

6- تلتقي نظرة النَّحْوِيِّينَ في تأثير الأنظمة العلاماتيَّة غير اللَّفْظِيَّة-ومنها لغة الجسد في مبنى التركيب ودلالته- مع نظرة المدرسة التوليديَّة التحويليَّة التي تراعي البنى العميقة للجملة أثناء التحليل اللُّغويِّ للمُنْتَجِ اللُّغَوِيِّ الذي يُنْتِجُهُ المتكلِّمُ. بينما نظرت المدرسة البنيويَّة الوصفيَّة إلى المنجز اللُّغَوِيِّ من منظور التَّلَقِّي، والخطابُ هنا تَتَّسِعُ رقعته ومجالاتُه لتشمل كُلَّ مَا أَبَانَ وَأَفْهَمَ مِنَ: اللَّفْظِ، (الكلام المنطوق عبر تقطيع الأصوات وترتيبها على أقدار المعاني والمقامات)، والإشارةِ (حركات الجسد وإيماءاته) والخطِّ (الكتابة)، والعقدِ (الحساب)، والنِّصبةِ (مقام الحال)، وكُلَّ ما سبَقَ يمكن أن يشَكِّل مكوِّنًا خطابيًّا له أصوله، وقواعده،

وإسهاماته في تحصيل جزءٍ من المعنى الكُلِّي للخطاب، وقد تكونُ الخطابَ كُلَّهُ. وهذا الاتجاهُ يلتقي مع نظرة بعض النحويين مثل: الرُّمَّانِيّ، وَبَعْضِ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِم ابنُ عُصْفُورٍ هَذَا الرَّأْيَ، لَكِنَّهُم لم يكوِّنوا الرَّأْيَ الأَقْوَى مقارنة برأي جمهور النحويين.

7- تَجَسَّدَتِ العلاقة بين لغة الجسد، ومبنى التركيب النحوي ودلالته عند سيبويه في عدة مسائل نَحْوِيَة تَنَوَّعَتْ، فَتَنَوَّعَتْ أَضْرُبُهَا، عَلَى ضَرْبَيْن: **الضرب الأَوَّل**: الحكم بوجود محذوف في التركيب وتقديره: انضوى على مسائل عدة من حذف الأسماء، والأفعال، والحروف. **والضرب الثَّاني**: الأحكام المتعلقة بالحذف: وهي أحكام انبنت على القول بوجود محذوف في الجملة وتقديره مراعاة لملابسات الموقف الكلامي ومنها لغةُ الجسدِ، وَمَا تُدْرِكُهُ الحواسُّ.

8- ظَهَرَ جَلِيًّا أَنَّ ثمَّةَ تشابهًا واضحًا بين معالجة كلٍّ من النُّحَاةِ القُدَمَاءِ والتَّحْوِيْلِيّينَ لظاهرة الحذف، وتكمن هذه المشابهة في اعتبارهم القرائن الحاليَّةَ-ومنها لغة الجسد- دلائل على المحذوف من الكلام، وليس نمطًا خاصًّا من الكلام، فالكلام لفظٌ، وما كان غير لفظ فليس بكلام.

المصادر والمراجع

1-أبحاث في فقه اللُّغَة العربية، داود؛ عبده، مكتبة لبنان، بيروت، 1973م.

2- أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته، علم الدين؛ فتحي ثابت، دراسة نصية من القرآن، رسالة دكتوراة من كلية الدراسات العربية والإسلامية، جامعة المنيا، 1994م.

3- الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، أبا عاصي؛ حمدان رضوان، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد السابع عشر، العدد الثاني، يونيو، 2009م.

4- استراتيجيّات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، الشهري؛ عبد الهادي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، 2000م.

5- أسرار البلاغة، الجرجاني؛ عبد القاهر أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، (471)هـ تعليق الأستاذ: محمد عبد العزيز النجار ، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، 1977م. ، وطبعة أخرى، تحقيق: ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول، 1979م.

6- الإشارات الجسديّة دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، حسام الدين كريم زكي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1991م.

7- الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي؛ جلال الدين عبد الرحمن (911هـ)، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة.ط1.

8- أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللُّغَة الحديث، محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، 1978م.

9- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللُّغَة العربية (النظرية الألسنية)، زكريا؛ ميشال، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1982م.

10-البرهان في وجوه البيان، ابن وهب؛ أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، مطبعة الرسالة، مصر، 1969م.

11-البيان والتبيين، الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ)، تحقيق وشرح عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، 1405هـ

12-التفكير البلاغي، صمود؛ حمادي، منشورات الجامعة التونسية، ط1، 1981م.

13- التفكير اللِّسَانيَ في الحضارة العربية، المسدي؛ عبد السلام، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981م.

14-توظيف سياق الحال في فهم المعنى عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، حسين؛ زعطوط، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلية الآداب واللُّغَات، قسم اللُّغَة والأدب العربي، رسالة دكتوراه، إشراف: عبد المجيد عيساني، 2012م-2013م.

15- جسد الإنسان وا لتعبيرات اللُّغَوِيّة دراسة دلاليّة، داود؛ محمد محمد، دار غريب، ط1، 2007م.

16- الحذف والتقدير في النحو العربي، أبو المكارم؛ علي، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007م.

17- حيَ بن يقظان، ابن طفيل؛ أبو بكر محمد بن عبد الله، تحليل ودراسة جميل صليبا وكامل عيِاد، مطبعة جامعة دمشق، 1962م.

18-الخصائص، ابن جني؛ أبو الفتح عثمان بن جني (392هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1952م.

19- دراسات في علم اللُّغَة، القسم الثاني، بشر؛ كمال، دار المعارف، القاهرة، ط (2)، 1971م.

20- دراسات في علم اللُّغَة، المحجوب؛ فاطمة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.

21- دلائل الإعجاز ، الجرجاني؛ عبد القاهر، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مكتبة المدني، مصر، القاهرة، 1984م.

22- دور الكلمة في اللُّغَة، أولمان؛ استيفن، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب ، مصر، 1986م.

23-الرؤية البيانية عند الجاحظ، إدريس بلمليح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1984م.

24- سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة، العوادي؛ أسعد خلف، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2011م.

25- شرح الإيضاح للفارسي، ابن عصفور، قطعة مخطوطة من الكتاب موجودة بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، برقم: (11703ف) ضمن مجموع غير معنون.

26- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام الأنصاري؛ جمال الدين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1960م.

27-شرح المفصل، ابن يعيش؛ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (643هـ)، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.

28- العقد الفريد، ابن عبد ربه؛ أحمد بن محمد، تحقيق: عبد المجيد الرحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1404هـ، 1982م. وطبعة أخرى تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروتت، لبنان، ط1، 1383م.

29- فصول في علم اللُّغَة العام، دي سوسير؛ فرديناند، ترجمة: أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985م.

30- فصول في علم اللُّغَة، الراجحي؛ عبده، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1997م.

31-كتاب الحيوان، الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط1، 1416هـ -1996م.

32- الكليات، الكفوي؛ أبو البقاء أيوب بن موسى، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2011م.

33-اللُّغَة العربية معناها ومبناها، حسان؛ تمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

34- لغة الجسد ودورها في الإبانة: نماذج من التراث اللُّغَوِيِّ والأدبي، عرار؛ مهدي أسعد، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 33، العدد (1)، 2006م.

35- لغة الجسد في التراث العربي، الجبر؛ خالد عبد الرؤوف، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد السادس والثلاثون 0(2)- جزيران، 2015م.

36- مدخل إلى علم اللُّغَة، حجازي؛ محمود فهمي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط. (2)، 1987م.

37-مراعاة المخاطب في النحو العربي، الخفاجي؛ بان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م.

38- المرجعية التواصلية لمفهوم الكلام، يحياوي؛ رشيد، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 32، شوال 1433هـ، سبتمبر 2012م.

39- المعرفة اللُّغَوِيَّة: طبيعتها وأصولها واستخدامها، تشومسكي؛ نعوم، ترجمة: محمد فتيح، دار الفكر العرب، القاهرة، مصر، ط1، 1993م.

40- مفهوم الجملة عند سيبويه، الأسدي؛ حسن عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

41-المقتضب، المبرد؛ محمد بن يزيد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، ط2، 1399هـ - 1979م.

42- المقرب، ابن عصفور؛ علي بن مؤمن (669هـ)، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط1، 1971م.

43- المنطق من كتاب الشفاء، ابن سينا، الجزء الثالث، العبارة، تحقيق: محمود الخضري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1970م.

44- النحو العربي والدرس الحديث "بحث في المنهج"، الراجحي؛ عبده، دار النهضة، بيروت، 1979م.

45- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللُّغَوِيِّ الحديث، الموسى؛ نهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، سنة 1400- 1980م.

46- النكت في تفسير كتاب سيبويه، الأعلم الشنتمري؛ يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي (476هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط1، 1407- 1987م.

(1) الشهري؛ عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب؛ مقاربة لغويّة تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، 2000م، ص: 34.

(2) انظر: أبا عاصي؛ حمدان رضوان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد السابع عشر، العدد الثاني، يونيو، 2009م، ص: 58.

(3) انظر: الراجحي؛ عبده، فصول في علم اللُّغَة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1997م، ص:88، وأبا عاصي؛ حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 59.

(4) انظر: أبا عاصي؛ حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 59.

(5) انظر: أبا عاصي؛ حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 59.

(6) انظر: الراجحي؛ عبده، فصول في علم اللُّغَة، ص:89-92، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 59-60.

(7) انظر: الراجحي؛ عبده، فصول في علم اللُّغَة، ص: 92، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 60.

(8) فرّق العالم السويسري (دي سوسير) بين مصطلحات ثلاثة: اللُّغَة بمعناها العام بوصفها ظاهرة اجتماعيّة، واللُّغَة المعينة كالعربية والإنجليزية مثلاً.والكلام بوصفه نشاطًا عضليًا صوتيا فرديًا. فاللُّغَة أنظمة من الرموز يستدعيها حدوث الكلام الفعلي، يشترك فيها المتكلم بصورة إيجابية بسبب

كونه منتجًا للكلام والمخاطَب بصورة سلبية بسبب كونه مستقبلاً ومتلقيًا. أمّا الكلام الذي هو القيام بعمليّة التكلُّم، فيستدعي صورَ الكلمات والرُّموزَ الأخَر التي انْطَبَعَتْ في أذهانِ كُلِّ المتكلمين، ومن ثم يتم ترجمتها إلى أصوات فعْليّةٍ واضحة المعنى، انظر: دي سوسير، فرديناند، فصول في علم اللُّغَة العام، ترجمة: أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985م، ص: 38-39، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 60-61 . ويرى (استيفن أولمان) أنَّ اللُّغَةَ ثابتةٌ مستقرَةٌ، والكلام عابرٌ سريعُ الزَّوَالِ، وأنَّ اللُّغَةَ تُفْرَضُ علينا من الخارج، في حين أنَّ الكلام نشاطٌ متعمدٌ مقصودٌ، فاللُّغَةُ اجتماعيّةٌ، والكلامُ فرديٌّ، واللُّغَةُ نظامٌ من الرموز الصوتية المخزونة في أذهان أفراد الجماعة اللُّغَوِيَّة بينما الكلامُ نشاطٌ مُتَرْجِمٌ لهذه الرموز الموجودة بالقوَّة إلى رموزٍ فعليّةٍ حَقيقيّة. انظر:أولمان؛ استيفن، دور الكلمة في اللُّغَة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب ، مصر، 1986م، ص: 32-33، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 61.

(9) مـمَّن فرَّق بين مفهومي الكلام واللُّغَة مؤسس المدرسة التوليدية (نعوم تشومسكي) حيث أَطْلَقَ على مفهوم اللُّغَة مصطلح الكفاية اللُّغَوِيَّة (competence)،وَأَطْلَقَ عَلَى مفهوم الكلام مصطلح الأداء (performance)، أمّا مصطلح الكفاءة اللُّغَوِيَّة، فيعني قدرة المتَكَلِّم عَلَى الجمع بَيْنَ الأَصْوَاتِ اللُّغَوِيَّة وَمَعَانيهَا الضِّمْنيَّة في نسقٍ وَثيقٍ مَعَ قَوَاعد لُغَته أَوْ هُوَ مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ الضَّمْنيّة بِقَوَاعد لُغَته التي تَقُودُ عَمَليَّةَ التَّكَلُّم، انظر:زكريا؛ ميشال، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللُّغَة العربية (النظرية الألسنية) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1982م، ص: 33، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 61. أما مصطلح الأداء فيعني استعمالَ اللُّغَة في مواقفَ حَقيقيّة، فَهُوَ استعمالٌ آنيٌّ للُغَة ضِمْنَ سياقٍ معيّنٍ، ثُمَّ استبدل تشومسكي هذين المصطلحين بعد تطوير نظريته بخروج كتابه (المعرفةُ اللُّغَوِيَّةُ) عام 1986م، بمصطلح اللُّغَة المبنيَة داخليا (internalized) بديلاً للكفاية اللُّغَوِيَّة ومصطلح اللُّغَة المجَسَّدَة (externalized language) بديلاً للأَدَاء. حيثُ يَرَى أَنَّ النَّظَرِيَّةَ التَّوْليديَّةَ اهتَمَّتْ باللُّغَة المبنية داخليًا، وكيف يَتمُّ ترجمتها عبر الأداءات المختلفة من قبل جماعة المتكلمين في مواقف معينة، وأَنَّ المنهج الوَصْفيَّ البنيويَّ اهْتَمَّ بالأَدَاء، وَصَاغَ قَوَاعدَهُ عَلَى أَسَاسِ هَذَا المفْهُومِ بِغَضِّ النَّظَرِ عن اللُّغَة النِّظَاميَّة أَوْ لُغَة العَقْلِ أَوِ لُغَة الكَفَاءَة اللُّغَوِيَّة، انظر: تشومسكي؛ نعوم، المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة: محمد فتيح، دار الفكر العرب، القاهرة، مصر، ط1، 1993م، ص: 77-78، 80-82، وأبا عاصي؛ حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 61-62.

(10)انظر: الراجحي؛ عبده، فصول في علم اللُّغَة، ص:162، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص:62.

(11) يرى بعض الباحثين أنَّ الرسالة التي يودُّ الإنسان تبليغها لغيره ينقسم تأثيرها وتتوزَّع فحواها في ثلاثة أقسام أساسية هي ما يخرج من المجرى الصائت ونسبته 7%، وما يطرأ على هذا المجرى من تنغيمٍ، ونبرٍ، وتلوّنات، وتداخلات صوتية، ونسبته 18 %، وتبقى النسبة الكبرى البالغة لمَا يخرج من المجرى الصامت للرسالة، وَيَرى بعضهم في مثل توزيع هذه الأقسام الثلاثة رَأيًا قريبًا، فنسبة الكلام في المحادثة المباشرة تستغرق35% من الرسالة، أمَّا النِّسبة الكبرى فتتعيَّن بالأداءات المصاحبة للكلام نفسه، أي: بالحركات والإيماءات، وتبلغ نسبتها من الرسالة 65%، انظر: عرار؛ مهدي أسعد، لغة الجسد ودورها في الإبانة: نماذج من التراث اللغوي والأدبي، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 33، العدد (1)، 2006م، ص: 107، والجبر؛ خالد عبد الرؤوف، لغة الجسد في التراث العربي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد السادس والثلاثون 0(2)- جزيران، 2015م ، ص: 19.

(12) فمـمَّا كان مصدره المتكلّم ما يعمد إليه المتكلّم من حذف المبتدأ اعتمادًا على القرائن الحالية المصاحبة للكلام والمرتبطة بحاسة من الحواس الخمس، يقول سيبويه: "وذَلكَ أَنَّكَ رَأَيْتَ صُورَةَ شَخْصٍ فَصَارَ آيةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَة الشَّخْص فَقُلْتَ: عَبْدُ الله وربِّي، كَأَنَّكَ قُلْتَ: ذَلكَ عَبْدُ الله، أَوْ هَذَا عَبْدُ الله. أو سَمِعْتَ صَوتًا فَعَرَفْتَ صَاحبَ الصَّوْت فَصَارَ آيةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَته فَقُلْتَ: زَيدٌ وربي. أَوْ مَسَسْتَ جَسَدًا، أَوْ شَمِمْتَ ريحًا فَقُلْتَ: زَيْدٌ أَوِ المسكُ. أَوْ ذُقْتَ طَعَامًا فَقُلْتَ: العَسَلُ. وَلَوْ حُدِّثْتَ عَنْ شمائلِ رَجُلٍ فَصَارَ آيةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَته لَقُلْتَ: عَبْدُ الله. كَأَنَّ رَجلاً قَالَ: مررتُ بِرَجُلٍ رَاحِمٍ للمَسَاكينِ بَارٍّ بِوَالدَيه، فَقُلْتَ: فُلانٌ وَالله"، سيبويه؛ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت: 180هـ، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م، 2: 130. وَمـمَّا كَانَ مَصْدَرَهُ المخَاطَبُ مَا أَجَازَهُ سيبويه نَحْوُ حَذْف الكَاف من اسم الفعل (رُوَيْدَكَ)، "استغناء بِعلْمِ المخَاطَبِ أَنَّهُ لا يعني غيره"، سيبويه، الكتاب، 1: 244. والمعروف أنَّ (الكاف) إنّما تَلْحَقُ (رُوَيْدًا) "لتُبَيِّنَ المخَاطَبَ المخصوصَ؛ لأنَّ (رُوَيْدَ) تقع للواحد والجميع، والمذكر والأنثى، فإنّما أَدْخَلَ الكافَ حين خَافَ التباسَ مَنْ يَعْني. بِمَنْ لا يَعْني" سيبويه، الكتاب، 1: 244. وهكذا التفت سيبويه إلى أنَّ لموقف الخطاب حالات مُتَبَاينَة، وَتَنَبَّهَ إلى أنَّ العبارة اللغوية تتباين على قدر ذلك. فإذا كُنْتَ تَسْتَمْهِلُ رَجلاً على حدة رأيته يعالج شيئًا قُلْتَ: رُوَيْدًا، أمّا إذا كُنْتَ تَسْتَمْهِلُ رَجُلاً في جَمَاعَة، فَإِنَّكَ تَقُولُ: رُوَيْدَكَ، وكذلك إذا كُنْتَ تَسْتَمْهِلُ امرأةً في جماعة فَإِنَّكَ تَقُولُ: رُوَيْدَك.. إلخ، انظر: الموسى؛ نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، سنة 1400-1980م، ص: 95. هذا، ويستطرد سيبويه فيقول: "فَلَحَاقُ الكَاف، كَقَوْلكَ: يَا فُلانُ، للرَّجُلِ حَتَّى يُقْبِلَ عَلَيكَ، وَتَركها كَقَوْلكَ للرَّجُلِ: أَنْتَ تَفْعَلُ، إِذَا كَانَ مُقْبِلاً عَلَيكَ بِوَجْهِه مُنْصتًا لَكَ. فَتَرَكْتَ يَا فُلانُ، حينَ قُلْتَ: أَنْتَ تَفْعَلُ؛ اسْتغْنَاءً بِإِقْبَاله عَلَيكَ. وَقَدْ تَقُولُ أَيْضًا: رُوَيْدَكَ، لمَنْ لا يُخَافُ أَنْ يَلْتَبِسَ بِسواهُ، تَوْكيدًا، كَمَا تَقُولُ للمُقْبِلِ عَلَيكَ المنْصت لَكَ: أَنْتَ تَفْعَلُ ذَاكَ يَا فُلانُ، تَوْكيدًا"، سيبويه، الكتاب، 1: 244. فلقد جعل سيبويه لغةَ جسد المخَاطَبِ وَمَا تُعَبِّرُ عنه من إقباله بوجهه على المتكلّم وإنصاته إلى المتكلّم مسوغًا لحذف الكاف من (رُوَيْدَكَ)؛ لأنَّ حَالَ المخَاطَبِ يُغْني عَنْ لحاق الضميرِ به، وَشَبَّهَهُ بِحَذْف حَرْف النِّدَاء اكتفاءً بإقبالِ المنَادَى على المتكلّم فَيَقُولُ المتكلّمُ للمخَاطَبِ: (أَنْتَ تَفْعَلُ) وَيَسْتَغْني عَنْ قَوْله للمُخَاطَبِ: يَا فُلانُ. ومـمَّا كان لغةً مشتركةً بين المتكلّم والمخَاطَبِ ما أجازه سيبويه من حذف الفعْلِ المستعمل إظهاره في غير الأمر والنَّهْي "وَذَلكَ قَوْلُكَ، إِذَا رَأَيْتَ رجلاً مُتَوَجِّهًا وِجْهَةَ الحَاجِّ، قَاصدًا في هَيْئَة الحَاجِّ، فَقُلْتَ: مَكَّةَ وربِّ الكعبة. حيث زَكنْتَ أَنَّهُ يريدُ مَكَّةَ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: يُريدُ مَكَّةَ والله. ويجوز أن تَقُولَ: مَكَّةَ والله، على قولك: أَرَادَ مَكَّةَ والله، كَأَنَّكَ أَخْبَرْتَ بهذه الصفة عنه أَنَّهُ كَانَ فيها أَمْس فَقُلْتَ: مَكَّةَ والله، أي: أَرَادَ مَكَّةَ إِذْ ذَاكَ... أَوْ رَأَيْتَ رَجُلاً يُسَدِّدُ سَهْمًا قبَلَ القرْطَاس، فَقُلْتَ: القرْطَاسَ والله، أَيْ: يُصيبُ القرطَاسَ، وَإِذَا سَمِعْتَ وَقْعَ السَّهْمِ في القرْطَاس قُلْتَ: القرْطَاسَ والله، أَيْ: أَصَابَ القرْطَاسَ. ولو رَأَيْتَ ناسًا ينظرون الهِلالَ، وَأَنْتَ منْهُمْ بَعيدٌ، فَكَبَّروا لَقُلْتَ: الهلالَ وربِّ الكعبة أي: أبصروا الهلال. أَوْ رَأَيْتَ ضَرْبًا، فَقُلْتَ على وجه التفاؤل: عَبْدَ الله، أي: يَقَعُ بعبد الله أو بعبد الله يكون. ومثل ذلك أَنْ تَرَى رَجُلاً يريد أن يُوْقعَ فعلاً، أو رَأَيْتَهُ في حالِ رَجُلٍ قَدْ أَوْقَعَ فعلاً، أو أَخْبَرْتَ

عنه بفعلٍ، فتقولُ: زَيْدًا. تُرِيدُ: اضْرِبْ زَيْدًا، أَوْ أَتَضْرِبُ زَيْدًا. وَمِنْهُ أَنْ تَرَى الرَّجلَ أَوْ تُخْبِرَ عنه أنه قد أَتَى أَمْرًا قَدْ فَعَلَهُ فَتَقُولُ: أَكُلَّ هَذَا بُخْلاً، أَيْ: أتفعلُ كُلَّ هذا بخلاً، وَإِنْ شِئْتَ رَفَعْتَهُ فَلَمْ تَحْمِلْهُ عَلَى الفعْلِ، وَلَكِنَّكَ تَجْعَلُهُ عَلَى المبْتَدَأ"، سيبويه، االكتاب، 1: 257 – 258. كُلّ هذه المواقف التي عرضها سيبويه في هذا النص أَجَازَ فيهَا أَنْ يَكْتَفِيَ المتكلِّمُ بنطقِ كلمةٍ واحدةٍ في سياقات مختلفة، وَعَدَّهَا كلامًا مقبولاً؛لأَنَّ الموقف الذي قيلت فيه كفيلٌ بإيضاح المقصود، وسياق الموقف رابطٌ أَصيلٌ بين المتكلم والمخاطَب في علاقة تواصلية متلائمة، انظر: العوادي؛ أسعد خلف، سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2011م، ص: 144. وَيَتَّضِحُ من هذه النصوص بيان أثر حاسّة المتكلِّم وَمَا يُدْرِكُهُ بواسطتها من حركة جسد المخاطب وما يَقُومُ به على التركيب النَّحْوِيِّ، فلغة الجسد مشتركة هنا بين المتكلم والمخاطب.

(13)يَقُولُ الجَاحِظُ: "البَيَانُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ قِنَاعَ المعْنَى، وَهتَكَ الحجَابَ دُوْنَ الضّمِيرِ، حَتَّى يُفْضِي السَّامِعُ إلى حَقِيْقَته، وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِه كَائِنًا مَا كَانَ ذَلِكَ البَيَانُ، وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانَ الدَّلِيلُ؛ لأَنَّ مَدَارَ الأَمْرِ والغَايَةُ التي إِلَيْهَا يَجْرِي القَائِلُ والسَّامِعُ، إِنَّمَا هُوَ الفَهْمُ وَالإِفْهَامُ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ الإِفْهَامَ وَأَوْضَحْتَ عَنِ المعْنَى، فَذَلِكَ هُوَ البَيَانُ فِي ذَلِكَ الموْضِعِ"، الجاحظ؛ أَبو عثمان عمرو بن بحر، البيان، التبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، 1: 76

(14)يقول الكفوي: "الدلالة قائمة في صنفين: دلالة لفظيّةٌ، وغير لفظيّة، وكلٌّ منهما إمَّا أن تكون وضعيّةً أو عقليّةً أو طبيعيّةً، فالدلالة اللَّفْظيّة الوضعيّة دلالة الألفاظ الموضوعة على مدلولاتها واللَّفْظيّة كدلالة اللَّفْظ على اللافظ والطبيعيّة كدلالة (أخ) على الوجع، أمّا الدلالة غير اللَّفْظيّة الوضعيّة فهي دلالات المطابقة، والتضمن، والالتزام، والنصبة، والعقليّة كدلالة المصنوعات على الصّانع والطبيعيّة كدلالة الحمرة على الخجل والصفرة على الوجل"، الكفوي؛ أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2011م، ص: 367.

(15) انظر: ابن هشام الأنصاري؛ جمال الدين، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1960م، ص: 27-29.

(16) الكفوي؛ أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، ص: 637.

(17) انظر: الكفوي؛ أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، ص: 598.

(18) الجرجاني؛ عبد القاهر بن محمد، أسرار البلاغة، تحقيق: ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول، 1979م، ص: 48-49.

(19) الجرجاني؛ عبد القاهر بن محمد، أسرار البلاغة، ص: 50.

(20) انظر: الجرجاني؛ عبد القاهر بن محمد، أسرار البلاغة، ص: 50.

(21) ابن طفيل؛ أبو بكر محمد بن عبد الله حيّ بن يقظان، تحليل ودراسة جميل صليبا وكامل عيّاد، مطبعة جامعة دمشق، 1962م، ص: 135. فالمتكلِّمُ بذلك يمتلك وسائل للتعبير عن مقاصده وأغراضه وإذا كانت اللُّغَةُ مهتمةً بالتركيب اللَّفْظِيِّ للأصوات بائتلافها الدَّال على الدِّلالات اللغوية التي يصطلح النَّاسُ عَلَيْهَا فَإِنَّ الإنسانَ يمتلكُ وسائلَ أُخَرَ غير لفظيَّة أو غير لغويَّة تؤدي وظيفَة التواصل بصورة عامة ولعلَّها أسبق من وسائل التعبير اللَّفْظيّة أو اللغوية التركيبية، انظر: الجبر؛ خالد عبد الرؤوف، لغة الجسد في التراث العربي، ص: 18. وتنقسم هذه الوسائل غير اللَّفْظيّة إلى أنظمة دلاليَة عضويَّة تتخذ من "جسم الإنسان علامات؛لأَنَّ الإنسانَ يستخدم أعضاءَ جسمه، بل جسمه كلَّه- في التواصل مع الآخرين: إنَّه يتكلَّم بلسانه، وتحمل حركاته وإشاراته دلالات يمكن أن تكون مفهومة مثل كلمات اللُّغَة"، داود؛ محمد محمد، جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية دراسة دلاليّة، دار غريب، ط1، 2007م، ص: 7، وانظر : حسام الدين كريم زكي، الإشارات الجسديّة دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1991م، ص: 26.

(22) انظر: الجاحظ؛ أبا عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، 1: 81.

(23) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 79.

(24) إذ إِنَّهُمَا شَرِيكَانِ، وَنِعْمَ العَوْنُ هِيَ لَهُ، وَنِعْمَ التَّرْجُمَانُ هيَ عَنْهُ، وَتَارَةً تَكُونُ رُتْبَةُ الإِشَارَةِ سَبّاقَةً لِرُتْبَةِ اللَّفْظِ؛إِذْ بِهَا يَتَخَلَّقُ المعْنَى، وَتَتَعَيّنُ المقَاصِدُ، فَمَبْلَغُ الإِشَارَةِ أَبْعَدُ مِنْ مَبْلَغِ الصَّوْتِ، وَهَذَا بَابٌ تَتَقَدَّمُ فيه الإِشَارَةُ الصَّوْتَ، نظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 78-79.

(25) حيث يرى أَنَّ الإشارة باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وباالسيف والثوب كذلك، أمّا إذا تقارب الشخصان ففي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمورٍ يُمَيِّزُهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ بَعْضٍ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارةُ لَمْ يَتَفَاهَمْ النَّاسُ مَعْنَى خَاصِّ الخَاصِّ، انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 77-78.

(26) الجاحظ، رسائل الجاحظ، من رسالة الجد والهزل، 1: 262-263.

(27) الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 78.

(28) الجاحظ، البيان والتبيين، 3: 455.

(29) انظر: إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند االجاحظ، دار الثقافة، للنشر والتوزيع، 1984م، ص: 127.

(30) الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل،ط1، 1416هـ -1996م، 4: 394.

(31) الجاحظ، البيان والتبيين، 3: 12.

(32) انظر: ابن جني؛ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1952م، 2: 362.

(33) ابن جني، الخصائص، 2: 370.

(34) ابن جني، الخصائص، 2: 371.

(35) ابن جني، الخصائص، 2: 371.

(36) انظر: ابن جني، الخصائص، 2: 371.

(37) انظر: ابن جني، الخصائص، 2: 371.
(38) ابن وهب؛ أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، مطبعة الرسالة، مصر، 1969م، ص: 113.
(39) انظر: عرار؛ مهدي أسعد، لغة الجسد ودورها في الإبانة، ص: 107.
(40) انظر: عرار؛ مهدي أسعد، لغة الجسد ودورها في الإبانة، ص: 107-108.
(41) انظر: المحجوب؛ فاطمة، دراسات في علم اللُّغَة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م، ص: 109، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 82.
(42) انظر: الراجحي؛ عبده، فصول في علم اللُّغَة ، ص:99-105، وأبا عاصي، حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 82.
(43) انظر: أبا عاصي؛ حمدان، الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، ص: 82 -83.
(44) ابن جني، الخصائص، 1: 33.
(45) الجاحظ، البيان و التبيين، 1: 79.
(46) الجاحظ، الحيوان، 1: 47.
(47) انظر: الجاحظ، البيان و التبيين، 1: 19، 21، 47، 52، 71، 147، والحيوان، 1: 117، 288، 4: 21، 275، 7: 57.
(48) انظر: الجاحظ، الحيوان، 1: 42، 48، 50، والبيان والتبيين، 1: 56، 57، 74، 134، 186.
(49) انظر: الجاحظ، البيان و التبيين، 1: 13، 36، 53، 63، 139، 157، 180، والحيوان، 4: 404، 6: 50، 7: 35، 49، 50، 57، 58.
(50) الجاحظ، الحيوان، 7: 57.
(51) انظر: الجاحظ، الحيوان، 1: 90.
(52) الجاحظ، الحيوان، 1: 48.
(53) الجاحظ، الحيوان، 7: 5-6.
(54) الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 138-139.
(55) انظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مكتبة المدني، مصر، القاهرة، 1984م، ص:52.
(56) انظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز ، ص:49.
(57) أي: الكفاءة اللغوية بتعريفها الأقوى عند تشومسكي (النحو العام).
(58) حسب السياق ومقتضياته وهنا يلتقي نوعان من الكفاءة، الأول: الكفاءة اللغوية بتعريفها الأضعف عند تشومسكي (النحو الخاص) الذي يشمل ثلاثة أنواع من القدرات اللغوية: القدرة التركيبية والقدرة الدلالية والصوتيمية، والثاني: الكفاءة الاتصالية أو التواصلية عند أصحاب اللسانيات الاجتماعية والتداوليين اليوم وتضافر الكفاءات الثلاث: الكفاءة اللغوية بتعريفها الأقوى عند تشومسكي (النحو العام)، والكفاءة اللغوية بتعريفها الأضعف عند تشومسكي (النحو الخاص)، والكفاءة التواصلية عند الاجتماعيين والتداوليين دليل على بلاغة العرب وفصاحتها وقوة بيانها، انظر:أحمد عارف حجازي، علاء محمد شلقامي، عبد المنعم السيد أحمد، مختصر في المناهج اللغوية الحديثة، ص: 35-65.
(59) لعدم أهميته أو تأثيره في إيصال الرسالة.
(60) الرماني؛ علي بن عيسى (384هـ)، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: محمد إبراهيم يوسف شيبة، إشراف: د. أحمد مكي الأنصاري، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، 1415هـ ، 2: 545-546.
(61)الرماني، شرح كتاب سيبويه، 2: 546.
(62) ابن عصفور؛ شرح الإيضاح للفارسي، قطعة مخطوطة من الكتاب موجودة بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، برقم: (11703 ف) ضمن مجموع غير معنون، لوحة: ، ويرى ابن عصفور أنَّ الصحيح أنَّ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الـمُرَكَّبِ تَقْدِيْرًا، انظر:ابن عصفور، علي بن مؤمن (669هـ)، المقرب، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، مكتبة الفَيصلَيَّة، مكة المكرمة، ط1، 1971م، 1: 45.
(63) ابن جني، الخصائص، 1: 109- 110.
(64) ابن جني، الخصائص، 1: 17.
(65) ابن جني، الخصائص، 1: 23.
(66) ابن عصفور؛ علي بن مؤمن (669هـ)، شرح الإيضاح للفارسي، قطعة مخطوطة ، لوحة: 46، وانظر: ابن عصفور، علي بن مؤمن (669هـ)، المقرب، 1: 45.
(67) انظر: أبو المكارم؛ علي، الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007م، ص: 357.
(68) انظر: ابن عبد ربه؛ أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الرحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1404هـ، 1982م، 4: 189، والمسدي، عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م، ص: 46، وصمود، حمادي، التفكير البلاغي، منشورات الجامعة التونسية، ط1، 1981م، ص: 165.
(69) ابن عبد ربه؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروتت، لبنان، ط1، 1383م، 4: 271، وانظر: يحياوي، رشيد، المرجعية التواصلية لمفهوم الكلام، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي ، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 32، شوال 1433هـ سبتمبر 2012م، ص:10.

(70) ابن سينا، المنطق من كتاب الشفاء، الجزء الثالث، العبارة، تحقيق: محمود الخضري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1970م، ص:2.

(71) يحياوي؛ رشيد، المرجعية التواصلية لمفهوم الكلام، ص:12.

(72) انظر: حسان؛ تمام، اللُّغَة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص: 181-182.

(73) انظر: كمال بشر، دراسات في علم اللُّغَة، دار المعارف، القاهرة، ط (2)، 1971م، القسم الثاني، ص: 55-57.

(74) انظر: حجازي؛ محمود فهمي، مدخل إلى علم اللُّغَة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط. (2)، 1987م، ص: 66-70.

(75) انظر: عيد؛ محمد، أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللُّغَة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1978م، ص: 66-67.

(76) حسان؛ تمام، اللُّغَة العربية معناها ومبناها، ص: 178.

(77) انظر: حسان؛ تمام، اللُّغَة العربية معناها ومبناها، ص: 182-183.

(78) انظر: الراجحي؛ عبده، النحو العربي والدرس الحديث، ص: 143-158.

(79) الراجحي؛ عبده، النحو العربي والدرس الحديث، ص: 114.

(80) انظر: الراجحي؛ عبده، فقه اللُّغَة في الكتب العربية، ص: 158-159.

(81) عبده؛ داود، أبحاث في فقه اللُّغَة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1973م، ص: 23.

(82) عبده؛ داود، أبحاث في فقه اللُّغَة العربية، ص: 23.

(83) عبده؛ داود، أبحاث في فقه اللُّغَة العربية، ص: 23.

(84) انظر: داود عبده، أبحاث في فقه اللُّغَة العربية، ص: 26.

(85) سيبويه، الكتاب، 2: 130.

(86) انظر: الموسى؛ نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، سنة 1400-1980م، ص: 90، وعلم الدين؛ فتحي ثابت، أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته، دراسة نصية من القرآن، رسالة دكتوراة من كلية الدراسات العربية والإسلامية، جامعة المنيا، 1994م، ص: 18، وأبا المعاطي؛ كمال سعد، دلالة الحال ودورها في الدراسات النحوية، رسالة ماجستير بدار العلوم، جامعة القاهرة، 1990م، ص:9.

(87) سيبويه، الكتاب، 3: 269.

(88) سيبويه، الكتاب، 1: 220.

(89) ابن جني، الخصائص، 2: 370.

(90) ابن جني، الخصائص، 2: 371.

(91) سيبويه، الكتاب، 1: 270.

(92) سيبويه، الكتاب، 1: 296-297.

(93) سيبويه، الكتاب، 1: 270- 273.

(94) ابن يعيش؛ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (643هـ)، شرح المفصل، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت، 1: 254.

(95) يقصد باب ما جرى منه على الأمر والتحذير، انظر: سيبويه، الكتاب، 1: 273.

(96) يقصد باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره في غير الأمر والنهي، انظر: سيبويه، الكتاب، 1: 290.

(97) سيبويه، الكتاب، 1: 296-297.

(98) سيبويه، الكتاب، 1: 327.

(99) الرماني؛ علي بن عيسى (384هـ) شرح كتاب سيبويه، 2: 545-546.

(100) الرماني، شرح كتاب سيبويه، 2: 546.

(101) سيبويه، االكتاب، 1: 257 – 258.

(102) انظر: الخفاجي؛ بان، مراعاة المخاطب في النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ص: 91.

(103) انظر: الأسدي؛ حسن عبد الغني، مفهوم الجملة عند سيبويه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص: 206.

(104) انظر: الأسدي، مفهوم الجملة عند سيبويه، ص: 206-207.

(105) سيبويه، الكتاب، 1: 253 – 254.

(106) انظر: ابن الناظم؛ أبو عبد الله بدر الدين، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، ص: 432، والرضي؛ رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباي (686هـ)، شرح الرضي على الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، ط2، 1998م، 2: 5-8.

(107) انظر: ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، ص: 432، والرضي، شرح الكافية، 2: 5-8.

(108) سيبويه، الكتاب، 1: 273.

(109) انظر: سيبويه، الكتاب، 1: 273، والمبرد، محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، ط2، 1399هـ - 1979م، 3: 215، والأنباري، أسرار العربية، ص: 102، وابن يعيش، شرح المفصل، 2: 312- 313.

(110) انظر: الرضي، شرح الكافية، 2: 7.
(111) سيبويه، الكتاب، 1: 275.
(112) سيبويه، الكتاب، 1: 275.
(113) انظر هذا النص في: السيوطي؛ جلال الدين عبد الرحمن (911هـ)، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة،ط1، 1: 307.
(114) الرضي، شرح الكافية، 2: 8.
(115) سيبويه، الكتاب، 1: 338.
(116) سيبويه، الكتاب، 1: 339.
(117) سيبويه، الكتاب، 1: 355-356.
(118) انظر: الخفاجي؛ بان، مراعاة المخاطب في النحو العربي، ص: 95.
(119) سيبويه، الكتاب، 1: 361-362.
(120) سيبويه، الكتاب، 1: 340-341.
(121) انظر: حسين؛ زعطوط، توظيف سياق الحال في فهم المعنى عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللُّغَة والأدب العربي، رسالة دكتوراه، إشراف: أ.د عبد المجيد عيساني، 2012م-2013م، ص: 206.
(122) سيبويه، الكتاب، 1: 343-345.
(123) انظر: حسين؛ زعطوط، توظيف سياق الحال في فهم المعنى عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، ص: 206.
(124) سيبويه، الكتاب، 1: 244.
(125) سيبويه، الكتاب، 1: 244.
(126) انظر: الموسى؛ نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، سنة 1400-1980م، ص: 95.
(127)سيبويه، الكتاب، 1: 244.
(128) انظر: سيبويه، الكتاب، 1: 245.
(129) سيبويه، الكتاب، 2: 232.
(130) سيبويه، الكتاب، 2: 208.
(131) سيبويه، الكتاب، 2: 230.
(132) الأعلم الشنتمري؛ يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي (476هـ)، النكت في تفسير كتاب سيبويه، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط1، 1407- 1987م، 1: 556.
(133) سيبويه، الكتاب، 1: 254 – 255.
(134) انظر: حسين؛ زعطوط، توظيف سياق الحال في فهم المعنى عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، ص: 210.
(135) سيبويه، الكتاب، 1: 141.
(136) انظر: الموسى؛ نهاد، نظرية النحو العربي، ص: 92.

النقل والعقل الُّلغويَّان عند أبي القاسم السُهيْليّ (508هـ-581هـ)

The linguistic mind and transition with Abu al-qassem al-Suhaili (508H-581H)

تقي الدين جلّال*

تاريخ تقديم البحث **2017/12/14** تاريخ القبول **2018/1/7**

ملخص

اشتهر أبو القاسم السهيلي وهو أحدَ أعلام الأندلس في القرن 6هـ بإستنباطاته الدقيقَة، بالإضافة إلى آرائه التي تميّز وانفرد بها في علوم اللغة العربية؛ والتي حددت منهجه اللغوي. وسأتناولُ في هذا المقال توظِيفَهُ للشاهِد النَّحوي بنوعيه: النّقْلي الذي يشمل مواضيعَ السّماع (القرآن الكريم، الحدِيث النبوي الشريف، كلام العرب)؛وأعرج على مراتبِه واستعمالاته في منهجه. والعقلي الذي يشملُ مواضيعَ القِياس والعامِل والعِلَّة وأبيّنُ آراءه فيها.

Abstract

Abu al-qassem al-Suhaili one of the flags popular of Andalusia in the sixth century Hijri. He was famous for his subtleties elicitations in addition to his special views in the Arabic language which determine his linguistical approach.

In this article, I will deal with his use of the two forms of the grammarian text;

- Transmissional which includes the listening subjects (Quran, Hadith, And the Arabien talk) I will also pass through his spots and uses in his approach.

- Mental and I will show his views in it.

الكلمات الدالة: أبو القاسم السهيلي، العقل، النقل، السماع، الاحتجاج

Keyboard: Abu al-qassem al-Suhaili, Mental, Transmissional, listening subjects.

*قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الأداب واللغات ،جامعة لونيسي علي، العفرون .

مقدمة

يُعَدُّ علم النحو من أجَلِّ علوم اللغة العربية وأهمِّها، ولقد عكف النحاة منذ نشأتِه يتدارسونَه ويبحثون مسائِلَه ويستنبِطون قواعدَه حتَّى وَصَلَ بهم الأمرُ إلى أنْ وضعوا أصولًا له تضبِطُ مسائله وتُحِيطُه بِحُصون منيعة. وكان منهجُهم في ذلك: الاحتفاءُ بالنقل ثُمَّ إعمال العقل فيه، ونظرا لذلك نشأت مدرستا البصرة والكوفة؛ وهما أولى المدارس في النحو فتعدَّدت الآراءُ في المسائل العربية؛ أصولِها وفُروعِها، وصاحبَ ذلك احتِجَاجُ كلِّ طرف لِمَا يذهب إليه بما أُوتي من الحجج، وسارت على نهجهما مختلف المدارس النحوية فيما بعد، وجديرٌ بالذكر أنَّ الحجج النحوية تنقسم إلى قسمين: نقلية تثبت بالسماع « فالمنطلق الأول للنحاة كان استقراء كلام العرب الفصيح ، البالِغ حدَّ الكثرة، وهذه الخطوة الأولى لا تتجاوزُ النَّقلَ والاستقراءَ والكشفَ عن هيآتِ المسموع، وملاحظةَ اختلافِ الصور باختلاف الواقع»[1]، وحُجَجٌ عقليَّةٌ تتمثَّلُ في القِياس بأنواعه وما يلحَقُ به من وجوه الاحتجاج وهي كثيرةٌ تخرجُ عن حدِّ الحصر « فإذا انتهى النحوي من الملاحظةِ والاستقراءِ اللَّذَيْنِ أجراهما عن المسموع فقد انتهت المرحلةُ الحسية من عمله، وبدأ في التجريد؛ وهو استخراجُ المعقولِ مِنَ المَحْسُوس»[2]وبهذا فالحُجَّةُ العقلية تأكيدٌ وتثبيتٌ للحُجَّةِ النَّقلِيَّة فهِيَ مُكَمِّلَةٌ لها وقَسِيمَتُها في تقريرِ القواعِدِ النَّحوِيَّة.

ولقد كانت المُؤلَّفاتُ الأندلسيَّةُ حافلَةً بالشَّاهِدِ بمُختلفِ أنواعه غير أنَّ منهجَهُم في اعتمادِه كان مُخالِفا لنُظَرائِهم من أهل المشرق. وبرزَ هذا التوجُّه في القرن السادس الهجري الذي كان من أخصبِ القرون عِلمًا وثقافةً بالأندلس إذ برز فيه طائفةٌ من حُذَّاقِ العلم وجهابِذَةِ الفِكْرِ مِمَّنْ طبقَتْ شُهرتُهم الآفاق حتَّى صارَ الواحِدُ منهم تُضرَبُ إليه أكَابِدُ الإبِلِ وتَحُطُّ بفنائِهِ رِحَالُ الرِّجَال. وقد اشتهر السُّهَيْلِي[3]؛وهو أحد أعلامِ هذه الفترة باستنباطاته الدقيقة إضافة إلى آرائِه التي تميَّزَ وانفرد بها في علوم العربية، مِمَّا يَدُلُّ على أنَّهُ كان نحوِيًّا بارعا ولُغوِيًّا نابِغًا، وقد حدَّدَتْ هذه الاستنباطاتُ الدَّقِيقَةُ والآراء المُمَيَّزَة منهجَهُ اللغوي فشمِلَت مواضيعَ السَّماع والقياس ونظريَّة العامِل والعِلَل.

1- النَّقْل(السَّمَاع)

إنَّ المُدوَّنَة اللغويَّة التي اختصَّتْ بها اللغة العربية هي أعظمُ مدوَّنةٍ لغوية شهِدَها تاريخُ البشرية، وهي ما يُسَمِّيها القدامى بالمسموع أو السَّمَاع[4]؛ يُعرِّفه السيوطي بقوله: « هو ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، وكلام

نبيّه – صلّى الله عليه و سلّم – وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين، نظما ونثرا، عن مسلم وعن كافر»[5]، وقد اختلفَ النحاة في ترتيبِهم لِمصادرِ هذا المسموع والاحتِجاجِ به في تأصيلِ قواعِدِهِم. وقد كان للسهيلي موقفُه المتميّزُ في هذا الشأن.

أ- القرآن الكريم

كان السهيليّ يَعتبِرُ القرآنَ الكريمَ مصدرًا مُهِمًّا للاحتجاج، فقد كانَ الحُجَّةَ البالِغَةَ في الاستشهادِ به وبمُختلفِ قراءاتِه؛ بمُتَوَاتِرِه وشاذِّه، « فكانَ بالطبع النصُّ القرآني المثلَ الأعلى في براعةِ النَّظْمِ، والسُّهَيْلِي بِوَصفِهِ قارِئًا كان يعتمِدُه أصلًا أساسِيًّا في القياس، ولم يُسايِر بعضَ النُّحاة في اعتراضاتِهم على القُرَّاء، فاستشهَدَ بالقراءاتِ الثَّابتة سواء أكانت من المتواتر، أو من الشاذ »[6]؛ فاعتبرَ القرآنَ الكريمَ كلامَ اللهِ المنزَّه عنِ الأخطاءِ مُقِرًّا بأثَرِهِ العظيم في علوم العربية، يقول "إبراهيم البنَّا" في هذا الشأن: « وأمَّا شواهدُه، فقد استشهَدَ بالقرآن الكريم، وفاقَتْ آياتُه غيرَها مِنَ الشواهد، ولم يُخضِعْه لِمَا توصَّلَ إليه النحاة من قواعدهم، بل جعَلَه الأصلَ الذي يُقَاسُ عليه، واعتدَّ بالقراءات القرآنية واحتجَّ بها ولها »[7]، وفي هذا الباب ذكر السهيلي أنَّ"غير" يختلف معناها عن"لا"، فإذا قلت: "هذا غلامُ زيدٍ لا عمرُو" فقد أكَّدْتَ نَفْيَ الإضافة عن عمْرُو، بخِلافِ قوله: "هذا غلامُ الفقيهِ غيرِ الفاسقِ ولا الخبيثِ" فإنَّكَ جمَعْتَ بيْنَ إضافةِ الغُلامِ إلى الفقيه وبيْنَ الصِّفَةِ المذمومَة، وبذلك خرَّجَ قولَهُ تعالى: «غيرِ المغضُوبِ عليهِم ولا الضَّالِّين» [الفاتحة- الآية7]. وفي الفرق بين "لا" و"لَنْ" يقول السُّهَيْلِي إنَّ "لا" يمتدّ بها الصوت فيأذَنُ امتِدَادُ لفظِهَا بامتداد معناها كقوله تعالى: « ولا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا»[الجمعة- الآية7] فعَمَّ جميعَ الأزمِنَة، وفي سورة البقرة قال سبحانه: « ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ »[البقرة- الآية 94] فقَصرَ في سِعَةِ النَّفيِ وقَرَّبَ لأنَّ قبلَهُ في النَّظْم: « قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَة »[البقرة- الآية 93] فكانَ يقولُ عزَّ وجلَّ إنْ كانتْ قد وَجَبَتْ لكُمْ الدَّارُ الآخرة، وثَبتَ لكم في عِلْمِ الله فتَمَنَّوْا الموتَ الآن، ثمَّ قال في الجواب: " ولَنْ يَتَمَنَّوْه" فانْتَظَمَ الجوابُ بمعنى الخطاب في الآيتين جميعا، فهذه الأمثلةُ تُشِيرُ إلى التصوُّر الفِكْرِي للنظام القرآني عندَ أبي القاسم السُّهَيْلِي فهو خِلَافًا لِمَا أَلِفْنَاهُ عند مُؤَلِّفِي معاني القرآن يتجاوزُ حُجِّيَّةَ القرآن اللغويَّة.[8]

وقد قال أنَّ القرآن الكريم -بالإضافة إلى أنَّه مصدرٌ للأحكام اللغوية- مَجْمَعُ أسرار البلاغة اللغوية، فهو يرى ببراعة النظم القرآني الذي لا تخلو كلمةٌ فيه من حكمة، ولهذا نظر خلاله إلى اللغة نظرة عميقة فاستنتج مِنْ ذلك حَتميَّةَ وُجود فُرُوقٍ بين المترادِفات ووُجود

حِكَم وأسرار في الفروق بين أدوات النفي والعطف وبين التنكير والتعريف، وبين الإضمار والإظهار، وغيرها.

ب- الحديث النبوي الشريف

يُعَدُّ الحديث الشريف كلامَ أفصح العرب عليه الصلاة والسلام، إلّا أنَّ الاحتجاج به كان مرفوضا لكونه مرويّا بالمعنى إلّا من القلة القليلة من النحاة الذين خالفوا منهج القُدامى واحتجُّوا به ومنهم الإمام السهيلي« فكان من نتائج فكره أنْ ادرج الحديث في منهجه اللغوي، وقام بتوجيهات دقيقة في استعمالاته النحوية»[9] ذلك أنَّه اعتمد عليه كمصدر من مصادره السماعية، كما هو متعارف عليه عند الأندلسيين، فقد كان السّهيلي محدِّثا حافظا شهد المحدِّثون له أنّه من أهل الرواية والدراية، لذا نجدُه يستشهد به في اللغة تابعا في ذلك من سبَقَه مِنَ اللغويين كالجوهري وابن سيِّده وابن فارس وغيرهم، ويُعدّ السّهيلي أوَّلَ من استشهد بالحديث النبوي الشريف في النحو، يقول محمَّد عيد: « وقد ظنّ المتأخِّرون والمعاصرون أنَّ ابن خروف أوَّلُ مَنْ احتجَّ بالحديث، والحقيقة تخالف ذلك لأنّ السّهيلي سبقه في هذا العمل، بل إنّ عمل السّهيلي يُعدّ مقدمة صالحة لعمل ابن مالك »[10]، وفي هذا يقول محمد المختار ولد بابا: « وكان من نتائج فكره أن أدرج الحديث في منهجه اللغوي، وقام بتوجيهات دقيقة في استعمالاته النحوية، ممّا أفاد جمال الدين بن مالك في كتابه " شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح"»[11].

وقد اعتمد السّهيلي في كتابه "نتائج الفكر"على أكثر من سبعين حديثا استشهد ببعضها في تقرير أحكام نحوية. كما يُعدّ كتابه "الروض الأُنُف" مصدرا أصيلا في الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف. فنراه يستشهد به في اللغة والنحو بشرط صحّة الرواية ووِفاقها لوجه لغوي، ومن أمثلة ذلك أنه استدل به في اللغة على معنى كلمة (الأوس) يقول في مدرج حديثه عن (الأوس) الذي هو الذئب أنّه اسم علم:« والأوس: الذئب والعطية...ولا أحسب الأوس في اللغة إلا العطية الخاصة وهي مصدر: أسته، أما أوس الذي هو الذئب فعلم كاسم الرجل، وهو كقولك: ذئبٌ وأسد، ولو كان كذلك لجُمع وعُرِّف ... كما يُفعل بأسماء الأجناس ولقيل في الأنثى: أوسة، كما يُقال: ذئبة، وفي الحديث ما يُقوّي هذا وهو قوله عليه السلام: "هذا أُوَيْس يسألُكُم مِنْ أموالِكُم..." ولم يقل هذا الأَوْس فتأمَّله»[12]. واستدلَّ به في النحو على الاستغناء بالنعت عن المنعوت بقوله عليه السلام: « الكافِرُ يأكُلُ في سبعَةِ أمْعَاء »[13]، وعلى أنَّ الحالَ قدْ تكونُ جامدة، وِفْقًا لقوله صلى الله عليه وسلم: « و أحيانا يتمثَّلُ لي الملَكُ رَجُلا»[14]، وعلى تقديم

الخبر على المبتدأ: بحديث أخرجه البيهَقِي وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « مسكينٌ رَجُلٌ لا زوجَ له، مسكينةٌ امرأةٌ لا زوجَ لها»[15].

ج- كلام العرب

احتجّ السّهيلي بكلام العرب شعره ونثره كغيره من النحاة، فهو يصرّح بذلك بقوله: «...ويشهد لجميع ما قلناه في هذا الباب، من دلالة الحروف المقطّعة على المعاني والرّمز بها إليها الكثيرُ مِنْ منظوم الكلام ونثره »[16]، وكتبه على تنوّعها ومواضيعها يتردّد فيها كثير من أشعار العرب وأمثالهم وحكمهم وأقوالهم إلّا أنه كان من الذين لا يتجهون إلى الاحتجاج بكلام المُحدثين في اللغة العربية، فقد « أبدى نوعا من التحفّظ على الاستدلال بما يسمّى المولدين»[17]، وبذلك وقف بشواهده عند عصر الاحتجاج.

فقد احتجّ السّهيلي بالشعر لدلالات الألفاظ والقواعد النحوية، ومن أمثلة ذلك قوله في معنى "الآية": « الآية: العَلَامَةُ على الشيء، وخَرَجَ القومُ بآيَتِهِم: أيْ بِجَمَاعَتِهِم التي تَتَمَيَّزُ بِهَا ويَتَمَيَّزُون بها مِنَ الاختِلَاط بِغَيرِهِم، قال الشاعر:

خرج مِنَ النقبينِ لا حَيّ مِثْلنَا   بآيَتِنَا نُزْجِي اللِقَاحَ المطافِلَا

ومنه: تأيَّيْتُ المكان أي تَلَبَّثْتُ لِتَبيِين شيءٍ وتَمَيُّزِه، قال امرؤ القيس بن عبَّاس:

قِفْ بالديارِ وُقُوفَ حَابِسْ   وتَأَيَّ إنَّكَ غَيْرُ يائِسْ

وقال الكميت: وتَأَيَّ إنَّكَ غيْرُ صَاغِر... »[18].

2- العقل

شهدت الأندلس دخول كتاب سيبويه إليها في أواخر القرن الثالث الهجري على يد "محمد بن يحي المهلبي الرباحي" (358ه) الذي ثقِف الفلسفة والمنطق والكلام، وكان أوّلَ من نهج سبيل النظر في المسائل النحوية، ولقد تفاعل الفكر النحوي المشرقي مع المنطق في أعمال نحاة الأندلس منذ القرن الرابع الهجري؛ فنتج عن ذلك جهود ضخمة أغنت المكتبة النحوية؛ تمثلت في إعمال الذهن وتوليد الأفكار ومناقشة الآراء « ومجمل القول أن الاتجاه العام للدرس النحوي في الأندلس قد انطبع بشكل عام بالدوران حول آثار السابقين فكانت

جلُّ آرائهم النحوية تدور حول الاحتجاج لها سلبا أو إيجابا ولهذا نستنتج أن الطابع العام للاحتجاج العقلي في الأندلس قد سار باتجاهين:

الأول: وسار عليه جل نحاة الأندلس، حيث أن دائرة النقد والردِّ والاعتراض كانت تُوجّه إلى آراء نحوية بغضِّ النظر عن الإنشاءات المدرسية، فاحتجاجهم كان مُنصبًّا على توجيه آراءَ نحوية، وهم بهذا لم يكونوا مختلفين كثيرا عن غيرهم من نحاة المشرق وإن كان الغالبُ على دراستهم النحوية اعتمادُهم على مؤلّفاتِ المشارقة فحظي منهم كتاب سيبويه وجمل الزجاجي وإيضاح الفارسي بكبير اهتمام وعناية.

الثاني: وكان النقد فيه مُوجّها إلى المادة النحوية بشكل عام لا لآراءَ نحوية منفردة، فالخطأ والنقد والاعتراض موجّهٌ بشكل رئيسي إلى الباب النحوي ذاته، وهذا ما انفرد به "ابن مضاء القرطبي"؛ حيث قاد الهجوم على أبواب نحوية واحتج لبعضها احتجاجات عقلية بحتة[19].

وقد ترك السهيلي كغيره من أعلام نحاة الأندلس بصمته في هذا الشأن وفي غيره من القضايا التي تناولها إذ كان مجتهدا في كل رأي امتاز به أو شارك فيه غيره.

أ- القياس

يراد بالقياس حَمْلُ الشيء على الشيء بجامع، وهو:إلحاقُ الفرع بالأصل بجامع. وهو إجراءُ حُكْمِ الأصل على الفرع بجامع[20]، وقد اتخذ فيه السهيلي منهجا مستقلا نظرا لِتمكُّنه مِنَ اللغة وتَمَيُّزِه في النحو بالإضافة إلى اجتهاده؛ حيث كان ينظر في المسائل النحوية نظرةَ المُفكِّر المبدع. ومن ذلك أنَّه انفرد ببعض الآراء في باب قياس التمثيل الذي كان له في فكره نصيبٌ ملحوظ؛ فقد كان يكتفي بالعلَميَّة لمنع صَرفِ العلم في الشعر قياسا على المعارف الأخرى لأنّ التنوين عنده ليس علامةَ تمكُّن وإنما هو علامة انفصالِ المُعرّف عمّا بعده، يقول: « وترك التنوين في المعارف أصل، لا ينوَّن مُضْمَرٌ ولا مُبْهَم ولا ما فيه الألف واللام، ولا مُضَاف، وكذلك كان القياس في العلم، فإذا لم ينوَّن في الشعر فهو الأصل فيه، لأنَّ دخول التنوين في الأسماء إنَّما هو علامةٌ لانفصالها عن الإضافة، فما لا يُضاف لا يحتاج إلى تنوين، والشواهدُ على حذف التنوين في الشعر من الاسم العلم كثيرة جدا، فتأمّلْه في أشعار السيرة والمغازي تجدْها »[21]، ويذهبُ إلى أنَّ بعض العرب أعمَلَ "إنَّ" في الاسمَيْن جميعا، وهو قوِيٌّ في القياس لأنَّها دخلت لمعانٍ في الجملة وليس أحدُ الاسمين أولى بالعمل فيه من الآخر واستدلَّ بقول الراجز:

إنَّ العجوز خبَّة جروزا   تأكل كُلَّ ليلة قفيزا

وهو يعني بالقياس هنا: قياسَ "إنَّ" على "ظنَّ" و"عَلِمَ"، لأنَّهما لا تعلُّق لهما بالمنصوبَيْنِ بعدهُما، ولِمَا بينهما مِنْ شبَهٍ لفظي؛ فهذه الحروفُ شبيهةً بالأفعال من حيثُ إنَّ بنْيَتَها تتكوَّنُ من ثلاثة أحرفٍ أو أكثر، ومن شبَهٍ معنوي من حيثُ إنَّها دخلت لمعنى في الجملة التي بعدها[22].

وكان السهيلي يعتدُّ بقياس التمثيل عند عَدَمِ السَّمَاع- أي سماع ما أدَّى إلى قياسه- كما أنَّه مع اعتداده بهذا القياس الذي لم يقرن بسماع تجده عند سماع ما يؤديه لا يعطيه حقا أكثر من حدود ما سُمِع فيه، يقول: « ولكنَّ النصَ أقطعُ من القياس وأرفعُ للشك والالتباس»[23].

وقد وقف السهيلي من المسموع موقفا يقوم على التفريق بين التراكيب والمفردات، أو بين مسائل النحو وألفاظ اللغة، فهو يقيس على التراكيب ويعدُّ كل ما ورد منها أصلا يقاس عليه، وإن اختلف حالُ المقيس عليه من حيث القلَّة والشيوع، بل يعتدُّ بكُلِّ ما سُمِع عن العرب منها ولا يقولُ بالشذوذ، مِمَّا جعلَه في هذا المجال قريبا من مذهب الكوفيين، فلا يوجدُ في أحكامه النحوية ما يدلُّ على أنَّه كان يقول بشذوذ بعض التراكيب أو خروجها على القياس، ولكنَّه كان يُقَسِّم المسموع إلى كثير أو غالب، ونادر، ولغة قوم. ولا يمنع من القياس على هذا المسموع ولو كان مثالا فردا. ولقد شارك في حسم بعض المسائل التي وقع فيها الخلاف بين المتقدمين، فبينما يقولُ بعضهم بقياسِيَّة هذه المسائل ويقول الآخرون بأنَّها سماعيَّة كان دور السهيلي أن يُقوِّم هذه المسموعات التي وقع الخلافُ فيها، ويضَعَ لها أصلا يُجَوِّزُ القياس عليه[24]، ومِنْ أمثلة اعتداده بالقليل أنَّه لم يمنعْ أنْ توقع "نعم" موقع "بلى" تصديقا لمُعتقد الكلام، وكان دليلُه الحديث الذي رواه أبو عبيد؛ وهو أنَّ المهاجرين قالوا: إنَّ الأنصار آوَوْنا وفعلوا معنا وفعلوا، فقال: ألستم تعرفون ذلك لهم؟ قالوا: نعم. يقول السهيلي: هكذا صحَّتْ الرواية بنعم[25].

وأمَّا في اللغة فيقيس على الشائع في الألفاظ، حيث يُصرِّحُ بقياسِيَّة بعض الأبنية وعدم قياسية الأخرى وهو بذلك أقربُ للمدرسة البصرية، يقول في الرَّوْضِ الأُنُف: « ونسب طائفة من بني النضير، فقال فيهم: النضري، وقياسه: النضيريّ إلّا أنْ يكونَ من باب قولهم: ثَقَفِي وقُرَشِي، وهو خارجٌ عن القياس، وإنَّما يُقال: فعَلِي في النسب إلى فَعِيلة»[26] ولا شك أنَّ طبيعةَ المدرسة الأندلسيَّة المرتبطة بالنصوص كان لها أثرٌ كبير في أنْ يخرج النحاة بآراءَ

مبتكرةٍ، فحرصُهم على قراءة الدواوين وعنايتُهم بالقراءات وقَفَهم على صُورٍ جديدة للتراكيب ممَّا جعلهم يُعيدون النظر فيما سبق من آراء.

ب- العامل

تُعَدُّ نظريَّة العامل مِنَ الأصول الأساسية التي قام عليها النحو العربي، فهي أهمُّ ما اعتمده الخليل وسيبويه، لأنها غدت الأساسَ الذي بُنِي عليه النحو، وجرى وِفْقَها تقسيمُ بحوثه، وهي التي تضبط النظام الذي يجري عليه الإعراب وتتحدَّدُ به مواضعُه في الكلام، وهي المُعَوَّلُ عليها في التحليل الإعرابي وعليها تُدار أكثر مسائل النحو، وأركانها ثلاثة: العامل، والمعمول، وأثر العامل في المعمول وهو الإعراب[27]، وقد كان السهيلي كباقي النحاة يرى أن المتحدِّث هو الذي يرفع وينصب ويخفض ويجزم، وإنَّها- أي الحركات- صفاتٌ تنشأ عن تحرُّك العضو، فالمُحْدِثُ لهذه الآثار هو المُتحدِّث نفسُه، وإذا كان قد قال: إنَّ الإعراب لا يكون إلَّا بعامل أو سبب، فإنَّه لا يعني أنَّ العامل هو الذي يرفع أو ينصب أو يخفض أو يجزم؛ وإنَّما يعني أنَّه الذي أوْجَبَ ذلك، فكان سببا لأنْ يستجيب له المتكلم، فهو لا يعدو أن يكون سببا، وليس علَّة مؤثرة بذاته[28]، وقد تقيَّدَ السهيلي فيما يخصُّ نظرية العامل بفكرتين مُهمَّتين :

« أوَّلُهما: تصريحُه بأنَّ العاملَ لا يتعدَّى كَوْنَه لاستجابة المتكلم، وليس علَّةً مؤثِّرة في نفسه، وهذا مما يُسايِرُ فِكْر "ابن مضاء". والفكرة الثانية: اعتبارُه أنَّ العاملَ نتيجةٌ لغوية لتأثير المعاني المقصودة في نَسَقِ الكلام »[29]، فهو يرى أنَّ بين العامل والمعمول ارتباطٌ معنوي على نحوٍ مُعيَّن يفسِّره **بالتشبُّث**، فالكلمة الأولى تتشبّث بالثانية وتطلُبها أداء لحق معناها، ومِنْ ثمَّ فهي تتشبَّثُ بها في اللفظ، لذلك يقسِّم أنواعَ الكَلِم من حيثُ العمل إلى قسمين: قسمٌ الأصل فيه العمل مثل: الفعل والحرف؛ أمَّا الفعل فيجب أن يعمل في الاسم الذي يؤثر في معناه، وأمَّا الحرف فهو لا يدل إلّا على معنى في غيره، فوَجَب أن يعمل في اللفظ الدالِّ على المعنى الذي أثَّر فيه. وقسمٌ الأصل فيه أن لا يعمل لأنَّه يدُلُّ على معنى في نفسه ولكنَّه يعمل حينما يدلُّ على الفعل.

فالفعل عنده :

- يعمل في المصدر والفاعل والمفعول بطريق الأصالة.

- يعمل في الحال، لأنها وصفٌ لصاحبها وقتَ حُدوثِ الفعل، والصفة هي الموصوف في المعنى، والموصوف بعض معمولاته.

- يعمل في المفعول معه، والظرف، والمستثنى بواسطة الحرف، ولكنه قد يصل بنفسه لظروف الزمان اعتمادا على دلالة الوضع. فهي موضوعة للوقوع فيها، كما يصل إلى الظروف التي في معنى الوصف من غير الحرف لشَبَهِها بالحال.

- يعمل في المعطوف، وحرف العطف دال عليه.

والحرف يعمل في كلِّ ما هو مؤَثِّرٌ فيه معنى، إلّا إذا دخل على جملةٍ عمل بعضُها في بعض، وسبق إليها معنى الابتداء أو نحوه، وكان الحرفُ داخلا لمعنى في الجملة لا لمعنى في اسمٍ مفرد ، فاكتفى بالعامل السابق قبل هذا الحرف، واستثنى من هذه القاعدة :"إنّ وأخواتها" التي تدخل لمعنى في الجملة وتعمل مع ذلك، وعلَّل عملها بأنها لكلمات يصحُّ الوقوفُ عليهنَّ مثل قول الشاعر:

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَاكَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهْ

فلو رُفع ما بعدها على الابتداء لم يظهر تشبُّثها بالحديث الذي دخلت لمعنى فيه.

وقد اعتبر السهيلي حروفَ المعاني كحروف التشبيه والنداء والنفي والاستفهام حروفا غيرَ عاملة باعتبار أنَّ معانيها مُسنَدةٌ إلى المتكلِّم لا إلى الأسماء التي تأتي بعدها ، فالحرف عموما عنده:

- يعمل في كل ما دلَّ على معنى فيه من الأسماء المفردة والأفعال.
- وقد يعمل ماحقُّه الإهمال إظهارا للتشبُّث، وأنه غير منقطعٍ عما بعده من الكلام.

- لا يعمل معناه في الاسم، وشذُّ "كأن" و"لا" بعد "لو".

- لا يجوز إضماره- أي الحرف العامل- مع بقاء أثره إلّا أن يقوم مقامه شيء كالعِوض منه مثل:"حتَّى" التي أتت عوضا عن"أَنْ"، أو يكثرَ دورانُه في الكلام، مثل من يقول في جواب: كيف أصبحت؟ خيرٍ، عافاك الله[30]. ومنه فإنَّ التشبُّثَ النابع من دلالة العامل هو قِوامُ نظرية العامل عنده، فإذا كانت الكلمة تقتضي أخرى اقتضاء معنويا، فهي تتشبَّثُ بها في اللفظ، وتؤَثِّرُ فيها أثرا لفظيا؛ هو الأثرُ الاعرابي حتى يكونَ دلالةً على ما بينها من الارتباط، وربَّما لا يكون هناك ارتباط معنوي ومع ذلك فاللفظ عاملٌ إظهارا لارتباط هذا اللفظ بما بعده من الكلام مثل: عَمَلِ "إنّ وأخواتها"، و"الحروف التي حقُّها الإهمال" ، و"ظننت وأخواتها"، و"كان وأخواتها" من الأفعال التي حقُّها أن لا تعمل فيما بعدها من الأسماء لأنّها لم تدخل لمعنى فيها،

وإنَّما دخلت لمعنى في الجملة، وليس ما بعدها من الأسماء مفعولا على الحقيقة، ولكنْ أُعمِلَت إظهارا لتشبُّثِها بها[31] .

أمَّا بالنسبة للعوامل المعنوية فقد وافق السهيلي جمهورَ البصريين في رفع المبتدأ بعامل معنوي، لكنه أطلق عليه نوعا من العموم بحيث جعله: المُخبَرعنه، فشمل بذلك المبتدأ والفاعل، كما وافقهم أيضا في أنَّ المضارع مرفوع بوقوعه موقع الاسم، لكنه خالفهم في عاملِ ثلاثةٍ من التوابع فقال: إنَّ العامل في النعت هو التبعية، لأنّه لو كان الفعل هو العامل في النعت لجاز تقديمه- أي النعت- على المنعوت.

ومِنَ العوامل المعنوية التي انفرد بها السهيلي عاملُ: "القصد إليه" الذي يختص بالنصب؛ وهو العامل في نصب " سبحان الله" لأنّه حدثٌ أُحتِيجَ إلى ذِكرِهِ خاصة، مطلقا ومضافا إلى ما بعده. أيضا قال بعامل "الإظهار" مثاله: جاء زيد رغبة فيك؛ أي إظهارا للرغبة. كما قدّر" فعل النظر" في مثل: هذا زيدٌ قائما، وهو عنده عامل معنوي لمنع تقديم الحال عليه؛ يقول: « العامل فعل مضمر تقديره: انظر ، وأُضمِر لدلالة الحال عليه من التوجّه واللفظ، وإذا ثبت هذا فلا سبيل لتقديم الحال، لأن العامل المعنوي لا يعمل حتى يدل عليه الدليل اللفظي، أو التوجّه، أو ما شاكله»[32]. فكان ما ذكره من عوامل معنوية:

- القصد إليه: وهو عامل معنوي مختص بالنصب اعتمده شيخه ابن الطراوة.
- الإخبار: وهو عامل الرفع في المبتدأ.
- التبعيَّة: وهو العامل عنده في النعت والتوكيد والبدل.
- وقوعُ المضارع موقع الاسم.
- الإظهار: وهو عامل النصب في المفعول لأجله.

معنى النظر: وهو عامل الحال في نحو: هذا زيد قائما[33].

أمَّا أصوله في العمل فهي:

- حَقُّ العامل ألّا يكون مهيّئا لدخول عامل عليه.
- العامل لا يعمل في نفسه.
- لا يشترك الاسم والفعل في عامل واحد.
- لا يجتمع عاملان في اسم واحد.
- لا يعمل عاملٌ واحدٌ في حَالَيْن ولا ظَرْفَيْن إلَّا أنْ يتداخَلَا مثل: سرت راكبا مسرعا.
- لا يتقدَّم المعمول على العامل.

- لا يلي العاملَ إلَّا ما عَمِلَ فيه[34].

هذا ما اعتمده السهيلي في نظرية العامل وما توجه إليه فكره اللغوي والذي أتى فيها بآراء مهمة ومميزة أضيفت للتقعيد النحوي.

ج- العلَّة

كان السهيلي يولي قضية العلل اهتماما كبيرا، حيث كان مؤمنا بأن كلَّ ما في اللغة من الصوت حتى التركيب يدخل في نطاق التعليل، وإنَّ كتبه جميعَها يبرز فيها هذا الجانب وإنْ اختلف موضوعها، ولقد ألَّف "نتائج الفكر" لهذا الغرض حيث ذكر في مقدمته أنَّ معظمه من علل النحو اللطيفة ، كما نبَّه في كتابه "الروض الأُنف" على أنه كان من مقاصده فيه « تعليل النحو وصنعة الإعراب.»[35] فقد كان مشغوفا بالعلل النحوية واختراعها حتى أنَّ "ابن مضاء القرطبي" يقول: إنَّه كان يُولَع بها ويخترعها ويعتقد ذلك كمالا في الصَّنعة وبَصَرا بها[36].

وكان يرى أنَّ العِلَّة الصحيحة هي المطَّردةُ المنعكسة التي يوجد الحكم بوجودها ويُفقد بفقدانها فيقول أنَّ الإسكار في الخمر علّةُ التحريم، فهذا تعليل لأن الحكم وهو التحريم يوجد بوجود السكر ويُعدم بعدمه وأعطى مثالا آخر لها بالإضافة التي توجب الخفضَ إيجابا لغويا، وفسر هذا الإيجاب بأنه ليس بإيجاب عقلي، ولا إيجاب شرعي، ولكنه إيجابٌ لغويٌّ اقتضته اللغة فصار أصلا يبنى عليه[37]، هذا ولم يقتصر السهيلي على العلل الثواني والثوالث فقط بل واصل تساؤلاته التعليلية إلى أن وصلت إلى السوادس، وفي جهده الفكري لابتكار علل لهذه التساؤلات قام بتوسيع مسالك العلة حتى بلغ بها إلى تسعة[38]. وعلى حين كان السهيلي يكثر من العلل؛ نجده ينتقد النحاة في بعض العلل، ويناقشهم في أخرى فيوجِّهها ويبيِّن ما يرى فيها من تحكم، يقول- وقد رفض عللهم في منع الصرف- : « وهذا الباب لو قصروه على السماع ، ولم يعللوه بأكثرَ من النقل عن العرب لانتُفع بنقلهم ولم يكثر الحشو في كلامهم، ولمَا تضاحك أهل العلوم من فساد تعليلهم، حتى ضربوا المثل بهم فقالوا: أضعفُ من حجة نحوي »[39].

وقد عنِيَ في تعليله بِعِدَّة نواحي منها:

- ما وضعتْهُ العرب : مثل تعليله لوضع الفعل والاسم الموصول.

- وما لم تضعه كتعليله لعدم وصف المعرفة بجملة، ولماذا لم يقولوا: "قبلما" كما قالوا "بعدما"؟ ، ولماذا قالوا: "ما قام محمد لكنْ عمرو"، ولم يقولوا: "قام محمد لكن عمرو"؟ ولماذا لم تكن "إذا" عاطفة "كحتَّى" ؟[40]

- موقع الكلمة كما في تعليله لما أُضيف من الظروف إلى الأفعال، ووجوب الصدارة لأدوات المعاني[41] .

- إعمال ما أعمل وإهمال ما أهمل.

- ما حذف من الكلمة.

- دلالة الصيغة ومادتها[42].

ومن بين المسالك التي اعتمدها في ذلك:

- دلالة الكلمة: وعلل بها لعدم دخول"منذ" على المضمر[43]، وعدم وقوع "إلى" عاطفة "كحتى"[44].

- الحمل على المعنى: وقد قال فيه أن العرب تذهب بالكلمة إلى وزن ما هو في معناها، ولذلك جمعوا " حرة" على " حرائر" لأن الحرة في معنى الكريمة.

- الحمل على اللفظ أو المضارعة: وبهذا المسلك يبرر علة جمع " فعلان" جمع السلامة، وتأنيثه بالهاء وتنوينه، لأنه محمول على لفظ المثنى، يقول: « ولمضارعته التثنية امتنع جمعه، فلا يقال في غضبان: غضبانين، وامتنع تأنيثه بالهاء، فلا يقال: غضبانة، وامتنع تنوينه، كما لا ينون نون المثنى فجرت عليه فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعته إياها لفظا ومعنى»[45].

- الاستغناء: وجعله لمنع صرف الأسماء المستغنية عن التنوين.

- مراعاة الأصل: وبها فسر صرف الأعلام المنقولة مثل: أسد ونمر.

- طلب الخفة: وله عنده ظواهر كثيرة منها: جنوح العرب عن جمع " فعيل" بالواو والنون، فيقول: « جمع السلامة فيه جائز، ولكنه مستثقل لتوالي الكسرات مع الياء إذا قلت: رحيمين،والخروج من الكسر إلى الضم إذا قلت: رحيمون »[46].

- طلب الازدواج: والمزاوجة يُعتمد عليها في توجيه وتخريج كثير من النصوص مثل رواية: « مثلَ أو قريبَ من فتنة الدجال » بترك التنوين في " قريب" فقال: « وجه ترك التنوين ازدواج الكلمة مع التي قبلها وأنَّ الراوي لم يعتمد على الكلمة فلو اعتمد عليها في الخبر لجاء بها على أصلها، ولكنَّ حكمها عنده حكم" مثل" في الإخبار بها إذ الشكُّ جامعٌ بينهما، و"مثل" غير منونة، لأنها مضافة في المعنى فلم تنون، و" قريب" مقرونة بها في الشك، مزدوجة معها في اللفظ، فكان في ترك التنوين تحقيقٌ لاقترانها بالتي قبلها في شكه...فجاء بها مثلها في ترك التنوين»[47].

-كثرة الاستعمال: ومثَّل له بقول" رُؤبة" وقد قيل له: كيف أصبحت؟ خيرٍ عافاك الله[48].

- رفع الوهم (عدم الالتباس): وعلل به عدم جمع "برٍّ" و"فظٍّ" جمع سلامة، لئلا يلتبس بِفعّول[49].

ويرى الد. البنا أنّ السهيلي كان مبدعا في كثير من تعاليله، بالنظر إلى اعتباره لوظيفة الكلمة ولدلالتها المعجمية، ولصفاتها الصوتية، ولِما لتأثيرها اللفظي في كثرة الاستعمال، ومراعاة الازدواج، إلّا أنه كان فيما يبدو يختار مقدّماتٍ معينةً وألفاظا خاصة تُمكِّنه من الوصول إلى النتائج المستهدفة، ومن ذلك توجيهُه للعلاقة بين لفظ" حتَّى" ومعناها، قال: « وأمَّا حتَّى فموضوعةٌ للدلالة على أنَّ ما بعدها غايةٌ لِمَا قبلها، وغايةُ كلِّ شيء حدُّه، ولذلك كان لفظُها لفظ الحد، حاءٌ قبل دالين، فكان استنتاجه منطبقا على لفظ "الحدِّ"، ولو فسّر الغاية بالنهاية لاختلَّ تعليله »[50].

ونقول أنَّه كان لآراء السهيلي في قضية التعليل دورُها في تخليص النحو من بعض العلل الفاسدة على حدِّ قوله، وإنْ كانت تلك الآراءُ نظريَّة في بعضها فلا أحدَ ينكر تأثيرها على النحو، فالسهيلي اقترب نظريا-على الأقل- من موقف "ابن مضاء القرطبي" الداعي إلى التخلّص من العلل الثواني والثوالث رغبةً في التيسير، وقد ظهر ذلك في معرض حديثه عن العلل في باب الممنوع من الصرف، وإنْ كان صاحبُه لم يلتزم به بشكلٍ كامل حيث أنَّه أَوْلى قضية العلل اهتماما بالغا، ولم يقتصر على الثوالث بل واصل تساؤلاته العلمية إلى أن وصلت إلى السوادس، ولعل السهيلي في تقصِّيه للعلل النحوية عمليًّا بعد أن رفضها نظريا كان مُنطلِقا من مبدأ يعدّ هذه العلل التي ساقها من باب أنها علل لطيفة، وهي من أسرار هذه اللغة الشريفة[51] لذلك فهي تخدم النحو ولا تعقّده أو تصعبه.

وعموما نقول أنَّ السهيلي قد استطاع أنْ يستنبط له آراءَ جديدة خاصة به، وذلك للقدرة التي كان يمتلكها في الرد والاحتجاج، فعباراته واضحة وحواره شيِّق وأدلَّته متسلسلة تبيِّن استفادته من المنطق في إيصال أفكاره بالحجج العقلية المقرونة بما يعزِّزها من دليل سماعي، ومن عباراته المميّزة التي تُبيِّن منهجَه في ذلك قولُه:« ولا يُعدل عن هذا الأصل إلّا بدليل منقول أو معقول»[52].

هوامش البحث

[1] محمد جواد الطريحي، مقال بعنوان: التراث اللغوي العربي، مجلة فصول، المجلد الأول، ع1، 1980، ص89.

[2] المرجع نفسه، ص89.

[3] السهيلي (508هـ-581هـ) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي: حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير، ولد في مالقة ... نبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه إليها فأقام يصنف كتبه إلى أن توفي بها، هو صاحب الأبيات التي مطلعها :

يامن يرى ما في الضمير ويسمع أنت المُعدُّ لكُلِّ ما يُتَوَقَّع

من كتبه : الروض الأنف في شرح السيرة النبَوِيةَ لابن هشام ، التعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام ، الايضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين ، نتائج الفكر (انظر: الأعلام ج3 باب العين، ط15، بيروت، 2002).

[4] انظر:عبد الرحمن الحاج صالح ،السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة، الجزائر، ص251.

[5] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تح: محمود سليمان ياقوت، د ط، دار المعرفة الجامعية، 2006، ص74.

[6] محمد المختار ولد أباه ، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ، ط2، بيروت، ص 250.

[7] ابراهيم البنا، أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، جدة، دار البيان العربي، ص415.

[8] بتصرف: تاريخ النحو في المغرب والمشرق، ص246.

[9] نفس المصدر، ص246.

[10] محمد عيد، أصول النحو العربي ط4، القاهرة، عالم الكتب، 1989، ص53.

[11] تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص 246.

[12] أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ط الجمالية ، ج1، ص: 14.

[13] أبو القاسم السهيلي، نتائج الفكر في النحو، تح: إبراهيم البنا، جامعة قارينوس، ليبيا، 1978، ص 388.

[14] أبو القاسم السهيلي، أمالي السهيلي، تح: إبراهيم البنا، مصر، دار السعادة، 1970، ص 118.

[15] ينظر: نتائج الفكر في النحو، ص 313، 314.

[16] نفس المصدر، ص 176.

[17] تاريخ النحو في المغرب والمشرق، ص247.

[18] نتائج الفكر في النحو، ص 156، 157.

[19] انظر: محمد جواد الطريحي، الحجة العقلية في الدرس النحوي، مجلة كلية الآداب،ع 78، ص4.

[20] انظر: عبد الرحمن الحاج صالح ، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ط1،الجزائر، موفم للنشر،2007، ج2، ص49.

[21] الروض الأنف، ج2، ص 56،57.

[22] انظر: نتائج الفكر في النحو، ص 74.

[23] نفس المصدر، ص 193.

[24] انظر: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، ص244.

[25] انظر: أمالي السهيلي، ص 46،47.

[26] الروض الأنف، ج2 ،ص 187.

[27] انظر: بن لعلام مخلوف، مبادئ في أصول النحو، دار الأمل، ص249.

[28] انظر: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، ص300.

[29] تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 250، 249.

[30] انظر: نتائج الفكر في النحو، ص 109،110.

[31] بتصرف: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، ص 316.

[32] الأمالي، ص 105، 104.

[33] انظر: تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 249.

[34] انظر: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، ص 325،386،387،328.

[35] الروض الأنف، ج1، ص 3.

[36] انظر: شوقي ضيف، المدارس النحوية ،ط7 ، القاهرة، ب ت، ص 299 .

[37] انظر : الأمالي، ص20.

[38] تاريخ النحو العربي في المشرق والمغربن، ص251.

[39] الأمالي، ص 19.

[40] انظر: نتائج الفكر في النحو، ص 177، 188، 252، 255.

[41] نفس المصدر ، ص 96، 121.

[42] انظر: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، ص 289.

[43] الأمالي، ص43.
[44] نتائج الفكر في النحو، ص 252.
[45] نفس المصدر ، ص 45.
[46] نفس المصدر ، ص163.
[47] الأمالي، ص 130.
[48] الروض الأنف ج2 ص 72.
[49] انظر: تاريخ النحو بالمشرق والمغرب، ص252،251.
[50] انظر: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، ص 297.
[51] انظر: نتائج الفكر في النحو، المقدمة.
[52] المصدر نفسه، ص 241.

سيمياء الاستشراق: من البنائية إلى التفكيك

The Orientalism between structuralism and deconstruction

مسعود مكيد *

تاريخ تقديم البحث **2017/11/3** تاريخ القبول **2018/01/15**

ملخص

يهدف هذا المقال إلى البحث مجددا في سيمياء الاستشراق من منظور بنيوي تفكيكي لإعادة التفكير في هذا الحقل المعرفي الذي ما يزال يفتقر إلى تطبيقات حقيقية للمنهج البنيوي الإبستيمولوجي الذي شيدته المدرسة الغربية بقيادة ميشال فوكو ودريدا، والتي حرص مفكر كإدوارد سعيد من خلال عمله الفذ والمتفرد على تطبيق هذا المنهج الثوري الحاصل في مجالات العلوم الإنسانية ما أمكن على الحقل الاستشراقي لتحريره من النمطية التاريخية وعلائقها الساذجة عن (الشرق-والآخر) بما حقق فيه نتائج متدفقة ومدهشة كشفت عن جوانب من العصابية والانحياز والمركزية الغربية المتحكمة التي تعمل وفق متلازمة الثقافة والكولونيالية (المعرفة والسلطة). أيضا يسعى هذا البحث إلى النظر في بنية الاستشراق من زاوية غير كلاسيكية متعلقة بتحولات الخطاب ما بعد الكولونيالي، ليبقى السؤال هل سيدخل الاستشراق في طور جديد أم أنه سيتحول إلى مجالية تاريخية بعد أن أعلنت مراكز الغرب البحثية عن موته مؤسساتيا وأكاديميا؟

الكلمات الدالة: البنائية - الشرق- المعرفة - الاعتباطية – الحقل الدلالي – التمثل - تفكيك

Abstract

Orientalim at present has excess the classical meaning about Orient and his legacy, especially after the revolution of structuralism and deconstruction as a new mode of reasoning in a diverse range of fields, including anthropology, sociology, literary criticism and economics. This Article about Orientalism is seeking to illustrate how the study of Arab and Islamic cultures was connected to European imperialism and its goal of maintaining power and hegemony over non-Europeans. And also tried to argue that the Orient has historically served as a symbolic marker of European superiority and modern cultural identity. For most specialists in this field, historical Orientalist literature was never interested in Islam as it is viewed and practiced by Arabs and Muslims. Rather, it was an exercise in self-identity created by means of defining the "other." In other words, scholar like Said suggested that Orientalists treated others—in this case, Muslims and Arabs—as objects defined not in terms of their own discourses, but solely in terms of standards and definitions imposed on them from outside. Among the influences underlying these definitions was, in Said's view, a long-standing Western concern with presenting Islam as opposed to Christianity.

Keyboard: Orientalim, literary criticism, anthropology,.

*قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب واللغات ، جامعة البليدة 2، االجزائر ،

مقدمة

بما أن السيميائيات تتنزل في المقام الأول على دراسة المدلولات (العلامات=Signes) بما يجعل ميادين البحث فيها لا متناهية نظريا وتطبيقيا فإننا نسوق في هذا المقام البحثي واحدا من أقوى المدلولات اللفظية المتنازع في شأن دلالتها، لا من حيث مجرد التركيب اللساني لها ولكن لكونها نشأت خداجا من أصلاب شتى أو ربما ولدت اصطناعيا خارج أرحامها الطبيعية، فتولد عنها منهج فكري متصارع ذاتيا، ينقاد فيها مرة للحقائق بطواعية ملوتية يصعب معها استنكاه الحق منها وغالب الوقت يتمرد هذا المتصارع ويتلون ويجحف في نسق مستمر بَيِّنْ تَمَارَاهُ جل رواد ذاك المنهج وهو ما نجده متحققا بجدارة في مدلول لفظ "استشراق"، الذي لم تنطبع له هوية ثابتة إلى الآن رغم أنه عمره يمتد من لحظة التزاوج الزمني بين ثقافة آفلة (عربية) وثقافة صاعدة (أوروبية-غربية)، وهي لحظة زمنية تتناهز الخمسة قرون.

ورغم هذا المديد الزمني إلا أننا نجد أن سيميائية الاستشراق لم تتموضع بالشكل الفعلي على قاطرة البحث الخصب منذ -الانفجار الكبير- لـ"استشراق إدوارد سعيد" والذي رغم شديد قوته لم يعدو أن ساهم أكثر في التشظي الاصطلاحي داخل كون الدراسات التراثية بما لم يحدد الأبعاد البُنيوية الحقيقية لهذا المصطلح ولهذه الظاهرة التاريخية المتفردة سوسيوثقافيا على جميع مستويات التداخل الثقافي بين الشعوب أو بالأحرى بين "الحضارات المحتدمة" كما يصطلح عليها صموئيل هانتنجتون(The Clash of Civilizations :Samuel Huntington)، فنتجت عنها تلك الظاهرة التي أسست للثقافة الإمبريالية المهيمنة التي غالبا ما تعمل وفق معادلة تلازمية بين المثقف والسلطة، ليس فقط في المجتمعات السلطوية ولكن بالمعنى الأدق في المجتمعات "التَسَلُّطية" والتي نعني بها الاستعمار تقليديا وذلك المثقف الذي نعني به أيضا المستشرق تقليديا. فالاستشراق في مظهره التاريخي ما هو إلا لازِمَة بين الخطاب الموجه المنحاز والكولونيالية المهيمنة. وهذا التلازم الوظيفي بين عقل ماسح مُنَقِّب في أعماق الشرق الثقافي وبين آلة سياسية زاحفة فوق جغرافيته هو الذي جعل الكولونيالية المتوحشة تتغلغل فيه إلى هذا المدى الزمني الطويل وتستمر بجميع امتيازاتها وغاياتها إلى اليوم رغم انحسار الجيوش الغازية ونصب الأعلام المزيفة للشرق المتحرر.

ولكن تبقى مساهمة إدوارد سعيد على قِدَمِهَا نسبيا متفردة ومتعاظمة طالما أن جل التناولات السيمولوجية اللاحقة -العربية على وجه الخصوص- لشأن الاستشراق لا تتعدى

الرؤية الكلاسيكية السطحية المتركزة في الحد والاصطلاح والمنشأ والتاريخانية الصرفة إلى جانب طبعا الموقف العلمي التي لا يخرج عن إطارين: إما حالة التحفز والتنمر له أو حالة الانبهار والإعجاب، وبالتالي لم نكد نرى منذ عقود عملا فكريا تفجيريا كالذي عرفته حقبة الثمانينات بمستوى ما قدمه إدوارد سعيد، والذي كان بمثابة "**الصدمة الكهربائية**" أو كما وصفه أحد كبار مؤرخي الشرق الأوسط الباحث أحمد إعجاز بـ"**الكتاب القنبلة**"[1]، خاصة وأن إدوارد سعيد وظف تيمات جديدة لظاهرة الاستشراق استعار فيها باعترافه عدة ومنهج المفكر الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault (1926-1984) وإن جاءت بالشكل العكسي لتطبيقات فوكو نفسه، وهذا ضمن إقحام نصوص فردية ذاتية ساهمت في التشكيل الإنشائي للاستشراق، والتي جعل منها إدوارد سعيد ركائز تاريخية لتحليلاته الإبستمولوجية عن الشرق في المطلق وليس فقط الاستشراق المعرفي الناجم عن شرارات الاحتكاك الغربي بهذا الشرق. وربما يكون قد نحا نحوه نسبيا الباحث على بهداد في كتابه (*الرحالة المتأخرون: الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري*) الذي استثمر أيضا الجهاز النقدي لفوكو، خاصة في تحليله لموضوع المعرفة والسلطة تبعا لما يحكمهما من علاقة داخلية، وهذا من خلال استقراء واسع لمدونات رحالة كشفوا فيها عن أدوارهم المتداخلة بين أزقة الشوارع وأروقة الأجهزة الأمنية الاستعمارية، وهو مسار يظل متكررا طوال المشهد الاستعماري(نرفال، فلوبير، آن بلنت....إلخ).[2]

ورغم ثورية عمل إدوارد سعيد إلا أننا نجد أنه ما يزال يسير على خط الهامشية والغموض طالما أن تراث الاستشراق نفسه ما يزال صنو التراث العربي الإسلامي القابع في مكتباته بعيدا عن أجيج ثورة عقلية عربية جديدة تعالجه بذات الدوافع والروح التي حركت العقل الأوروبي باتجاهه منذ أكثر من ثلاث قرون استنار العقل الغربي بأكثرية ما فيها ومن ثمة تأسست حضارته بالشكل الذي نلامس اليوم جماليتها وتطورها الفائقين.

وعلى الرغم من انتهاء حالة الوله الغربي بهذا التراث، إلا أن حالة تفكيكية لجهاز الاستشراق البحثي انطلقت منذ السبعينات على مستوى متناقض داخل هذا المعسكر بين من أعلن عن "موت الاستشراق" تاريخيا ومؤسساتيا كما صرح بذلك المستشرق الفرنسي جاك بيرك[3]، وبين من أطلق دعوات جدية لتصحيح هذا المصطلح أو تغييره بما يُثَمِّن أو ربما يمثل انطلاء جديدا على الذهنية العربية لاستمرار الفاعلية الكولونيالية المهيمنة خاصة إذا كان رائد هذا الاتجاه التصحيحي مخضرم ورائد من رواد العدائية مثل برنارد لويس.

وإن كنا نرى أن هذا المسعى نحو التغيير الدلالي للمصطلح لم يعد ذا جدوانية كبيرة، إذ لم يعد الشرق شرقا بالمعنى الساذج المتخيل الذي تساهل العقل الوافد نحوه في إطلاقه

عليه، بعد أن ظهر أنه ليس بتلك الجغرافيا المركزة، كما أن بريق مادته التراثية قد خبا ولم يعد يفاجأ أحدا، ذلك أنها لم تعد أيضا -وفق إدوارد سعيد- سوى "حقائق بالية".[4] وهذا لأن التغير الكوني الهائل والمعقد إلكترونيا قد ساهم ليس فقط في تجاوز بعض هذا التراث (باستثناء المقدس منه) ولكن جميع أنواع التراث الإنساني، ذلك أنه تجاوز الإنسان نفسه وأفقده حتى خاصة خاصته، فلم يعد يستطيع الإنسان أن يحفظ حتى ذاته "المُعَلَّبَة إلهيا" فضلا عن أن تحتفظ مكاسبه الأخرى بصمودها، وكأنها لحظة عري إنساني فظيع أسقطته في هوة من الفوضى والعبثية. خاصة وأن هذا التعقيد الإلكتروني المتزايد جاء أيضا بعد اختزال العالم في الذهنية الغربية التي أصبح في متناولها كل شيء بسبب ما أحدثته الثورة الإعلامية التي شكلت فيها "**المعرفة الشيطانية**" كما يقول إدوارد سعيد نمطا ثقافيا مُنمْذَجا عن هذا الشرق جعله يغرق تصويريا في الماضوية أكثر، حتى تحول تراثه من هذا المنظور المُشَيْطَن المزيف إلى "عصور ما قبل التاريخ".

بعيدا عن الجدل التاريخي لظروف النشأة الاصطلاحية فإن بعض التأويلات السيميائية المستجدة عن القراءات النقدية الهائلة لاستشراق إدوارد سعيد وترجماته المتعددة والمتكررة داخل ذات اللغة ربما تكون أقرب للظاهرة الاستشراقية، فهو كما وصفته الترجمة الفرنسية المبكرة بأنه:"***الاستشراق: الشرق كما خلقه الغرب***" (*L'Orientalisme: L'Orient créé par l'Occident,1980*).[5] وحتى آخر بعض الترجمات العربية (ترجمة عناني) وضعت عنوانا فرعيا "المفاهيم الغربية للشرق"، وهذا يجعلنا أقرب إلى جوهر الظاهرة منه إلى سيمياء المصطلح أو يقودنا إلى توافق مبكر مع تلك الدعوات التصحيحية التي تصب في غائية تفكيكية للمصطلح أكثر من محاولة عابثة لإيهام العقل العربي بجدية استمرار هذه الظاهرة المتآكلة، خاصة وأن السجال التعريفي الحاصل حول مصطلح "استشراق" أصبح يدخل في صميم ما يسميه ميشال فوكو "بأزمة الثقافة الغربية"، وربما هذا حاصل كما يرى فوكو نتيجة "**أن المعرفة في عصرنا أصبحت تميل إلى أخذ الصياغات الشكلية أو التفسيرات وتتكشف في إطار إدراكنا لعجز الوعي عن تعيين أصله وعجز اللغة عن الكشف عن الموضوع**".[6]

هذه الاعتباطية الاصطلاحية للفظ استشراق هنا قد تمثل عمقا سيمولوجيا للاستشراق ككل باعتبار أن مادة السيمولوجيا الأساسية هي "**مجموعة الأنظمة التي تقوم على اعتباطية العلامة**"، وبالتالي فإن "**.... العلامات التي تتميز بالاعتباطية تحقق -أكثر من غيرها- العملية السيمولوجية** ....".[7] بل إن دو سوسير يرى أن الخاصية الاعتباطية للمدلول

(العلامة) هي واحدة من الخصائص الأولية أو الأساسية التي تختص بها السيميائيات عن غيرها.[8]

من هنا نجد سيميائيا أو دلاليا (وفق مناطقة العرب) أن العلاقة بين الدال والمدلول (أي العلامة وفق المنظور السوسيري:F.de Saussure) في لفظ استشراق هي اعتباطية بامتياز لما هو عليه من هذا التوسع المدلولي والمنتشر الأنساق أو ربما بشكل أدق تشرذم وظيفي بين عقلين متفاوتين (عربي- غربي) وتشرذم جغرافي (أوروبي- مشرقي) وإن كان حتى هذا البعد الجغرافي خارجا عن حدوده الطول-عرضية منذ التوسع الاستعماري مشرقا ومغربا وصولا إلى عصر فضائي مفتوح المعرفة تلاشت فيه الحدود منذ عقود.

الإسقاط التاريخي:

بعيدا عن المفاصلة التاريخية الاستشراقية الدقيقة الحاصلة بين ثقافتين كونيتين وربما أساسيتين (يمكن دمج ما هو يوناني-أوروبي كثقافة بما يقابل الثقافة الإسلامية) والتي أدت إلى ذلك التكون السيميائي المعقد لمعنى "استشراق". فإن أقرب مداخلة فكرية في هذا الاتجاه تكون بمثابة رؤية تاريخية نافذة يكون ربما قد رصدها بشكل أدق مفكرنا العظيم مالك بن نبي حين حدد البعد الحقيقي للاندفاع الأوروبي نحو الثقافة الإسلامية بداية من القرون الوسطى وذلك مبدئيا من أجل إثراء ثقافته التي مهدت لعصر النهضة. فهذا السعي نحو عالمنا كما يقول مالك بن نبي "**لم يكن في حقيقته من أجل تعديل ثقافي حقيقي ولكن كان من أجل تعديل سياسي**" قادته الآلة الاستعمارية بشراسة، حيث ساعدها ذلك التنقيب الفكري على وضع خطط سياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية عامة، وهو ما يدخل حسب رؤية مالك بن نبي في جوهر الصراع الفكري الذي فُرِضَ بتأثير من العقلية الغربية الثائرة على العالم الإسلامي وأصبح يقوده حتى متخصصون ولكن لحساب الاستعمار.[9]

وإذ أردنا أن نلتمس اليوم صورة مشابهة لتلك الخطط السياسية الثقافية الامبريالية فإن أقرب نموذج حي معاصر لهذا التمازج (الفكري-الاستعماري) الشرس يتمثل في النموذج الداعشي الدراماتيكي الذي هندسه العقل الغربي من وحي الحفريات الفكرية الإسلامية ليفكك بقايا الخريطة العربية ويعبث فيها بمقومات دينية ولغوية وعرقية لصالح مشروع صهيوني حالم، وهذه الهندسة الفكرية الخبيثة كآخر نموذج لذلك المنهج الاستشراقي ربما تتكشف عن سوء النية الدائمة التي تدفع العقل الغربي نحو تراثنا. ورغم توافر الدراسات العلمية والمنهجية المنصفة أحيانا لهذا التراث إلا أنها تقودها أيضا آلة المديح التي لا تزيد عن كونها تمثل حقنة تخدير لإلفات الجماهير عن حاضرها كما يؤكد مالك بن نبي.[10]

وبالتالي قد تكون فكرة الصراع الفكري – بالمعنى البنابي- الدائر بين هذين العالمين (الشرق والغرب) أو بشكل أعم بين هاتين الحضاريتين على عمق الهوة بينهما أعمق من فكرة الاستشراق الذي يبدو أحيانا مجرد استقراء استغلالي وظيفي بين عقلين متنافرين ومتفاوتين بعد أن اتضح البعد السياسي والأثر الجهنمي الذي تولد من جراء هذا التلاقي التاريخي المشؤوم، خاصة بعدما أصبح جليا أن الهدف الأساسي من هذا الاستشراق كان محاولة أوربة العالم لصوغ وعي "العالم الآخر-الشرقي" والذي يؤدي في النهاية إلى وعي الهيمنة الشاملة.[11]

ربما يكون العمق الحقيقي التاريخي لسر تغلغل هذه الظاهرة "الشرق-غربية" يعود إلى الثنائية الجغرافية المكانية التي انحسر داخلها هذا الغرب وكأنه بين فكي كماشة، وهي ثنائية القسطنطينية والأندلس (إسطنبول-إسبانيا) وذلك التوافق الزمني العجيب الذي خسرت وانكسرت فيه أوروبا في جهة من أقصى شرقها (فتح القسطنطينية 1453)، ولكنها سرعان ما استعادت ذاتها المنكسرة جغرافيا ودينيا في جهة من أقصى غربها (سقوط غرناطة 1492)، وهي اللحظة المؤلمة التي أفقدت أوروبا توازنها بين عقل مشحون نهم متطلب إلى المعرفة والعلم وبين قلب تحطم إيمانه بسبب انكساراته الدينية الداخلية (تزعزع لاهوتي كنسي) والخارجية (سقوط القسطنطينية: أقوى قلاع المسيحية)، وفي كلتا الحالتين يجد هذا الغرب المتعطش معرفيا نفسه منقادا إلى ميراث علمي ضخم ومخيف في نفس الوقت من حيث إنشاءاته العلمية والفكرية وتصنيفاته الكثيرة اللامتناهية الحصر كما يصفه المؤرخ الأمريكي ستيفن هامفريز.[12]

من هنا نشعر أن الزحف الفكري الاستباقي عن الاستعمار نحو التراث العربي كان يشوبه شيء من الإكراه اللاإرادي للبحث عن الحقائق وفي ذات الوقت نكرانها أو الالتفاف حولها وهو التفسير السيكولوجي الأقرب لعنصري الشرق والغرب وهما يقفان وجه لوجه أمام هذا التلاقي الثقافي، مما أنتج منهجا متكاملا للتشكيك والتحريف والتزييف والإدعاء استمر عبر البيان الزمني للاستشراق، منذ أن نشر لوودفيغو مراش في بادوا سنة 1698م أول دراسة عن الإسلام والقرآن بعنوان "مقدمة في دحض القرآن" والتي تمثل الأساس الذي ارتكزت عليه الدراسات الأوروبية اللاحقة وكانت جرعة مركزة من التشويه والهجوم والسطحية، ورغم أنها كانت مليئة بالأخطاء والمغالطات والحجج الساذجة واللامعقولة إلا أنها بقيت المصدروالنموذج الذي تكررت على منواله جل الأعمال الغربية عن القرآن والإسلام عموما.[13]

ومنذ ذلك التاريخ وحتى آخر مراحل الاشتراق النموذجي النمطي نجد هذا العقل الغربي المتحضر الراقي الذي مرت عليه قرون وهو يتعامل مع تراث العرب كأنه عقل همجي

بربري عدواني إلى الحد الذي يجعلك لا تشك في هذا العقل ولكنك تشك وترفض ذلك التراث نفسه، فلويس برنار كآخر شكل للمستشرق التقليدي وعلى الرغم من أنه قامة علمية كبيرة في أرقى جامعة عالمية، بالإضافة إلى كونه ممثل الاستشراق الأمريكي الحديث إلا أنه يبدو في تناولاته الاستشراقية وكأنه قسيس متحجر في كنيسة أوروبية باردة من العصور الوسطى، فهو ما يزال يصر على التزييف والمغالطة والمراوغة والتهوين طالما أنه يكتب ويحاضر في بلازما "الإسلاموفوبيا" المعدة لتفريخ "جينات العداء" للعرب والإسلام، كل هذا وهو يتحول ببقايا عمره الأرذل إلى الألفية الثالثة، حيث لم تغير الشواهد التاريخية والعلمية والديموغرافية المتأسلمة المتصاعدة من نظرته إلى الإسلام والعرب، وحتى إن حاول أن يتمظهر بالموضوعية الطاغية من حوله نجده يقرر في كل مرة بسهولة " **أن كل ما طرأ في الإسلام قد سبق له وجود إما عند اليونان أو في الحضارة الرومانية**" وهي أقصى التهذيب الذي طرأ في حدته المعهودة.

وما بين هذين المؤشرين الزمنيين سنجد محفلا تنكريا لعشرات المستشرقين الذين تفننوا في إلباس وإعادة تخليق التراث العربي الإسلامي بمئات الأشكال العبثية المخيفة والبشعة من عينة الهولندي هوجو دو جروت صاحب أشنع عمل عن شخصية محمد "الرسول صلى الله عليه وسلم" (1630م) والذي أسس فيه لعديد من المزاعم والافتراءات والمغالطات استمر تأثيرها إلى يومنا هذا. ومن بعده المستشرق الإنجليزي همفري بريدو (1724م) الذي ألف كتابا عن "خداع محمد" أراد أن يبرأ فيه المسيحية من خداع الإسلام كما زعم. ثم جاء المستشرق الفرنسي أرنست رينان(1823-1892) الذي وضع ما يشبه نظرية هدامة عن شخصية العربي شكلت في المخيال الغربي صورة أصبح من الصعب الحياد عنها إلى اليوم، فهو يرى "**أن العلم العربي ليس له من العروبة إلا الاسم**" كما يصف العربي "**بأنه بالرغم من خصاله الجيدة فهو ناجح في الغزو والصراع ولكنه مفتقر إلى الروح السياسية وفاشل في تأسيس مجتمع قار**".[14]

ورغم غياب الأهلية العلمية للمتوغلين الأوائل في التراث العربي إلا أننا وجدنا كيف أن التعامل مع مفردات المنتج الفكري العربي كان يتم بسطحية وغوغائية على صعوبة اللغة التي كتب بها ولكن العقل الغربي كان مصرا على النقل المشوه بلغة أيضا لا تقل عنه تشويها وفقرا، ورغم أن المحاولات الفاشلة لترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية كانت هي الصخرة العاتية التي اصطدمت بها هذه اللغة أمام نص علوي (مقدس بجدارة) إلا أنها أثبتت باستمرار أنها كانت أيضا أقل قدرة وفاعلية لاستيعاب منتج بشري عربي متنوع متقن شديد التنظير، وهو

السر الذي جعل المعسكر الاستشراقي يشتغل بجرأة على نصوص قحة من التراث العربي بنفس التهلهل والتهميش والجهل اللغوي الفاحش، رغم الثورية العقلية والمنهجية الديكارتية الخارقة التي وصل إليها هذا العقل إلا أن ذلك لم يفد شيئا في إعادة تكرار هذا المستخرج العقلي الجبار الذي ساهم العرب أنفسهم في دفنه في رمال التاريخ مجددا، خاصة وأن فعلا شنيعا آخر مارسته الآلة الاستعمارية الغربية وهو سرقة ونقل أصل هذا التراث نفسه، حتى أن جل المخطوطات العربية أو أهمها علميا هي خارج البيت العربي وهي مفارقة تاريخية أخرى لهذا القبح الغربي والتهاون العربي.

طبعا في هذا السياق التاريخي لا ننكر بعض التحولات التي حدثت في مسار الاستشراق تجاه اللغة العربية كوسيلة أساسية لدارسة مكونات الفكر العربي، حيث تأسست منذ أواسط القرن التاسع عشر كليات جديدة لتدريس اللغة العربية بشكل رسمي أكاديمي وبتشجيع من الكنيسة البابوية بعد صراع مكشوف بينها وبين الأكاديميين الجدد، حيث أخرجت لنا هذه الكليات لاحقا بعض الفطاحل من مزدوجي اللغة تميزت أعمالهم بالعمق والقوة والجدية (دو ساسي، ولهاوزن، نولدكه، جولدتسيهر، نلينو، بروكلمان، أسين بلاثيوس...الخ) والتي دفعت كثيرا من شرور الاستشراق وخففت من حدة المغالطة والحقد الدائمين اللازمين في تاريخ الاستشراق.

على عكس ما حدث قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة حينما تعامل العقل العربي مع المنتج اليوناني السيئ الشكل والركيك الناقص، بطريقة أخرجته بأفضل مما وصلها إليه، بل إن معجزة حضارية قد حدثت بالفعل لإخراج التراث اليوناني المطلسم المبهم والغريب لغة وعقيدة، ولكن العقل العربي المتفتق تعامل باحترافية مجردة خارقة مع النصوص التي نفخ في كلماتها روحا أعادت لنا سقراط وأفلاطون وأرسطو كأنهم أحياء يحاضرون في أروقة ومدارس بغداد وهى معجزة ثقافية تختلف كلية عما فعله العقل الغربي الذي جعل من كنوزنا وجواهرنا ورموزنا العلمية ممسحة بالية خرقة شوه بها مرايا التاريخ منذ اللحظة الأولى لتعامله معها وحتى العصر الراهن.

بنائية الاستشراق:

إن معنى الاستشراق الذي تولد من جغرافية الشرق ربما لا يكون موجودا موضوعيا إلا بالمعنى التخيلي الذي انطلق من ذاتية أوروبية بالتحديد هي التي هيكلت فيما بعد "منظومة الحقائق" التي عممت على نطاق واسع ليس في أوروبا فقط ولكن في الغرب ككل، وهو ما جعل

إدوارد سعيد يميل أحيانا إلى اعتباره لفظا تخيليا نشأ ربما عن حالة من الحميمية والألفة فرضها المكان بشاعريته المشرقة وجمالياته المتعددة والمتناقضة في ذات الوقت، والتي فرضت قيما متخيلة سرعان ما أصبحت هي القيم المسيطرة، فكما يقول الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار في (جماليات المكان):"إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز".[15]

لكن هذه الخصيصة التخيلية عن المكان قد زادها في الشرق التباين الزماني (موضوعاتيا) والمكاني (أوروبيا) قوة بما أصبحت فيه الصور والحقائق منساقة وفق فضائية استشراقية لا حدود لها. فقد رأينا كيف أن الخيال عن الشرق قد سبق الكتابة عنه، ورغم توفر عنصر الصدمة من "حقيقة المكان" إلا أن هذا الميل الجارف المسبق إلى الشرق الساحر الدافئ بقي هو الدلالة التخيلية المستمرة عنه رغم ترسانة الأعمال التشويهية المزيفة التي فبركها لاحقا العقل الغربي الادعائي لمنهجية "لا علمية" متحيزة موضوعيا، بعيدا عن عاطفة المكان الذي تعلقت به قلوب الوافدين إليه، والذين قادتهم تلك التصورات التي صاغها الرحالة المستكشفون لاستلهاماتهم الأدبية للشرق ومشاهداتهم وترجماتهم لأعمال مثل "ألف ليلة وليلة" أدبيا وأعمال فنية أخرى تصورية عن حياة الشرق الزاخم المزدان بالتناقضات رغم حالة التأخر والانحطاط.

وهذه الرومانسية الاستشراقية ربما تعكس حالة من "الاغتراب الروحي" على حد وصف عبد الرحمن بدوي لشخصيات أدبية أجنبية في بيئة جديدة قادها وجدانها العنيف إلى "روحانيات الشرق" بعميانية جارفة خلقت بها شرقا متخيلا أكثر منه واقعيا، وهو ما يفسر حجم التناقضات الكبيرة الموجودة في "تراث الاستشراق"، خاصة وأن النزعة الرومانتيكية قد تقاطع أوجها مع أوج الرحلات إلى الشرق وهوس الهجرة إليه والدعوة إلى البحث في أسراره كما كان يدعو إلى ذلك المستشرق الألماني فريديش أشليجل(Friedrich Schlegel) الذي عني أكثر بأخريات الشرق كالهند وإيران التي كان أول من نشر عنها قطعة من كتاب "الشاهنامه" للفردوسي.

وفي فرنسا برزت أسماء ناشطة لهذه الحركة مثلها شاتوبريان ولامارتين وفيكتور هيجو في "المشرقيات" الذي لخص التلاقي الأوروبي-المشرقي بمقولته التاريخية: "**في عهد لويس الرابع عشر كان المرء هيلينيا، واليوم أصبح مشرقي**"(Victor Hugo - Les Orientales **1829**). ولكن أعظم من صنع للشرق صورة خيالية ربما لم تتحقق له حتى في داخل تراثه،

تلك التي صاغها الشاعر الألماني غوته في عمله الخالد والمؤثر "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"(***West-östlicher Divan*, 1819:Johann Wolfgang von Goethe**) هذا الديوان المتأجج روحيا هو الذي جعل وسيجعل من الشرق خياليا ربما إلى الأبد، كيف لا وهو يردد: "**الشمال والغرب والجنوب، تتحطم وتتناثر، والعروش تثل، والممالك تتزعزع وتضطرب، فلتهاجر إذن إلى الشرق في طهره وصفائه كي تستروح جو الهداة والمرسلين**".[16]

دلالة المصطلح:

كما قلنا سابقا بأن الاعتباطية التمثلية الكامنة في هوة الأوروبي الذي كان يعيش في جغرافيا منحسرة عن الشمس هي التي ولدت لديه نزوعا عاطفيا جارفا لعالم تشرق منه الشمس شروقا أخاذا دفعه إلى كل ذلك الخيال عن الشرق ليس بحالته المدنية الاجتماعية التي ازدراها طوال الوقت، ولكن بطبيعته المتميزة وآفاقه الجغرافية الممتدة كنسيج واحد من أقصى شرقه إلى حدود انتهاء هذا الشروق غربا (المغرب-المستشرق أيضا)، كل هذا الفضاء المشرق أدخله في حتمية التسميات: "الشرق، المشرق، إستشراق، مستشرق"، وهذه التراكيب اللغوية المشتقة كلها من المصطلح اللاتيني (Orient) لم تكن عن سابق تصميم أو نابعة من جنس العمل الثقافي الذي تولد من الزحف إلى هذا الشرق، ولكن هذا المصطلح هو اعتباطي بامتياز تحول مع التحولات الكبرى في عالمنا إلى صنعة موهومة في الذهنية المشرقية بمغالطة غربية، فكان بحق كما قال إدوارد سعيد "الشرق الذي صنعه الغرب"، وهذه الجغرافية التخيلية لم تنشأ إلا من تاريخ هو الآخر أيضا كان تخيليا وباعثا على السعادة والحبور في نفوس الوافدين إلى الشرق وقد أغراهم الانبعاث مجددا في زخم تاريخه الحافل والعيش في مآثر تناقضاته الواسعة عبر بقايا من المخطوطات لم تعد تشغف عقل المشرقي، فتركها للإهمال والتلف ولصوص الحضارة النهمة المنطلقة خلف البحار.

ولعل تثوير إدوارد سعيد لظاهرة الاستشراق من داخل المنظومة الغربية وبرؤية مستغربة إلى أبعد الحدود هي التي ساهمت في إرجاع النظر في الخصيصة اللغوية لمصطلح "استشراق" الذي نبع من جغرافية تخيلية لا علاقة لها بالاستشراق الإنشائي الذي حصل لاحقا، فالمكون الأدبي له ومفرزات العقل الغربي عموما عنا ليس الإشراق أو المشرق منها في شيء، فهي حافلة بأوهام الرحالة الأوائل واكتشافاتهم التي صنعت العجائبية الغربية التي دفعت أمواجا من الهواة والباحثين و"المغتربين روحيا" إلى هذا الشرق للتنقيب في تراثه وإعمال

المنهج الديكارتي المبتكر فيه، لكن النتيجة كانت عكسية بما لم ينتج سوى تراثا آخر موازيا مليئا بالمغالطات التاريخية والدراسات المشوهة والتصورات المسبقة.

والاستشراق (Orientalisme) المشتق من شرق (Orient) لم يكن سوى تحويرا لفظيا غير مدروس البتة، مقارنة مع طبيعة البحث الاستشراقي الذي شمل جميع البلاد العربية شرقا ومغربا من أقصى آسيا إلى أقصى إفريقيا، كما خرجت موضوعاته من مجالات مشرقة وحالمة إلى مجالات صماء ومعقدة ومتداخلة إنسانيا مع جميع الثقافات والأديان والأعراق والأمكنة بما لا يجعلها حكرا على الشرق، ورغم ذاتية هذا البحث الغربي الخالص الذي لم يشاركه فيه صاحب هذا التراث إلا بمساهمات يسيرة ومتأخرة جدا ومتوافقة مع ذات المنهج المتشكك المتحفز (طه حسين كأقوى مثل لأخطر قضية:الشعر الجاهلي)، إلا أن هذا الغربي لم يتراجع قيد أنملة عن هذا المصطلح أو يعدل فيه بما هو حقيق أن يتسمى به، خاصة وأنه أصبح واضحا أن الاستشراق منذ بدايته ووصولا إلى العصر الحديث يمثل نفسية ومنهجية وذاتية غربية كَيَّفَ فيها الباحث والسياسي الغربي موضوعاته على هواه الخالص وعقائده ومصالحه المطلقة دون أدنى احترام أو تشاركية مزعومة على الأقل.

يري إدوارد سعيد أن الاستشراق بوصفه حقلا بحثيا جغرافيا جلي الدلالة، لا يحتمل أن يكون له مقابل دلالي اسمه "الاستغراب" كنوع من التناظر الوظيفي، لأن الاستشراق حقل ذو طموح جغرافي وافر وهو ما يشكل الموقف الخاص والشاذ للاستشراق، طبعا هذا على خلاف ما يراه آخرون كحسن حنفي ومحمد أركون والجابري وهاشم صالح، الذين يسعون إلى تكريس هذا المصطلح كدعوة لدراسة الغرب والغربيين على منوال دراستهم لنا، ولكن موقف إدوارد سعيد المتشكك ينطلق بدرجة أساسية من فكرة البعد والارتباط الكولونيالي الذي دفع البحث والباحثين باتجاه الشرق وهو الأمر الذي لا يتوفر في حالة الاستغراب، لا من حيث البعد الجغرافي والمكاني كما هو حاصل مع "الشرق" ولا من حيث التوجهات الإنسانية للباحثين المستغربين الذين لا يعملون وفق سياسة ممنهجة أو مخطط مسبق. فالاستشراق كما يقول علي بهداد:"**ما هو سوى قوة إنتاجية في علاقات السلطة الكولونيالية**".[17] كما يضيف إدوارد سعيد أن الاستشراق لا متناه في الأقسام والفروع فهو غير متمايز الملامح وبالتالي فإن ارتباط اللاصقة اللغوية [Ism] في كلمة الاستشراق [Orientalism] تؤدي وظيفة الإلحاح على تمييز هذا الفرع عن جميع الفروع الجامعية الأخرى.[18]

بعيدا عن المحددات المتعددة لمصطلح "استشراق" فإننا نجد أنفسنا بشكل أدق بين مصطلحين "استشراق مؤسسي" و"استشراق تَمَثُّلي" وهذا الأخير هو الذي جسده خيال الرحالة

والمكتشفون الأوائل الذين حاولوا تغريب الشرق المستعصي حسب نمطية أوروبية خالصة، فجاءت أعمالهم في كثير من الأحوال وربما -عن غير قصد- مزدانة بتناقض شديد بين الإبهار والتقزز، فكما قال مكسيم رودونسون (Rodinson Maxime):"**لقد جذبت أعمالهم الخيال الأوروبي وفتنت جمهورا واسعا للغاية** .... فقد كانت الصور المستعملة... **تتميز بمشاهد عنيفة وباذخة في تتابع وحشي من الألوان: حريم وقصور، أجساد مقطوعة الرأس، سفن شراعية عليها أعلام الهلال، قباب مستديرة فيروزية الألوان، ومآذن بيضاء صاعدة إلى السماء، وزراء وخصيان ومحظيات، ينابيع منعشة تحت أشجار النخيل، سبايا مسيحيات مع آسريهم الشهوانيين** ...."[19] كما لعبت صورة المرأة المسلمة دورا أساسيا في هذا التصوير الثقافي المشين الشهواني عن النساء، فهن مقموعات وخاضعات للإشباع الجنسي لرجال مسلمين قمعيين، وهي صورة نمطية معروفة ومكرسة عن المرأة والرجل العربي حتى يومنا هذا. وهذا الافتتان من الكتاب والفنانين الأوروبيين جسدته أكثر تلك الصور العارية والمكشوفة للنساء العربيات في ما يعرف بـ "الحريم" وقد ساهم التصوير الفوتوغرافي الضوئي لاحقا في تصوير المرأة العربية والحياة المشرقية أكثر بشكل غريب وغامض في شرق مثير ينحصر كما قال إدوارد سعيد في كوكبة من الأفكار الشرقية (الاضطهاد الشرقي، الأبهة الشرقية، القسوة الشرقية، الحواسية الشرقية).[20]

كل هذه التمثلات الضوئية والأدبية الوصفية سَرَّعت من توظيف هذا الاستشراق المُتَخيل والمبتذل إلى تأسيس الاستشراق الرسمي بمعناه المهيمن، حيث عملت الإمبراطوريات الأوروبية الصاعدة على تأسيس قاعدة علمية لها داخل الشرق، ومن هنا تأسست المعاهد والكليات المتخصصة في دراسة التراث العربي في الجامعات الأوروبية وتوالت البعثات الرسمية والممولة، ليبدأ عصر جديد للتدخل الأوروبي السافر في البلاد العربية، فكانت حملة الجنرال الشاب بونابرت على مصر سنة 1798 هي المفصل التاريخي الحقيقي والعملي لفرض السلطة الأوروبية على المشرق بعدما تهيأت لها الصورة الكاملة عنه من خلال دراسات وأعمال وصفية كان لها طابع المسح والاستقصاء لعلماء وباحثين ورحالة عملوا بشكل دائب على كتابتها وتصنيفها بما سهل إلى حد بعيد مهمة المستعمر الغازي، فقد كان من أهم مصادر وبواعث بونابرت على الزحف إلى الشرق رواية الكونت دو فونلي(De Vonly) عن رحلته إلى مصر وسوريا سنة 1787، كما أن غزو بونابرت نفسه الذي جاء بصحبة فريق كبير من الباحثين والعلماء تكلل بدراسة ضخمة عن مصر نشرت في مجلدات كثيرة بعنوان "وصف مصر" (Description de l'Égypte).

من هنا نجد أن الاستشراق بهذا التكون الغرب-شرقي قد أصبح كما يراه إدوارد سعيد منهجا أو أسلوبا فكريا واسعا للغاية وليس مجرد مكون معرفي بدأ استكشافيا وانتهى أكاديميا، إنه كما يعرفه سعيد:"**أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (إبستمولوجي) بين الشرق والغرب**".[21] وهو ما يعني أن الاستشراق نشأ بين عالمين أو حضارتين مختلفتين إلى حد بعيد وربما جوهري، بما يستحيل معها دراسة الشرق بنفس طرق ومناهج الغرب. كما أن التبادل بين الاستشراق التخيلي والاستشراق الجامعي الأكاديمي هو تبادل دائم خاصة مع بداية القرن التاسع عشر الذي أصبح الاستشراق فيه أسلوب غربي للسيطرة على الشرق،[22] ويجنح وإدوارد سعيد إلى معنى أكثر إنزياحا في مسألة الاستشراق عندما يقرر أن الثقافة الغربية حرصت على أن تضع نفسها منذ البداية موضع التضاد مع الشرق لتكون ذاتا بديلة، وهو بهذا يؤكد جوهرية فكرة الاستعمار القائمة على مشروع الاستشراق الثقافي والتي ربما عارضه فيها الكثير من المستشرقين كبرنار لويس الذي اعتبرها رؤية مبالغة تنم عن عدوانية.

ورغم ذلك يعترف سعيد بأن الاستشراق ليس استيهاما تخيليا فارغا عن الشرق، بل إنه جسد مخلوق من النظرية والتطبيق حتى تحول إلى نظام من المعرفة بالشرق وهذا هو ما دعاه إلى توظيف آليات فوكو في التحليل الإبستمولوجي لهذا الجزء المعرفي الهام من العالم في ظل عولمة كاسحة، إلى جانب منهج غرامشي([23]) في نظريته عن السلطة والإقرار.[24]

يسوق إدوارد سعيد مثالا شيقا ومعقدا في آن عن وظيفية الاستشراق الثقافي داخل منظومة التسلط الاستعماري ليحدد إبستيمولوجيا كيف تمت إدارة المعرفة من قبل هذه المنظومة، فيأتي بنموذج المستشار البريطاني كرومر([25]) كتقني وإداري حصيف للإمبراطورية الإنجليزية الذي استفاد جدا من الاستشراق في تحديد أنماط السياسة داخل إمبراطورية تكاد تسيطر على نصف العالم آنذاك، فالمشكلة في نظره كانت دائما هي كيف تستطيع بريطانيا وهي أمة من الأفراد أن تدير شؤون إمبراطورية مترامية لا تكاد تغرب عنها الشمس؟ وهنا كان يرى كرومر بأنه لا بد لهذه السلطة المركزية من آلة تهضم ما يغذيه به فروعها في الشرق (العلماء والباحثين) لتحوله إلى مزيد من القوة حيث يقوم المختص (السياسي) إلى ترجمة هذه المادة الشرقية إلى جوهر ذي فائدة: يصبح الشرقي، على سبيل المثال، عرقا محكوما مثلا، على عقلية شرقية.[26] ولم يكتف كرومر بهذه النصيحة أو هذا القاعدة بل لقد ساهم في كتابة مقالات عن "حكم العروق الخاضعة" التي استشف منه إدوارد سعيد أنه "**مادام الشرق ينتمي إلى عرق محكوم، فقد كان ينبغي له أن يُحْكَم**".[27] فكانت مثل هذه الأطروحات هي

أخطر مفاصل الاستشراق وتحولاته الراديكالية نحو إمبريالية تبريرية، لم تتأسس بوحشية فقط على مستوى المشرق، ولكنها روح أوروبية قديمة منذ أن رست أقدامهم يابسة العالم الجديد وربما كان وضعنا كمشرق (أي عالم عربي) أقل سوءا من إبادة الهنود الحمر. بل إن هذه الروح كانت مستمرة حتى ما بعد عهود الحرية، وعهود الثورة الفرنسية، فعندما غزا نابليون الثالث الجزائر كان النقاش الدائر في فرنسا حول مشروعية إبادة الأهالي، وكان السؤال: هل من الأفضل لنا أن نبيد ثلاثة ملايين جزائري، أو نرميهم في الصحراء؟ ولكن نابليون الثالث قرر أن يمنح الجزائريين "شرف الاستعمارية" فأعلن أمام الجمعية الفرنسية أنه سيكون إمبراطور الجزائر(العرب كما وصفهم) مثلما هو إمبراطور على الفرنسيين.[28]

تفكيك الاستشراق:

ليس المقصود بالتفكيك هنا المعنى السلبي الذي انزاح إليه هذا اللفظ في اللغة العربية والذي –للأسف- أعاق استخدامه أكثر كمصطلح فلسفي دالا على منهج فكري كامل تأسس في أدبيات الغرب ساهم أكثر في تسريع مرحلة ما بعد البنيوية، ولكنه تفكيك أقرب ما يكون إلى تفكيكية جاك دريدا (Jacques Derrida 1930-2004)، فنظرية التفكيك (La déconstruction) التي ينشأ عنها بالشكل العملي الإيجابي تركيب جديد للواقع هو ما تحتاجه المفهومية الاستشراقية ككل وليس بالمعنى التفكيكي لأدبيات هذا الاستشراق لأنها بذلك تخرج عن إطار "فلسفة النصوص" إلى إطار "فلسفة المفهوم".

رغم أن المهمة الأصيلة للمنقبين في تراثنا العربي لم تنته إلا بالشكل المعهود لها تاريخيا حيث أصبح يقودها جيش آخر من المستغربين المتنوعين ما بين غربيين وعرب من أبناء الجلدة تولوا بدورهم قيادة التنقيب والبحث في بقايا التراث العربي بذات المنهج والروح الاستلابية، إلا أن دعاوى منابذة المصطلح لوحت منذ عقود باتجاه ربما تغيير تكتيكي رغم تصريح أكثر من رائد في هذا المجال "بموت الاستشراق" كما هو الحال مع الجبهة الفرنسية بالذات التي تقود هذا المنحى التفكيكي لمصطلح "استشراق" بقيادة مستشرقين كجاك بيرك وأندريه ميكائيل بما يوحي "بعقدة ذنب" أو هروب من سلطة استشراقية عاتية تولتها هذه الجبهة على وجه الخصوص لأغراض استعمارية مهيمنة طوال الوقت، خاصة وأن هذه السلطة الاستشراقية الممتدة أوروبيا (إنجلترا، إسبانيا، بلجيكا، إيطاليا، ألمانيا) كانت لا تتمايز ولا تتنافر إلا في المجالات الضيقة، بما كانت تمارسه من قمع فكري وتوجيه منهجي لمجالات البحث بما لا يسمح لأي منصف أن يهدد هذه المؤسسة العاتية والشواهد التاريخية عن مفكري الظل أو المقموعين

داخلها كثيرة، بدأ من اللاهوتي الألماني الكبير يوهان ريسكه (1774-1716/Johann Reiske) الذي أطلق على نفسه "شهيد الأدب العربي"([29]) لمعاناته داخل المعسكر الاستشراقي،[30] وانتهاء ببعض الباحثين الموضوعيين المخلصين نسبيا من أمثال سيجموند هونكه وآنا ماري شمل وحتى هؤلاء بالمصادفة كلهم ألمان، إلا أن جهودهم بخست أو ظلمت من ذات الثقافتين فعلى الصعيد الأوروبي تكاد تكون هذه الأسماء وما قدمته من بحوث غير ذات قيمة علمية فعلية وعلى الصعيد العربي هم جزء من لبنات الجدار العازل الذي تشكل في وعي العقل العربي تجاه المعسكر الاستشراقي ككل.

وإن كنا لا نرى في هذا التجديد الاصطلاحي ما يمنع من تزاوج جدي وشرعي إذا صح القول هذه المرة بعيدا عن المسافحة والمخادنة الفكرية التي مارسها (الآخر-المفكر) مع بنات الفكر العربي بلا هوادة وبلا استحياء رغم الأصالة القوية والاكتناز العلمي الذي تميزت به قياسا على الزمن الذي كتبت فيه، إلا أن الروح العربية كانت منذ القديم-القديم تتنافر والروح العلجية (عرب وعلوج).

وقد يعكس هذا التجديد الاصطلاحي تثمينا -من قبلنا على الأقل- لجهود لا يمكن نكرانها علميا ومنهجيا وأيضا محوا لصفحات مظلمة من التاريخ المشين لمستشرقين أساؤوا أيما إساءة لعيون وجواهر خدشوها بقسوة من هذا التراث الهائل المُشَرِّف والذي رأوا بشهادتهم أنه لا يوجد له مثيل حقيقي في جميع أنواع التراث الإنساني.

طبعا لا يمكن درء فكرة المراوغة عن مثل هاته الدعوات خاصة إذا كان لا يزال يتنادى بها عات من عتات الاستشراق من أمثال المعمر لويس برنار الذي عرف عنه بأنه كان من أوائل الداعين لنبذ هذا المصطلح وهذا حسب رأيه لما يشتمل عليه من معاني ودلالات سلبية وأيضا للتخلص من حمولاته التاريخية التي تمثل عبئا على الباحثين المستجدين، كما أن هذا المصطلح لم يعد يعكس مسميات جهودهم الفكرية، ولكن هذه الدعوة التي صدرت من مثل برنارد لويس هي ليست جدية بالمعنى الخالص طالما أنه لا يعكس فعليا ذلك الباحث الموضوعي المتحرر من هذه الحمولات، فأمثاله لم وربما لن يتغيروا مطلقا من منهج التحامل والتزييف الذي مارسه هو عبر عقود طويلة من عمره المديد ومارسته المؤسسة الاستشراقية منذ عرفت وبالتالي فإن مجرد المراوحة الاصطلاحية لن يحرز تقدما حقيقيا باتجاه التصحيح الثوري الفعلي لمنهج الاستشراق ككل.

ولكن الاستعاضة عن مصطلح "استشراق أو "مستشرق" على وجه الخصوص باتت عمليا متوافرة ومتداخلة في آن واحد ضمن الأعمال المستجدة في حقل البحث التراثي خاصة

من قبل معسكر المستغربين-الجدد والمتلقين الخالصين من أمثال أركون والجابري وحنفي وغيرهم ممن أصبحت أعمالهم تعج بمصطلحات من عينة "مستعرب"، "إسلاموي"، "مستغرب" رغم أن هذه التغييرات الإجرائية لم تعدل كثيرا في المنهج الاستشراقي أو الاستغرابي الجديد سواء من طرفهم أو حتى من داخل المعسكر التقليدي، بل إن طينة المنهج زادت ابتلالا بعد أن أصبح يجترئ على الخوض في المسائل التراثية أدعياؤه من أبناه الجهلة على وجه الخصوص وهذا الاجتراء يتماهى إلى حد بعيد مع الحالة التي كان عليها جل المستشرقون منذ أزيد من قرنين عندما كانت تتملكهم الشجاعة الزائفة للبحث في تراثنا رغم افتقارهم للآلة اللغوية بما لم يمكنهم مطلقا من الوصول إلى غايات عميقة أرادها كتاب هذا التراث والتي لم يدركها حتى الكثير من أحفاد الأجيال السابقة من علماء كلام وفلسفة وفقهاء ومفسرين وأصوليين.

طبعا في أعقاب ما بعد استشراق "إدوارد سعيد" نشأت حركة تفكيكية كبيرة لتحليل النصوص ضمن ما يعرف بما "بعد الكولونيالية" كان الهدف منها مزدوجا ومتناقضا في ذات الوقت، ما بين من يؤكد وجود الشرق كنظام تمثلي للآخر (الغرب) كرس فيه أحادية متسقة أدت إلى تكوين كل ذلك التراث النمطي المنمذج عن الشرق المتخلف غير العقلاني وغير القابل للتغير (رينان-كرومر)، وما بين معترض على النظرة المتحاملة وغير العادلة للاستشراق والمستشرقين الذين حركهم البحث العلمي كما يؤكد برنار لويس بعيدا عن فكرة العمالة الكولونيالية وإن تم استغلال أعمالهم ورواياتهم التاريخية للشرق كوسائل لفهمه وتسييره لاحقا.

اليوم نجد أن الاستشراق عمليا قد دخل في طور جديد من الدراسات الملحة تحت مسميات جديدة، ليس لفهم الشرق التقليدي ولكن لفهم المسلم أين ما كان، خاصة فيما يتعلق بفهم النص المقدس(أصل الأصولية)، ولكن هذا الطور لم يعد يُعَلَّبْ في إطار الاستشراق الحالم المتخيل الممزوج بهيمنة الدَّارِسْ المتعالي والمتسلط الكولونيالي الذي كان طوال هذه الأحقاب الزمنية الاستعمارية يُجَيِّر تلك الأعمال والدراسات لمصلحته وتحديد سياساته التسلطية ليس في الشرق المبتكر والمتخيل فقط ولكن في عموم الجغرافيا الممتدة للعالم الإسلامي، وهذا الطور الجديد من البحث في تراث العرب والمسلمين عامة أصبح يتم اليوم بتشاركية واضحة من قبل أصحاب هذا التراث (عرب ومسلمين) ممن ملكوا زمام اللغات الأجنبية بما جعلهم مساهمين كبار في مراكز البحث الجامعي الغربي، وهذه المرة ليس لصالح كولونيالية محددة ولكن على الأقل كسعي لتحرير العقل المسلم من أعباء وتراكمات هذا التراث

وهذا هو ما يجعل ربما مسار الاستشراق يأخذا منحى جديدا وتاريخيا مقارنة مع مراحله التاريخية السابقة.

وهذا السعي لتحديث الاستشراق بدأ جديا مع تجدد النزعة الإسلامية في العالم الإسلامي رغم أيديولوجية العلمانية الطاغية، فنشأت مراكز غربية جديدة لبحث "الإسلام الصاعد" تحت مسميات جديدة:"دراسات الشرق الأوسط، الدراسات الآسيوية، الدراسات الإقليمية ..إلخ". ولكن هذه المحاولات المكشوفة لتغيير جلد الاستشراق لم تغير كثيرا من النمطية الثقافية، فهاهو لويس برناريكتب مجددا عن "جذور الغضب الإسلامي" الذي يغذي في نظره الحركات الإسلامية، مصورا أن الإسلام نفسه يكتنز بخطاب عدائي (صراع الكفار مع المؤمنين)، مما يزيد من مشاعر الكراهية تجاه أمريكا باعتبارها ممثلة للعلمانية والحداثة، وبالتالي نجد أن هذه المراكز الجديدة لدراسة العرب والمسلمين على توافرها وتنوعها لم تزد سوى من تكريس ثنائية الغرب والعالم الإسلامي من منظور استشراق جديد بعناصر أساسية للاستشراق التقليدي.

هوامش البحث

---

[1] زكاري لوكمان، **تاريخ الاستشراق وسياساته**، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، الطبعة 1، القاهرة، مصر، 2007. ص 297.

[2] على بهداد، **الرحالة المتأخرون: الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري**، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، الطبعة الأولى، أبو ظبي، 2013.ص 8.

[3] جاك بيرك، **لقاءات شخصية مع الثقافة الغربية**، حوارات عصام محفوظ، الدار العالمية، بيروت، 1983، ص 120-149.

[4] إدوارد سعيد، **الاستشراق**، ص 95.

[5] Edawrd Said, ***L'Orientalisme*: *L'Orient créé par l'Occident***, Paris, Le Seuil, 1980,Traduit de l'américain par Chatherine Malamoud. Titre Original :Orientalism, Londres,Routledge and kegan Paul, et New York,Pantheon Book 1978.

[6] ميشال فوكو، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1987، ص 168.

[7] اميل بنفنست، **سيمولوجيا اللغة**، ترجمة سيزا قاسم، مجلة فصول، عدد 3 أفريل 1981، القاهرة، مصر، ص 57.

8 عبد القادر فهيم الشيباني، معالم السيميائيات العامة: أسسها ومفاهيمهما، الطبعة 1، سيدي بلعباس، الجزائر. ص 15.

[9] مالك بن نبي، **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969. ص 16.

[10] بن نبي، المرجع السابق، ص 18.

[11] طيب تزيني، **من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي**، دار الذاكرة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى1996، ص 308.

[12] Humphreys, R. Stephen, ***Islamic History*: *A Framework for Inquiry***, London, p 67, 1995.

[13] عبد الرحمن بدوي، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، ص 6.

[14] عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993.، ص 313.

[15] غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الثالثة، 1984،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ص 31.

[16] فولفانغ غوته، **الديوان الشرقي للمؤلف الغربي**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 12.

[17] على بهداد، **الرحالة المتأخرون: الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري**، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، الطبعة 1، أبو ظبي، 2013. ص 5.

[18] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 92.

[19] Maxime Rodinson, ***Europe and the Mystique of Islam***, trans. Roger Veinus, University of Washington Press, 1987, p 59.

[20] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 32.

[21] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 30.

[22] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 32.

[23] أنطونيو غرامشي: Antonio Gramsci (1891-1937) فيلسوف ماركسي إيطالي، تخرج من كلية الآداب، حيث عمل بعدها ناقدا مسرحيا، لكنه سرعان ما انخرط في العمل السياسي بقوة حتى أصبح عضوا أساسيا في الحزب الشيوعي الإيطالي، فتم اعتقاله بأمر من موسوليني سنة 1924، فبقي في السجن حتى وفاته تحت التعذيب سنة 1937، وفي هذه الفترة كتب عمله الشهير "دفاتر السجن". وقد آمن غرامشي بدور المثقف في مواجهة السلطة.

[24] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 36.

[25] اللورد كرومر: Evelyn Baring Cromer (1841-1917)، واحد من مخططي السياسة الاستعمارية لدى الإمبراطورية البريطانية، خاصة في مصر التي سيطر فيها على زمام السلطات كمندوب سامي لأكثر من ربع قرن (1882-1906)، حيث وضع خططا شاملة للسيطرة على العالم العربي وفق تقارير شديدة العدائية والنظرة الدونية تميزت كلها بالأحكام المسبقة، من أشهر أعماله "مصر الحديثة" التي هاجم فيها الإسلام ودعا فيها إلى التغريب الخالص والتخلص من جميع المقومات من دين وأعراف، رغم أن بعض رجالات مصر والعالم الإسلامي شهدوا ببعض خصاله كسعد زغلول. Wikipedia, the free encyclopedia

[26] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 84.

[27] إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 259.

[28] بوعزيز يحي، ***"ثورة 1871"***، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975. ص 91.

[29] مومزن، كاتارينا، **جوتة والعالم والعربي**، ترجمة عدنان علي، عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص 256.

[30] تعرض المستشرق الألماني يوهان رايسكه إلى كثير من الاضطهاد من قبل بعض الأساتذة الألمان، وهذا لأن بعض هؤلاء الأساتذة كانوا يريدون إبقاء الدراسات العربية ضمن نطاق "الفيلولوجيا الدينية العبرية" التي كرست لتفسير العهد القديم (الكتاب المقدس/التوراة)، فقد كانت الجامعات الأوروبية ما تزال تحت سيطرة علماء اللاهوت. لهذا بدأ رايسكه في ممارسة الاستشراق العلماني الحر كهاو، وهذا ما حرمه من أي دعم أو مساعدة، فلم يحصل على وظيفة تناسب مقامه في هامبرغ. كان رايسكه ممن يمجدون الشرق الإسلامي بما أثار حفيظة الكثير من اللاهوتيين عليه. وقد كان يرى "أن من يريد أن ينهض بالعربية فعليه أن لا يتناولها تناولا لاهوتيا". كما أن رايسكه اعتبر العالم الإسلامي لا يقل مجدا وعظمة عن العالم الأوروبي، وكان يرفض التقليل من شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، بل كان يعتبر ظهوره وانتصار دينه وانتشاره في العالم شيء لا يمكن أن يرفضه العقل الإنساني، وكان ينظر إلى هذا الحدث التاريخي الكبير على أنه يدل على قوة إلهية عالية التدبير.(أنظر بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص 300).

مراجع البحث

1. إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، 2006.
2. إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1996.
3. بوعزيز يحي، "ثورة 1871"، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
4. زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، الطبعة 1، القاهرة، 2007.

5. طيب تزيني، من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي، دار الذاكرة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى1996.
6. عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.
7. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 3، 1993.
8. عبد القادر فهيم الشيباني، معالم السيميائيات العامة: أسسها ومفاهيمهما، الطبعة 1، سيدي بلعباس، الجزائر.
9. على بهداد، الرحالة المتأخرون: الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، الطبعة 1، أبو ظبي، 2013.
10. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1984.
11. فولفانغ غوته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
12. محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب: رهانات المعنى وإدارات الهيمنة، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1999.
13. مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969.
14. مومزن، كاتارينا، جوتة والعالم والعربي، ترجمة عدنان علي، عالم المعرفة، الكويت، 1995.
15. ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1987.

Références

16. **Maxime Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, trans. Roger Veinus, University of Washington Press, 1987.**
17. **Edward Said, *Orientalism*, Vintage Books, A Division of Random House, New York 1979.**
18. **Edawrd Said, *L'Orientalisme*: *L'Orient créé par l'Occident*, Paris, Le Seuil, 1980, Traduit de l'américain par Chatherine Malamoud. Titre Original :Orientalism, Londres, Routledge and kegan Paul, et New York, Pantheon Book 1978.**
19. Humphreys, R. Stephen, *Islamic History*: *A Framework for Inquiry*, London, 1995.

دور محمد البشير الإبراهيمي في الدفاع عن اللغة العربية في الجزائر من خلال مؤلفاته - بين المحافظة والإحياء -

the role of AL-Ibrahimi in Defending the Arabic language in Algeria through his writings between concervation and revival.e

علي حميداتو * محمد عطا الله **

تاريخ تقديم البحث **2017/12/15** تاريخ القبول **2018/01/23**

ملخص

يتناول هذا المقال قراءة فيخطاباتآحد آقطاب الجزائر الذي ارتبط اسمه باللغة العربية، وهو خطاب البشير الإبراهيمي، و الذي سنحاول من خلاله أن نبين مواطن أهتمامه باللغة العربية ،وبالضبط في تلك الفترة التي كان الاستعمار يحاول فيها طمس هوية الجزائريين ومن أهمها الدين واللغة فكان عمل الإبراهيمي هذا مشتملا على إحياء اللغة وبعثها من جديد ومحاولة تقديم الجديد في الساحة اللغوية والأدبية عامة.

الكلمات الدالة: خطاب - لغة - إحياء - آدب

Abstract

This article deals with a reading of the discourses of one of the poles of Algeria, whose name is associated with the Arabic language, the speech of Al-Bashir Al-Ibrahimi, through which we try to show his interest in the Arabic language, and precisely in that period when colonialism was trying to obliterate the Algerian identity, especialy religion and language This work of El-Brahimi includes reviving the language and resurrecting it again and trying to present what is new in language and literature in general.

Keyboard: discourse – language – revival – literature.

*جامعة البليدة2 الجزائر ،.

** جامعة البليدة2 الجزائر ،.

تمهيد :الشيخ محمد البشير الإبراهيمي .

مولده ونشأته :

كتب الشيخ سيرته بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عندما انتخب عضوا عاملا فيه سنة 1961م، وسنعمل هنا على الأخذ من تلك السيرة بالقدر الذي نحتاجه، وما يتماشى ومتطلبات بحثنا؛ وهو محاولة التعريف بمن هو محمد البشير الإبراهيمي باختصار.*

يقول الإبراهيمي عن نفسه:" أنا محمد البشير الإبراهيمي ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الرابع عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف، ويوافق الثالث عشر من يونيو سنة 1889م ". ووالده هو محمد السعدي طالب الإبراهيمي.

وهو من قبيلة تعرف بأولاد إبراهيم بن يحي بن مساهل، ويرفع نسب هذه القبيلة إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة، وبيته أحد البيوتات التي حفظت رسم العلم وتوارثته.

ويقول عن نفسه في ذلك :" نشأت في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت في التعلم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري على التقليد المتّبع في بيتنا... فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلمي القرآن وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه ... فلما بلغت تسع سنين من عمري حتى كدت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه ...".

وقد اعتنى به عمه " محمد المكي " عناية فائقة، وفتح له أبوابًا كثيرةً في العلم، فحفظ قدرًا كبيرًا من متون اللغة، وعددًا من دواوين فحول الشعراء، ووقف على علوم البلاغة والفقه والأصول، ولما مات عمه تصدَّر " البشير الإبراهيمي " لتدريس ما تلقاه لزملائه في الدراسة، وكان عمره حينئذ أربعة عشر عامًا.[1]

" في سنة 1911م استدعي لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي، فغادر الجزائر متخفيا ليلتحق بأبيه الذي هرب من الظلم الاستعماري واستقر بالمدينة المنورة منذ 1908م ".[2]

وهو في طريقه إلى المدينة المنورة مكث بالقاهرة مدة ثلاثة أشهر؛ إذ كانت فترة قصيرة، ولكن حضر فيها حلقات العلم بالأزهر الشريف،وكان ممن حضر لهم:" سليم البشرى " ،

و"محمد نجيب المطيعي " سمع له صحيح البخاري، و" يوسف الدجوي " في البلاغة، و" سعيد الموجي" دروسه في الموطأ، وزار دار الدعوة والإرشاد التي أسسها " رشيد رضا "، كما التقى في مصر بالشاعرين الكبيرين " أحمد شوقي " و" حافظ إبراهيم " .

وفي المدينة المنوّرة استكمل " محمد البشير الإبراهيمي " العلم في حلقات الحرم النبوي، واتصل بعالمين كبيرين كان لهما أعظم الأثر في توجيهه وإرشاده ، أما الأول فهو" عبد العزيز" الوزير التونسي، الذي أخذ عنه (موطأ الإمام مالك)، ولزم دروسه في الفقه المالكي، وأما الثاني فهو" حسين أحمد الفيض آبادي الهندي "، الذي أخذ عنه شرح صحيح مسلم، ومن شيوخه في المدينة المنورة أيضا " محمد عبد الله زيدان الشنقيطي " وقد أخذ عنه أنساب العرب وآدبهم الجاهلية، والسيرة النبوية، وكذلك " عبد الباقي الأفغاني " وقد أخذ عنه علم المنطق.

وفي أثناء إقامته بالمدينة المنوّرة التقى بـ " عبد الحميد بن باديس "، الذي كان قد قدم لأداء فريضة الحج سنة 1913 م، وقد ربطت بينهما المودّة ووحدة الهدف برباط وثيق، وأخذا يتطلّعان لوضع خطة تبعث الحياة في الأمة الإسلامية بالجزائر، وانضم إليهما " الطيب العقبي"؛ وهو عالم جزائري سبقهما في الهجرة إلى المدينة، والتقى الثلاثة في أيام متصلة ومناقشات جادة حول وضع الجزائروسبل النهوض بها، فوضعوا الأسس الأولى لإنشاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" .

وفي سنة 1916 م غادر" محمد البشير الإبراهيمي " المدينة المنوّرة إلى دمشق، وفيها عمل مدرسا في مدرسة السلطانية _ وهي المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك _، كما ألقى دروسًا في الجامعالأموي، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية.

رسالته في الجزائر:

عاد محمد البشير الإبراهيمي إلى بلده الجزائر سنة 1920م، وبعودته أنهى مرحلة التعلم والأخذ لينتقل إلى مرحلة العطاء، عاد الإبراهيمي وقد اختمرت في ذهنه فكرة الإصلاح، تلك الفكرة التي كانت قد انتشرت في المشرق منذ نهاية القرن 19م، وكانت موضوع اجتماعاته مع عبد الحميد بن باديس ومسامراتهما الليلية في المدينة المنورة على امتداد ثلاثة أشهر.

وكان ابن باديس قد شرع في تنفيذ الفكرة التي عزم عليها مع محمد البشير الإبراهيمي، الشيء الذي دفع الأخير بعد العودة مباشرة إلى الانطلاق في الدعوة والتعليم في مساجد قسنطينة التي استقر فيها، وقد سرّه ما رآه من بداية لنهضة إسلامية في الجزائر.

ومؤازرة لهذا السعي شرع الإبراهيمي في حركة علمية وإصلاحية واسعة؛ إذ أخذ يعقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس العلمية للجماعات القليلة، ثم الدروس المنظمة للتلاميذ الملازمين، كما أخذ يلقي المحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد متنقلا من بلدة لأخرى، ثم أنشأ مدرسة صغيرة بمدينة قسنطينة يمرّن فيها الشباب على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالعلم اللاّزم.

وكانت في تلك الفترة اتصالات وزيارات بينه وبين رفيقه في الجهاد والإصلاح عبد الحميد بن باديس، كان أهمها زيارة قام بها ابن باديس للإبراهيمي في سطيف واتفقا في إثرها على تأسيس جمعية الإخاء العلمي، ليواصلا العمل على إخراج جمعية العلماء من حيّز القول إلى حيّز الفعل، وفي 05 ماي 1931م كان الميلاد الفعلي لجمعية العلماء، فانتخب ابن باديس رئيسا والإبراهيمي نائبا عنه، وكلف الإبراهيمي بوضع لائحة داخلية لشرح أعمالها، وتبيين أهدافها فكتبها في مائة وسبع وأربعين مادة، وتلاها على الحاضرين فأعجبوا بها.

وتقاسم أقطاب الحركة الإصلاحيةالمسؤولية في المقاطعات الجزائرية الثلاثة، وتولى " البشير الإبراهيمي " مسؤولية (تلمسان) العاصمة العلمية في الغرب الجزائري، بينما اختص " عبد الحميد بن باديس " بالإشراف علىمقاطعة (قسنطينة)بما تضم من القرى والمدن، واختص " الطيب العقبي " بالإشراف علىمقاطعة (الجزائر).

وقد بلغت الجمعية من النشاط والنجاح والتفاف الناس من حولها، ما ولّد إحساسا بالتحدي لدى سلطات الاستعمار من طرف الجمعية، وأصدر رئيس وزراء حكومة المستعمر قرارا يقضي بنفي الإبراهيمي إلى آفلو بالصحراء الوهرانية الجزائرية وكان ذلك في العاشر من مارس سنة 1940م، وما مر إلاّ القليل من فترة منفاه حتى خبّر عن موت ابن بادريس _ عليه رحمة الله _.

واختار العلماء الشيخ الإبراهيمي رئيسًا لـ "جمعية العلماءالمسلمين الجزائريين"،وقد لبث الشيخ " البشير الإبراهيمي " في منفاه ثلاث سنوات، ثم خُلي عنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1943 م .

وبعدخروجه من المنفى أعاد الشيخ " البشير الإبراهيمي " نشاط الجمعية في بناءالمساجد وتأسيس المدارس، وإصدار جريدة " البصائر" في سلسلتها الثانية بعد أن توقفتأثناءالحرب، وتولى رئاسة تحريرها، وكانت مقالاته الافتتاحية فيها نسيجًا فريدًا متنوعهفي النبض العربي الإسلامي.

وقد عاد البشير الإبراهيمي إلىوطنه عند استقلال الجزائر، بعد أن كان غادره سنة 1952م وذلك من أجل التعريف بالقضية الجزائرية في العالم العربي، وتحقيق مصالح الجمعية، وكذا من أجل البحث عن منح للطلبة الجزائريين بالخارج، وكانت القاهرة هي محل استقراره،وبعد العودة خطب أول صلاة جمعة من مسجد (كتشاوة) بالعاصمة (الجزائر)، وكان هذا المسجدقدحوّله الاستعمار الفرنسي إلى كنيسة بعد احتلاله للجزائر.

ثم لزم محمد البشير الإبراهيمي بيته ولم يشارك فيالحياةالعامة بعد أن كبر سنه وضعفت صحته، وأثقلتهالسنون،وأوهنه المرض، حتى توفي - رحمه اللّه – يوم 19 ماي 1965 م، بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ، فخرجت الأمةتودعهبقلوب حزينة وأعين دامعة، تعبيرًا عن تقديرها لرجل من رجالات الإصلاح فيها،وأحدبناة نهضتها الحديثة.

آثاره ومؤلفاته:

لم يتسع وقت الإبراهيمي للتأليف والكتابة؛ وذلك للأعمال الكبيرة والمسؤوليات التي كانت على كاهله، ومع ذلك فقد ساهم بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعده لا الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلها مسودات في مكتبته بالجزائر.

كما قد سعى ابنه " أحمد طالب الإبراهيمي " بعد وفاة محمد البشير الإبراهيمي إلى جمع آثاره رفقة تلامذة والده، وطبعها في أجزاء تحت عنوان: (آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي)، فصدر الجزء الأول منها سنة 1978 م، ثم صدر الجزء الثالث سنة 1981م، ثم صدر الجزء الرابع سنة 1985 م، أما الجزء الخامس فقد صدر سنة 1994 م، في حين مثل الجزء الثالث كتاب (عيون البصائر).

ولكن ابنه " أحمد طالب الإبراهيمي " كان يعمل باستمرار على تنقيح هذه الآثار وعلى ترتيبها وفق تسلسلها الزمني، من خلال البحث عن المخطوطات المفقودة لمحمد البشير الإبراهيمي، سواء عند زملاء والده وأصدقائه في داخل الجزائر أو خارجها، أو عند تلامذته وبخاصة أولئك الذين شاركوا في حرب التحرير الجزائرية.

وإلى جانب هذا، فإن لمحمد البشير الإبراهيمي مؤلفات وكتابات أخرى غير تلك الآثار، منها:

* الملحمة الرجزية في التاريخ: وتبلغ ستا وثلاثين ألف بيت شعري، تتضمن تاريخ الإسلام والجزائر، ووصفا لكثير من الفِرق التي نشأت في عصر محمد البشير الإبراهيمي، ووصفا للاستعمار الفرنسي ومكائده ودسائسه.
* النقابات والنفايات في لغة العرب: جمع فيه كل ما جاء على وزن (فِعالة) من مختار الشيء ومرذوله.
* التسمية بالمصدر.
* بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر: والتزم فيها اللهجة السائدة إذ ذاك في مواطن هلال بن عامر.
* الاطراد والشذوذ في العربية .
* رسالة في: في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك.
* ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.
* رسالة في: ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.
* أسرار الضمائر العربية .
* الصفات التي جاءت على وزن "فُعَل".
* نظام العربية في موازين كلماتها.
* رواية كاهنة الأوراس.
* رسالة في: مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية.
* شعب الإيمان (في الأخلاق والفضائل).
* حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام.
* فتاوى متناثرة.

وهناك عدة محاضرات وأبحاث كتبها عنه تلامذته في حين إلقائها وهي كثيرة، وربما من بين أهم المقالات التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي؛ ما جمع في كتاب " عيون البصائر" والذي يمثل الصورة النموذجية لما كتبه الإبراهيمي.

عيون البصائر:

هي مجموعة من المقالات الافتتاحية التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي في السلسلة الثانية من جريدة البصائر، وجمعت فيما بعد في كتاب واحد هو " عيون البصائر"؛ إذ أن جمعية العلماء أصدرت جريدة البصائر في سلسلتها الثانية سنة 1947م، وهي صحيفة جامعة تعبر عن الاتجاه الإصلاحي السلفي الذي تتبناه الجمعية، وهي تتناول مواضيع ثقافية وعلمية وأدبية وسياسية وغالبا ما يحمل كل عدد منها افتتاحية بقلم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها محمد البشير الإبراهيمي الذي هو في الوقت نفسه رئيس جمعية العلماء، ووصفت بأنها كانت محل إعجاب في المشرق والمغرب لتنوع مواضيعها ورقي أسلوبها.[3]

وكان محمد البشير الإبراهيمي يثير في افتتاحيات البصائر قضايا ذات بعد كبير مثل قضية فصل الدين عن الدولة، والعدالة تحت الاستعمار، وعلاقة الطرق الصوفية بالإدارة الفرنسية، كما اهتمت البصائر بالتعريف بالتراث والمدن والعلاقة الحضارية مع الشرق، والمواسم الدينية والتراجم التي تذكر الأمة بأمجادها وتاريخها.

وبعض قيمة تلك المقالات أنها أرادت تأكيد معنى أساسي كان أبرز المعاني الجوهرية في حركة الإصلاح وفي حركة الثورة، ذلك هو الرجوع إلى الأصالة، بالدفاع عن دين الجزائر ولغتها وشخصيتها، وتثبيت ذلك في نفوس الأجيال الجزائرية التي كانت في المعركة، أو التي كانت في النضال؛ أي التي كانت تخوض المعركة ضد الاستعمار والتي كانت تتأهب لخوضها.[4]

وفي تلك الفترة أو المرحلة التي كتبت فيها المقالات ارتبط نسق التفكير عند محمد البشير الإبراهيمي بهموم الواقع؛ إذ صارت كتاباته نسقا بأبعاد واقعية، تستحيل فيها تجربته الفكرية إلى معين دلالي وحضاري يبلور به المشكلات، ويكشف به عن مسوغات القهر والانحطاط التي لحقت بالجزائر وبالمسلمين من حولها، كالحرب العالمية الثانية مثلا.

لذلك اتسمت المقالات التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي بميزات خاصة، منها:[5]

1- المنهجية الدقيقة والعرض المنطقي.
2- الجمع بين جمال الصياغة والتعبير عن الفكرة.
3- الرساليَّة.
4- السخرية الحادَّة واللهجة العنيفة عند المناقشة.
5- ظاهرة الاقتباس والتضمين.

وعليه فالخطاب الفكري والمعرفي في تلك المقالات يبدو متميزا بمجددات اتجه فيها صاحبها إلى اكتناه عناصر الصراع ومدى تجسدها في الحاضر، والموضوعات التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي في تلك المرحلة _ فترة كتابة المقالات _ مؤشر لقدرته على تتبع الأحداث والوقائع وقراءتها قراءة عميقة.[6]

ويمثل المجال الإصلاحي حوالي 44% من مجموع موضوعات مقالات محمد البشير الإبراهيمي،* والسبب في العناية بهذه الموضوعات هو الأوضاع التي كان يعيشها المجتمع الجزائري في عصره، والرسالة التي كان يحملها هو لإنقاذ بلاده.

وكتابات محمد البشير الإبراهيمي الإصلاحية متنوعة تشمل مختلف مجالات الحياة؛ منها ما يتعلق بمجال الدين، ومنها ما يتعلق بقضايا أخرى أساسية في عملية الإصلاح، كقضية التعليم والتربية وقضية بناء مستقبل الأمة وغيرها، " ومن خصائص تلك الكتابات الإصلاحية، التفكير الموضوعي المنهجي الواضح، والتحليل المنطقي المقنع، والعنف في مواجهة الخصم، والحكمة في إبلاغ الوعظ والنصيحة "[7].

وبنيات الفكر الإصلاحي عند محمد البشير الإبراهيمي جيدة، لما تحمله من سمات منهجية ومعرفية أجلها الاجتهاد السني الذي أسس به _ مع مجموعة من العلماء _ لفكر إصلاحي إسلامي، يمكنه أن يخوض في مشكلات الواقع بوعي موصول بالإسلام، كما حاول أن يلامس المشكلات الإسلامية بجرأة كبيرة، سواء أكانت مشكلات فقهية أو فكرية أو فلسفية أو سلوكية.[8]

وقد اعتمد محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته المنهج التجديدي العقلي الاستدلالي، وذلك في مقارعة الحجة القائمة على التحليل، والعرض الاستنباطي، وقد ابتعد عن المنهج الخطابي الجدلي العقيم، وإنّه لمنهج فريد في فلسفة المعنى، " ولعل أبرز ما يستوقف الدارس في طريقة المحاججة والمحاورة... هو استنادها إلى منطق استخراج الحجة من مقدمات الخصم، مع أنها خاطئة في أساسها "[9].

أمّا سر إبداع محمد البشير الإبراهيمي فيكمن في هذا التركيز الشديد على الاختيار أولا ثم الاستيعاب والتأمل والتذوق ثانيا، وعلى هذه الطريقة الصعبة التي أخذ بها نفسه منذ الصغر وهي بناء قاعدة صلبة من المعارف اللغوية والأدبية والتاريخية.[10]

وقد بلغ الأمر ببعض الدارسين إلى تسمية مقالات محمد البشير الإبراهيمي التي جمعت في كتاب " عيون البصائر " بأنها مدرسة، وقد اتسمت هذه المدرسة _ أي عيون البصائر _ بمميزات ومعطيات عدة، يمكن حصرها فيما يلي:

1- كَوْن مدرسة [عيون البصائر] تمثل طرازا ثقافيا فريدا في أدبه وفنه، يمثل حلقة وصل بين التراث العربي القديم في بلاغته وسجعه ورجزه وشعره، وبين المقالة الأدبية المعاصرة الملتزمة بالتجديد في المبنى والمعنى؛ من حيث التقيد بأسلوب التحليل، وطريقة الاستنباط ومنهجية الإقناع بالحجة والدليل.

2- إن محمد البشير الإبراهيمي بـ[عيون البصائر] قد مثل الثقافة الموسوعية، التي تأخذ من كل جانب بنصيب، فهي تجمع بين الأدب والفقه والفلسفة والتاريخ وفي الإعلام، في قالب من النثر أو السجع أو الرجز أو الشعر.

3- تمثل [عيون البصائر] أحد أهم مرجعيات تاريخ المقاومة الثقافية والسياسية في الجزائر خصوصا، وفي الوطن العربي والأمة الإسلامية بوجه عام، ففي كل مقالة من مقالاتها تذكير بما كان يحدث على جميع الأصعدة السياسية والثقافية والدينية في جميع الأوطان العربية أو الإسلامية.

4- الربط المحكم في هذه المدرسة بين الأصالة ومتطلباتها اللغوية، والعقدية والوطنية، والحضارية، والاعتماد على هذه الأصالة في مقاومة الظلم والغزو، والاستعمار بجميع ضروبه وأشكاله.

5- الموضوعية العلمية في عرض الوقائع، والوقوف على ما هو إيجابي منها، وما هو سلبي، ثم عرضه بعد ذلك على ميزان المنطق والقناعة والإنتماء.

6- الكشف عن معجم لغوي وسياسي خاص في أسلوب محمد البشير الإبراهيمي، مما يساعد قارئه على تفتق الذهن، وتوسيع مدركات العقل، وتقعيد المفاهيم.[11]

6- قراءة لبعض ما جاء في مؤلفاته:

يعنون البشير الإبراهيمي مقالا له بـ " اللغة العربية في الجزائر عقلية حرة لبس لها ضرة "، مستفتحا مقاله قائلا:" اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة؛ بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل... "[12].

ويقول في موطن آخر:" هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيّرته وطنا واحدا، لم تفرّقه إلا السياسة..."[13] ذلك في سياق كلامه عن « عروبة الشمال الإفريقي » كما هو عنوان المقال.

في تعليقه على لجنة " فرانس – إسلام " يقول معاقا عن كيفية تركيب كلمتين لا يمكن لهما التركيب، مستندا في ذلك إلى أنواع التركيب في اللغة العربية، وأن هذا التركيب " فرانس – إسلام " لم يجد له نوعا يمكن إدراجه ضمنه، بقول في ذلك:" كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة، فجاءت كل واحدة منهما ناشزة على صاحبتها نابية عن موضعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية، ولا يقبله الذوق العربي.

في العربية تركيب الإسناد، والإسلام لا يرضى أن يسند إلى فرنسا الاستعمارية، ولا أن تسند هي إليه، وفي العربية التركيب الإضافي، والإسلام لا يسمح أن يضاف إلى فرنسا، ولا تضاف هي إليه، وفي العربية التركيب الوصفي، والإسلام لا يقبل أن يصف بالفرنسي ولا أن توصف فرنسا بـ « الإسلامية »، وفي العربية التركيب المزجي، والإسلام وفرنسا كالزيت والماء لا يمتزجان إلا في لحظة التحريك العنيف، ثم يعود كل منها إلى سنته من المباينة والمنافرة "[14].

كما عمل الإبراهيمي على التخريجات اللغوية واعتماد معناها في كلامه، من مثل ذلك قوله:" أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسها في معناها مادة التولي... وهي في الاستعمال الشرعي جارية على استعمالها اللغوي وهو – في جملته – ضدّ العداوة، لأن العرب قول وَالَيْتُ أو عاديت، وفلان ولي أو عدوّ، وبنو فلان أولياء أو أعداء، وعلى هذا المعنى تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي "[15].

مثل ذلك قوله:" الجائر الثائرة لأنه وصف صادق على الجائر، مطابق لحالتا الذاتية الدائمة بمعنييه اللغويين، فهي ثائرة بالصفة المشتقة من الثرة وهي ثائرة بالفهم المشتق من الثأر، والعرب يقولون لكل خارج على مألوف عرفي هو ثائر، كما يقولون لطالب الثأر وللآخذ به ثائر، مع اختلاف المادتين في أصل المعنى، لأن من بدائع لغتهم تلاقي المادتين المختلفتين على الوصف مثل: سال وسأل يلتقيان في سائل، وثار وثأر يلتقيان في ثائر "[16].

قراءة الإبراهيمي لشعر أحمد شوقي وكلامه عنه في أكثر من موضع يدلل على اهتمامه بالشعر خاصة الهادف منه، فلقد ذهب إلى قراءة شعر شوقي تحت عنوان " الدين في شعر شوقي "[17] واستخلص وخلص إلى العديد من النتائج المتعلقة بشعر شوقي والمرتبطة بالدين واللغة والفكر، وهي قراءة توحي بذوق الإبراهيمي الراقي وتمكن اللغوي وقدرته على القراءة الصائبة والاستنباط الحكيم.

يقول الإبراهيمي*:

فإن شئتموا أن تسمعوني محاضرا أحاضركم عن حضرة الغوث والقطب

هنالك يدري الجاهلون حقيقتي ويهتز ناديكم ويعرف ما خطبي

وإن سكوتي مسحة مستعارة من (المدفع) الصخاب والصارم الشطب

*** *

أنا المرء لا أعطي إلى القطب مقودي ولو دفعتني الحادثات إلى القطب[18]

الإبراهيمي في هذه الأبيات وكأن به يعارض المتنبي في قوله:

أنا الذي نضر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

رغم معارضة الإبراهيمي إلا أنه لم يتناول الجاني القتالي كما عند المتنبي، وإنما الكلام عن الخطابة والفصاحة .

ومثلها فعل الإبراهيمي في الرسالة – سماها العزيمة** - التي بعث بها إلى الشيخ " العربي التبسي " سنة 1941 لما كان في منفاه بـ " أفلو " بالجنوب الوهراني، وقد كتبها على طريقة " اليقَّاشِين ". يقول " الحسن البغدادي القادري " الذي قدّم لهذه " العزيمة " – أي الرسالة -، والشخأملها عنه هو في زيارة له في المنفى، يقول:" أنشئت هذه « العزيمة » على طريقة مشاهير« اليقَّاشِين » المعروفين من طلبة علم الجدول والأوقاف، وأصحاب التمائم والعزائم، للتحكم في أمر الجانّ، وإخراج العفريت من جسد الإنسان، والتغلب عليه لتصريفه في كل شان، بأسماء القهروالزجرللاذعان، وتذليله بكل ما يُرعب ويُخيف، من كل أمرسخيف، وكل شرير خبيث، في العالم القديم والحديث "[19].

وقد كتب الشيخ الإبراهيمي هذه العزيمة – الرسالة – بلغة عربية فصيحة رزينة، وبأسلوب هزلي مرح، أدى من خلاله الغرض المطلوب وأحيى جنسا أدبيا كان مفقودا.

كتب الإبراهيمي روايته الشعرية " رواية الثلاثة "***، وهو جنس أدبي غير معروف أبدع فيه الإبراهيمي، وما يميز هذا العمل هو اللغة التي كتب بها والأسلوب، فقد أورد فيها الكثير من الكلمات الغريبة القليلة الاستعمال وقصد ذلك إحياءه لها، ودفعا لاستعمالها، وتميزت رواية الثلاثة بالأسلوب الذي كتبت به، أسلوبا أدبيا رصينا متماسكا مترابط البنية والتراكيب لا غرابة فيه، واضح سهل ممتنع، يوحي بتمكن الإبراهيمي من اللغة العربية واستعمالها؛ بل هو مبدع في استعمال اللغة وابتكار أساليب جديدة في الكتابة الأدبية.

والإبراهيمي من خلال " رواية الثلاثة " سعى إلى التجديد في الأجناس الأدبية المألوفة عند الجميع، وأضاف الجديد إلى ساحة الإبداع الأدبي، هذا إضافة إلى حفاظه على المعنى والغرض الذي من أجله كتب، مع أنه يبدو من خلال توقيت كتابتها أن الإبراهيمي كان يتسلى بكتابتها، وذلك لأنه كان في منفاه بأفلو سنة 1941.

يقول الإبراهيمي مقدما لهذه الرواية:" هذه – أكرمك الله – رواية الثلاثة، وهي أرجوزة أكثرها « لزوم ما لا يلزم » تمثل حالة ثلاثة من الأساتذة، لا يُدفعون عن فضل ولا أدب ولا ذكاء وما فيهم إلا بعيد الأثر في الحركة الإصلاحية، واسع الخطى في ميدان تعليم الناشئة وتربيتها... وكان لهم شيخ يقارضونه... الثلاثة هم: الشيخ السعيد بن حافظ مدير مدرسة التربية والتعليم الحرة بقسنطينة، والأستاذان: عبد الحفيظ الجنان، ومحمد بم العابد (الجلالي)، المعلمان بها، وشيخهم هو مؤلف الرواية "[20].

7- خصائص نثر الإبراهيمي من خلال مقاله " العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية "[21]:

1/- أن موضوع المقالة موضع تاريخي في الأصل، يتحدث فيه عن اللغة العربية وأصلها، وأصل نشأتها، يقول:" وإن هذا الموضوع الذي سامني الأستاذ الكتابة فيه موضوع علمي تاريخي "[22].

2/- أنه عمد إلى كتابتها كتابة أدبية رصينة قوامها الخيال إلى جانب الحقيقة التاريخية ورمى من خلاله الإبراهيمي إلى وضع روح اللغة العربية في نفوس سامعيها قصد إثارة الحماسة فيهم، قوله:" لذلك كله سلكت في الكتابة مسلكا أدبيا يستمد من الخيال أكثر مما يستمد من الحقيقة ويعتمد على الخطابة أكثر مما يعتمد على البرهان، ويرمي إلى إلهاب الحماس في نفوسكم أكر مما يرمي إلى تقرير الحقائق فيها"[23].

3/- أن أصل اللغة العربية هو السامية، وهي ضاربة في القدم.

4/- أن اللغة العربية ظهرت في شبه جيرة العرب، وهو ما تماشى مع محاسن الفطرة في الجيرة.

5/- أن اللغة العربية ترجمان صادق لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شاهدها العرب بجيرتهم.

6/- تتميز اللغة العربية عن غيرها من لغات العالم بـ " الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها "[24].

7/- " أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان، ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات "[25]وهو ما لم تستطع أن تقوم به لغة أخرى غير العربية لوحدها ما لم تساندها لغات أخرى.

8/- أن العربية لسان حضارة إسلامية لا تبيد، ومدنية مبنية على حكم الله وآداب النبوة.[26]

9/- " لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند..."[27].

10/- " لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون. قامت العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع "[28].

11/- أن اللغة العربية لم تخدم مدنية خاصة أو أمة خاصة دون غيرها، وإنما خدمت كل الأمم، كما لم تخدم علما دون آخر، فقد خدمت الدين كما خدمت الطب وغيرهما من العلوم الأخرى[29].

هوامش البحث

---

[*]- تم جمع هذه المعلومات حول حياة الشيخ " الإبراهيمي " نقلا عن: البشير الإبراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة 01 ، 1997 ، مقدمة الجزء الأول .

[1]- ينظر: بشير كاشهالفرحي، محمد البشير الإبراهيمي شيخ العلماء وفارس البيان، دار الآفاق، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص 22، 23.

[2]- سعيد بورناد،شخصيات بارزة في كفاح الجزائر (1830– 1962)، دار الأمل، تيزي وزو، ط2، 2004،ص 131.

[3]- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1954– 1962)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج10، ط1، 2007، ص 197.

[4]- ينظر: البشير الإبراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم: الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1، ج3، 1997 ص 37.

[5]- ينظر: عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 37.

[6]- ينظر: عمر أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي _ قراءة في ظل البنية والمتغير _، دار الهدى، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص 71.

[*]- اعتمدت هذه النسبة بناءا على دراسة قام بها عبد الحميد بوزوينة، راجع ذلك في كتابه: بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، ص 10.

[7]- عبد الملك بومنجل، مرجع سابق، ص 80.

[8] - ينظر: عمر أحمد بوقرورة، مرجع سابق، 37.

[9]- عبد الرزاق قسوم، محمد البشير الإبراهيمي مهندس لفظ... وفيلسوف معنى (دراسة)، مجلة الموافقات، الجزائر، ع 4، السنة الرابع، 1995م، ص 431.

[10]- ينظر: محمد ناصر، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من خلال نثره الفني (دراسة)، المرجع نفسه، ص 446.

[11]- ينظر: عبد الرزاق قسوم، مرجع سابق، ص 440 ، 441.

[12]- الآثار، ج3، ص 206.

[13]- الآثار، ج3، ص 429.

[14]- الآثار، ج3، ص 350.

[15]- الآثار، ج5، ص 68.

[16]- الآثار، ج5، ص 236.

[17]- لقراءة ذلك والاطلاع يرجى الرجوع إلى الآثار، ج5، ص 201- 209.

[*] - من قصيدة للأستاذ الإبراهيمي، نشرت بجريدة البصائر، السنة الأولى، العدد 43، 13 نوفمبر 1936.

[18] - الآثار، ج1، ص 288.

[**] - لقراءة هذه الرسالة والإطلاع عليها يراجع: الآثار، ج2، ص (103 ـ 107).

[19] - الآثار، ج2، ص 103.

[***] - كتب الإبراهيمي رواية الثلاثة بأفلو منفاه سنة 1941، بعد أن انقطعت عنه رسائل تلاميذ الثلاثة وحرم من مراسلاتهم، وهم: الشيخ سعيد بن حافظ، والأستاذ: عبد الحفيظ الجنان، والأستاذ: محمد بن العابد (الجلالي)، وشيخهم هو كاتب الرواية البشير الإبراهيمي. لقراءة الرواية والإطلاع عليها، يرجع إلى : الآثار، ج2، ص (59 ـ 102).

[20] - الآثار، ج2، ص 59، 60.

[21]- راجع: الآثار، ج1، ص 373 – 380.

[22]- الآثار، ج1، ص 373.

[23]- الآثار، ج1، ص 373.

[24]- الآثار، ج1، ص 374.

[25]- الآثار، ج1، ص 374.

[26]- ينظر: الآثار، ج1، ص 375.

[27]- الآثار، ج1، ص 376.

[28]- الآثار، ج1، ص 376.

[29]- ينظر: الآثار، ج1، ص 378، 379.

مدعمات التعلم الذاتي وفق المنحى المعرفي

Self-learning support in accordance with the cognitive approach

أم هاني رحماني*

تاريخ تقديم البحث **2017/10/04** تاريخ القبول **2018/1/12**

ملخص

صاحب الاهتمام بالتعلّم الذاتي (l'auto-apprentissage) حركات التجديد في التربية والتعليم التي ظهرت مع بداية القرن العشرين كثورة على التربية التقليدية، حيث استهدفت نقل محور الاهتمام في العملية التعليمية والتعلّمية إلى المتعلم باعتباره العامل المحرّر لها من الممارسات والأساليب العقيمة التي سيطرت عليها ردحا من الزمن، وسعت من خلال التركيز عليه إلى إرساء قواعد التعلّم الحقيقي الذي لا ينجم عن تزويده بالحقائق والمعلومات إنّما مساعدته على اكتشاف خصائصه وقدراته الفردية التي من شأنها أن توصله إليها، وتمكنه من تحقيق ذاته وبناء شخصيته التي تعدّ القوة الدافعة له في تعلّمه وفي تعامله مع بيئته، وقد تمخض هذا التوجه وتحدد منحاه خاصة عن المعطيات والحقائق التي أفرزها الحقل المعرفي والتي أكدت على دوره الوظيفي والأساسي، وعلى المسؤولية الملقاة على عاتقه في تحصيل وبناء معارفه.

الكلمات الدالة: التعلم الذاتي، الفرد المتعلم النشاط المعرفي، النظريات المعرفية.

Abstract

Self-learning appeared within the renewal movements in education that emerged at the beginning of the twentieth century as a traditional education which aimed to transfer of attention focus into the learning process to the learner, as the liberator of the useless practices and methods controlled by comment through the focus of time, it sought to establish the rules of real learning, which is not the result of providing him with facts and information but helping him to discover his individual abilities that will reach and enable him to build his personality which is the driving force of this approach has resulted in the granting of a special orientation to the data and facts produced by the field of knowledge, which emphasized the role of both the individual and the learner, and the responsibility entrusted to him in the construction of his knowledge.

Keyboard: self-learning, learner individual cognitive activity, cognitive theories

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الأداب واللغات ، جامعة الجزائر 2، الجزائر .

مقدمة

شهد العالم في السنوات الأخيرة جملة من التغييرات العميقة التي أفرزت تحديات كثيرة ذات أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، شكلت في مجملها منطلقا لدعوات عديدة جوهرها إعادة النظر في الأنظمة التعليمية السائدة بمدخلاتها وعملياتها ومخرجاتها والعمل على إصلاحها بما يتوافق والمتطلبات المعاصرة، والحقيقة أنه لا يمكن وصف هذه التغييرات بأقل من كونها ثورة شاملة في علاقة المجتمعات بالتعليم، ذلك أن الموارد الطبيعية والمادية على اختلافها وتنوعها لو توارت أو حجبت لبرزت المعرفة كأهم مصدر من مصادر القوة الاجتماعية، ولأصبحت تنمية الإطارات البشرية التي تنتج هذه المعرفة وتوظفها هي العامل الحاسم في تحديد مدى تطور مجتمع دون آخر، فالفرد المفكر هو الذي سيغير وهو الذي سيضيف ويبدع، والأمة المتقدمة هي الأمة العارفة بغض النظر عن حجم مواردها أو تعداد سكانها، وبناء عليه جاز القول بأن علاقة التطور والرقي بالتعليم علاقة اطرادية، وأن الاستثمار في هذا المجال هو من أكثر الاستثمارات عائدا على المجتمعات، وقد أدركت الأخيرة هذه القاعدة وبأن مصيرها رهين إبداع أفرادها ومدى استجابتهم لمتطلبات العصر، ما جعل جهودها تتجه نحو البحث عن السبل والوسائل التي تحقق هذه الغاية من خلال إعادة النظر في البنى التعليمية والقواعد التي تتأسس عليها، ومن ثم الاهتمام بأبرز معلم فيها ألا وهو الفرد المتعلم،كونه عمودها الفقري الذي تتأسس عليه ومحورها الرئيس الذي تدور حوله جميع مركباتها وعناصرها وفعالياتها والأهداف التي تصبو إلى تحقيقها، وقد انجر عن الأمر استئصال الثوابت والقيم القاصرة التي تعلقت به ردحا من الزمن وتم تعويضها بمبادئ أخرى تخدمه وتخدم مجتمعه في خضم الصراع العلمي والمعرفي الكبيرين، كان من أهمها تعدي فكرة التعليم التي لم تعد تجد لها مكانا ضمنه إلى مبدأ التعلم الذاتي الذي يستدعي تجاوز الغاية المقتصرة على اكتساب المعارف والمعلومات إلى تنمية المهارات والقدرات المؤدية إليها، وتكوين الشخصية القادرة على التفاعل والتكيف مع يطرح من مستجدات وفق ما تقوم به من ممارسات ذاتية، بموجب ذلك نبذت التربية المعاصرة جميع الممارسات التقليدية التي حجبت دور الفرد المتعلم وركزت بالمقابل على مركزيته وإيجابيته، ولم تعد تنظر إليه كعنصر حيادي ينطاع للمناهج والبرامج التي تفصّل بهدف شحنه بها أين يقتصر دوره على الحفظ والترتيب والاسترجاع وفق ما يقدم له من توجيهات وتصويبات، بل عنصر نشط فاعل في العملية التعليمية وموجه لها بما يحرّكه من دوافع وميول ورغبات، وبما

يمتلكه من مركبات فكرية ومعرفية ومثل ذهنية وما يستغله من استراتجيات يوظفها لبناء تعلّماته، عنصر قادر على تحمل مسؤولية تعلّمه وعلى اضطلاعه بتحقيقها بنفسه واتخاذ القرارات الحاسمة المتعلقة به.

لقد فرضت هذه التغييرات أن يكون التعلم الذاتي حاجة ملحة ومطلبا أساسيا لا مناص من ترسيخه وتأصيله لدى النشء، ذلك أن هدف التربية الأول والأخير هو تكوين أفراد إيجابيين منتجين للمعرفة لا مستهلكين لها، وهذا لا يتحقق إلاّ إذا حرّرت إرادة الفرد المتعلم وقدراته، ودعم شعوره بالمسؤولية والاستقلالية.

أولا: أهم القواعد المعرفية المدعمة للتعلم الذاتي

يشير التعلم الذاتي [1] إلى النشاط المعرفي الذي يؤدي بالفرد المتعلم إلى بناء وخلق وإبداع تراكيب وبنى ضمن منظومته المعرفية نتيجة تفاعله الذاتي مع الخبرات، حيث يتجاوز الأمر جملة المحددات الخارجية التي تسمح بنقل المعلومات والمعارف إليه إلى القدرات الداخلية الكامنة فيه، والتي تشكل أطرا تفسيرية وإدراكية تتيح له بناءها ذاتيا في وضعيات ذات دلالة اعتمادا على ما يختزنه ذهنه وما يتوافر من موارد، توجهه في ذلك جملة الأهداف التي يصبو إلى تحقيقها، ويتأسس الأخير على استقلاليته - الفرد المتعلم- وقدرته على تحمل مسؤولية التعلم واضطلاعه بتنظيمه وتحقيقه بنفسه، توافقا مع دوافعه ورغباته وحاجاته وسرعته وإمكاناته الخاصة، ويتحدد منحاه وفق ما يوظفه من عمليات (معرفية وما وراء معرفية)، وما يتخذه من أساليب واستراتيجيات يستغلها حين الاندماج في مختلف المهام التعليمية حلا للمشكلات وتجاوز للصعوبات التي تعترضه، بغية إحداث تغييرات إيجابية في بنياته العقلية المعرفية ومهاراته الأدائية العملية.

وقد طرحت السيكولوجيا الحديثة جملة من الافتراضات التي تعد ركيزته، والتي تجعل منه توجها خاصا يهتم بالعمليات العقلية والمعرفية التي يوظفها الفرد لبناء تعلماته على نحو مستقل نذكر من أهمها:

- إن الفرد المتعلم كائن نشط وفعال لا ينتظر وصول المعلومات والمعارف إليه بل يسعى هو إلى تحصيلها بنفسه عن طريق ما يقوم به من نشاطات وما يعتمد عليه من خبرات سابقة يستغلها ليعالج معرفيا ما يتلقاه ويستخلص المناسب، ويسمح له هذا الأمر ببناء التمثلات التي تحدد أنماط سلوكاته وتوجهها في المواقف المختلفة.

- تتم المعالجة المعرفية على مراحل أساسية هي " الترميز والتخزين والاسترجاع وتخضع لعدد من التحولات التي يحددها النظام المعرفي اعتمادا على الهدف من المعالجة "[2] وتتميز هذه الأخيرة بسعتها المحددة نظرا لارتباطها بالذاكرة قصيرة المدى وقدرة المستقبلات الحسية على التركيز في المثيرات والاحتفاظ بها.

- يضطلع نظام المعالجة باستقبال المعلومات من البيئة الخارجية عن طريق المدخلات الحسية (Input)، ثم معالجتها وتحويلها إلى تمثلات عقلية (عملية الترميز) تخزن في الذاكرة (عملية التخزين) لتسترجع عند الضرورة (عملية الاسترجاع).

- تتأسس عملية المعالجة على خصائص أنظمة الذاكرة الحسية (المسجلات الحسية) والذاكرة قصيرة المدى (الذاكرة العاملة) والذاكرة طويلة المدى، إضافة إلى جملة عمليات التحكم العقلية التي يمكن وصفها "كاستراتيجيات تنفيذية معرفية (حل المشكلة البحث عن المعلومات، استخلاص المعنى، فهم وإنتاج اللغة وغيرها) مخزنة عادة في الذاكرة تتحول إلى أنشطة عندما تقتضي الحاجة"[3]، وتتنوع لتوليد الفعل السلوكي الإنساني سواء كان حركيا أو عقليا أو لغويا أو انفعاليا.

تشير مجمل هذه المعطيات إلى أن فهم التعلم قائم على ربط السلوك الانساني بما يجري داخل الفرد المتعلم من عمليات فيزيولوجية تتم على مستوى الدماغ والحواس والغدد "وقد أكد علماء النفس في هذا السياق إلى أن تحديد آلياته يتطلب التعرف عليها (مناطق الادراك والانتباه والحواس والذاكرة وغيرها)"[4] باعتبارها القنوات المفسرة له بدءا من انتقال المعلومات إلى حدوث الاستجابة المعرفية:

الجهاز العصبي

يعتبر الدماغ أكثر أعضاء الجسم البشري تنظيما وتعقيدا، وعلى الرغم من أن التجارب العصبية التشريحية قد أزالت الكثير من الغموض حوله إلا أن الخبايا المكشوفة تبقى قليلة ولا تغطي إلا جزءا يسيرا عن حقيقته، وقد أشارت البحوث الحديثة التي خصت تكويناته بالدراسة والتحليل إلى أنها من أبرز العوامل المؤثرة والمتحكمة في عملية التعلم، حيث تعمل كنظام متكامل (رغم اختلافها في الوظيفة الخاصة بها) يخدم كل منها الآخر من أجل تحقيق توازن الفرد مع بيئته، وأن أي خلل وظيفي يحدث فيها خاصة على مستوى الجهاز المركزي العصبي سيؤدي بالضرورة إلى إحداث خلل في عملية معالجة المعلومات وتجهيزها (انخفاض

المستوى الوظيفي للمخ)، ومن ثم القصور عن أداء الوظائف المعرفية والعقلية واللغوية (الفهم ،الادراك ،التذكر ،الابداع) وحدوث صعوبات في التعلم ينجر عنها الجنوح عنه أو تقديم نتاج تعلمي ضعيف.

ويشير عمل التكوينات العصبية إلى مرونة الدماغ البشري، حيث سادت قديما فكرة أن الدماغ يتطور وينمو إلى مرحلة عمرية معينة ثم يتوقف بعدها وتبدأ القدرات العقلية والمعرفية بالتضاؤل، والحقيقة أن الدماغ يتطور ويغير من وظائفه وأدائه كلما ازداد عمر الفرد، وذلك تحت تأثير عاملين أساسيين هما الجينات (المورثات) والبيئة وما تقدمه من مثيرات، والعلاقة بين العاملين هي التي تحدد نسبة فقدان المادة الرمادية من الدماغ، وعليه فإن أي فرد طبيعي مهما تقدم به السن يمكنه أن يؤثر في بيئته ببقائه نشطا، كما يمكنه أن يمرن دماغه بتفاعله المستمر معها حتى تزداد قدراته وتتعمق.

ويحيلنا ما سبق إلى الحديث عن موضوع التكيف الدماغي الذي يعد مفتاح التطور الذاتي للتعلمات، والمقصود به نوع من إحداث التوازن بين المتطلبات الذاتية والموجودات في البيئة، فقد أفادت البحوث المعاصرة في هذا الصدد أن نشاط الدماغ يبدأ متقلقلا في المرحلة الممتدة من الرضاعة إلى الطفولة، ثم يتهيأ الدماغ في الفترة الحرجة وينظم نشاطاته، ويقوم بالتصنيف الأولي ويجهز الآليات القاعدية للتعلم ويضبط قواعد السيطرة حتى على نفسه، وبما أن التعلم يحدث نتيجة ترجمة المثيرات إلى شحنات كهربائية تنتقل عبر الدماغ من عصبون وخلية إلى أخرى بسرعات متفاوتة، فإن هذه الأخيرة تكون محددة وراثيا بعد الولادة، لكن مع التقدم في السن ومع زيادة المهارات يتعمق انتقال هذه الشحنات، ويسهل للدماغ تتبعها لتشمل خلايا أوسع وتتخذ مسارات أكثر تشعبا، وبذلك تتحدد السلوكات وتزداد القدرات تحت سيطرة الدماغ الذي يراجع ويكيف نفسه في كل مرة ليتخصص أكثر.

كما فندت ذات الدراسات فكرة محدودية التعلم الناجمة عن عدم تكاثر الخلايا المشكلة للنسيج العصبي في الدماغ وموتها مع التقدم في العمر، وأكدت بالمقابل على أنها تتكاثر حتى مع تطور السن، وأن التحكم في زيادتها مرهون بالقدرات العقلية للفرد المتعلم، حيث أن تخلق النسيج مرتبط بنوع القدرات العقلية الجديدة التي تدخله والتي تحدث في فترات زمنية ملائمة، أما عن عامل التقدم في السن فإن تأثيره الوحيد على الخلايا هو

نقصانها نتيجة نقص الماء ليس إلا، وبالتالي فإن الفرد قادر على التعلم مدى الحياة كما أنه قادر على اكتساب القدرات الجديدة في كل مرة نتيجة تطور دماغه وتكيفه ذاتيا.

أما عن الدراسات التي خصت نصفي المخ الأيمن والأيسر فقد أثبتت بأن هناك عددا من السمات والخصائص التي تظهر لدى الأفراد تبعا لسيادة أحدهما على الآخر، حيث أن أصحاب النمط الأيمن (نظرا لطبيعة عمله المتشعب) ينجذبون إلى التعامل مع المثيرات الحسية، وأنهم يتميزون بالمرونة والطلاقة والاستمتاع بالتغيير والضجر من الأمور الثابتة والجامدة، والعمل بعفوية والسعي إلى مواجهة التحديات وحل المشكلات وطرح بدائل للاستجابات وإنجاز أكثر من مهمة في فترة زمنية محددة، كما أنهم يميلون إلى العمل المستقل وإلى التعامل مع المثيرات بطريقة ذاتية تنمي قدرتهم على التفكير والإبداع والابتكار، في حين أن أصحاب النمط الأيسر (لطبيعة عمله ضمن مسار محدد) لا يميلون إلى التعامل مع المعطيات الغامضة أو المبهمة بل المحددة والواضحة، ويعالجونها على نحو منطقي تتابعي خطوة بخطوة، كما أنهم يخضغون للقواعد الطولية المستقيمة والمسائل الرياضية ويجيدون التخطيط ورسم الأهداف وتحديد الأولويات وجدولة المهام، إضافة إلى أنهم ثابتون ومنظمون في التعلم ويتفوقون في الاستجابة للتعليمات اللفظية.

والمتعارف عليه أن النصف الكروي الأيسر هو الجانب الذي عني بالدراسة وأحيط بالاهتمام نظرا لدوره الفاعل في حدوث التعلم (خاصة تعلم اللغة)، في حين أن الجانبين معا مهمان لحدوث التعلم الذاتي، فقد أفادت الدراسات التي أجريت في هذا الصدد أن استثمار الفرد للنصفين معا سيعمل على زيادة ذكاء الفرد وتطوير قدراته على التفكير للاستفادة مما حوله، وبالتالي سيعمل على مضاعفة مردوده التعلمي ثلاثة أضعاف التعلم القائم على نصف واحد (الأيسر)، وفيزيائيا سرعة النصف الأيسر تساوي 1 من 32 وحدة زمنية سرعة النصف الأيمن في التعلم إذا أحسن توظيفه، وذلك لاعتماد هذا الأخير على أبعاد الخيال والإبداع وقوة التفكير، وبذلك فإن التعلم الذاتي يحدث بالتركيز أكثر على هذا الشق الذي سيتيح للمتعلم سبل التفكير والعمل الابداعي بسرعة توازي 32 مرة ضعف السرعة بالاعتماد على الشق الأيسر.

الذاكرة

تعتبر الذاكرة جزءا هاما من العقل البشري، فهي مستودع الانطباعات والتجارب والخبرات التي اكتسبها الفرد طيلة حياته عن طريق تفاعله مع العالم الخارجي، والمشرب

الذي يعود إليه لينهل منه حين يتعامل معه ومع عناصره ومتغيراته، وهي من جانب آخر الظاهرة العقلية الوظيفية الأهم والأعقد على الإطلاق من ضمن الظواهر التي تنطوي عليها النفس البشرية، ويؤكد الواقع أن التعلم والذاكرة يتداخلان إلى حد يصعب الفصل بينهما ذلك أن كلا منهما يتطلب وجود الآخر ولا يمكن لأحدهما أن يتحقق أو أن يستقيم عوده إلا بوجود الثاني، فالتعلم لا يحدث إلا بتراكم الخبرات ومعالجتها والاحتفاظ بها في خزان الذاكرة، كما أن الذاكرة لا يمكن أن يتحدد دورها وتأخذ صبغتها دون فعل التعلم، وبدون تعلم يتوقف سيل المعلومات عبر مجاري الاتصال المختلفة وتصبح الذاكرة اجترارية، وبدون ذاكرة لا تجد المعلومات المتدفقة لنفسها مكانا يطبعها ولا يجد التعلم لنفسه معنى، وإذا كان التعلم عملية بناء للخبرات الجديدة بدمجها مع السابقة فإن الذاكرة هي مفتاح هذا البناء وصرحه.

وقد أفادت الأبحاث التي خصتها بأن التعلم الذاتي يتحقق في وجود المثيرات (على اختلافها) والأدوات التي تعين على زياد فاعلية الذاكرة، وأن عمل هذه الأخيرة مرتبط بنشاط الدماغ ومرهون به، إضافة إلى توافر عدد من العمليات المعرفية التي تحدد مسالكها وتضبط مساراتها نخص منها بالذكر عاملي الانتباه والإدراك، أما عن المثيرات فإنها لا تدخل مباشرة إلى الذاكرة الطويلة المدى إنما تخضع لسيرورة تشفر وتعالج خلالها وتنتقل من حالة إلى أخرى حتى يتم تخزينها، وتتعلق هذه السيرورة من الناحية العصبية بقوة واستمرارية النشاط العصبي الارتدادي الذي يتلوها (المثيرات)، حيث تعمل على تنشيط الدوائر العصبية (المسالك العصبية) الموجودة على مستوى الدماغ المركزي لفترة معينة من الزمن لتتم معالجتها، وكلما زادت شدة المؤثر زاد زمن التنشيط وتضاعفت احتمالات الاحتفاظ بها على نحو دائم في الذاكرة الطويلة، أما إذا توقف النشاط العصبي الارتدادي في بداية الخبرات فستضعف عملية التخزين ما ينعكس سلبا على عملية التذكر، هذا ما يشير إلى أن التعلم الذاتي يتدعم وتتعزز مناحيه في وجود المثيرات القوية التي تسمح بزيادة النشاط العصبي وبالتالي الاحتفاظ بأكبر قدر من المعلومات المتعلقة بها (توسيع البنية المعرفية)، وتشمل هذه الأخيرة كل ما يمكن أن يثير اهتمام الفرد ويشد انتباهه ويوجهه ويلبي رغباته ويغطي حاجاته ويحقق استقراره وتوازنه.

وبما أن الدماغ هو مركز الذاكرة وحاويها فإن ما يؤثر فيه سينعكس عليها بالضرورة وقد أفادت الدراسات أن الضجيج العقلي الزائد الذي يحصل للدماغ نتيجة الضغوطات الخارجية يضعف القدرة على التفكير التأملي ويحد من إدراك المواقف بعناصرها،ويضيف أعباء زائدة للدوائر القريبة منه خاصة الذاكرة، حيث يصبح الدماغ في حال استثارة تدفع إلى زيادة في المعلومات المدخلة لكن معظمها لا يخزن إلا في الذاكرة القصيرة، وربما يتطور الأمر إلى الاخفاق تماما في تحويلها إلى الذاكرة الطويلة ما يجعل التعلم سطحيا ومؤقتا بالمقابل يبرز دور الانتباه الإنتقائي الذي يعد عنصرا بالغ الأهمية في عملية الترميز أثناء المعالجة المعرفية، والمقصود به توجيه التركيز إلى مثير بعينه دون غيره من المثيرات التي يصادفها الفرد في بيئته لأنه يشبع حاجاته ودوافعه الذاتية، وقد شهدت السنوات الأخيرة تجارب عدة أثبتت أن ضعف التعلم والتحصيل مرتبط بقلة التذكر الراجع بدوره إلى تشتت الانتباه ،لأن المثيرات لا تمثل شيئا مهما بالنسبة للفرد المتعلم.

الانتباه

يعد الانتباه ظاهرة معرفية حازت على الكثير من اهتمام الباحثين والدارسين في علم النفس المعرفي باعتباره أول العناصر التي تتدخل أثناء تفاعل الفرد مع المثيرات الحسية التي يتلقاها من البيئة الخارجية، وأحد أهم المحددات التي تعزى إليها عملية التشتت وفقدان التركيز التي تصيب الفرد أثناء التعلم، وقد كان أول من تنبه إليه قبل المحدثين فلاسفة العصر اليوناني على رأسهم أرسطو، لكن أول من وجه الاهتمام إلى دوره في حياة الفرد العقلية وقدمه تقديما موضوعيا بحتا بالاعتماد على نتائج البحث التجريبي هو عالم النفس الأمريكي ويليام جيمس (Wiliam James) ، حيث عرفه "بعملية تركيز الوعي أو الشعور على الاحساسات الناتجة بفعل المثيرات الخارجية أو تلك الصادرة من الفرد. "[5]

يحيل الانتباه إلى حالة تجمع تنحصر فيها القوى الجسمية وتجند الطاقات النفسية والانفعالية والعمليات العقلية بغية إدراك موضوع معين ومقابلته بالاستجابة الملائمة، وهو مصطلح ينم في جوهره على مستوى عال من اليقظة والتفطن والتركيز الذهني والملاحظة المتعمقة التي يمارسها العقل البشري على مدخلاته للاستفادة منها في حل مشكلاته وإثراء

خبراته وتحقيق توافقه مع محيطه، ما يجعله مفتاح منظومته المعرفية والشخصية وشرط تكامله النفسي.

ولسنا نغالي إذا اعتبرنا بأن الحديث عن التعلم هو حديث عن الانتباه كونه موجده ومحققه، فهو أول محطة من محطات سيرورته وأول عملية معرفية يمارسها الفرد المتعلم ضمن مجاله الحسي أثناء التفاعل مع مختلف عناصره ليتعرف عليها ويقرر بأي منها سيهتم وأي منها سيختار ويعالج ويخزن، كما أن صيرورته (التعلم) وحاصل نواتجه ومستواه متوقف عليه ومحصور في مدى فاعليته وقوة تأثيره التي رآها الدارسون والباحثون في مجاله مرتبطة بعوامل مختلفة بعضها داخلي متعلق بالفرد المتعلم وبعضها الآخر خارجي منعكس عليه ذلك أن البيئة مشحونة بالعديد من المعلومات والخبرات والإحساسات التي تفوق بكثير ما يمكن أن يتناوله الفرد بالإمكانات الإدراكية والمعرفية التي يمتلكها، لذلك لا سبيل له لمواجهتها إلا بالاحتكام إلى عملية الانتقاء وفق ما يخدم الذات ويحقق مطالبها، وهنا يبرز الانتباه كعملية نفسية اختيارية تتعلق بالفرد وما يميل إلى التعامل معه، فإن أصاب في اختيار المثير يكون قد أبعد نفسه عن حالات التشويش والتشتت التي ستفقده السيطرة عليه، وتحول دون تركيزه ومعالجته وليس الانتباه محصورا في التركيز على المثير في مدة زمنية فحسب بل والمحافظة عليه، واستغلاله في التذكر والتخيل والتفكير، والاستفادة منه في المواقف التعليمية المختلفة، لذلك هو أداة طيعة لتنمية التعلم الناجح لو أحسن استغلاله.

الإدراك

يشير الإدراك[6] من الناحية العصبية إلى "عملية ترجمة المحسوسات التي تنتقل الى الدماغ على شكل رسائل مشفرة، ماهيتها نبضات كهربائية تسري عبر الأعصاب الحسية التي تصل بين الحواس والدماغ لتتجمع ويتألف منها مدرك كلي ذو معنى"[7]، وهو في جوهره "عملية نفسية تسهم في الوصول إلى معاني ودلالات الأشياء والأشخاص والمواقف التي يتعامل معها الفرد عن طريق تنظيم المثيرات الحسية المتعلقة بها، وتفسيرها وصياغتها في كليات ذات معنى"[8]، و" نشاط ثابت ودائم وسهل وآلي وتلقائي يجعل الفرد يفكر طبيعيا بأن العالم هو ما يدركه "[9]وما يستوعبه ويدفعه إلى التعامل معه على هذا الأساس.

ومجمل القول أن الادراك قرينة فيزيو نفسية للتعلم تستوطن الدماغ وتحدث فيه وتمثل بدايته جملة من المنبهات التي ترد إلى المستقبلات الحسية الموجودة لدى الفرد المتعلم

لتشكل طاقة تنبعث من المصدر المثير على هيئة موجات متغيرة القوة تحمل في ثناياها ملامحه وتفاصيله، فيعيها الدماغ كما هي في واقعها المرئي أو المسموع أو الملموس أو غير ذلك ويضفي عليها دلالات مشتقة من المخزون المعرفي وما يقدمه السياق.

وقد أفادت الدراسات أن الطاقة الادراكية تنمو وتتشكل عبر مراحل من حياة الفرد فنراها بسيطة في أشهره الأولى محصورة على ما يقع عليه النظر من أشياء فإذا غابت حلت محلها مثيرات أخرى، ونتيجة لتكرار الإحساس في الذاكرة القصيرة ينتقل الادراك إلى المستوى الأبعد من الذاكرة الطويلة، ومع مرور الأشهر تتحول تلك المواضيع المدركة مؤقتا إلى مواضيع دائمة ضمن الخبرة، ويزداد التطور ليدخل في مرحلة معالجة المواقف باستخدام أكثر من حاسة وبإثارة أكثر من منطقة على مستوى الدماغ، وما إن يصل سن السابعة حتى يوظف دماغه كاملا في إدراك المثيرات وتبريرها، ويدخل في مرحلة عمليات التفكير المنطقي (كما سماها بياجيه) القائمة على ثبات الأشياء رغم تحولها، ثم ينتقل إلى حالة الادراك التأملي والفهم النظري للأمور من حوله التي تتجاوز المدركات الحسية المألوفة حيث تثيره الفروقات القائمة بينها إلى محاولة إدراك تفاصيلها أو البحث عن وجوه جديدة لها ضمن المجال الإدراكي المعقد وتزداد قدرته على استخلاص المعلومات من المحيط شيئا فشيئا، ويظهر التعلم وفقا لذلك كبناء من المدركات الناجمة عن التفاعل المباشر مع عناصر وخبرات البيئة.

وبناء عليه فإن التعلم الذاتي يتحقق نتيجة التغيرات الحاصلة للبناء الإدراكي للفرد المتعلم والناجمة بدورها عن تفاعله مع الخبرات والمعارف من حوله، وحتى يحدث بطريقة صحيحة وفعالة ينبغي أن تكون الأخيرة مناسبة لمستوى هذا البناء ومتوافقة وقدرات الفرد، تملك في ذات الوقت ما يثير الدوافع ويحفز الشعور بالاختلاف وعدم الكفاية بالموجود والتطلع إلى المزيد، وقد عدت الدراسات الحديثة هذه القاعدة الأساس الذي يعول عليها لإحداث التعلم الناجح الذي يحوي بين طياته غاية بناء الشخصية المتكاملة الجوانب القادرة على صنع تعلماتها.

ماوراء المعرفة

أشار فلافل (Flavell) إلى أن ما وراء المعرفة هي " قدرة الفرد على التفكير في عمليات تفكيره، ومعرفته بعملياته المعرفية "[10] وقد وسع المفهوم ليشمل "معرفة الفرد بعملياته

المعرفية ونواتجها كخصائص المعلومات والبيانات التي تتعلق بالتعلم وتلائمه، كما أنها تشمل المراقبة النشطة والتنظيم اللاحق في علاقتها بهدف معرفي معين عادة ما يكون عيانيا "[11]، وعرفها براون (Brown) " بالتحكم الواعي والمتروي للفرد في عملياته واستجاباته المعرفية عن طريق عمليات التنظيم الذاتي"[12]، واعتبرها هنسون إيلر (Henson ;Eller) "مجموع الإجراءات التي يقوم بها المتعلم للمعرفة بالعمليات الذهنية والأنشطة وأساليب التعلم والتحكم الذاتي قبل وأثناء وبعد التعلم لتحقيق الفهم والتخطيط وحل المشكلات وإدارتها. "[13]

تحيل معظم هذه التعريفات (وغيرها) إلى أن ما وراء المعرفة هي "التفكير في عملية التفكير"[14]، وأنها عملية غير مباشرة تتم على نحو ضمني من خلال السيطرة على العمليات المعرفية ومتابعة سير تنفيذها والحكم على نتائجها، وبما أنها ترتبط بكل فرد متعلم على حدا فإنها تقتضي اختلافها باختلاف عوامل النمو والنضج والذكاء والخبرات السابقة، وقد أشار فلافل(1992) في هذا الصدد أن "طفل ما قبل المرحلة الابتدائية يتميز بحس ما وراء معرفي ضعيف جدا (وأحيانا منعدم) مقارنة بطفل المرحلة الابتدائية "[15] وذلك لعدم قدرته على مراقبة ذاته من حيث إمكاناته وقدراته على أداء الأنشطة المختلفة، لكن الأمر يتطور وينمو بدءا من هذه المرحلة حيث مع التقدم في السن تزداد الخبرات ويزداد التنبؤ والانغماس في مراقبة وتقييم الذات، ويبدأ الوعي بالتفكير والضبط الطوعي للعمليات المعرفية يتجلى في سن الحادية عشر وقد يرافق ذلك تغير في سلوكات وعادات المتعلم، وتتعمق الدافعية الذاتية في سن المراهقة وما يليها ويصبح المتعلم أكثر قدرة على العمل دون رقابة وأكثر ثباتا في اختيار الأساليب والاستراتيجيات المعرفية التي تناسب المهام التعليمية التي يواجهها.

وقد فرض التركيز على الآليات المعينة على تطوير وتحسين مهارات التفكير لدى الفرد المتعلم إلى إحاطة الاستراتيجيات والمهارات الما وراء معرفية بهالة من الاهتمام، كونها العصب الذي سيؤدي إلى الهدف من خلال استثمار طاقات الفرد وإمكاناته على نحو واعي للسيطرة على الأوضاع التعليمية على اختلاف أوجهها، والتكيف مع كل مستجد قد يواجهها، وكذا الوسيلة الطيعة في يد المتعلم التي ستمكنه من تحقيق تعلم ذاتي ناجح مبني على حسن توظيف العقل في الفهم والتدبر والتخطيط والتسيير والمراقبة وصنع القرار، وإحداث التغييرات اللازمة تبعا لتغير الأهداف، ليخرج بذلك عن دائرة الاستقبال اللاواعي والاستهلاك السلبي إلى ساحة النشاط والبناء والعطاء.

ثانيا: التعلم الذاتي ضمن النظريات المعرفية

ارتكز السلوكيون في تفسيرهم لعملية التعلم على الأبحاث التجريبية التي أفضت نتائجها إلى الإقرار بمبدأ الارتباط بين المثيرات والاستجابات المصاحبة لها، والاعتماد في تحقيقها على ميكانيزم التعزيز والممارسة المؤدي إلى ظهور وثبات السلوكات المرغوب فيها حيث أن الفرد المتعلم حسبهم قابل لأن يتعلم أي شيء في أي وقت وفي أي سن إذا ما توافرت الشروط المحيطة المحققة لذلك، ما يعني أنه عنصر سلبي ناقل للمعرفة دوره لا يتعدى إحداث الاستجابات المجزأة القابلة للقياس والتعديل كدالة للتعلم، وما يشير من ناحية أخرى الى أن سيرورة تعلمه وتعليمه واحدة (على اعتبار أن عملية تعلمه تخضع لنفس شروط ومبادئ عملية تعليمه)، وقد أثار هذا التصور الإمبريقي البسيط موجة من الانتقادات الموضوعية الواسعة التي طالته من قبل المعرفيين الذين وإن سلموا مثل السلوكيين بأن دراسة التعلم ينبغي أن تتم من خلال البحث التجريبي(دون المغالاة التي يترتب عنها الاصطناع المهدد لصدق التجربة الخارجي وبالتالي استحالة تطبيق نتائجها على الواقع)، إلا أنهم قد عابوا عليهم التركيز على العوامل الخارجية المؤدية إلى حدوثه واستهدافهم من خلال ما طرحوه من آراء وقضايا تقديم قوانين عامة تضبط كيفية التنبؤ والتحكم في سلوك معين، في الوقت الذي كان يفترض التركيز على العمليات العقلية الداخلية التي تحدث لدى الفرد المتعلم باعتبارها المسببة له والمتحكمة فيه، وقد ساهم هذا التوجه في تحويل مركز الاهتمام من السلوك المرتبط بالأنشطة الخارجية التي يمكن ملاحظتها وقياسها في إطار المثير والاستجابة إلى المعرفة باعتبارها الظاهرة السيكولوجية الخاصة بالذهن والحدث الداخلي الذي يمكن الاهتداء إليه والاستدلال عليه من خلال السلوك الخارجي وبعد أن كان التعلم تغيرا أو تعديلا في السلوك صار:

- تغيرا للمعارف وسيرورة داخلية تحدث في دماغ الفرد.
- نشاطا ذهنيا قائما على عمليات عقلية نشطة (الادراك والفهم والاستنباط).
- تنظيما وتشكيلا لبنيات معرفية وفق وجهات خاصة.
- حاصلا لنشاط الفرد أثناء تفاعله مع المحيط الذي يتضمنه.

وكنتيجة لذلك طفت على السطح نظريات ونماذج حاول أصحابها تحديد معالم ومتغيرات عملية التعلم (اكتساب المعرفة) والعوامل المؤثرة فيها وفي حدوثها، وكذا

إيجاد تخريجات موضوعية وعملية لآلياتها، متكئين في ذلك على مشارب متعددة بعضها نفسي وبعضها اجتماعي وبعضها مزيج بين الاثنين، وقد برز منها نموذجان تجلت بين ثنايا مبادئهما ملامح ذاتية الفرد ودوره في إحداث التعلم ،كما تجلت في تطبيقاتهما التربوية أهم الاستراتيجيات والأساليب التي يقوم عليها التعلم الذاتي ،ويتمثل هذان الأخيران في:

البنائية التكوينية

لقد اعتمد بياجيه في شرحه وتفسيره للنمو المعرفي على مقاربة إبستمولوجية بنائية[16] مفادها أن هذا الأخير هو عملية بناء تدريجية يقوم بها الطفل خلال تفاعله مع عناصر البيئة المحيطة به، حيث يخضع هذا البناء إلى ميكانيزمات داخلية (لا تتدخل فيها العوامل الخارجية إلا بنسبة محدودة) تعمل على تشكل البنيات المعرفية وتطورها عبر كل مرحلة من مراحل حياته، وهذا ما يشير باختصار إلى أن عملية تعلمه خلالها محكومة بنموه ومرهونة به، كما وقد رأى بياجيه أن النمو المعرفي رحلة من المراحل المتتابعة التي تخضع لحسابات دقيقة تبدأ من عالم المحسوسات وتنتهي عند عالم التصورات والمجردات، حيث لا يمكن للطفل أن ينتقل إلى مرحلة دون أن يمر بالتي تسبقها، وأن التقدم الذي يحرزه عبرها يحدد مدى قدرته على التكيف مع البيئة.

وقد رأى بياجيه بأن عملية التعلم خلال هذه المراحل تتحدد في "الكيفية التي ينظم بها الفرد المعارف والمعلومات المتناثرة من حوله ضمن النظام المعرفي "[17] حتى يستوعب البيئة التي يعيش فيها ويتكيف مع عناصرها وافترض بأن هذه الأخيرة تتجلى في مجموع الأفعال (Actions) التي يقوم بها في وسطه ليتوافق ويتكيف معه أين يبرز منطق هذا الفعل[18] ويصير نقطة انطلاق لعمليات ذكاء مستقبلية، وافترض بياجيه بأن هذا التكيف إنما يحدث نتيجة عملية الموازنة (équilibration) الذاتية التي يقوم بها الفرد، حيث تبدأ بحدوث نوع من الاضطراب إثر الاصطدام بعراقيل أو مواجهة مشكلات يصعب عليه التعامل معها بما يمتلكه ذهنه من أنماط (نوع من التناقض بين ما يعرفه وما لم يستطع التعرف عليه)، ما ينجر عنه تفعيل آليتي التمثل (Assimilation) والمواءمة (Accommodation) (آليتين تعملان بصفة تلقائية ومتداخلة مسايرة للنمو النفسي والعضوي والبيولوجي للفرد) [19] للوصول إلى ما يمكن أن يخفف من حدة هذا الاضطراب أو يقضي عليه.

يعدّ التمثل العملية العقلية المسؤولة عن استعمال المعلومات الجديدة من البيئة[20] وتحقيق الموافقة بين خصوصياتها وخصوصيات الأنماط الموجودة مسبقا في الذهن وحين لا تتوافق يلجأ الفرد إلى إعادة تشكيلها عن طريق تحويرها وتعديلها لتتناسب مع ما استجد من مثيرات وهذا ما يسميه بياجيه "مواءمة "، أي أن الموائمة هي عبارة عن عملية تحوير للأنماط الموجودة سابقا في الذهن لتسمح بتمثل الأحداث الجديدة في الوضعيات المختلفة، وهكذا وعن طريق هاتين الآليتين يتم تصحيح وإثراء البنيات المعرفية[21] لتكون أكثر قدرة على التعميم وأكثر فاعلية للتعامل مع الوضعيات الجديدة، ويتحقق بذلك بناء المعرفة في آخر كل مرحلة من هذا النشاط الذي يتخذ شكل سلسلة متواصلة على نحو متداخل حيث يؤدي فقدان التوازن في كل مرة ومحاولة استعادته إلى تحقيق مستوى أعلى من القدرات العقلية، وهذا حسب بياجيه هو سر النمو المعرفي ومفتاحه.

وبناء على ما سبق اعتبر بياجيه أن التعلم عملية تنظيم ذاتية، تنطوي على "تفاعل بين تمثل الحقائق الجديدة في المعرفة القديمة وملاءمة المعرفة القديمة للحقائق الجديدة "[22]، وفي ذلك معارضة تامة "لوجهة النظر التي ترى بأن المعرفة ليست سوى نسخا أصليا سلبيا للواقع "[23]، كما أنها تجاوز للنظرة التي حصرتها في خلق وترتيب جملة معينة من المثيرات المستقلة على نحو ما لإحداث استجابات مرغوب فيها إلى نظرة أدق تحيل على " بناء أنساق للتحويلات التي تناظر كثيرا أو قليلا الواقع ،أو تتطابق كثيرا أو قليلا معه."[24]

وحاصل القول أن بياجيه من خلال ما قدمه في نظريته عن التطور المعرفي عند الفرد قد تخطى أطروحة التعلم الاستجابي إلى "التعلم التلقائي الذاتي التنظيم "[25] القائم على الدعامات الآتية:

- التعلم عملية عقلية داخلية خاصة بالفرد المتعلم ومتعلقة به وليست استجابات آلية تراكمية لمثيرات البيئة الخارجية.

- التعلم سيرورة بناء وخلق وإبداع لتراكيب معرفية (ضمن المنظومة المعرفية) يسعى الفرد المتعلم من خلالها الى تنظيم وتفسير ما يمر به من خبرات.

- التعلم عملية جدلية تحدث نتيجة الصراع بين الذات(الخبرات السابقة) والخبرات الجديدة "فالقديم يتصارع مع الجديد حتى يتم اتحاد القديم والجديد من خلال

عملية الموازنة "[26] التي تتحقق بفعلي التنظيم والتكيف ،وليس مجرد تغير ثابت أو شبه ثابت في السلوك نتيجة الخبرة المعززة.

- التعلم عملية اشتغال الذات على الموضوع وليس عملية اقتناء معلومات أو معارف عنه تقوم على الفهم والتجربة والاستدلال حتى تتلاءم خطاطات الفعل مع الوقائع والمعطيات البيئية باستمرار.

- التعلم نشاط يستهدف بلوغ حالة التوازن التي يفقدها الفرد المتعلم جراء ظهور حاجة جديدة في محيطه تستدعي المعرفة ،أو تغيرا يطرأ على مستوى تفكيره يستوجب التفسير والفهم.

- التعلم عملية واعية تحكمها قواعد وقوانين داخلية خاصة، حيث أن أداء الفرد المتعلم لا يثبت أو يرقى نتيجة عدد المحاولات التي يقوم بها للوصول إلى الهدف، بل نتيجة ما يوظفه للوصول الى قاعدة أو قانون عام يمكنه من تحقيق ذلك.

تحيل مجمل هذه المعطيات إلى دور الفرد المتعلم الهام في تحقيق التعلم فالأمر لم يعد يتعلق بمحددات خارجية تسمح بنقل المعرفة بل بقدرات داخلية كامنة تتيح له بناءها ذاتيا في وضعيات مشكلة بالنسبة اليه اعتمادا على خبراته السابقة، وعليه ووفقا لبياجيه لا يمكن الحديث عن التعلم الذاتي إذا كان المتعلم سلبيا يعامل كقالب تصب فيه المعلومات والحقائق جاهزة حتى يقوم بحفظها واسترجاعها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، بل حين تستثار قدراته ليتفاعل معها ويكون مفاهيمه عنها عن طريق نشاطه الذاتي، فالمعرفة عملية بناء واكتشاف تسعى الذات من خلالها إلى الاجابة عن الاشكاليات التي كانت تستدعي حلا، وتمر بسيرورة دينامية عمادها الشعور والوعي بالمشكلة ثم القيام بنشاط " يعمل فيه العقل بنماذجه وبنياته المختلفة للتأثير على الأشياء والموضوعات ليصل إلى تجريد ما حدث من تغيرات عليها في صورة معارف محددة "[27] يحقق بها توازنه ويستغلها لحل اشكاليات مشابهة في مواقف أخرى.

ومن هاهنا عارض بياجيه جميع المداخل التعليمية التي تعتمد على الحشو والتلقين السلبي للمعرفة وعلى تكرارها في مختلف المواقف والوضعيات، ودعا إلى اعتماد المداخل النشطة والفعالة التي تركز على فاعلية المتعلم وإيجابيته، والتي تدعم آليات التعلم الذاتي

للمتعلم وتسير به نحو تكوين مفاهيمه الخاصة عن عناصر ومعطيات المحيط من حوله، وفق رؤيته الشخصية التي تتأتى من بحثه وتجريبه واستقصائه عنها واكتشافه لها.

المعرفية الاجتماعية

انتهج ألبرت باندورا "Albert Bandoura" (1925) في نظريته سبيلا وسطا بين العوامل الذهنية المعرفية للفرد المتعلم وجملة المدعمات الخارجية الاجتماعية التي تثيره بغية إعطاء تفسير وشرح واضح لعملية تعلمه واعتبر سلوكه تبعا لذلك كتلة متداخلة العناصر - جملة مركبات فكرية - يمكن تجزئتها إلى وحدات تعد استجابات لمنبهات مختلفة حيث يمكن التحكم فيها بتغيير المنبهات أو باستخدام التعزيز.

وقد رأى باندورا " بأن معظم السلوك الانساني يتم تعلمه عن طريق ملاحظة النماذج، فالفرد يكون فكرة عن كيفية أداء أنماط السلوك الجديدة بملاحظتها عن الآخرين ...وبما أن الأفراد يستطيعون تعلم ما يعملون من مثال شاهدوه على الأقل في صيغة مناسبة قبل أن يؤدوا أي سلوك، فإنهم سيتجنبون الأخطاء التي لا حاجة إليها"[28]، على أن التعرض إلى الأنماط السلوكية النماذج لا يعني بالضرورة محاكاتها وتقليدها كما هي (تقليدا سلبيا)، فقد يلجأ الفرد إلى إعادة صياغتها على نحو معين خدمة للأهداف التي يرنو إلى تحقيقها، وبالتالي فإن عامل الانتقائية في تعلم جوانب معينة من السلوك أمر قائم يرتبط على نحو دقيق بمستوى دافعية الفرد الملاحظ وجملة العمليات المعرفية التي يوظفها حين الأداء.

وقد ركز باندورا في شرح نظريته " التعلم بالملاحظة " على ملامح أساسية عدها ركائز حدوث التعلم أولها التفاعل الحتمي المتبادل والمستمر بين عناصر ثلاثة (الفرد والمعرفة والبيئة)[29]، إذ تعد هذه الأخيرة محدّدات متشابكة يؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به، ولا يمكن إعطاء أيا منها المزية على المحدّدين الآخرين ،كما لا يمكن أيضا الحكم بالتماثل في قوى التأثير بينها، فقد تطغى فاعلية إحداها أو إحداهما على الأخرى على اعتبار الجهود الشخصية التي يبذلها الفرد لتنظيم ذاته، والنتائج المترتبة عن الأداء السلوكي، والتغيرات الطارئة على السياق البيئي فسلوك الفرد يتحدد بالمؤثرات البيئية باعتبارها جزئياً نتاجا لمعالجته لها، ما يجعله قادرا على التفكير والابتكار والإبداع وليس فقط مجرد ممارس لردود أفعال ازاء المثيرات التي توفرها البيئة المحيطة، يعينه على ذلك توظيف عملياته المعرفية التي تشكل أطرا تفسيرية وإدراكية يستقبل بها المعلومات والخبرات ويعالجها بغية التحكم في السلوك وقد أشار باندورا إلى أن هذه الأطر تأخذ شكل التمثيل الرمزي للمعرفة[30] (بعد استقبالها

وترميزها وتخزينها وتجهيزها ومعالجتها)، وهي نتاج عمليات الانتباه القصدي والاحتفاظ التي يقوم بها الفرد أثناء تفاعله مع عناصر البيئة وملاحظته سلوك النماذج .

وتنطوي محددات السلوك إلى جانب ما سبق على تأثيرات معقدة لا تقل أهمية تحدث قبل السلوك وبعده وتشمل هذه الأخيرة على جملة المتغيرات الفيزيولوجية والعاطفية والأحداث المعرفية المتعلقة بالفرد إضافة إلى أشكال التعزيز والتدعيم، وهنا أشار باندورا إلى أن أنماط السلوك ليست محكومة بالتعزيزات الخارجية الفورية كما حددها أصحاب التوجه السلوكي بل تتحدد بآثارها المتوقعة المترتبة عن الذات والمنبثقة بدورها عن المعرفة الناجمة عن إدراك نتائج الخبرة المتولدة من ملاحظة سلوكات الآخرين وأنماط تفاعلهم مع المتغيرات البيئية، وعليه فان التعلم وفق هذه الوجهة هو عملية تمثيل داخلي للسلوك يفسره الفرد بواسطة التغذية الرجعية المستقاة من سلوكه المباشر أو ملاحظة سلوكات الآخرين وما يترتب عنها من نتائج.

إن الفرد حسب باندورا ليس مجرد ممارس سلبي لردود أفعال إزاء المثيرات الخارجية بل هو كائن مفسر يأخذ المعلومات ثم يوظف جملة العمليات الذهنية والمعرفية لمعالجتها واختيار منها ما يناسبه ويخدمه على أساس من التوقعات المحتملة، حيث تتبدى فاعليته وتبرز في قدرته على استباق النتائج المحتملة لمسارات سلوكه، ذلك أن الواحد منه قد يكوّن نتائج مختلفة تبعا لمتغيرات مختلفة، كما يمكن للواقعة الواحدة أن تكون مثيرا واستجابة ومعزّزا في عملية التفاعل التبادلي ويتوقف هذا على مدى تقصي الموقف.

ثم إن عملية التعلم محكومة من جهة أخرى بتفعيل خاصية تنظيم الذات والمقصود بها قدرة الفرد على ترتيب المتغيرات البيئية الموقفية ومحاولة توظيف أسس معرفية وما وراء معرفية تمكنه من التفاعل الإيجابي معها بغية إنتاج السلوكات المرغوب بها، وقد أكدّ باندورا من خلال شرحه وحديثه عن هذا التنظيم أنه "لا يتأثر بالمحددات الشخصية للفرد المتعلم فحسب بل وبالمحددات البيئية والسلوكية التي تعمل على نحو متشابك (لكن غير متكافئ) كضوابط لتنظيم التعلم، يضاف إلى ذلك متغير فعالية الذات الذي يكمن في "جملة معتقدات الفرد وتصوراته حول فعاليته لأداء السلوك المطلوب ومقدار الجهد الذي يبذله لتحقيق ذلك"[31]، والذي يبرز دوره جنبا إلى جنب مع عدد من العمليات الفرعية الهامة المتمثلة في الدافعية والملاحظة الذاتية وعمليات التذكر والإنتاج والرصد والحكم الذاتيين.

وحاصل القول أن باندورا من خلال حديثه عن آلية الملاحظة والتقليد وتركيزه على خاصية التنظيم الذاتي لحدوث التعلم قد أكد على الطبيعة البنائية الوظيفية لمتغيرات منظومة الذات الفاعلة، حيث تتجلى هذه الأخيرة على المحورين كمركب بنى معرفية تنمو وتتطور في ظل عمليات الانتباه والتنظيم والمراقبة والتقويم ...التي تعمل على نحو يعززها وعلى الرغم من أن مداخل هذا التوجه ليست بالجديدة (حيث نجد بعضا من ملامحها فيما قدمه الباحث بياجيه حول بناء المعرفة) لكن هذه الأخيرة تميزت بتركيزها على الذات كفاعل قادر على تنشيط وتدعيم وتعديل السلوك في السياقات المختلفة تبعا لمتغيرات داخلية وأخرى خارجية مرتبطة بها ما تنفك تتشابك وتنصهر لتحدده، هذا إلى جانب أن باندورا قد طرح جملة من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها التعلم المنظم ذاتيا، والتي تشير في مجملها الى أن الفرد المتعلم عنصر نشط فاعل ومشارك جوهري في حدوث التعلم، حيث يقوم على نحو هادف ببناء المعاني وتحديد الأهداف والاستراتيجيات التي تقوده الى ضبط سلوكاته انطلاقا من المعلومات والخبرات الموجودة في بيئته الخارجية إضافة إلى ما يختزنه ذهنه لذلك لا ينبغي النظر إليه كصفحة بيضاء تدون فيها المعلومات ليحتفظ بها ويسترجعها عند الحاجة ولا كقالب تصب فيه الخبرات جاهزة ليعيد استعمالها متى استدعى الأمر ذلك، إنما اعتباره فردا يبني معارفه الخاصة انطلاقا من ملاحظاته وممارساته الذاتية وما يتخذه من قرارات تتعلق بها، وعليه فإن تفعيل التعلم يتطلب فهما أعمق للكفاءات والاستراتيجيات ذات الصلة المباشرة بالمتعلم من خلال الاجابة عن أسئلة هامة من مثل :كيف يمكن للمتعلم أن يثار وينتبه وينظم ويقوم بممارسات تعليمية من أجل تحقيق الأهداف، وكيف يمكن الاستفادة من البيئة التعليمية على اختلافها من أجل خلق الاتجاهات التي تنحو به حذو التعلم بالاعتماد على ذاته.

على هذا الأساس ظهرت اتجاهات كثيرة بعد باندورا حاول أصحابها بناء نماذج تصورية تنطوي على جملة من الرؤى والافتراضات حول طبيعة البيئة التعليمية التي تحتضن هذا النوع من التعلم والشروط الواجب توفرها فيها، حتى يسهل على المتعلم تنمية مهاراته وقدراته التي يعول عليها لمجابهة الكم المعلوماتي والمعرفي الهائل الذي يعد سمة العصر، والذي لا تستطيع البيئة التعليمية التقليدية بعناصرها وما تنطوي عليه من مواكبته.

هوامش البحث

---

[1]- أطلقت الكثير من التسميات على التعلم الذاتي منها القريبة ومنها المختلفة عنه، نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر التعلم المستقل والتعلم المنظم ذاتيا والتعليم الموجه والتعليم المفرد، كما تعددت التعريفات التي خصته، وهذا راجع حسب رأينا إلى اختلاف توجهات واهتمامات الباحثين فيه من جهة وإلى اختلاف نظرتهم إلى طبيعته والآليات التي يتأسس عليها والشروط التي تحققه من جهة ثانية.

[2] - رافع النصير الزغلول، عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان -الأردن د ت، ص 40.

[3] - المرجع نفسه، ص 51.

[4] - أنظر:عدنان يوسف العتوم، علم النفس المعرفي النظرية والتطبيق، الطبعة الثالثة، دار المسيرة للنشر والتوزيع الأردن، 2012، ص 49.

[5] - رافع النصير الزغلول، عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، مرجع سابق، ص 96.

[6] - تعد النظرية الجشطلتية من أكثر النظريات اهتماما بموضوع الإدراك ،حيث تناولته بالدراسة ضمن إطارها العام الذي يقضي بتحليل الظاهرة النفسية إلى مجموعة من الأجزاء حتى يتسنى فهمها واستيعابها، ثم دراستها ضمن السياق أو الاطار الكلي الذي توجد فيه (مبدأ الكل أكبر من مجموع الأجزاء المكونة له) ما يتيح فهم البنية التنظيمية الخاصة بها.

[7] - راضي الوقفي، مقدمة في علم النفس، الطبعة الرابعة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان،2000 ، ص 226.

[8] - حافظ نبيل عبد الفتاح، صعوبات التعلم والتعليم العلاجي، مكتبة زهراء الشرق، مصر،1998 ، ص 24.

[9]- Bagot, jean didier, Information, Sensation et Perception, Armand colin, 1er edition, paris, 1999, p 10.

[10] - Flavell H J, Métacognition and Cognitive Monitoring, a New Area of Cognitive Développemental Inquiry, American Psychologist, 34(10), 1979, p910.

[11]-أنظر: جابر عبد الحميد جابر، استراتيجيات التدريس والتعلم، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1999، ص 329

[12] -Brown, A L, Métacognitive Développent And Reading, (In) R.J Spero, B Bruce and W.F Brewer Theoretical Issues In Reading Compréhension, Hellsdale, New Jerssy, Lawrence p453.

[13] -Henson, K T, Eller, B F, Education Psychology For Effective Teaching, Second Edition, New Yor, Wordsworth Publishing Company, 1999, p258.

[14]-رافع النصير الزغلول، عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، مرجع سابق، ص 79.

[15]- أنظر: Flavell H, J ,Metacognition and Cognitive Monitoring ، مرجع سابق، ص 913.

[16] - الإبستمولوجيا Epistémologie أو علم المعرفة هي مبحث نقدي يهتم بدراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها بغية إبراز أساسها المنطقي وقيمتها الموضوعية (ما يجعلها مختلفة عن نظرية المعرفة التي تعد مبحثا في النسبة بين الموضوع والذات العارفة)، وقد ارتكز بياجيه في طرح فكرته عن النمو المعرفي على أساس ابستمولوجي بنائي يتجلى في مفهومين أساسيين هما التفاعل interaction والبناء construction، حيث يرد الأول إلى طبيعة العلاقة بين الفرد والمحيط، أمّا الثاني فيوفر المنشطات اللازمة لعملية التفاعل لتكوين البنى المعرفية.

[17] - مصطفى ناصف، نظريات التعلم، ترجمة علي حسين حجاج، مراجعة عطية محمود هنا، منشورات عالم المعرفة، 1990، ص 284.

[18] - يقصد بياجيه بالمنطق نظام العلاقات الذي يضبط عمليات الطفل ويوجه سلوكاته على جميع المستويات (من الملموس والمحسوس الى التصوري والمجرد)، أنظر: جان بياجيه، الإبستمولوجيا التكوينية، ترجمة السيد نفادي، مراجعة وتقديم محمد علي أبو ريان، دار التكوين ،دمشق 2004 ص 28.

[19] - استخدم بياجيه مصطلحي التمثل والمواءمة عوض المثير والاستجابة، وعزا عملية التعلم إليهما على اعتبار أنها قضية ابستمولوجية (معرفية) تتجاوز مجرد تحديد وحدات التعلم إلى كيفية حدوث التعلم، وكيفية معرفة المتعلم لهذه الوحدات وتفسير تطورها.

[20] - أنظر: حسن حسين زيتون، كمال عبد الحميد زيتون، التعلّم والتدريس من منظور النظرية البنائية، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، 2006 ص 90.

[21] - اعتمد بياجيه في نظريته على مصطلح البنية مثل الجشطالتيين لكنه تجاوز مفهومهم عنها بارتكازه على قاعدة التكوين (الانتقال من حالة الى حالة أخرى أكثر تطورا وثباتا) التي تأخذ أبعادا أخرى فلسفية وسيكولوجية واجتماعية، ما يكسب البنية صفات الكمال وقابلية التحويل والتنظيم الذاتي وهو ما لم يتخذه الجشطالتيون مناطا في أعمالهم.

[22] - مصطفى ناصف، نظريات التعلم، مرجع سابق ،ص345.

[23] - جان بياجيه، الإبستمولوجيا التكوينية، مرجع سابق، ص46 .

[24] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[25] - مصطفى ناصف، نظريات التعلم، مرجع سابق، ص 334.

[26] - المرجع نفسه، ص337.

[27] - محمد شرقي : مقاربات بيداغوجية – من تفكير التعلّم إلى تعلّم التفكير – دراسة سوسيو بيداغوجية، إفريقيا الشرق المغرب، 2010، ص 39.

[28] - جابر جابر عبد الحميد، استراتيجيات التدريس والتعلم، مرجع سابق، ص19 .

[29] - للاستزادة أكثر أنظر:

Bandoura, A ,Auto-efficacité , le sentiment d'efficacité personnelle , Traduction Lecomte J, Bruxelles, de Boeck ,1er édition,2003.

[30] - للتمثيل الداخلي حسب باندورا نظامان، أولهما التخيل والتصور الذهني الذي يستغله الفرد في مراحل نموه المبكرة عندما تكون المهارات اللغوية محدودة، وثانيهما الترميز اللفظي للأحداث أو الوقائع الملاحظة التي تسهل الكثير من أنماط التعلم بالملاحظة، لأنها تمكن الفرد من استيعاب وتمثل وتخزين أكبر قدر من المعلومات في صيغ سهلة قابلة للتخزين والاحتفاظ والاسترجاع.

[31] - أنظر: Bandoura, A, Auto-efficacité , le sentiment d'efficacité personnelle, مرجع سابق، ص 12.

واقع التّعليم المكيّف في إطار إصلاح المنظومة التّربوية. ولاية البويرة نموذجا.

The situation of adjusted education in the context of the reform of the educational system - Bouira province

عليــوات محمد*

تاريخ تقديم البحث **2017/11/4** تاريخ القبول **2018/1/25**

ملخص

أعطت وزارة التّربية الوطنية اهتماما خاصا بالتّلاميذ المتأخرين دراسيا، لعلاج الصّعوبات المدرسية التّي تعترضهم علاجا مكثفا وظرفيا، من خلال وضعهم في أقسام التّعليم المكيف الذي يعتبر أحد أهداف إصلاح المنظومة التّربوية في الجزائر، نظرا لما يسهم به في الحدّ من الهدر المدرسي، ورفع مردود النّظام التّربوي.

من هذا المنظور، وسعيا منّا لإثراء هذا الموضوع الجديد بالدّراسة والتّقصي، قمنا ببحث حول واقع التّعليم المكيف في إطار إصلاح المنظومة التّربوية على مستوى ولاية البويرة، لتشخيص النّقائص واقتراح الحلول والبدائل، حتي ندفع منظومتنا التّربوية للارتـــقاء إلي مصاف الدّول التّي عرفت تقدما كبيرا في مجال التّربية والتّعليم.

الكلمات الدالة: التعليم المكيف، التأخر الدراسي، صعوبات التعلّم، إصلاح المنظومة التّربوية.

Abstract

A special attention has been given by the Ministry of National Education to slowlearner pupils for the treatment of the school difficulties they face intensively and circumstantially, through putting them in adjusted learning classes. This solution is considered one of the goals of the reform of the Algerian educational system, due to its contribution in reducing dropout rates as well as raising its yield.

To enrich this subject of study, we have made a research about the reality of adjusted education in the context of the reform of the educational system at the level of Bouira province, to learn how it is managed in its educational institutions, and diagnose shortcomings to be addressed so that we push our educational system to rise to the ranks of countries known for its significant progress in the field of education.

Keyboard: Adjusted education, school delays, learning difficulties, the reform of the educational system.

*جامعة أكلي محند أولحاج البويرة الجزائر ،.

مقدمة

إنّ المتتبع للاستراتيجية التّي انتهجتها وزارة التّربية الوطنية على مستوى التّعليم الإلزامي، يلاحظ أنّها تلح على ضرورة توفير الرّعاية التّربوية لكل التّلاميذ المتمدرسين لاسيما في مجال التّعليم الابتدائي، ويتجلّى لنا ذلك من خلال إتاحة الفرص الملائمة لكل التّلاميذ حتى ينالوا حقهم المشروع في مجانية التّعليم، وتذليل الصّعوبات المدرسية التي تعوق بعضهم عند الاستفادة من هذا الحق. لذلك يسعى القائمون على النّظام التّربوي خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية إلى تكوين مجتمع متعلم من خلال ترسيخ الآليات التّعليمية التي سخّرتها لخدمة النّموذج الذي ارتأت أنّه الأفضل نظريا وعمليا لبناء الهوية الجماعية والشّخصية الوطنية.

ولا سبيل إلى تكوين هذا المجتمع، إلاّ إذا كانت الفرص التّعليمية مضمونة ومكيّفة مع إمكانات الجميع، هذا المبدأ جعل وزارة التّربية الوطنية حريصة على العناية بالأطفال المتأخرين دراسيا في الطّور الأول والثّاني من التّعليم الابتدائي، ويظهر لنا ذلك من خلال إحداث ما يسمى بالتّعليم المكيّف في المدارس الابتدائية الذي يتكفل بهذا النّوع من التّلاميذ، وكوّنت المعلمين المتخصصين لهذا الغرض، وفتحت أقساما لاستقبالهم.

ويسعى هذا النّوع من التّعليم إلى منح التّلاميذ الذّين يعانون من تأخر دراسي شامل وعميق تعليما خاصا، يسمح لهم ويساعدهم على تدارك النّقائص الواضحة والبيّنة في التّحصيل الدّراسي نتيجة لظروف اجتماعية أو نفسية. ويعمل على إدماجهم في أقسامهم العادية بعد فترة معيّنة ومحددة من العناية والرّعاية المركزة.[1]

ومن خلال تجربتنا الميدانية لاحظنا أنّ التّعليم المكيّف نادرا ما يطرح كموضوع للنّقاش بالرّغم من الأهمية الكبيرة التّي يسعى إليها في معالجة حالات التّأخر المدرسي. هذا الوضع دفعنا للقيام ببحث تربوي عن واقع التّعليم المكيّف في ولاية البويرة خلال فترة إصلاح المنظومة التربوية للتّعرف عن مدى مساهمة هذا النّوع من التّعليم في الحد من الهدر المدرسي ورفع مردود النّظام التّربوي.

1- منهجية الدراسة:

1-1 إشكالية البحث: إنّ التّعليم المكيّف الذي دعت إليه وزارة التّربية الوطنية يعتبر وسيلة علاجية بيداغوجية، ويتجلّى لنا ذلك من خلال المناشير الوزارية السّارية المفعول خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية التّي تتمحور في مجملها حول كيفية تنظيمه في المؤسسات التّربوية، لمعالجة حالات التّأخر الدّراسي المستعصية عند فئة معيّنة من التّلاميذ، بهدف الحد من ظاهرتي الإعادة والتّسرب المدرسيين في الطورين الأول والثاني، وبالتّالي أصبح النّظام

التّربوي في الجزائر خلال فترة الإصلاح التّربوي مطالب بتلبية حاجات التّلاميذ الذين يعانون من تأخر دراسي مثلما يلبي حاجات التّلاميذ العاديين والمتفوّقين على حد السّواء، وعليه فإن توفير الخدمات التّربوية للتّلاميذ المتأخرين دراسيا يشكل عاملا من عوامل تجسيد مبدأ تكافؤ الفرص التّعليمية.

لذلك ارتأت وزارة التّربية الوطنية إلى وضع هؤلاء التّلاميذ في أقسام التّعليم المكيّف لعلاج الصّعوبات التّي تعترضهم علاجا مكثفا وظرفيا ينصب أساسا على مواد التّعلم "القراءة، الكتابة، الحساب" وعلى المفاهيم الأساسية التي تبنى عليها التّعليمات الأساسية في هذه المواد. وكلّما أظهرت نتائج المتابعة المستمرة امتلاك أي تلميذ للكفاءات ما يسمح له بمتابعة عملية التّعلم في المواد المذكورة سابقا من غير عوائق تعليمية، يعاد إدماجه في قسمه العادي و يحظى بعناية خاصة.

إنّ هذه الأفكار والمعطيات في مجملها دفعتنا لبلورة تساؤل محوري عام مفاده ما يلي: ما واقع التّعليم المكيّف خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية؟ هذا التّساؤل العام يتفرّع إلى أسئلة جزئية وهي كالآتي: هل تم اعتماد الإجراءات الواردة في المناشير الوزارية السّارية المفعول خلال فترة اصلاح المنظومة التّربوية وجعلها إطارا تنظيميا لهذا التّعليم؟ وما مدى مساهمة هذا النّوع من التّعليم العلاجي في إعادة إدماج التّلاميذ المتأخرين دراسيا في أقسامهم العاديـة؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لابدّ من الوقوف عند المدارس التّي اهتمت بالتّعليم المكيّف بولاية البويرة، للتّعرف على كيفية تطبيقها للإجراءات التي تضمنتها المناشير الوزارية السّارية المفعول خلال فترة الإصلاح التّربوي، ومدى مساهمتها في التّكفل بالتّلاميذ المتأخرين دراسيا وإعادة إدماجهم في أقسامهم العادية.

1-2 تحديد الموضوع: يتمثل موضوع بحثنا في دراسة واقع التّعليم المكيّف خلال فترة إصلاح المنظومة التربوية على مستوى ولاية البويرة. وعند قيامنا بالدراسة الاستطلاعية بالتّنسيق مع مديرة مركز التوجيه المدرسي والمهني لولاية البويرة السيّدة:" أجعود ج"، لاحظنا عدم اهتمام المؤسسات التّربوية بهذا النّوع من التّعليم العلاجي منذ بدء سياسة الإصلاح التّربوي، إلاّ أنّه خلال السنة الدراسية (2013/2012) سجلنا اهتمام (05) مدارس ابتدائية بالتّعليم المكيّف.

1-3 أهداف البحث: إنّ الهدف من البحث هو تحديد بكيفية واضحة ودقيقة المسعى المراد من الدّراسة. و لبلوغ ذلك، علينا أن نحدّد وبدقّة طبيعة وأهمية المشكلة المطروحة،

وبما أنّ بحثنا يندرج ضمن المسعى الكيفي، فإنّه في البحوث الوصفية عامّة، فإننا نقدم الإجابة عن السؤال في صيغة هدف بحث.[2]

بناء على ما سبق ذكره، فإنّ الهدف المنشود لبحثنا هو الإجابة عن السؤال المطروح في الإشكالية للتعرّف على ما يلي:

- واقع التّعليم المكيّف في إطار إصلاح المنظومة التربوية بولاية البويرة على مستوى المدارس الابتدائية خلال السّنة الدّراسية: (2013/2012).ومدى مساهمته في إعادة إدماج التّلاميذ المتأخرين دراسيا في أقسامهم العادية.

- كيفية تطبيق الإجراءات التّي تضمنتها المناشير الوزارية السّارية المفعول خلال فترة إصلاح المنظومة التربوية المتعلقة بالتّعليم المكيّف.

4-1 التّعريف بالمنهج: إنّ الخاصية أو طبيعة الموضوع هي التّي تفرض علينا اتباع منهج معيّن عن باقي المناهج، وبما أنّ دراستنا تهدف إلى معرفة واقع التّعليم المكيّف في المدارس الابتدائية بولاية البويرة خلال السّنة الدراسية: (2013/2012)، فإنّ المنهج الذي اعتمدنا عليه هو المنهج الوصفي، حيث يرتكز على وصف دقيق وتفصيلي لظاهرة أو موضوع محدد، وقد يقتصر هذا المنهج على وضع قائم في فترة زمنية محدّدة.[3] ويعرف منهج البحث الوصفي في مجال التّربية والتّعليم بأنّه:" استقصاء ينصب على ظاهرة من الظّواهر التّعليمية أو النّفسية كماهي قائمة في الحاضر بقصد تشخيصها، وكشف جوانبها، وتحديد العلاقات بين عناصرها، أو بينها وبين ظواهر تعليمية أو نفسية أو اجتماعية." [4]

كما فرض علينا هذا الموضوع التّعامل مع أحد أمثلة المنهج الوصفي، وهي دراسة الحالة، (حالة ولاية البويرة خلال السّنة الدراسية: 2013/2012)، وتهدف إلى التّعرّف على خصائص ومضمون حالة أو ظاهرة واحدة وبصورة مفصلة ودقيقة.[5]

5-1 التّقنيات المنهجية المتبعة: التقنية هي: " الأداة التّي يتحقق بواسطتها الهدف وتقع على مستوى الأحداث والمراحل الميدانية " [6] وقد استعملنا في دراستنا التّقنيات التّالية:

- **المقابلة:** المقابلة هي الطريقة المناسبة لفهم الظاهرة المدروسة بالنسبة للمبحوث، ذلك لأن الأسئلة فيها تكون مباشرة من طرف الباحث، وأن درجة فهم الأسئلة ومقاصدها واضحة أكثر ممّا عليه في الاستمارة ، كما يمكن أن تكون المقابلة متضمّنة لعنصر الملاحظة خاصة عندما نكون في المكان الذي ينشط فيه مجتمع البحث، حيث قمنا بمقابلات مع مديرة مركز التوجيه المدرسي والمهني لولاية البويرة، ومستشاري التوجيه والإرشاد المكلّفين بمتابعة أقسام التّعليم المكيّف.

- **تحليل محتوى الوثائق:** اعتمدنا في بحثنا على تحليل محتوى المناشير الوزارية المتعلّقة بالتّعليم المكيّف، محاضر اللّجنة، تقارير مستشار التّوجيه والارشاد المدرسي والمهني، و ملفات التلاميذ.

6-1 عيّنة البحث: تتمثل عيّنة الدّراسة في مجموع المدارس المعنية بالتّعليم المكيّف على مستوى ولاية البويرة خلال السّنة الدراسية: (2013/2012). والمقدر عددها بـ (05 مدارس)، إلا أنّنا لم نتحصل على البيانات والمعلومات الضرورية للبحث الخاصة بمدرسة "ماقري علي" وبالتّالي اقتصرت العيّنة على (04 مدارس ابتدائية). وتم اختيار هذه السّنة ليس من باب الصّدفة وإنّما لأسباب منهجية، حيث لاحظنا اكتمال جميع الإجراءات التّنظيمية المتعلّقة بالتّعليم المكيّف في المدارس التّي فتحت بها هذا النّوع من التّعليم العلاجي خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية، ممّا ساعدنا ذلك على تحليلها ونقدها، للوصول إلى تشخيص واقع التّعليم المكيّف في المؤسسات التّربوية.

2- تحديد مفهوم التّعليم المكيّف:

التّعليم المكيّف هو نوع من التّعليم العلاجي يهدف للتكفّل التّدريجي بالتّلاميذ الذين يعانون من حالات التّأخر الدّراسي رغم ما يتلقونه من معالجة تربوية لصعوبات التّعلم في الحصص العادية والاستدراكية، بهدف تجسيد مبدأ تكافؤ الفرص التّعليمية، والتّقليل من الهدر التربوي الذي يتجلى في ظاهرتي الإعادة والتّسرب المدرسيين.[7]

3- تحديد مفهوم صعوبات التعلّم:

يشير مفهوم صعوبات التعلم إلى التأخر أو الاضطراب في واحدة أو أكثر من العمليات الخاصة بالكلام، القراءة، والحساب.[8] ، أو انحراف عن المتوسط في واحدة أو أكثر من العمليات الأساسية المستخدمة في فهم اللغة المنطوقة أو المكتوبة وقد ينعكس إلى اضطراب في التفكير أو النطق أو القراءة أو الإنتباه.[9]

ويرى " الخطيب جمال " أنّ التلميذ الذي لديه صعوبة في الحساب يجد صعوبة في تحليل المفاهيم الرياضية ومقارنة الأعداد والأشكال الهندسية والرموز الجبرية، وفي فهم المطلوب من المسائل الحسابية [10] ويمكن اعتبار التلميذ المتأخر دراسيا إذا أظهر ضعفا ملحوظا ومستمرا في تحصيله الدراسي بالمقارنة مع زملائه الذين يتبعون مستوى تعليمي في نفس القسم أو في نفس السنة الدراسية.[11] وأرجع القائمون على الفعل التّربوي حالات التّأخر الدّراسي إلى الظّروف الاجتماعية، النّفسية والصّحية التّي يتعرض لها التّلاميذ خلال مزاولتهم للدّراسة وجعلتهم يتأخرون عن زملائهم في التّحصيل الدّراسي، ممّا دفع وزارة التّربية الوطنية إلى

الاهتمام بهذا الجانب، وأحدثت ما يسمى بالتّعليم المكيّف الذي يتكفّل بهذه الفئة من التّلاميذ، ويسعى إلى علاج نقاط ضعفهم وتمكينهم من تدارك ما فاتهم بعد فترة من العناية والرّعاية المركزة، وبكيفية تجعلهم يكتشفون قدرتهم على التّعلم ويسيرون تدريجيا في الاتجاه الذي يساعدهم للاندماج في الأقسام العادية.[12]

لقد اعتبر "سعد لعمش" أن التّعليم المكيّف مخصص للتّكفل بالتّلاميذ الذين يعانون من صعوبات في التّعلم كالتّخلف والإعاقة.[13] مبررا ذلك من خلال ما تضمنته المادة رقم:(85) من القانون التّوجيهي للتّربية الوطنية رقم: 08-04 المؤرخ في 23 جانفي 2008 . لكن المتمعن في المادة رقم: (85) من القانون الآنف الذكر، يلاحظ أن حالة الإعاقة والتّخلف غير مشار إليها إطلاقا. حيث جاء في المادة ما يلي:" تفتح أقسام التّعليم المكيّف بالمدارس الابتدائية للتّكفل بالتّلاميذ الذين يعانون تأخرا مدرسيا أو صعوبات في التّعليم.[14] وتضمنت المادة رقم:(14) من هذا القانون ما يلي: " يسهر قطاع التربية الوطنية، بالتنسيق مع المؤسسات الاستشفائية وغيرها من الهياكل المعنية، على التكفّل البيداغوجي الأنسب وعلى الإدماج المدرسي للتلاميذ المعوقين وذوي الأمراض المزمنة ".[15]

من زاوية أخرى تؤكد مختلف المناشير الوزارية قبل بدء إصلاح المنظومة التّربوية لاسيما المنشور الوزاري رقم 24/م.ت.م/94، أنّ التّلاميذ المتأخرين ذهنيا غير معنيين بالتّعليم المكيّف. حيث جاء فيه ما يلي :" ويجدر التذكير هنا أن المتخلفين ذهنيا غير معنيين بهذا التّعليم بل يوجهون إلى المؤسسات التّربوية المتخصصة إن وجدت". [16]

كما بادرت وزارة التربية الوطنية في وقت سابق إلى اتخاذ جملة من الإجراءات التّنظيمية ضمنتها في المنشور الوزاري رقم 1061/و.ت/م.د المؤرخ في 1996/10/08. تتعلق بضمان التّكفل بتمدرس التّلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة، والتّي تؤكد على ضرورة مراعاة حالتهم وتوفير الظّروف التي تساعدهم على بلوغ أقصى ما تؤهله لهم استعداداتهم.

وفي نفس السّياق، وسعيا إلى تمكين التّلاميذ المعوّقين من التّمتع بحقهم في التّعليم وضعت الوزارة جملة من الإجراءات التّنظيمية سطرتها في المنشور الوزاري رقم771/و.ت.و/أ.ع/ المتضمن التّكفّل بالتّلاميذ المعوّقين في الوسط المدرسي، المؤرخ في 21 أكتوبر2010.

ومن المهم أن نشير إلى الفرق الموجود بين التّلاميذ ذوي الاحتياجات التّربوية الخاصة والتّلاميذ المتأخرين دراسيا، حيث بإمكاننا أن نصنف الفئة الأولى من التّلاميذ (ذوي الاحتياجات التّربوية الخاصة) إلى قسمين: الأول يشمل التّلاميذ المصابين بالأمراض المزمنة

كالرّبو وداء السّكري والقلب وغيرها، حيث بإمكانها مزاولة الدّراسة في الأقسام العادية إذا توفرت الظّروف الملائمة، والقسم الثّاني لا يمكنه مواصلة الدّراسة في الأقسام العادية كالتّلاميذ المصابين بالصّم والبكم، والأطفال الذين يعانون من تخلّف ذهني وتخلّف عقلي، هذا النّوع من التّلاميذ إذا ظهر الضّعف في تحصيلهم الدّراسي لا يوجهون إلى أقسام التّعليم المكيّف، بل يتم التّكفل بهم خارج قطاع التّربية في إطار ما يسمى بالتّعليم التّربوي المتخصّص. أمّا الفئة الثانية، ونقصد التّلاميذ المتأخرين دراسيا حيث يكون هذا التّأخر ظرفيا وناتج عن أسباب نفسية، اجتماعية وصحية تكون قابلة للعلاج في أقسام التّعليم المكيّف.

كنتيجة لما سبق، يمكن القول أن التّلميذ المتأخر دراسيا هو ليس التّلميذ الذي يعاني من تخلّف ذهني، ولكن هو التّلميذ الذي أثبتت الملاحظات اليومية ونتائج التّقويم المستمر أنّه لم يستوعب أساسيات المناهج المقررة و المسطّرة، ولم يستفد من المجهودات المدرسية المبذولة التّي بإمكانها أن تجعل تحصيله الدّراسي في مستوى إمكاناته وقريبا من زملائه في القسم، فظهر الفرق بينه وبين المتوسطين من زملائه في الصّف.[17] حيث يتعذّر عليه إعادة السّنة مع التّلاميذ العاديين في نهاية السّنة الثّانية ابتدائي نظرا للصّعوبات التّعلمية التّي واجهتهم طوال مرحلة الطور الأول(السّنتان الأولى والثّانية ابتدائي).[18]

4- تّنظيم التّعليم المكيّف خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية:

4-1 شروط فتح أقسام التّعليم المكيّف: وضعت وزارة التّربية الوطنية من خلال المنشور الوزاري رقم: 10/0.0.2/202 شروطا خاصة بفتح أقسام للتّعليم المكيّف على مستوى المؤسسات التّربوية يمكن حصرها في النّقاط التّالية: تفتح أقسام التّعليم المكيّف حسب الحاجة والإمكانات على مستوى مدرسة ابتدائية، أو مجموعة من المدارس الابتدائية أو على مستوى مقاطعة تفتيشية، كما يجب أن تظهر أقسام التّعليم المكيّف في الخرائط المدرسية للمدارس الابتدائية المحدثة بها، ويعيّن لها المعلمون فور تحديد قائمة التّلاميذ الموجهين إلى قسم التّعليم المكيّف. وأن يكون عدد التّلاميذ في قسم التّعليم المكيّف محصورا ما بين (10 تلاميذ إلى 15 تلميذا).

4-2 التّلاميذ المعنيون بالتّعليم المكيّف: لقد حدد المنشور فئة التّلاميذ المعنية بالتّعليم المكيّف، وهم التّلاميذ الرّاسبون في نهاية السّنة الثّانية ابتدائي الذّين تعذر عليهم إعادة السّنة مع التّلاميذ العاديين نظرا للصّعوبات التّعلمية التّي واجهتهم طوال مرحلة الطور الأول (السنتان الأولى والثّانية ابتدائي).

3-4 مراحل كشف التّلاميذ المتأخرين دراسيا: لم يتطرق المنشور الوزاري رقم: 202 إلى مراحل كشف التلاميذ المتأخرين دراسيا، ممّا جعل القائمون على الفعل التّربوي الرّجوع إلى ما تضمنه المنشور الوزاري رقم: 24/م. ت.م /94 . المتضمن تنظيم التّعليم المكيّف، حيث أشار إلى المراحل الواجب اتباعها عند كشف التّلاميذ المتأخرين دراسيا ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- إحصاء جميع التّلاميذ الذّين يعانون تأخرا دراسيا واضحا، يشمل مختلف المواد الدّراسية رغم الحصص الاستدراكية، يقوم بهذه العملية معلمو التّعليم الأساسي بالتّنسيق مع مديري المدارس الابتدائية وتحت إشراف السّادة المفتشين، بناء على ملاحظاتهم المستمرة ويتم ذلك عند نهاية الفصل الثّاني من السّنة الدّراسية الثّانية.

- بعد ضبط قائمة التّلاميذ المعنيين، وتحديد جدول تدخلات أعضاء اللّجنة، يشرع في إجراء الاختبارات المعرفية، وحصر التّلاميذ الذين يحتاجون إلى تعليم متخصص (تعليم مكيّف)، تقوم بهذه العملية مصالح مراكز التوجيه المدرسي والمهني بمشاركة مديري ومعلمي المدارس الابتدائية، وتتم هذه العملية خلال الفصل الثّالث من السّنة الدّراسية الثّانية.

- يقوم بالفحوص الطّبية طبيب الصّحة المدرسية أمّا الرّوائز النّفسية والمقابلات الاستكشافية يقوم بها أعضاء مركز توجيه المدرسي و المهني، ثم تقوم اللّجنة بعد إخضاع التّلاميذ إلى مجموع العمليات السّابقة بدراسة الملفات حالة بحالة، وعلى ضوئها يتم تصنيفهم ثم تقرر القبول في القسم المكيّف من عدمه.[19]

4-4 دور اللّجنة الطّبية النّفسية التّربوية: أشار المنشور إلى الدّور الفعّال الذي تلعبه اللّجنة الطّبية النّفسية البيداغوجية في عملية تنظيم ومتابعة التّعليم المكيّف على مستوى المؤسسات التّعليمية التي فتحت بها أقسام للتّعليم المكيّف، لذلك ألح على تنصيبها في كل المقاطعات التّفتيشية، والعمل على تنشيط وتفعيل اللّجان المنصبة.

- **تشكيلتها:** وتتكون من الأعضاء التّالية: مفتش التّربية والتّعليم الأساسي رئيسا، مفتش أو مستشار التوجيه، طبيب الصّحة المدرسية، مدير مدرسة بها قسم التّعليم المكيّف، معلم في قسم التّعليم المكيّف، نفساني مدرسي إن أمكن.[20]

- **دورهـــا:** أشار المنشور الوزاري رقم: (202) أن مهام اللّجنة الطّبية النّفسية التّربوية مبيّن في المنشور الوزاري رقم:(433) وتتخلص فيما يلي: الكشف عن التّلاميذ الذّين يحتاجون إلى التّعليم المكيّف، متابعة التّلاميذ في أقسام التّعليم المكيّف من الناحية النّفسية والتّربوية ودراسة نتائجهم بهدف إعادة إدماجهم في أقسامهم العادية، متابعة التّلاميذ بعد إدماجهم في

أقسامهم لتذليل الصّعوبات التّعليمية التّي قد تعترضهم، المساهمة في تكوين معلمي الأقسام العادية والأقسام المكيّفة في الموضوعات المتعلّقة بتعليم ذوي الاحتياجات التّربوية الخاصة.[21]

5-4 نشاطات التّعلـــم: يتلقى التّلاميذ في التّعليم المكيّف تعليما علاجيا، بعد تشخيص صعوبات التّعلم لدى كل تلميذ ثم وضع خطة لمعالجتها معالجة فردية، أو في مجموعات صغيرة بالنّسبة للصّعوبات المشتركة بين التّلاميذ باتباع طرائق وأساليب التّعلم التّشاركي. بحيث ترتكز الأنشطة التّعلمية على اللّغات الأساسية، وعلى تنمية مهارات التّعبير الشّفوي، الكتابة، القراءة والحساب. التّي تضمنتها مناهج الطور الأول من التّعليم الابتدائي (السّنة الأولى والثّانية ابتدائي).

6-4 الزّمن البيداغوجي: الحجم الساعي الأسبوعي لعمل المعلمين هو نفسه الحجم السّاعي الأسبوعي لمعلمي السّنة الثّانية ابتدائي.

7-4 تأطير أقسام التّعليم المكيَف: **تعطى الأولوية في تأطير أقسام التّعليم المكيّف للمعلمين الذين باشروا العمل في التّعليم المكيّف، بصفتهم معلمين متخصصين أو عاديين، وفي حالة عدم توفر هذا النّوع من المعلمين سيتم تعيين معلمين عاديين يتمتعون بكفاءة ورغبة للعمل في أقسام التّعليم المكيّف.**

8-4 المتابعـــة: يجب على الفريق التّربوي بالمدرسة التي فتح بها قسم للتّعليم المكيّف ضمان متابعة مستمرة للوقوف على مدى تقدم التّلاميذ المعنيين بهذا النّوع من التّعليم العلاجي في عملية التّعليم/التّعلم، وتشخيص ما بقي يعترضهم من صعوبات، مع اقتراح الحلول والبدائل لمعالجتها.

9-4 التقييم والارتقاء: فيما يتعلق بالتّقييم والارتقاء إلى المستوى الأعلى، يخضع تلاميذ التّعليم المكيّف إلى نفس التّدابير والإجراءات التّي يخضع لها زملاؤهم المتمدرسون في السّنة الثّانية ابتدائي.

10-4 الادماج في القسم العادي: التّعليم المكيّف حسب المنشور الوزاري رقم:(202)،هو تعليم علاجي وظرفي يتوجب دمج التّلميذ في قسمه العادي، حين تظهر نتائج التّقييم أنه تغلّب على صعوبات التّعلم الأساسية، وأنه قادر على مواصلة ومزاولة مساره ومشواره التّعليمي والدّراسي بصفة عادية.[22]

5- واقع التّعليم المكيّف في ولاية البويرة خلال السّنة الدّراسية 2013/2012.

نلاحظ من خلال دراسات مركز التّوجيه المدرسي والمهني لولاية البويرة، أنّ عدد المدارس الابتدائية التّي فتحت بها أقسام التّعليم المكيّف، خلال السّنة الدّراسية 2013/2012

بلغ (05) مدارس من مجموع (533) مدرسة ابتدائية، بنسبة مئوية قدرت ب(0.93%). وهي نسبة ضعيفة جدا مقارنة بعدد المدارس الابتدائية الموجودة على مستوى الولاية ،وهنا نطرح السؤال الآتي: هل التّلاميذ المسجلين في السّنة الثّانية ابتدائي تم انتقالهم إلى السّنة الثّالثة متوسط دون صعوبات تعليمية/ تعلميّة؟ للإجابة عن هذا السّؤال تم إحصاء عدد التّلاميذ المعيدين في السّنة الثّانية على مستوى الولاية خلال السّنة الدّراسية: (2012/2011) ، للوقوف أمام حجم ظاهرة الإعادة في ابتدائيات ولاية البويرة.

فيما يخص الاعادة في السّنة الثّانية ابتدائي اعتمدنا على السّنة الدّراسية: (2012/2011) ، لأن عيّنة الدّراسة بنيت على أساس التّلاميذ المتأخرين دراسيا خلال هذه السّنة، حيث قدّر عدد التّلاميذ المعيدين ب (1212 تلميذا) من مجموع (13138 تلميذا) بنسبة قدرت ب(9.22%). وهم التّلاميذ الذّين لم يتمكنوا من استيعاب البرنامج المقرر في السّنة الثّانية ابتدائي، وأظهروا عجزا شاملا في المواد الأساسية. لكن لاحظنا قبول (44 تلميذا) فقط في أقسام التّعليم المكيّف بنسبة مئوية محتشمة قدرت ب(3.36%)، وهذا يدلّ على عدم الاهتمام بهذا النّوع من التّعليم العلاجي في ولاية البويرة، بالرّغم من تأكيد الوزارة على ضرورة تعميمه في المؤسسات التّربوية وإصرارها على تنصيب لجان الاستكشاف على مستوى كل المقاطعات التّفتيشية غير المنصبة بها، وإعادة تفعيل وتنشيط اللّجان المنصبة.

وسجلنا تنصيب (05 أفواج) تربوية موزعة على (05 مدارس ابتدائية) حيث احتوت كل ابتدائية على فوج تربوي. وتراوح عدد التّلاميذ في القسم ما بين (07 إلى 11 تلاميذ). والملفت للانتباه أن هذه الأقسام منصبة على مستوى دائرتين فقط وهما: البويرة وعين بسام من بين (12 دائرة). وبالضّبط في المقاطعتين: الثّالثة والرّابعة بالنسبة لدائرة البويرة، وفي المقاطعة رقم: (16) بالنسبة لدائرة عين بسام. وفيما يلي سنقوم بتحليل ونقد عملية تنظيم التّعليم المكيّف على مستوى هذه المدارس باستثناء مدرسة ماقري علي كما أشرنا إلى ذلك في عيّنة البحث، للتّعرف على مدى تطبيق الاجراءات التّي تضمنتها المناشير الوزارية لاسيما المنشور الوزاري رقم: (202) الذّي يحدد طريقة تنظيم هذا النّوع من التّعليم في المدارس الابتدائية خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية.

6- طريقة تنظيم التّعليم المكيّف حسب كل مدرسة:

6-1 مدرســـة بوصنـــدالة:

- تقديم العملية:

- **الاستكشاف:** قام مدير مدرسة بوصندالة بالتّنسيق مع معلم التّعليم الابتدائي بتحديد فئة التّلاميذ الذّين يعانون من صعوبات مدرسية ولم يتسنّ لهم الانتقال إلى السنة الثّالثة بهدف توجيههم إلى قسم التّعليم المكيّف، وحددت مستشارة التوجيه والإرشاد المدرسي نوع الصّعوبات التّي يعاني منها التّلاميذ المقبولون في قسم التّعليم المكيّف، بعد إجراء المقابلات الاستكشافية وتطبيق الروائز النّفسية.

- **القبـول في قسم التّعليم المكيّف:** تم توجيه وقبول هذه الفئة من التّلاميذ في قسم التعليم المكيّف بقرار من المدير وبالتّعاون مع المعلم ومستشارة التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني، وبلغ عددهم (10 تلاميذ).

- **التّأطير التّربوي:** قام مدير التّربية بتكليف معلم عادي غير متخصص بتدريس التّلاميذ المعنيين بالتّعليم المكيّف، حيث تم تطبيق برنامج دراسي علاجي يتناسب مع نوع الصّعوبات المدرسية المسجلة.

- **الإدماج** في القسم العادي: تم إدماج تلميذين في نهاية الفصل الثّاني على أساس ملاحظة تحسن طفيف في المستوى، وأدمج الآخرون والمقدر عددهم بـ (08 تلاميذ) خلال نهاية السّنة بالرّغم من عدم ملاحظة أيّ تحسن في المستوى.

نقـــد العمليـة:

- **الاستكشاف:** حسب المنشور الوزاري رقم:433/و ت/ أ.ع المتضمن الرّعاية التّربوية للتّلاميذ المتأخرين دراسيا، المؤرخ في 09 ماي .2001، فإن عملية استكشاف التّلاميذ تتم في إطار اللّجنة الطبيّة النّفسية التّربوية.

- **القبول في قسم التّعليم المكيّف:** تم قبول وتوجيه التلاميذ بقرار من المدير دون انعقاد اللّجنة الطّبية النّفسية التّربوية، وهذا يتنافى مع ما جاء في المناشير الوزارية لاسيما المنشورين الوزاريين رقم: (433 و202).

- **التّأطير التّربوي:** تعطى الأولوية في تأطير قسم التّعليم المكيّف للمعلم المتخصص الذي تلقى تكوينا لمدة سنة حسب ما جاء في المنشور رقم: (433)، لكن المعلّم الذي كلّف بالتّدريس غير متخصص (عادي) تلقى تكوينا لمدة أسبوع فقط. وتجدر الإشارة إلى قاعة

التّدريس غير منظمة ولم تتوفر على الإمكانات البيداغوجية التّي تتناسب مع هذه الفئة من التّلاميذ، ممّا يزيد من صعوبة سير عملية التّعلم العلاجي.

- **الإدماج في القسم العادي:** بقاء التّلاميذ سنة كاملة في التّعليم المكيّف هو إجراء يتنافى مع النّظرة التّربوية الصّائبة للتّعليم المكيّف، فهو تعليم علاجي ومكثف وظرفي كما أشار إلى ذلك المنشور الوزاري رقم: (433). حيث يتوجب دمج التّلميذ في قسمه حين تظهر نتائج التقيّيم أنّه تغلّب على صعوبات التّعلم الأساسية وأنه قادر على مواصلة مساره الدّراسي بصفة عادية. وهنا نطرح السّؤال التّالي: ما مصير التّلاميذ الذّين مكثوا سنة كاملة في قسم التّعليم المكيّف ثم أدمجوا في أقسامهم العادية دون ملاحظة أيّ تحسّن في مستواهم؟ هل حقيقة الصّعوبات التّي تواجههم يمكن التّغلب عليها في قسم التّعليم المكيّف؟

2-6- مدرسة صديقي بلقاسم:

- **تقديم العملية:**

- **الاستكشاف:** قام مدير مدرسة صديقي بلقاسم بالتّنسيق مع معلم قسم التّعليم المكيّف ومستشارة التوجيه والإرشاد المدرسي بتحديد فئة التّلاميذ الذين يعانون من صعوبات مدرسية في المواد الأساسية حساب، قراءة، كتابة. ولم يتسن لهم الانتقال إلى السنة الثّالثة بهدف توجيههم إلى قسم التّعليم المكيّف. وبعد تشخيص نوع الصّعوبات التّي يعاني منها التّلاميذ المقترحون في قسم التّعليم المكيّف، من خلال إجراء المقابلات الاستكشافية وتطبيق الرّوائز النّفسية، تم اجتماع لجنة الاستكشاف بهدف توجيه التّلاميذ المقبولين في هذا النّوع من التّعليم العلاجي.

- **القبول في قسم التّعليم المكيّف:** اجتمعت لجنة الاستكشاف خلال شهر سبتمبر (2012) تحت إشراف السّيد مفتش المقاطعة. بهدف دراسة ملفات التّلاميذ و إقرار توجيههم إلى قسم التّعليم المكيّف وبلغ عددهم (11 تلميذا).

- **التّأطير التّربوي:** تم تعيّين المعلم على أساس خبرته في تدريس هذا النّوع من التّعليم العلاجي، واستفاد من تكوين دام أسبوعا في ولاية عنابة خلال السّنة الدّراسية: (2011/2010). لاحظنا قاعة التّدريس منظمة بشكل جيّد، ممّا جعل التّلاميذ يدرسون في ظروف مهيأة ساعدتهم على تجاوز الصّعوبات المدرسية التي عرقلت مسارهم الدّراسي، وتم تطبيق برنامج دراسي علاجي يخص المواد الأساسية: القراءة، الكتابة، والحساب، يتناسب مع نوع الصّعوبات المدرسية المسجلة.

- **الإدماج في القسم العادي:** من خلال تتبعنا للعملية لاحظنا إدماج (08 تلاميذ) في أقسامهم العادية في نهاية السّنة الثّالثة ابتدائي بعدما لوحظ تحسنهم في المواد الأساسية، أما الآخرون والمقدر عددهم (3 تلاميذ) أعادوا السّنة الثّانية على أساس النّتائج الضّعيفة المسجلة، وكان القرار من طرف معلم القسم المكيف بالتّنسيق مع مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

- **نقـد العمليـــة:**

- **الاستكشـاف:** عملية استكشاف التّلاميذ يتم في إطار اللّجنة الطبيّة النّفسية التّربوية، حسب ما أشار إليه المنشور الوزاري رقم: (433) المتضمن الرّعاية التّربوية للتّلاميذ المتأخرين دراسيا، المؤرخ في 09 ماي 2001. غير أنّنا لاحظنا أن عملية الاستكشاف تمت من طرف معلم التّعليم المكيّف بالتّنسيق مع مستشار التّوجيه والإرشاد المدرسي والمهني، تحت إشراف السّيد مدير المؤسسة.

- **القبول في قسم التّعليم المكيّف:** تم تطبيق ما جاء في المناشير الوزارية المتعلقة بالتّعليم المكيف لاسيما المنشورين الوزاريين (433 و202). حيث اجتمعت اللّجنة وقررت توجيه التّلاميذ المعنيّين بالتّعليم المكيّف، لكن ما لاحظناه هو غياب عضو مهم جدّا في لجنة الاستكشاف وهو طبيب الصحة المدرسية.

- **التّأطير التّربوي:** المعلم المكلّف غير متخصص تلقى تكوينا لمدة أسبوع فقط في ولاية عنابة، وأبدى رغبة كبيرة في تدريس هذه الفئة من التّلاميذ، غير أنه ما جاء في المنشورين: (433 و 202) فيما يخص تأطير قسم التّعليم المكيّف أنّه تعطى الأولوية للمعلم المتخصص الذي تلقى تكوينا لمدة سنة. وتجدر الإشارة إلى أنّ قاعة التّدريس منظمة و تتوفر على الإمكانات البيداغوجية التّي تتناسب مع هذه الفئة من التلاميذ، ممّا جعل التّلاميذ يدرسون في ظروف مهيأة ساعدتهم على تجاوز الصّعوبات المدرسية بشكل مريح.

- **الادماج في القسم العادي:** التّعليم المكيّف هو تعليم علاجي ومكثّف وظرفي كما أشار إلى ذلك المنشور الوزاري رقم: (433). حيث يتوجب دمج التّلميذ في قسمه العادي حين تظهر نتائج تغلّبه على صعوبات التّعلم الأساسية وأنه قادر على مواصلة مساره الدّراسي بصفة عادية. وبالتّالي بقاء التّلاميذ سنة كاملة هو اجراء يتعارض و يتنافى مع قرارات وزارة التربية الوطنية خلال فترة اصلاح المنظومة التّربوية.

3-6 مدرسة جعــدي عيسى:

- تقديــم العمليــة:

- **الاستكشـــــاف:** انطلقت عملية استكشاف التّلاميذ الذّين يعانون من تأخر دراسي شامل مع بداية الدّخول المدرسي للسّنة الدّراسية: 2012 /2013. حيث قامت مستشارة التّوجيه بالمقابلات الاستكشافيــة

وتطبيق الرّوائز النّفسية قصد تحديد نوع الصّعوبات التّي يعاني منها التّلاميذ.

- **القبول في قسم التّعليم المكيّف:** اجتمعت لجنة الاستكشاف خلال شهر سبتمبر تحت إشراف مفتش المقاطعة وفي غياب عضو هام من أعضاء اللجنة وهو طبيب الصحة المدرسية، وبعد دراسة ملفات التلاميذ بعناية تم قبول و توجيه التّلاميذ لمزاولة الدّراسة في قسم التّعليم المكيّف، والمقدر عددهم بـ (08 تلاميذ).

- **التّأطير التّربوي:** قام مدير التّربية بتكليف معلم غير متخصص بتدريس التّلاميذ المعنيين بالتّعليم المكيف نظرا لكفاءته وحبه للعمل، وباقتراح من مفتش المقاطعة ومدير المؤسسة، حيث تم تطبيق برنامج دراسي علاجي يتناسب مع نوع الصّعوبات المدرسية المسجلة، ولاحظنا قاعة التّدريس أنها منظمة وتتوفر على الإمكانات البيداغوجية التّي تتناسب مع هذه الفئة من التّلاميذ.

- **الإدماج في قسم العادي:** اجتمعت لجنة الاستكشاف خلال نهاية الفصل الأول وقررت إدماج تلميذين في القسم العادي نظرا للتحسن الملحوظ في مستوى المواد الأساسية، أما الآخرون والمقدر عددهم بـ (06 تلاميذ) زاولوا الدّراسة في قسم التّعليم المكيّف وتم إدماجهم في القسم العادي في نهاية السّنة الدّراسية بعد ملاحظة تحسّن طفيف في المستوى.

نقــد العمليــة:

- **الاستكشاف:** عملية استكشاف التّلاميذ تكون في نهاية الفصل الثّالث وليس في بداية السّنة الدّراسية، حيث تظهر أقسام التّعليم المكيّف في الخرائط المدرسية للمدارس الابتدائية المحدثة بها، وأن يعيّن لها المعلمون فور تحديد قائمة التّلاميذ الموجهين إلى قسم التّعليم المكيّف كما تمت الإشارة إلى ذلك في المنشور الوزاري رقم:(202).

- **القبول في قسم التّعليم المكيّف:** اجتمعت اللّجنة في غياب عضو مهم جدّا في لجنة الاستكشاف وهو طبيب الصّحة المدرسية. وقررت توجيه التّلاميذ المعنيين بالتّعليم المكيّف، دون تطبيق ما جاء في المنشور الوزاري رقم:(10/0.02/202). الذي حدد عدد التّلاميذ في قسم التّعليم المكيّف ما بين (10 إلى 15 تلميذا).

- **التّأطير التّربوي:** المعلم الذي كلّف بالتّدريس غير متخصص تلقى تكوينا لمدة أسبوع فقط. حيث تعطى الأولوية في تأطير قسم التّعليم المكيّف للمعلم المتخصص الذي تلقى تكوينا لمدة سنة حسب ما جاء في المناشير الوزارية لاسيما المنشورين رقم:(433 و 202)، ولاحظنا أنّ قاعة التّدريس منظمة وتتوفر على الإمكانات البيداغوجية التّي تتناسب مع هذه الفئة من التّلاميذ، ممّا جعلهم يدرسون في ظروف مهيأة ومريحة.

- **الإدماج في القسم العادي:** تشير مختلف المناشير الوزارية لاسيما المنشور الوزاري رقم: 433 أنّ بقاء التّلاميذ سنة كاملة في التّعليم المكيّف هو إجراء يتنافى مع النّظرة التّربوية الصّائبة للتّعليم المكيّف خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية، وبالتّالي فالتّعليم المكيّف هو تعليم علاجي ومكثف وظرفي، يتوجب دمج التّلميذ في قسمه حين تظهر نتائج التقيّيم أنّه تغلّب على صعوبات التّعلم الأساسية و قادر على مواصلة مساره الدراسي بصفة عادية كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

4-6 مدرسة بن غرابي اعمر:

- **تقديــم العمليــة:**

- **الاستكشــاف:** قام المعلم المتخصص بعملية الاستكشاف وتشخيص التّلاميذ الذّين يعانون تأخرا دراسيا في بداية السنة الدراسية: (2013/2012).

- **القبول في قسم التّعليم المكيّف:** اجتمع مدير المدرسة والمعلم في بداية شهر نوفمبر، وبعد دراسة ملفات التلاميذ تم قبولهم في قسم التّعليم المكيّف والمقدر عددهم بـ (06 تلاميذ).

- **التّأطير التّربوي:** تم تعيين معلم متخصص تلقى تكوينا لمدّة سنة في المعهد التّكنولوجي، له خبرة في مجال التّعليم المكيّف منذ بداية السّنة الدّراسية: (1995/1994)، وتشير التّقارير أنّ قاعة التّدريس منظمة، حيث اعتمد المعلم في متابعته البيداغوجية والتّربوية على برنامج السّنة الثّانية ابتدائي، وكيّف طريقة العمل والتّدريس حسب الصّعوبات التّي يعاني منها كل تلميذ.

- **الإدماج في القسم العادي:** تم إدماج كل التّلاميذ في القسم العادي خلال نهاية الفصل الثّاني، بعدما لاحظ المعلم المتخصّص تحسّن في مستواهم.

- **نقد العمليــة:**

- **الاستكشاف:** عملية استكشاف التّلاميذ تتم في إطار اللّجنة الطبيّة النّفسية التّربوية، حسب المنشور الوزاري رقم: (433) المؤرخ في 09 ماي 2001.

- **القبول في قسم التعليم المكيّف:** تم توجيه التّلاميذ بقرار من المدير دون انعقاد لجنة الاستكشاف، وهذا يتنافى مع ما جاء في المناشير الوزارية لاسيما المنشورين الوزاريين رقم:(433 و202).

- **التّأطير التّربوي:** لاحظنا تعيين المعلم المتخصص في التّعليم المكيّف، كما أشارت إلى ذلك مختلف المناشير لاسيما المنشور الوزاري رقم: (433). حيث كيّف طريقة العمل والتّدريس حسب الصّعوبات التّي يعاني منها كل تلميذ.

- **الإدماج في القسم العادي:** لجنة الاستكشاف هي التّي تقرر إدماج التّلاميذ في القسم العادي وليس المعلم المتخصص، وبالتّالي فالإجراء الذي اتخذه المعلم يتعارض مع المنشور الوزاري رقم: (433).

- **الاستنتـــاج العـــام:**

1- عدم اهتمام المدارس الابتدائية بالتّعليم المكيّف خلال فترة الإصلاح: يعتبر التّعليم المكيّف من أهداف الإصلاح التّربوي الذي انتهجته وزارة التربية الوطنية. إلّا أنّ الدّراسة أثبتت أن عدد المدارس الابتدائية التّي فتحت بها أقسام التّعليم المكيّف، خلال السّنة الدّراسية:(2013/2012) بلغ (05) مدارس من مجموع (533) مدرسة ابتدائية، بنسبة مئوية قدرت ب(0.93%). وهي نسبة ضعيفة جدا مقارنة بعدد المدارس الابتدائية الموجودة في ولاية البويرة.

2- محدودية دور لجنة الاستكشاف: إنّ طبيعة تشكيلة اللّجنة الطّبية النّفسية التّربوية، جعل عملية استكشاف كل الحالات التي تحتاج إلى التّعليم المكيّف تبدو صعبة. حتّى ولو تحقق ذلك ميدانيا فالتّكفل بهم يبقى أمرا صعب المنال والتّجسيد، كما إن الإمكانات المتاحة للجنة الطبيّة النّفسية متواضعة جدا، لأن وسائل القياس والفحوص غير متوفرة في الغالب، وإن وجدت فإنها غير ملائمة ولم يتم تكيّيفها مع الواقع و بيئة الفئة المستهدفة.

3- مشكلة تنصيب لجنة الاستكشاف وإعادة تنشيط اللّجان المنصبة: إنّ المتتبع لتنظيم التّعليم المكيّف في ولاية البويرة يلاحظ أن الكثير من المقاطعات التعليمية لم تنصب فيها اللّجنة الطبية النّفسية التّربوية، وإن كانت منصبة فالتّنسيق بين أعضائها صعب التّجسيد .

4- عدم مراعاة ما تضمنته المناشير الوزارية المتعلّقة بتنظيم التّعليم المكيّف: أكّدت الدّراسة أنّ المدارس التّي يوجد بها أقسام التّعليم المكيّف لم تراع المناشير الوزارية

المتضمنة كيفية تنظيم هذا النّوع من التّعليم العلاجي لاسيما المنشورين الوزاريين رقم: (433 و 202) حيث لاحظنا ما يلي:

1-4 الاستكشاف والقبول في قسم التعليم المكيّف: لجنة الاستكشاف هي التّي تقوم باستكشاف التّلاميذ الذين يعانون من تأخر دراسي في نهاية السّنة الدّراسية و تقرر توجيه التّلاميذ إلى أقسام التّعليم المكيّف، لكن لاحظنا في بعض المدارس المعلّم أو المدير هو الذي يقرّر توجيه التّلاميذ إلى قسم التّعليم المكيّف، وهذا يتعارض مع إجراءات المناشير الوزارية لاسيما المنشورين رقم: (433 و 202).

2-4 الطّب المدرسي: لاحظنا من خلال الدّراسة أن عملية استكشاف التّلاميذ كانت تتم في غياب عضو هام من لجنة الاستكشاف وهو طبيب الصّحة المدرسية الذي يلعب دورا كبيرا في عملية تشخيص التّلاميذ الذّين يوجهون إلى المدارس التّربوية المتخصصة. وهذا ما عرقل عملية تشخيص واستكشاف التّلاميذ بالوجه الدّقيق والسّليم.

3-4 التّأطير والإدماج في الأقسام العادية: أثبتت الدّراسة أن المعلمين المكلّفين بالتّعليم المكيّف، غير متخصصين باستثناء مدرسة بن غرابي اعمر، وبالتّالي الاعتماد على المعلمين العاديين في تعليم التّلاميذ الذّين يعانون تأخرا دراسيا أدّى إلى إدماجهم في أقسامهم العادية بعد مرور سنة في أقسام التّعليم المكيّف، دون ملاحظة أيّ تحسّن في مستواهم الدّراسي بالرّغم من أن هذا النّوع من التّعليم هو ظرفي يتوجب دمج التّلميذ في قسمه العادي حين تثبت نتائج التقييم المستمر أنه قادر على تجاوز صعوبات التّعلم الأساسية، ويتمكن من مواصلة مساره الدّراسي بصفة عادية. وبالتّالي بقاء التّلاميذ سنة كاملة يعتبر إجراء يتعارض مع أهداف وزارة التّربية الوطنية خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية.

خاتمــــة:

أشارت المناشير الوزارية المتعلّقة بالتّعليم المكيّف خلال فترة إصلاح المنظومة التّربوية، على أنّه " نوع من التّعليم العلاجي يوجه إليه التّلاميذ الذّين أظهروا عجزا شاملا في التّحصيل الدّراسي، وتأخروا سنتين عن زملائهم " هذا التّحديد لمفهوم التّعليم المكيّف جعلنا نتساءل: هل نترك التّلميذ يعاني من تأخر دراسي من غير علاج تربوي حتّى يتأخر عن دفعته بسنتين دراسيتين؟ وهل نترك التّلميذ من غير علاج تربوي حتّى يظهر عجزا شاملا في التّحصيل الدّراسي؟ وكيف يتمّ التّكفل بالتّلميذ الذي قد تعترضه صعوبات مدرسية في السّنوات الأخرى؟

من غير المعقول أن نترك التّلميذ متعثرا تربويا ليأخذ سنتين دراسيتين عن دفعته حتّى يعالج في قسم التّعليم المكيّف، حيث أكدت الدّراسات والبحوث التّربوية النّفسية أنّه

كلّما اكتشفت الصّعوبات مبكرا وعولجت مبكرا كلّما سهل إزالتها، ويتمكن التّلميذ من مواصلة دراسته مع زملائه في الصّف بصفة عادية، ويوحي مفهوم علاج التّلاميذ المتأخرين دراسيا بأن وجود تلاميذ يعانون صعوبة في التّعليم/ التّعلم ظاهرة عادية وعلى المدرسة بمنهاجها ونظمها أن تتكيّف مع حاجات المتعلّم ليحقق أقصى ما تؤهله له استعداداته، وهذا ما تحاول وزارة التربية الوطنية تجسيده في المدارس الابتدائية، لكن الواقع وللأسف أثبت عكس ذلك، حيث لاحظنا عدم الاهتمام بالتّلاميذ المتأخرين دراسيا في الكثير من المؤسسات التّربوية، وإن حاولت هذه المؤسسات التّكفل بهذه الفئة من التّلاميذ، فإن عملية التّنسيق بين أعضاء لجنة الاستكشاف لتشخيص واستكشاف التّلاميذ المتأخرين دراسيا تبدو مستحيلة.

أمام هذا الوضع نترك المجال للأساتذة والباحثين في ميدان علوم التّربية وعلم النّفس للإجابة عن السّؤال التّالي: كيف يتم التّكفل الأمثل بآلاف التّلاميذ المتأخرين دراسيا، ليس على مستوى ولاية البويرة فحسب، وإنّما على مستوى ولايات وطننا الجزائر؟

هوامش البحث

[1] - المنشــور الــوزاري رقم 24/م ت م/، المؤرخ في 1994، المتضمن تنظيـــم التّعليـــم المكيّــف، ص1.

[2] - موريس أنجرس ، منهجيــة البحــث العلمــي في العلوم الإنسانيـــة، ترجمة بوزيــد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر2004 ، ص 152.

[3] - عبيدات محمد وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعــــــــد والمراحل والتطبيقات، ط2، دار وائل للطباعة والنشر، الأردن 1999، ص 46.

[4] - خيري وناس وعبد الحميد بوصنوبرة ، تربية وعلم النّفس تشريع مدرسي، الدّيوان الوطني للتّعليم والتّكوين عن بعد، الجزائر2008، ص157.

[5] - عبيدات محمد وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعــــــــد والمراحل والتطبيقات، مرجع سابق، ص 44.

[6] - مسلم محمد ، منهجيــة البحــث العلمــي ، دليل طلاب العلــوم الاجتماعيـــة والانسانيـــة ، دار الغرب للنشر والتّوزيع،الجزائر2001، ص 4.

[7] - المنشـــور الــوزاري رقم433/ و ت و/ ا ع، المؤرخ في 2001 ، المتضمن الرّعاية التّربويـــة للتّلاميذ المتأخرين دراسيا، ص1.

[8] - السيد عبد الحميد سليمان، سيكولوجية اللغة والطفل، دار الفكر العربي، القاهرة 2003، ص92.

[9] - بدير كريمان، التّعلم الإيجابي وصعوبات التعلّم، ط1، عالم الكتب، القاهرة 2006، ص116.

[10] - الخطيب جمال، تعليم الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة في المدارس العادية، ط1، دار وائل للطباعة والنشر، الأردن 2004، ص96.

[11] - منصوري مصطفى، التأخر الدراسي وطرق علاجه، ط2،دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر2005، ص15.

[12] - وزارة التّربية الوطنية، وثيقة مرجعية للتعليم المكيّف، الجزائر1989 ، ص3.

[13] - سعد لعمش، الجامــع فـــي التّشريــع المدرســي الجزائــري، ج 2، دار الهـــــــــدى، الجزائر2010، ص 555.

[14] - القانــون رقــم: 08-04، المؤرخ في 2008، المتضمن القانون التوجيهي للتربية الوطنية، الجزائـــــــر2008، ص 63.

[15] - نفس المرجع، ص 49 .

[16] - المنشـور الــوزاري رقم 24/م ت م/، المؤرخ في 1994، المتضمن تنظيم التّعليـم المكيّــف، ص 2.
[17] - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وزارة التّربية الوطنية، وثيقة مرجعية للتّعليم المكيّف، المرجع السابق، 4.
[18] - المنشور الـوزاري رقم:202 /10/0.0.2، المؤرخ في 2010، المتضمن إعادة تنظيم التّعليم المكيّف، ص 2 .
[19] - المرجع السابق، ص 2.
[20] - المنشور الـوزاري رقم:202 /10/0.0.2، المؤرخ في 2010، المتضمن إعادة تنظيم التّعليم المكيّف، مرجع سابق، ص2.
[21] - المنشـــور الـــوزاري رقم433/ و ت و/ ا ع، المؤرخ في 2001، المتضمن الرّعاية التّربويـــة للتّلاميذ المتأخرين دراسيا، مرجع سابق، ص3.
[22] - المنشور الـوزاري رقم:202 /10/0.0.2، المؤرخ في 2010، إعادة تنظيم التّعليم المكيّف، مرجع سابق، 3.

- المراجـــع:

1- المنشـــور الـــوزاري رقم 24/م ت م/، المؤرخ في1994 ، المتضمن تنظيم التّعليــم المكيّــف.

2- المنشـــور الـــوزاري رقم433/ و ت و/ ا ع، المؤرخ في2001، المتضمن الرّعاية التّربويـــة للتّلاميذ المتأخرين دراسيا.

3- المنشور الــوزاري رقم:202 /10/0.0.2، المؤرخ في 2010، المتضمن إعادة تنظيم التّعليم المكيّف.

4- القانــون رقــم: 08-04، المؤرخ فـــي 2008، المتضمن القانون التوجيهي للتربية الوطنية.

5- الخطيب جمال، تعليم الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة في المدارس العادية، ط1، دار وائل للطباعة والنشر، الأردن2004

6- السيد عبد الحميد سليمان، سيكولوجية اللغة والطفل، دار الفكر العربي، القاهرة 2003.

8- بدير كريمان، التعلم الإيجابي وصعوبات التعلم، ط1، عالم الكتب، القاهرة 2006.

9- خيري وناس و بوصنوبرة عبد الحميد، تربية وعلم النّفس تشريع مدرسي، الدّيوان الوطني للتّعليم والتّكوين عن بعد، الجزائر2008.

10- عبيدات محمد وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعــــــــد والمراحل والتّطبيقـات، ط2، دار وائل للطباعة والنّشر، الأردن1999.

11- سعد لعمش، الجامع فــي التّشريع المدرسي الجزائــري، ج2، دار الهـــدى، الجزائر2010.

12- مسلم محمد، منهجيــة البحــث العلمــي، دليل طلاب العلــوم الاجتماعيـــة والانسانيـــة، دار الغرب للنشر والتّوزيع، الجزائر2001.

13- منصوري مصطفى، التأخر الدراسي وطرق علاجه، ط2، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر2005.

14- موريس أنجرس، منهجيــة البحــث العلمــي في العلوم الإنسانيـــة، ترجمة بوزيـد صحراوي وآخرون. دار القصبة للنشر، الجزائر2004.

15- وزارة التّربية الوطنية، وثيقة مرجعية للتعليم المكيّف،1989.